سليم حسن

موسوعة مصر القديمة

الجزء السابع عشر

موسوعة مصر القديمة (الجزء السابع عشر)

موسوعة مصر القديمة (الجزء السابع عشر)

الأدب المصري القديم: في القصة والحكم والأمثال والتأملات والرسائل الأدبية

تأليف
سليم حسن

هنـــداوي

موسوعة مصر القديمة (الجزء السابع عشر)

سليم حسن

الناشر مؤسسة هنداوي سي آي سي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٠١٧/١/٢٦

٣ هاي ستريت وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: سيلفيا فوزي.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٦٣٢ ٤

إهداء

إلى روح الرجل العظيم أحمد ماهر باشا ...

الذي كتب للوطن صفحة مجيدة بدمه الغالي، أهدي إليه صفحة أخرى كانت مطوية من تراث الوطن العلمي الذي ظلَّله زمنًا برعايته.

وإذا كانت رجالات مصر قد تسابقوا إلى تخليد ذكراه بما وعاه وطابهم من مال ونشب، فحسبي أن أساهم في هذا الواجب المقدَّس بتقديم ما وعاه رأسي من عصارة فكرية أرجو أن تكون ناضجة نافعة.

وإلى بني مصر المعتزين بها على غير إحاطة تامة بقديم مجدها،

وإلى مَن أتاحوا لي فرصة تأليف هذا الكتاب عن غير قصد منهم ولا رغبة ...

وإلى كل مَن يقدِّر العلم للعلم، ويخدم الوطن لوجه الوطن ...

إلى كل أولئك أهدي هذه الحلقة الثانية في بناء مجد مصر العلمي.

تمهيد

في عام ١٩٢٥ وجدت في يدي مؤلَّفًا نفيسًا فذًّا في بابه في الأدب المصري القديم، ألَّفه الأستاذ «إرمان» شيخ علماء اللغة المصرية القديمة، وكنت أقرأ الكتاب في لذة وشغف، وأعطيه مزيدًا من وقتي وعنايتي، فاقتنعت بأنه كتاب مفيد، منقطع القرين في بابه، ووثبت إلى ذهني إذ ذاك فكرةُ ترجمتِه حتى أشرك معي أبناء مصر في فهم أدبهم المصري القديم وتذوقه، بعد أن قُدِّر له النشور مرة أخرى.

ولقد أخذَتْ هذه الفكرة تخط مجراها في خاطري، وتتشبع بها روحي، حتى استقرت واحتلت مكانها؛ فاصطحبت معي هذا الكتاب سنة ١٩٣١، وسافرت إلى أوروبا، واخترت بلدة «لوجانو» الهادئة بـ «سويسرا» مكانًا أستعين فيه بسحر الطبيعة ومفاتنها على إتمام ما قصدت إليه، ولقد أتممت ترجمة معظم الكتاب حينئذٍ، ولكن كثرة الأعمال حالت دون طبعه وإظهاره، فبقي هادئًا في مضجعه، قانعًا بركن صغير من مكتبتي، حتى أتى عام ١٩٤٠، فأخذت أوقظه مرة أخرى، وأنشره مرة وأطويه مرة، فأوحى ذلك إليَّ بفكرة جديدة، فلم تَعُدْ ترجمة الكتاب وحدها ترضيني، ولا التعليق عليها يطفئ رغبتي، بعد أن مضى عليها ذلك الزمن الطويل، وبعد أن مرت أحداث وَجَدَّتْ كشوفٌ غيَّرت بعض الحقائق القديمة، بل قلبت بعضها رأسًا على عقب، وبعد أن ظهرت مؤلَّفات لعلماء الآثار ذلَّلوا فيها بعض عقبات اللغة المصرية القديمة، ووضحوا كثيرًا من معالمها؛ فعقدتُ النية على الكتابة في الأدب المصري القديم، ومعالجة موضوعه على ضوء الأُسُس العلمية الحديثة، وتتبع كل لون من ألوانه، وإظهار خصائصه ومميزاته في العصور القديمة التي حصرت بحثي في دائرتها، وزادني اقتناعًا أن كتاب الأستاذ «ماكس بيبر» الذي وضعه عام ١٩٢٧ في هذا الموضوع كان مقتضبًا بسيطًا تنقصه النماذج الكثيرة التي هي مادة تاريخ الأدب وروحه، وأن كتاب الأستاذ «إرمان» السابق الذكر لم يكن إلا مختارات معروضة

خالية من البحث والدرس والموازنة والنتيجة، هذا فضلًا عما ينقصه من البحوث الجديدة التي غيَّرت وجه الأدب المصري، وحتَّمت النظر إليه على ضوء جديد.

والباحث في الأدب المصري القديم يعاني من التعب وكد الذهن والحيرة ما لا يعانيه باحث في لغة من اللغات الحديثة في أي عصر من عصورها؛ فإنك إذا أردتَ أن تتحدث عن تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي — مثلًا — جمعتَ ما وعته الكتب والحافظة من نماذج الأدب المختلفة، وأحطْتَ بشئون العرب السياسية والاجتماعية والإقليمية في هذا العصر، ثم سلطتَ على هذه العناصر شعاعات فكرك فاستخلصت منها أصولًا وأحكامًا صادقة تسوقها للناس قاطعًا بها، أو على الأقل مقتنعًا تمام الاقتناع بصحتها، وعندك الشواهد والأمثلة التي لا شك في معانيها أو مراميها، تقدِّمها بين يدي بحثك فتعزِّز بها رأيك، وتخرج بالنتيجة التي وصلت إليها عن عقيدة واقتناع. أما إذا تحدثت عن الأدب المصري القديم وجدت نماذجَ ناقصةً أو مبتورة أو مشوَّهة، وكلماتٍ غامضةَ الدلالة، وأساليبَ تدل على معانٍ قد دُثِرت مع عادات للقوم لا تعرفها — مما جعلنا نضطر إلى الإكثار من الهوامش — وجملًا مرصوصة فقدت كثيرًا من الروابط والصلات، وحروفًا ساكنة لا نستطيع بها أن نميِّز مواقع الكلمات الإعرابية إلا من سياق الكلام، أو أخذًا بغالب الظن، ولا نستطيع بها كذلك أن ننطق بالأعلام نطقًا صحيحًا يطابق الوضع الأصلي لها، ولذلك اختلف العلماء في ضبطها، اللهم إلا ما وصلنا منها عن طريق الإغريق مثل «إزيس» و«نفتيس». كل هذه العوائق تتعب الباحث، ولكنه يستطيع بشيء من الصبر والأناة أن يصل إلى حقائق محترمة عن هذا الأدب قد تكون نواة صالحة إلى آراء مقطوع بصحتها فيه.

ومما يدل على وعورة الطريق أن كثيرًا من علماء الآثار النابهين قد اختلفوا اختلافًا بيِّنًا في تراجمهم لآثار القوم الأدبية، ولكن الشقة بينهم أخذت تقترب في السنين الأخيرة بعض الشيء.

ولقد اضطررنا في بعض الأحيان، عندما تصادفنا جمل متبلبلة مضطربة، أن نتركها بدون ترجمة، أو نترجمها ونشفع الترجمة بما يناسب من علامة استفهام أو تعجب، ولو أنَّا انتظرنا حتى تسعفنا الكشوف والبحوث العلمية بما يرفع الحجاب عمَّا غلق علينا فهمه، لطال انتظارنا ولجَّ في الطول؛ لأننا ما زلنا على ما وصلنا إليه في منتصف الطريق الموصلة إلى معرفة دقائق هذه اللغة.

ولقد دعانا واجب الأمانة العلمية أن نعرض النماذج الأدبية القديمة كما وجدناها على ما في كثير منها من تفكُّك وهلهلة وركاكة؛ لأننا نريد أن نعطي القارئ صورةً صادقةً لأدب القوم وعقليتهم، وليس من الأمانة في شيء أن تعرضها وقد أعملت قلمك فيها بالتبديل أو التحوير أو الحذف أو التنميق؛ وهذا نفس ما اتَّبَعه علماء الفرنجة عندما ترجموا المتون المصرية، وعندما ترجموا قبلها التوراة والإنجيل عن العبرية؛ اقتناعًا منهم ومنًّا بأن هذه الطريقة هي التي تمكِّن القارئ من أن يتذوق الأدب كما أنتجه أبناؤه، فيستطيع أن يقف على حاله، ويعقد الموازنة بينه وبين غيره، فيخرج بالنتيجة التي تظهر له بعد هذا العرض الصادق.

أما ما عدا النماذج المصرية التي سقناها شواهدَ وأمثالًا على حال الأدب المصري؛ فقد كتبت بأسلوب أدبي يتفق مع الغرض من الكتاب، فلا تعقيد يشوِّه جماله، ولا إسفاف يهبط به عن مستواه، تلاحظ ذلك في بحوث الكتاب المختلفة في ملخصات قصصه ومعالجة موضوعاته.

ولا يفوتني أن أنبِّه القارئ إلى أن هذه المحاولة الجريئة التي قصدت منها إظهار تاريخ الأدب المصري، وأُسُسه التي بُنِي عليها، ومناحيه التي تفرَّع إليها، بُنِيت على ما جاء في المتون المصرية التي حل طلاسمها زملائي من علماء الآثار؛ على أني قد تأثَّرت بصفة خاصة بطريقة الأستاذ «إرمان»، وإن كنت قد خالفته وخالفت تلميذه الأستاذ «ماكس بيبر» في الطريقة التي اتبعتها، فاخترت أن أتتبع بالبحث كل صورة من صور الحياة الأدبية من أول نشأتها، وأسير

معها في حبوتها ودروجها حتى أصل بها إلى نهايتها؛ واختارا تقسيم الأدب إلى عصور، ومعالجة جميع ألوانه في كل عصر.

فإذا كنتُ قد أصبت الهدف بما فعلت، فهذا ما أرجوه وأسعى إليه، وإنْ قصرت خطواتي عن الوصول إلى ما أريد، فقد أرشدْتُ إلى الطريق ليسير فيها مَن يريد، ويستعين بما غرسته في أرجائها من معالمَ تأخذ بيده، وتسير به إلى نهايتها.

ولقد قصرت بحثي على العصور المصرية البحتة التي لم يتأثر فيها الفكر أو اللغة بغيرهما من لغات الغزاة وأفكارهم، فلم أتعَدَّ في بحثي سنة ٥٢٥ق.م التي فتح فيها الفرس البلاد، فأخذَتِ الأفكار الأجنبية من وقتها تدبُّ في العقلية المصرية، وظهر ذلك التأثير واضحًا جليًّا في العصر الإغريقي الروماني الذي سادت فيه الوثائق الديموطيقية، وهي تكشف لنا عن عالم آخَر في الحياة المصرية، وسنفرد لها كتابًا خاصًّا إن شاء الله؛ لأنها تبتعد كثيرًا عن الطابع المصري المحض، كما أننا اكتفينا بالمرور سراعًا على بعض نواحي الأدب التي تحتل منزلة ثانوية بالنسبة لما تعرَّضنا له، كالأدب التاريخي مثلًا.

وإني أرجو مخلصًا أن يكون لهذا الكتاب ما قصدت إليه من إظهار العبقرية المصرية التي نهل من حياضها كلُّ العالمِ القديم؛ حتى يتأثَّرَ ناشئةُ البلاد خطواتِ أجدادهم، فيبنوا ما بنوا، ويعلوا البناءَ كما علوا به، أو يفرعوهم حتى يصلوا بالبناء إلى غايته، والله يرعاهم، ويسدد بالتوفيق خطاهم، لمجد مصر وسعادتها. كما أرجو أن يكون ظهوره بدءًا للتفكير الجدي في معالجة موضوع أدب مصر القومي في عهودها المختلفة، فيكون هذا الكتاب أولى الحلقات، وتتبعها رديفاتها — إن شاء الله.

وفي الختام أقدِّم خالص الشكر لحضرة الأستاذ «محمد النجار» المدرس بالمدرسة الإبراهيمية الثانوية، لما بذله من مجهود في مراجعة النسخة الخطية وقراءة التجارب أثناء الطبع، وكذلك

أشكر لرجال مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عنايتهم، مما سهَّلَ عليَّ إنجاز الكتاب في وقت وجيز، مع ما يراه القارئ من الإتقان.

سليم حسن

٢ سبتمبر سنة ١٩٤٥

مقدمة

لقد ظل كثيرون ممَّن لم يدرسوا العلوم المصرية القديمة لا يعرفون عن مصر إلا أنها بلد الموميات، «وأبو الهول»، والأهرام، و«توت عنخ آمون»، فعندما ظهر كتاب الأستاذ «ماكس بيبر»[1] عن الأدب المصري القديم دهشوا عندما قرءوا عنوانه، وسأله بعضهم بشيء من الدهشة: «أيوجد لمصر القديمة أدب قومي كذلك الأدب اليوناني واللاتيني والألماني؟!» وقد كان رده عليهم كتابه المختصر في الأدب المصري القديم.

ولا نستغرب من أجنبي عن مصر أن يسأل هذا السؤال، إذا علمنا أن السواد الأعظم من المصريين المتعلمين الذين تحدَّثْتُ إليهم في هذا الموضوع يجهلون أمره، ويعتقدون أن أقدم أدب في العالم هو الأدب الإغريقي، وعنه أخذت أمم العالم آدابها، وقبله كان تاريخ الأدب في الدنيا صفحة بيضاء، ولكننا نؤكِّد لهؤلاء المتعلمين وأشباههم أن لمصر أدبًا قوميًّا قديمًا، وأنه أقدم من الأدب الإغريقي. وإذا كانت كتابات «هومر» هي أول وأرقى ما عُرِف عن أدب الإغريق، ولا يُعلَم شيء عن الأدب الإغريقي قبل ذلك؛ فإن الأدب المصري معلوم تاريخه من يوم أن نشأ وحبا إلى أن درج ونما ووصل إلى نهايته، ويمكننا أن نعطي مثلًا منه في كل أطواره رغم ما نلاقيه من بعض الفجوات في صفحاته، وسنجد أنه أدب لا يقتصر على النقوش الدينية وتدوين الحقائق والمقالات العلمية، ولكنه يتعدَّى ذلك إلى مؤلفات لها قيمتها الأدبية تثبت أن المصري القديم كان يقدِّر الأدب ويتذوَّق حلاوته ويسحر ببيانه، في وقت كان الإغريق وغيرهم من الأمم القديمة يهيمون على وجوههم ويتخبطون في ظلام الجهل، من أجل ذلك فضلنا أن نأتي هنا بكلمة قصيرة عن منزلة الأدب المصري بين آداب الأمم التي عاصرته قبل أن يظهر الأدب الإغريقي في عالم الوجود؛ فنقول ملتمسين السداد من الله: «لا شك أن مصر أول بلد ربَّى في نفوس أبنائه روحًا أدبية خالصة للأدب، مجردة عن أي غرض آخَر؛ فقد وضع المصري المؤلَّفات الأدبية البحتة منذ ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد، لا يريد بها شهوة سياسية أو تأييدًا دينيًّا أو

نفعًا تجاريًّا، وإنما يريد الأدب لذاته، يريد غذاء الروح وإشباع النفس الصافية بسمو التعبير وعلو المعنى.»

وكانت قدم مصر السابقة في هذا المضمار، فلم يظهر الأدب العبري إلا وليدًا بعد اثني عشر قرنًا من ذلك التاريخ، والأدب البابلي كان يترنح، فلم يكن إنتاجه مظهرًا خالصًا للأدب، ولا قُصِد به خدمة الأدب حبًّا في الأدب، كما كان الشأن في مصر، فإن الأدب أريد به فيها ذلك الذي يُحدِث في نفس قارئه وسامعه لذةً فنيةً كالتي يحسها إذا استمع إلى شدو الشادي، أو إذا رأى الصورة الجميلة، وتحسَّس التمثال البديع.

والكلام في الأدب المصري يقتضي التعرُّض أولًا لأنواعه، وثانيًا لأساليبه؛ فمن الناحية الأولى نرى أن الأدب المصري من النوع الغنائي أو العاطفي، وأن النوع القصصي كان بارزًا فيه، ويلي ذلك الأدب العلمي والحِكَم والأمثال «التأملات»، وليس من شك في أن الأدب الغنائي والقصصي قد نبَتَا في التربة المصرية؛ لأن كلًّا منهما يضرب بأعراقه إلى ما قبل ظهور الكتابة، وهو العهد الذي يشبه العصر الجاهلي في اللغة العربية، ولا غرابة في أن ينمو الغناء والقصص بين قوم تخطوا طور الهمجية، وأصبح لهم مشاعر ووجدانات تحتاج إلى تغذية، وهي إن لم تُواتِهم من طريق القراءة والنظر، لا تبعد عليهم من طريق السمع والرواية، وكلنا يدرك تأثيرَ القصة الآن في العامة، وكيف أنها تجذب منهم القلوب والمسامع.

ولم تقصر بابل في هذه النواحي الأدبية؛ فقد ظهر فيها الأدب الغنائي والقصصي في الوقت الذي نبَتَا فيه في وادي النيل، وإذا كانت إحدى الأمتين المصرية والبابلية أسبق من أختها، وأقدم إنتاجًا؛ فإن ذلك لا يعني أن إحداهما قد أخذت عن الأخرى، أو تأثَّرت بأدبها، بل إن كلًّا منهما كانت مستقلة في إنتاجها، وكان لأدبها مظهر خاص خاضع للمؤثرات المختلفة في الأدب، ومنها: البيئة، والاستعداد الفطري، والدين، والحضارة.

والظاهر الذي تُحدِّثنا به الآثارُ أن «بابل» كانت أكثر خصبًا في إنتاج القصص والشعر القصصي من مصر؛ لأن الدين قد أظله، فنمت القصة في كنفه، وصارت لها أوزان ترجع إلى آماد بعيدة، هذا إذا لم تكن قد عملت عوادي الزمن على محو بعض القصص المصرية من عوالم الآثار، أو أبقتها دفينة في بطن الأرض ولم تسمح لها بعدُ بالظهور. وأعتقد أن أحد هذين الفرضين صحيح؛ لأن ما بقي لنا من الشعر القصصي يدلنا على أنه مظهر لأدب راسخ القدم، متشعب النواحي، خصب الخيال، كثير الأبطال، يذهب إلى أبعد مدى في تصوير الآلهة ومقدرتهم وخوارق فِعَالهم في كل أطوار التاريخ المصري؛ ولا أدل على ذلك من قصة مخاصمة «حور» و«ست» التي عُثِر عليها حديثًا — وقد أوردناها في هذا الكتاب — وأبطالها جميعًا من الآلهة، وقد كان المظنون أن الإغريق وحدهم هم الذين انفردوا بإشراك الآلهة في تمثيلياتهم حتى ظهرت هذه القصة؛ فغيَّرَتْ هذا الرأي.

ومهما بلغ المدى الذي فاقت به «بابل» مصر في القصة عامةً، فإن من المقطوع به أن الأسبقية لمصر في اختراع الأقصوصة، وصياغتها صياغة فنية ممتعة، وتحليلها تحليلًا نفسيًّا مناسبًا، وتمهيد الطريق للتحليل النفسي الرائع الذي تراه في الأدب اليوناني، وفي الآداب الحديثة في عصرنا عند مختلف الأمم الراقية، على مثل ما ذهب إليه «مارسل بروست» أو «هنري جيمس» أو «ه. ج. وِلز» مما مثَّلَ اتجاهًا جديدًا في الأدب، وأكسَبَ التأليف الروائي عمقًا في الفكرة، ونزعة فلسفية قوية لم تكن تخلو منها الروايات القديمة، ولكنها اشتدت جدًّا في الزمن الحديث.

هذا ما كان من أمر الأدب القصصي، أما الغنائي فقد كانت مصر و«بابل» فيه كغصنَيْ شجرة واحدة؛ فقد أخذت كلٌّ منهما من هذا الفن بنصيب كبير، وإن كان إنتاج «بابل» حتى الآن أكثر من إنتاج مصر — إن لم تكن الأرض تكتمنا ما في بطنها — على أن القوة والعذوبة كانت متمثلة ظاهرة في مصر على أختها في هذا اللون من الأدب.

ولقد كان الشعر الديني عند الأمتين حلوًا، ولا وجه للمفاضلة بين أحسن ما أنتجته «بابل» وبين ما عثرنا عليه في مصر في عهد الدولة الحديثة.

أما الأدب العبري فقد تخلَّفَ عن الأدب المصري في الظهور عشرة قرون، وقد وصل إلى درجة جعلته في مرتبة واحدة مع أحسن ما أخرجته مصر و«بابل»، ولم يستطع أن يتفوَّق عليهما، وقد استطاع الإغريق الذين أتوا بعد هذا العهد أن ينهضوا بالشعر الغنائي والعاطفي الذي وُضِعت أُسُسه في مصر، فَلَانَ لهم قيادُه، وابتكروا فيه مذاهبَ جديدةً — كما فعلوا في كل فروع الأدب الأخرى.

ننتقل بعد ذلك إلى الأدب التعليمي والتأملي، وتدل جميع الشواهد على أنه من وحي مصر، فالمصريون هم الذين ابتدعوه وهم الذين برَّزوا وقطعوا أشواطًا بعيدة فيه، وتخلَّف عن السباق معاصروهم، وكان هذا اللون من الأدب محبَّبًا إلى الذوق المصري، وقد بقي المصري عدة قرون مهتمًّا بالتأليف فيه، ساعيًا إلى تحسينه، باذلًا جهدًا يتفق ومهارة الكاتب واتساع أُفُقه الاجتماعي.

ويقيننا أن مؤلف «فتاح حتب» في الحكم والأمثال كان نواةً لظهور أمثال سليمان وحِكَمه؛ يؤيد ذلك ما اشتهر به المصريون وتحدَّث به العالم القديم عن براعتهم في الحكمة وضرب المثل، وقد فصلنا ذلك عندما وازَنَّا بين أمثال سليمان، وتعاليم «أمنموبي» في باب الحِكَم والأمثال، ووصلنا إلى أن الأولى قد أخذت عن الثانية قطعًا بأكملها.

والآن وقد انتهينا من الكلام على موضوع الأدب المصري، ننتقل إلى الناحية الأخرى منه، وهي أسلوبه، وقد كان الأسلوب الجميل موضع فخر الكاتب ومحل تقدير القارئ؛ جاء في بردية عن أمثال «فتاح حتب»: «إنها الأقوال التي صيغت في أسلوب جميل، والتي تحدَّثَ بها الوزير عندما كان يثقف بالمعرفة، ويعلِّم مبادئ الحديث الطريف.» وجاء في ورقة «نفررهو» —

وسنتحدث عنها فيما بعدُ — على لسان الملك «سنفرو» يخاطب حاشيته: «ائتوا لي بإنسان يروِّح عن نفسي بكلمات جميلة وأقوال مختارة، تجد في سماعها جلالتي تسلية وراحة.» وإذا قرأنا «قصة الفلاح الفصيح» التي كُتِبت قبل عام ٢٠٠٠ق.م وجدناها سلسلة من الأفكار السامية عن العدالة وحقوق الإنسان، صيغت في أسلوب قوي بليغ، بدا منه أن كاتبها أراد أن يُظهِر قدرته الفنية على جمال الصياغة وروعة الأسلوب. وهذه الظاهرة التي تجعل عذوبة الأسلوب هدفًا يرمي إليه الكاتبُ كانت بارزة واضحة في مصر، مطمورة منعدمة في «بابل» جارتها ومعاصرتها، فلا جَرَم أن كانت مصر أول أمة شُغِفت بالثقافة الأدبية، وعنها أَخَذَ العالم.

والأسلوب الذي يهدف إليه المصري هو الأسلوب العذب الذي لا تكلُّفَ فيه، والذي توجبه السليقة، فينساب إلى النفوس، وترتاح إليه الأسماع، ولا بد أن يكون مناسبًا للموضوع الذي يعالجه؛ فيقوى ويشتد في الجُلَّى وعظائم الأمور، ويلين ويرق في التعبير عن العواطف أو الترجمة عن مكنونات الفؤاد، ولكن هذا الأسلوب الجميل قد دخلت عليه الصنعة بمرور الأيام؛ فأفقدته روعته وعذوبته، وأصابه التكلُّف والزخرفة اللفظية، وأصبح الأديب يضحي بالمعنى السامي في سبيل تزويق الألفاظ، كما حدث للغة العربية في العصر العباسي الثاني.

ولقد بدأ هذا الفساد يدب في الأدب المصري منذ الدولة الوسطى، وتظهر بوادر ذلك في قصة «سنوهيت»، ولقد تعلَّق المصري بهذا الأسلوب، وأُشْرِبَ قلبُه حبَّه، حتى إن التلاميذ في الدولة الحديثة — وبخاصة عصر الأسرة التاسعة عشرة والعشرين — ملئوا كراساتهم نماذج منه؛ يستظهرونها ويأخذون أنفسهم بمحاكاتها، حتى يصلوا إلى مَلَكة تقدرهم على الإبانة عما في ضمائرهم بهذا النوع المزخرف المحبَّب إلى نفوسهم.

وفي ورقة «انستاسي الأولى» — وستجيء في باب الرسائل — نرى مثالًا لهذه الطريقة الأدبية التي سادت عهد الدولة الحديثة في صورة خطاب هجائي، يعيب فيه كاتبه زميلًا له جهله

فن كتابة الرسائل، وضعفه في الحساب حتى لا يستطيع أن يقدِّر وزن مسَلَّة، وعدم درايته بمعرفة أحسن الطرق للسياحة في سوريا، ولعل السر في شيوع هذه الورقة أنها تحتوي على فكاهات أو نكت لا نستسيغها؛ لاختلاف الذوق بين عصرنا وعصرها، أو لأن فيها منهاجًا لما يجب أن يكون عليه الرجل المثقف في هذا العصر، وهي في جملتها تدل على نوع من الصلف في الكتابة. فالأسلوب المصري كالفن المصري قد وصل إلى قمته قبل حلول الدولة الحديثة، ولا يمنع هذا من أن تلمع فيه من وقت لآخَر قطعٌ فنية نذوق فيها حلاوة الأسلوب الفطري وقوته ولكنها قليلة، كما أن الشعر العاطفي لم يودع قوته وتأثيره في عهد الدولة الحديثة، بل بقي جميلًا رائعًا بل ربما غطى جماله فيها على ما سبقه، وربما كان السبب في ذلك موجة الرخاء والترف التي غمرت المصريين عقب حكم الأسرة الثامنة عشرة، وفي عهد الأسرة التاسعة عشرة والعشرين، فأطلقت ألسنتهم بالأغاني العذبة والأناشيد المرحة السعيدة، مترجمين بها عمَّا يذوقونه من حلاوة الدنيا ولذة الحياة، هذا إذا لم تكن الأرض قد خبَّأت في ثناياها بعض الشعر العاطفي من إنتاج الدولة الوسطى، أو ما يجعلنا نعتقد بأن ما نُسِب إلى الدولة الحديثة ليس كله من صياغتها.

(١) الأدب المصري والآداب الحديثة

قال «أندري مروا» الكاتب الفرنسي العظيم في كتابه Aspects de la Biographie P. 177:

> إن الأدب لا يُقاس بالنمو والتقدم، فلا يمكننا القول: إن تنسون الشاعر الإنجليزي أعظم من «هومر» الشاعر اليوناني القديم، أو إن «بروست» أعظم من «منتاني»؛ لأن الأدب ينساب في نغمة إيقاعية ولا يسير في خط متصل، فلكل من الأدباء وقته وظروفه.

وقيمة الأدب القديم في أنه يرينا اللبنة الأولى في بناء الأدب، والجهودَ التي بذلها الأدباء القدماء في خدمته حتى وصل إلى مظهره الحديث، فلا وجه إذن للمقارنة بين الآداب القديمة — بما فيها المصري والبابلي — وبين الآداب الحديثة؛ إذ إن الثانية نتيجة نمو الأولى وتطورها، وبين الأدبين في جملتهما فروق من جهات ثلاث:

الأولى: أن الأدب المصري لم ينتج لنا أدبًا نفسيًّا عميقًا كالأدب الحديث.

الثانية: أن الأدب المصري قدرته محدودة في تصوير الجو الذي يناسب القصة.

الثالثة: قوة التأثير والأسر.

فأما عن الناحية الأولى، فترى أن المصري لم يهمل التحليل النفسي جملة، بل أخذ منه بطرف كما نرى في قصة «سنوهيت» التي حلَّلت لنا ناحية من نفسيته حين نفي عن بلاده واشتاق إلى وطنه، ولكن ذلك يُعتبَر يسيرًا إذا قرَنَّاه بالتحليل العميق الذي يلجأ إليه فحول علم النفس الآن في قصصهم الرائعة، مثل قصة Daisy Miller التي كتبها «هنري جيمس»، أو قصة الاتصال السامي Die Wahlverwandlachaften التي كتبها «جيته» الألماني الفذ في أدبه، ومع ذلك فإن التحليل النفسي الذي نقرؤه في قصة «سنوهيت» المذكورة خير مما نجده في قصص الجن والعفاريت الشائعة في آداب العالم عامة. ولا يضير الأديب المصري أن تحليله خلا من العمق والروعة، فيكفيه فخرًا أنه وضع الأساس وجاء غيره فشيَّد على قواعده، ثم جاء التطور الحديث فأعلى البناء وزخرفه.

وأما الناحية الثانية، ناحية الجو الذي يخلقه الأديب لقصته أو لموضوعه فينتقل بالقارئ إلى العالم الذي يريده؛ فهذه أيضًا للمصري فيها نصيب المؤسِّس الأول، فإن أول مأساة — دراما — وُضِعت على صورة تمثيلية، كانت من فعل الأدباء المصريين، وترجع بتاريخها إلى عهد

الأسرة الأولى، انظر Sethe, Dramatische Texte zu Altaegyptischen Mysterien spielen.

وهذه المأساة تشبه رواية تمثيل آلام المسيح وموته كما كانت تمثل في القرون الوسطى، ولم تصل المآسي التي ابتكرها المصريون في قوتها ما وصلته عند الإغريق وفي عصرنا الحاضر، ولا تقتصر الحاجة إلى الجو المناسب عند تأليف القصة أو الشعر القصصي، بل قد تحتاج إليه أيضًا في الشعر الغنائي كما نجده في كتابات «هومر» اليوناني — الإلياذة — وفي كتابات «فرجيل» — الإنياد — وقد وجدنا أثرًا لتصوير الجو الأدبي في الكتابات البابلية — جلجاش — ولكنه قليل، وليست المأساة المصرية السابقة هي كل ما وصلنا عن هذا النوع، فإننا نجد ذلك «الجو الأدبي» مصوَّرًا في قصة «سنوهيت»، وفي قصة «ونامون»؛ إذ إن قارئ هاتين القصتين لا يلبث أن ينتقل مع بطليهما إلى سوريا ويرى بعينهما ويحكم برأيهما، وقد تكون وسيلة المؤلف ساذجة، ولكنها على كل حال تُحدِث الأثر المطلوب، وتمتاز عن القصص الأخرى التي فقدت هذه الميزة والتي يقصها مؤلِّفها ببساطة مثل قصة «الأخوين»، وقصة الملك «خوفو والسحرة»، وغيرهما من القصص.[٢] وإذا كانت هذه القصص الأخيرة بمثابة قطع من الحلوى يستحلبها الأطفال في أفواههم، فإن قصتي «سنوهيت» و«نامون» غذاء عظيم للرجال الرشداء، ولا جدال في أنهما أقدم قصتين قصيرتين جيدتين في العالم كانتا ذخيرة للأدب العالمي، وإن لم تصلا في موضوعهما إلى نظائرهما في العصر الحديث.

بقيت الناحية الثالثة، وهي قوة التأثير وشدة الأسر، وهذه ترجع إلى عاملين: الألفاظ، والصوت. فإن اجتمع اللفظ العذب الرشيق مع الصوت المناسب أخذ بمجامع القلوب، وجذب الأنظار والأفكار، أما الألفاظ الجميلة فاللغة المصرية غنية بها، ونراها في موضوع «شجار بين إنسان سئم الحياة وروحه»، وفي خطب «الفلاح الفصيح» التي استهوت الملك نفسه، وأما سحر اللفظ ووقعه في النفس فقد حرمناه؛ لأن اللغة المصرية تنقصها الحياة والحركة.

وجملة القول أن مصر كان لها أدب قومي منذ ٢٠٠٠ق.م وأن هذا الأدب هو وليد حيويتها، ولم تأخذه عن غيرها، أو تتأثر فيه بغيرها، وهو وإن لم يبلغ مرتبة الأدب الحديث إلا أن له فضلَ الخلق والسبق والتأصيل.

وإذا كان الأدب المصري قد أخذ يتدهور في العصور المتأخرة، فإنه ترك الزمام للأمة اليونانية حتى تخلق بتفكيرها في أجواء عالية منه على سنَّة التدرُّج طبعًا؛ فإنه ليس في مقدور الأدب الإغريقي ولا الفن الإغريقي أن يولدا كاملي النمو كما ولدت «فينوس» (الزهراء) ناضجةً كاملة النمو من أمواج البحر، فالأدب المصري غذَّى الأدب العبري والأدب الإغريقي، فشبَّا ولَعِبَا دوريهما في الحياة، ونشك بحق في مقدرة الأدب اليوناني والأدب العبري على بلوغ المرتبة التي وصل إليها كلٌّ منهما، إذا لم يتخذا من الأدب المصري عونًا على النمو والارتقاء بطريقة لا نزال نجهلها.

---

[١] Max Pieper, Die Ägyptische Literatur.

[٢] هذا الجو نجده كثيرًا مصوَّرًا في الشعر الجاهلي، حينما يصف الشاعرُ الديارَ ويبكي الأطلال والدمن (راجع المعلقات).

لمحة عن التاريخ المصري القديم

قبل أن نتحدث عن أدب عصر الفراعنة، وندرس نواحيه وأهدافه، يجمل بنا أن نمر سراعًا على التاريخ المصري القديم؛ لنقف على العوامل التاريخية التي أثَّرت في هذا الأدب فدفعت به إلى الأمام أو أرجعته معها إلى الوراء.

وسنسير مع التاريخ المصري من بدايته حتى عصر الفتح الفارسي، وسنتتبع ما اعتاده المؤرخون من تقسيمه إلى أسرات ودول متأثِّرين مذهبَ المؤرخ المصري «مانيتون»، آخذين أنفسنا باتِّبَاع أقرب الاحتمالات إلى الصحة حسبما توحيه إلينا دراستنا وتجاربنا، فإن تقدير العلماء لأعمار هذه الأسرات وتلك الدول وتحديد تاريخ لبدايتها ونهايتها، إنما قام على وجه تقريبي؛ لأن المعلومات التي وصلت إليهم عن هذه العهود لا تزال ناقصة مبتورة، ولم تصل بعدُ إلى حد الحقائق الثابتة التي يطمئن إليها المؤرخ، ويستخلص منها تاريخًا سليمًا يرتاح إليه؛ ولذلك اختلفوا اختلافًا كبيرًا في هذه النواحي، وأملنا أن نكون أقرب إلى السداد في كل ما نقول، وسيكون رائدنا في ذلك أحدث الآراء العلمية والكشوف الأثرية.

(١) الدولة القديمة

الأسرتان الأوليان (٣٢٠٠–٣٠٠٠ق.م)

لم تخلف لنا هاتان الأسرتان آثارًا أدبية قيِّمة غير وثيقة في اللاهوت المصري والفلسفة الدينية، عُثِر عليها في عهد الملك «شباكا» من الأسرة الخامسة والعشرين؛ أي في القرن الثامن ق.م وهو الذي أَمَرَ بنسخها تخليدًا لها، وينسبها المؤرخون إلى عصر الأسرة الأولى، أو كما يسميه بعض المؤرخين عصر اتحاد البلاد الأول.

الأسرة الثالثة (٣٠٠٠–٢٩٠٠ق.م)

لقد بقي تاريخ هذه الأسرة غامضًا زمنًا كبيرًا، ولم تصل إلينا منه إلا نتف يسيرة لا تروي غلة، إلى أن كشفت لنا أعمال الحفر في السنين الأخيرة عن صفحة مجيدة في عالم الفن والنحت والعمارة، وعن تفكير محترم في العقائد الدينية؛ وبخاصة في عهد الملك «زوسر» أعظم ملوك هذه الأسرة، وباني الهرم المدرج.

الأسرة الرابعة (٢٩٠٠–٢٧٥٠ق.م)

يعتبر عصرها عصر البنايات الضخمة، وأكبر مظهر لها الأهرام العظيمة، وإذا كان ملوك هذه الأسرة لم يتركوا لنا كتابةً داخل أهرامهم؛ فإنَّا نعتقد أن ذلك كان استغناءً بما سطَّروه على معابدهم، وإن كان الزمن قد عفاه، والنقوش التي وجدت بقاياها حديثًا في آثار معبد خوفو الجنازي الملاصق لهرمه تؤيد ما ذهبنا إليه.[١] وأهم ملوكها: «خوفو» و«زدفرع» و«خفرع» و«منكاورع»، ولقد عرفنا كثيرًا عن حياة هذه الأسرة وتاريخها وحالتها الاجتماعية والدينية من النقوش التي سُجِّلت على مقابر عظمائها وكبار رجالها الذين دُفِنوا حول الأهرام، غير أن البحث لم يَجُدْ علينا بكتابة أدبية خالصة نقيس بها مجهودهم الأدبي.

الأسرة الخامسة (٢٧٥٠–٢٦٢٥ق.م)

لقد كان عهد هذه الأسرة عهدًا ذهبيًّا للفن والأدب والفلسفة الدينية؛ فلقد أرتنا أهم وثيقة دينية ظهرت في التاريخ، بدت تلك الوثيقة منقوشة على جدران هرم الملك «وناس»، فاتخذها رجال الدين منارة يهتدون بما فيها طوال مراحل التاريخ المصري، وأخذ عظماء القوم كذلك يكتبون صحائف حياتهم، وصلواتهم الدينية، ومعاملاتهم اليومية، على جدران مقابرهم، مما سهَّلَ علينا حلَّ ما اعتاص من نقوشهم وخفي من رموزهم. وقد برزت الناحية الأدبية لأول مرة في صورة كتابات عن الأخلاق والسير القويم والمواعظ الحسنة إذا صحَّ أن «فتاح حتب» قد دوَّن نصائحه في عهد هذه الأسرة، كما هو الراجح.

الأسرة السادسة (٢٦٢٥ق.م وما تلاها)

ترسم ملوك هذه الأسرة وعظماؤها في كتاباتهم ونقوشهم ومبانيهم خطى ملوك الأسرة الخامسة وعظمائها، بل ظهرت لهم كتب جديدة في النصائح، وتوسَّعوا في الفتح، فوصلوا الشلال الثاني، وامتدت مغازيهم حتى لبنان، ولكن الوهن كان يعمل بعزم في جسم الدولة، وكانت سلطة حكام الأقاليم تزداد في كل يوم طغيانًا، إلى أن استقلوا بمقاطعاتهم، وتمزَّقت أوصال الدولة، وفقدت وحدتها السياسية، وسارت في مزالق الفوضى والاضطراب، حتى اعتبر عصر الأسرتين السابعة والثامنة من أكثر عهود التاريخ المصري ظلمةً وخفاءً وفسادًا.

(٢) العصر الإهناسي

الأسرتان التاسعة والعاشرة (٢٤٤٥–٢١٦٠ق.م)

وقد ظلت البلاد مفكَّكَة إلى أن أسَّس «خيتي» في «هيراكليوبوليس» — إهناس المدينة الحالية — مملكة مصرية، وقد أخذت البلاد في عهده وعهد مَن خلفوه تنتعش من غشيتها، وتحس حرارة الحياة مرة أخرى، ولكن عقارب الخلاف كانت لا تزال تدب في جسمها، حتى وهبها الله ملوك الأسرة الحادية عشرة فشفوا أدواءها، وأعادوا إليها شيئًا من وحدتها بعد حروب داخلية طاحنة، واتخذوا مدينة «طيبة» عاصمة لملكهم.

وقد يبدو غريبًا أن يظهر نوع من الأدب الراقي في هذا العصر، مع ما فيه من تقاطع وتدابر وانحلال وحروب قاسية، ولكن إذا علمنا أن الأدب الصافي ما كان وليد العاطفة المتأججة، وأن الرجات السياسية والهزات العنيفة مما يثير النفوس ويطلق اللسان، أدركنا كيف قوي الأدب ونبتت فيه أنواع جديدة وسط هذا الجو الصاخب المضطرم، وأن الانفعالات النفسية التي يبعثها البؤس والشقاء أعمق أثرًا من تلك التي يبعثها الصفاء والرخاء؛ لذلك رأينا في هذا العصر أوصافًا مؤثرة لما يحتدم في النفوس ويعتلج في الصدور من سوء الحال، وشكوى الزمان،

وتأملات فيما صارت إليه الأمور؛ وكأن الذين كتبوها كانوا يريدون بها إصلاح حال البلاد الاجتماعي في ظل حكومة عادلة مما سنفصِّله بعدُ.

(٣) الدولة الوسطى

الأسرة الثانية عشرة (١٩٩٥–١٧٩٠ق.م)

رأس هذه الأسرة ومؤسِّسها «أمينمحات الأول» (١٩٩٥–١٩٦٥ق.م) ولقد حكم البلاد بيدٍ من حديد، وقضى على أذيال الفوضى التي بقيت تعبث في أنحائها، وسار ابنه «سنوسرت الأول» (١٩٧٥–١٩٣٤ق.م) على غراره، ولقد عمل هو والملك «سنوسرت الثالث» (١٨٨٢–١٨٤٥ق.م) على مد رقعة البلاد، واتساع سلطانها على البلاد المجاورة، كما يعزى إلى أمينمحات الثالث من ملوك هذه الأسرة تحويل الفيوم إلى أرض زراعية منتجة، وتناول مرافق أخرى عظيمة بالإصلاح والتعمير.

ويعتبر عصر هذه الأسرة العهد الذهبي للأدب «العهد الكلاسيكي»؛ إذ ظهرت كتابة فنية خالصة عني فيها بالناحية الفنية لذاتها، تنتظم موضوعات منوَّعَة قيمة من القصص والتأملات والأناشيد الدينية والدنيوية، وكذلك أخذ الفراعنة يمدون فتوحاتهم شمالًا وجنوبًا؛ مما جعل مصر يومئذٍ تحتل مكانةً ثقافيةً وسياسيةً ساميةً، فبدأت تنشئ علاقات وثيقة، وتختلط بجيرانها من ناحية آسيا والسودان.

(٤) عهد الهكسوس (١٧٩٠–١٥٨٠ق.م)

أخذت البلاد تهوي منذ بدأت الأسرة الثالثة عشرة حكمها؛ فهيض جناحها، وغزاها قوم متوحشون يسمون الهكسوس «الرعاة» فتملكوا أمرها وحكموها عهدًا طويلًا واتخذوا حاضرتهم في «أواريس» — صا الحجر الآن — ولقد ثار عليهم أمراء طيبة وخرجوا عن طاعتهم

واستقلوا بأرضهم ومرافقهم، وأخيرًا تمكَّنَ الملك «كاموز» ومن بعده «أحمس» (١٥٨٠ق.م) من طرد الهكسوس من البلاد، وبناء دولة جديدة فتية.

(٥) الدولة الحديثة

تطالعنا هذه الدولة بصفحات جديدة من الأدب المصري فيها الغناء الرائع، والغزل الطريف في تضاعيف قصائد بديعة الخيال، وربما ظهر الغزل قبل ذلك في عهد الدولة الوسطى، ولكننا لم نعثر على شيء منه، ولقد أخذ اختلاط المصريين بجيرانهم يقوى ويشتد بحكم سلطانهم وسيادتهم، فأخذ لعاب الألفاظ الأجنبية ينساب إلى مجرى اللغة المصرية، ويسير معها بشكل واضح؛ نتيجة لتلك الفتوح العظيمة التي قام بها ملوك هذه الدولة، ومن ثَمَّ ظهر تأثير الآداب المصرية والحضارة المصرية في الشعوب التي غلبها المصريون على أمرها، مما يخلع على هذا العصر مجدًا عظيمًا في الثقافة والسياسة، وقد اتَّخَذَ ملوكُه «طيبةَ» عاصمةً لهم؛ فأصبح بذلك إلهها الموضعي «آمون» كبير الآلهة المصرية.

الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠–١٣٥٠ق.م)

وقد اتسعت رقعة المملكة في عهد تحتمس الأول (١٥٥٥–١٥٠١ق.م) وحفيده «تحتمس الثالث» (١٤٧٨–١٤٤٧ق.م)، حتى صارت متسعة الجوانب، مترامية الأطراف، تمتد من الشلال الرابع إلى أعالي نهر دجلة والفرات، وقد حكم «أمنحوتب الثالث» (١٤١٥–١٣٨٠ق.م) مدة طويلة موفَّقة، غير أنه قد ظهرت في خلال حكمه بوادر تلك الثورة التي اندلع لهيبها في عهد ابنه «أمنحوتب الرابع» (اخناتون) من سنة ١٣٨٠ق.م.

كان «لاخناتون» فلسفة خاصة بالعقيدة، وقد هداه تفكيره إلى أن الوحدانية صفة لازمة للإله، فأراد إحداث إصلاح ديني يهدف إلى هذه الغاية، أساسه أن يفرد المصريون قرص الشمس بالعبادة — أو بعبارة أخرى أن يعبدوا القوة الكامنة في قرص الشمس وحدها — وألَّا يتخذوا

إلهًا لهم غيرها، واتخذ سبيله للقضاء على كل الآلهة الأخرى المبثوثة في البلاد، وحطم أصنامها، ولما وجد تيار المقاومة شديدًا على دينه الجديد هاجَرَ به من «طيبة» موئل المقاومة والنفار، إلى مدينة جديدة أسَّسَها تُسمَّى «اخناتون» — مكان تل بني عمران الحالي بالقرب من مَلَّوِي — وفيها نما دينه وازدهر ودخل فيه الناس أفواجًا؛ طوعًا لأخناتون لا حبًّا في دينه الجديد.

ولقد تطوَّرَ الفن في عهده كما تطوَّرَ الأدب، فدبَّتِ الحياة في الأول وصار أقرب إلى محاكاة الطبيعة بعد أن كان يسير على سَنَن واحد جامد موروث، وكذلك غلبت اللغة العامية وصارت لها الصدارة على أختها الكلاسيكية القديمة الصحيحة.

وبالجملة فإن الكشف الحديث «توت غنخ آمون» رغم أهميته، لم يرسل ضوءًا كافيًا على حال البلاد في أواخر حكم هذا الملك الزائغ عن دين أجداده.

ولكن الناس أعداء ما جهلوا، أسرى ما ألفوا، فلم يلبثوا أن حنُّوا إلى دينهم الذي وجدوا عليه آباءهم، فرجعوا إلى عبادة الآلهة المختلفة وعلى رأسها «آمون».

الأسرة التاسعة عشرة (١٣٥٠–١٢٠٠ق.م)

في عهدها أصبحت الدلتا مركز الجاذبية للدولة المصرية، وبقيت «لطيبة» مسحة القداسة والطهارة، تقبع فيها المعابد الضخمة المزينة، كمعبد «الكرنك» و«الأقصر» و«الدير البحري»، وابتدأ الكاتب يشعر بمركز ممتاز، ويدل بمكانته على أصحاب المهن الأخرى، ولقد ظهرت له بحوث ممتعة في الأدب والعلم والتعليم.

هذا وقد حارَبَ «سيتي الأول» (١٣٢٠–١٣٠٠ق.م) بدو فلسطين، وقام من بعده ابنه «رعمسيس الثاني» (١٣٠٠–١٢٩٤ق.م)، وشن الغارة على دولة «الحيثا» — الحيثيين —

في آسيا الصغرى، وهدفه الاستيلاء على فلسطين وغيرها، وقد خلَّدَ انتصاراته في قصيدة نقشها على جدران المعابد، واشتهرت خطأً باسم «بنتاور»، وأسَّس حاضرة جديدة لملكه تُسمَّى بيت رعمسيس — صا الحجر — وبعده أخذ نجم الدولة الصاعد يتضاءل وقوتها تنحط. وفي عهد ابنه «مرنبتاح» قامت الحرب بينه وبين اللوبيين كما نشبت بينه وبين كثير من الأمم والقبائل — ومنها قبيلة إسرائيل — معارك كثيرة، وقد سجَّل أمرها وما ظفر به من انتصارات فيها على لوحة لا تزال محفوظة بالمتحف المصري، وقد جاء فيها عن وقعة إسرائيل: «وقد خربت إسرائيل ولم يَبْقَ وجود لبذرتها.» ومن هنا نشأ الخطأ الشائع القائل بأن «مرنبتاح» هو فرعون موسى، وبعد موته غشيت البلاد سحائب مظلمة من الفوضى والاضطراب.

الأسرة العشرون (١٢٠٠–١٠٩٠ق.م)

يعتبر «رعمسيس الثالث» رأس هذه الأسرة (١٢٠٠–١١٦٩ق.م) وقد سجل لها مجدًا حربيًّا في البر والبحر، وقد اتخذ خلفاؤه من بعده اسم «رعمسيس»، ولكن لم يكن لهم فعل «رعمسيس»، فتهاونوا فيما خلَّفه لهم من المجد، ولم يحافظوا على التراث الذي تركه لهم؛ فانزلقت البلاد إلى مهاوي الضعف، وانهارت انهيارًا تامًّا.

وقد وجدنا في قبر «رعمسيس الثالث» أكبر وثيقة جميلة كُتِبت على البردي، وقد ذكر فيها ما كانت عليه البلاد من الفوضى قبل أن يتبوَّأ عرشها، وما بذله من إصلاحات في مختلف نواحيها، وتناولت موضوعاتٍ كثيرةً، أخصها المعابد وما لها من جليل الشأن، وقد كُتِبت في عهد ابنه ووُضِعت في قبره لتكون أنيسه في وحدته، وشفيعه عند الله، كما وجدنا صحائف أدبية مختلفة من آثار هذه الأسرة، والأسرة التي سبقتها.

الأسرة الحادية والعشرون (١٠٩٠–٩٤٥ق.م)

أخذت سلطة الكهنة تعلو وتطغى في عهد الرعامسة حتى أطفئوا سراج هذه الأسرة، وقام رئيس كهنة آمون المسمَّى «حرحور» وأسَّسَ أسرة جديدة في «طيبة»، وقام في نفس الوقت أمراء آخَرون وأسَّسوا ملكًا لهم في مدن أخرى مثل «سمندس» الذي أقام مملكته في «تانس».

الأسرة الثانية والعشرون (٩٤٥–٧٤٥ق.م)

قام أحد الأمراء اللوبيين الذين طالت مدة إقامتهم في البلاد، واسمه «شيشنق» وتوَّجَ نفسه ملكًا على البلاد حوالي ٩٤٥ق.م، وكذلك حكمت أسرته عدة إمارات مختلفة في مصر.

وتلا هذا العهدَ الفتحُ الإثيوبي لمصر سنة ٧١٢ق.م وجاء بعده الفتح الآشوري عام ٦٧٠ق.م، وقد شعر المصريون بمرارة الاستعباد، وحز في نفوسهم أن يساموا الخسف والهوان، فهبوا يدافعون عن كيانهم، ويذودون الأعداء عن بلادهم، وكان «ابسماتيك الأول» (٦٦٣–٥٢٥ق.م) فارس هذا الميدان، فخلص البلاد من نير الذل والعار، وأضفى عليها نِعَم الاستقلال، وأشعرها بمجدها المؤثل؛ فهبت نسمات إصلاحية عمت البلاد طولًا وعرضًا لإحياء العلوم والفنون القديمة، كتلك التي تجاوبت في أوروبا في عصر النهضة الأوروبية الحديثة، ولكن هذه النهضة المصرية لم تثبت على قوائمها، وكانت كشهاب أضاء حينًا ثم احترق، فأخذت البلاد تهبط وتتحلل من جديد، فكان ذلك إيذانًا بفتح الفُرْس لها عام ٥٢٥ق.م.

وقد تمتعت البلاد بفترات استقلال متفرقة، كانت كالذكريات الحلوة تمر سريعة في خاطر الوالهة الثكلى، وكان آخِر عهدها بنعيم الحرية إلى يومنا هذا (سنة ٣٤١ق.م) عندما هرب «نقطانب» من عاصمة ملكة «سمنود» إلى بلاد النوبة أمام الفرس الغزاة المظفرين، ولم ينعم هؤلاء بحكم البلاد طويلًا؛ إذ فاجأهم «الإسكندر الأكبر» وطردهم من مصر واستولى عليها عام ٣٣٢ق.م.

نظرة عامة في الأدب والكتابة المصرية

(١) تطور الأدب

اتصل الأوروبيون بالمصريين في عهود ضعفهم بعد أن ضرستهم الحروب، وبعد أن خرجوا يلهثون من حياة كفاح طويلة مع أجانب غاصبين، وقد ضرب المصريون الأقدمون نطاقًا حول عاداتهم وموروث معتقداتهم لا يجتازونه ولا يسمحون لأحد أن يزحزحه، وكأنهم ظنوا بذلك أنهم سيحتفظون دائمًا بمكانتهم التي كانت لهم عند العالم. وليس معنى ذلك أنهم كانوا جامدين، يسير العالم ولا يسيرون، بل إنهم مع تحفُّظهم كانوا سبَّاقين متيقظين في وقت ظَلَّ كثير من الأمم فيه يغطُّ في نوم عميق، وكانت روح المغامرة تحفزهم، والإقدام يملأ رءوسهم، وتلك سياحاتهم وحروبهم وآثارهم الفنية الخالدة تشهد بتوثُّبهم، بل إن أعمال التصوير والنحت عندهم تنطق بأن الحياة لديهم كانت دائمة فرحة ناطقة جريئة، كما كانت عند الإغريق الذين أتوا بعدهم بآلاف السنين.

ولم يعجب اليونانيين ما كان عليه المصريون من تحفُّظ موروث، فنظروا إلى عاداتهم نظرةَ رهبةٍ واحتقارٍ؛ لأنها لا تتفق مع دنيا الحضارة عندهم، ووضعوهم كما وضعهم الأوروبيون جميعًا مع الصينيين الأقدمين في كفة واحدة، والواقع يخالِف ما ذهبوا إليه كما قدَّمنا؛ لأنهم نظروا إلى الحياة نظرة واسعة جريئة دعاهم إليها ذكاؤهم وتوقُّد عزيمتهم، فوجدنا عندهم حياةً عقلية محترمة، وفلسفةً دينية عميقة، وافتتانًا في الأغاني والقصص، وعنايةً بالكتابة والأدب.

وحُكْمنا على الأدب المصري لا يصل طبعًا إلى حد الجزم؛ لأن مظانَّه أوراق البردي، وبقاؤها سليمة كاملة ثلاثة آلاف من السنين أو أربعة نادرٌ أو مستحيل، فكل ما وصلنا منها جذاذات من مجاميع عظيمة، ولقد أمكننا بشيء من الدرس والموازنة أن نصل إلى حكم نعتقد أنه صحيح في

جملته؛ لأننا وجدنا الخواص التي يمتاز بها كل عصر أدبي وصلنا إليه تتفق وما نعرفه عن العصر التاريخي الذي سايره وظهر فيه.

والذي نستطيع أن نقطع به أن المصريين كانوا مهتمين بتنمية لغتهم وصقلها؛ لأنها غنية بالاستعارات والتشبيهات، فهي من هذه الناحية لغة مترفة مثقَّفة.

(٢) عصور الأدب المصري القديم

يمكننا أن نقسم تاريخ الأدب عند المصريين القدماء إلى عصرين كبيرين: قديم، وحديث.

العصر القديم

إن الظاهرة التي امتاز بها هذا العصر الأدبي شيوع المحسِّنات اللفظية؛ فقد عني الكتَّاب بزخرفة الألفاظ وتنميقها على نحو يقرب مما ساد اللغة العربية في العصر العباسي الثاني، حينما انتشرت طريقة «ابن العميد» و«القاضي الفاضل»، غير أن كتَّاب الفراعنة كانوا يعنون بناحية المعنى عنايتهم بترصيع الألفاظ، فكتبوا بهذه الأساليب المزخرفة بحوثًا قيمة عميقة.

وليس من شك في أن كثيرًا من أدب هذا العصر قد ضاع، فلم نعثر فيه إلا على كتب للأمثال أو للتعاليم المدرسية أو التأملات، وأما غير ذلك من ألوان الأدب فلم نعثر على شيء منه أو عثرنا على قدر قليل تافه،[١] ولا يمكننا أن نتصور خلوَّ الأدب المصري القديم من قصائد غزلية مثلًا، أو من أناشيد ملكية، أو أن عناية المصريين القدامى بالأمثال والتعاليم المدرسية تفوق عنايتهم بالغزل والنشيد، وإنْ كنَّا قد وجدنا منها شيئًا لا بأس به، وكل ما هنالك أنهم اعتادوا أن يدفنوا مع تلاميذ المدارس كتبهم عند موتهم؛ فحفظتها القبور لنا بجانب جثثها حتى وصل إليها الكاشفون المنقبون فعرفناها، أما كتب الأدب الأخرى التي كانت تُحفَظ مع الأحياء فقد أدركها العفاء فجهلنا أمرها.

ويبدو غريبًا لنا أن نرى المصريين — وقد عنوا كثيرًا بدينهم وآخرتهم — يجعلون للدين المرتبة الثانية من أدبهم، وقد يخفِّف من حدة هذه الغرابة أن العقيدة أمر موروث يأخذه الأبناء عن الآباء من غير بحث ولا اقتناع، حتى إذا خلا المرء إلى نفسه وراضَ فكرَه سما به إلى تلك القوة الهائلة المجهولة التي لا يدرك كنهها ولا يعرف لها حدًّا — الله — فيقف فكره عند ذلك موقف الذي أعياه الجهد وأدركه البهر، فانقطعت أنفاسه فلا يستطيع تصوير ما جاشت به نفسه تصويرًا أدبيًّا ممتازًا.

ويظهر أنه في عهد الأسرة الخامسة (سنة ٢٧٠٠ق.م) من العصر القديم، قد أنشئ كتاب واحد على الأقل من كتب الأمثال، وقد بلغ الأدب غايته في هذه المرحلة على ما نعتقد في العصر المظلم الذي يفصل بين الدولة القديمة والوسطى، وفي عهد الأسرة الثانية عشرة المشهورة (١٩٩٥–١٧٩٠ق.م).

وقد ظلت كتابات هذا العصر تُقرَأ في المدارس المصرية القديمة خمسمائة سنة، وهي على حالها من الزخرفة والعناية بالمحسِّنات اللفظية التي أُغرِم بها المصريون وقتها إغرامًا شديدًا، والتي بذل الأدباء في سبيلها كل جهد ليصلوا بها إلى العذوبة والجمال.

العصر الحديث

غيَّرَ الأدب وجهته في هذا العصر، فسار في طريق أخرى غير الطريق التي اعتادها قديمًا؛ فقد كانت مادة الأدب إلى هذا الوقت اللغة الفنية العالية في كل ألوانه، وقد تقترب من لغة المحادثة إذا تناولت وثائق حيوية أو صوَّرت قصصًا شعبية.

أما في العصر الحديث فقد احتجبت اللغة الفنية، ولم يَعُدْ أحد من الشعب يفهمها أو يستسيغها، حتى إنه في عهد الثورة الدينية العظيمة التي حدثت أيام «أمنحوتب الرابع» من ملوك الأسرة الثامنة عشرة، بدأ القوم يكتبون الشعر بلغة العامة، وقد أُلِّفَتْ بهذه اللغة «أنشودة الشمس

الجميلة»، وهي تضم في طياتها منهاجًا للإصلاح الديني. ولقد استقر نظام الكتابة بلغة العامة، وكُتِب له البقاء، وفي عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، ظهر أدب قوي مكتوب بتلك اللغة الجديدة التي أسميناها «المصرية الجديدة»، كما كُتِب بها جزء كبير مما جمعناه في هذا الكتاب.

وقد بقي للمدارس خطرها أيضًا في عهد «المصرية الجديدة»، ولكن أساليبها دبَّتْ فيها الحياةُ بقدر ما ذاق المصريون من حلاوة الحياة في هذا العصر؛ إذ رأوا الدنيا بعين الرضا، فتعشقوها وشغفوا بها.

والأدب الحديث خلو من الأفكار العميقة والبحوث الفلسفية، وقد يسوق الله إلينا كشفًا جديدًا يغيِّر هذا الرأي، فإن حال مصر في ذلك الوقت تدعو إلى نقيضه.

ولم تَدُمْ سيطرة «المصرية الجديدة» على الأدب طويلًا، فإن الأدباء حنوا إلى العهود الأولى، فأخذوا يرصعون عباراتهم وينتقون لها أصفى الألفاظ والأساليب، وقد يزيِّنونها بالألفاظ الأجنبية على سبيل التظرُّف، أو إظهارًا لتمكُّنهم من مادتهم، واستمر الأدباء في طريقتهم يهذبون اللغة ويفتنون فيها نحو خمسة قرون، أخذ هذا النوع من الأدب بعدها في الانحطاط حتى كاد أن يتلاشى. وكان على تلاميذ المدارس أن يتعلموه كأنه مادة غريبة عنهم، حتى آل نجم الأدب إلى الغروب، كما آل نجم مصر إلى السقوط.

استمرت الحال كذلك عدة قرون — وقد نستثني منها عصر الإغريق — إلى أن ظهر أدب جديد هو الأدب الديموطيقي، ولا دخلَ له في موضوع كتابنا.

ويلاحظ أن اللغة الأجنبية التي كان الأدباء يزيِّنون كلامهم بها في العصر الأخير من الدولة الحديثة، كانت مستعارة من لغة فلسطين غالبًا؛ لما كان بين البلدين من علاقة متينة قوية، وهذا يدعونا إلى القول بأن «كنعان» قد تأثَّرت بمصر من ناحية الأدب، كما تأثَّرَتْ بها من ناحية الفن.

ولو وصل إلينا شيء من الأدب الفينيقي لرأينا الطابع المصري فيه واضحًا أيضًا من غير شك، وإننا لنرى الأدب العبراني — وإن كان زمنه متأخرًا عن الزمن الذي نتحدث فيه — يذكِّرنا بنوع من الكتابات المصرية، نرى ذلك واضحًا في المزامير وأناشيد الإنشاد في الأدب الحكيم عند العبرانيين، وقد نرى تأثيرًا كذلك غير مباشر للغة المصرية، إذا دققنا البحث في أساليب العبرانيين وطرائق تعبيرهم غير ما ذُكِر.

وما دمنا قد وصلنا إلى هذه النتيجة، فليس ببعيد إذن أن يكون الأوروبيون أنفسهم قد تأثَّروا بالعقلية المصرية والتفكير المصري، فاستفادوا وأفادوا.

(٣) الكتَّاب المتعلمون

كانت الطبقات المثقفة عماد الأدبين القديم والحديث، وكان للكاتب فضل السبق على غيره من أصحاب المهن الأخرى، بل إنك لتجد فجوة كبيرة تفصل بين المصري المتعلم وغير المتعلم، ومَن يبرعْ في الكتابة يَنَلْ أسمى المراكز، وإن لم تَسْمُ مواهبُه الأخرى، بل لم يكن للحاكم نفسه قيمة إلا بكتابه، ومن هنا تدرك السر في رغبة كبار الموظفين القدماء أن يصوِّروا أنفسهم في هيئة الكتَّاب؛ لأن الكتابة في نظرهم سلم يرقى فيه المرء إلى أقوى المراكز وأعلاها، والرجل الذي يستطيع الإبانة عما في ضميره بأسلوب جميل مهذَّب يجد الطريق أمامه مفتوحة لأكبر المناصب وأعلى الدرجات. ومن هنا شملت الكتَّابَ موجةٌ من الغطرسة والكبرياء، وراحوا يدلون على غيرهم بمركزهم الاجتماعي، ويظهر هذا واضحًا جدًّا في أدبهم القديم الذي كوَّنوه بحيث كان ذلك التعالي ميزة له.

والكبر وإن كان في ذاته مكروهًا، إلا أن المثل العليا التي وضعتها طائفة الكتَّاب للموظف الذي يعتد بنفسه ويرتفع بكرامته جعلتنا نتجاوز عن ناحية الصلف، ونعترف لهم بأنهم جعلوا من

واجب الموظف أن يكون عادلًا ينتصر للمظلوم، ويأخذ من الظالم، حاذقًا يعرف كيف يتغلَّب على الصعاب، ويفتح الطريق بين أعظم الصخور وأمنع العقاب.

وكانت آراء الكاتب تُحترَم في مجلس الشورى، وكل قول له يجب أن يُقدَّر ويُميَّز عن العامة.

بهذه الروح كان الموظفون يعملون كما نشَّئوا الشباب من طائفتهم على هذه المبادئ نفسها.

وفي عهد الدولة الحديثة بقي الميل إلى البيروقراطية ومدارسها كما كان من قبلُ، وبالرغم من كل ما بدا من خلاف فإن رسائل المعلمين لم تعظ بشيء غير ما وعظت به كتب الحكمة القديمة.

وليس هناك فرق إلا أن تعاليمهم كانت مرتدية ثوبًا أكثر لباقة وحذقًا، وأن خلق الكبرياء الذي يشع من مراميهم كان أكثر تجسُّمًا وأبين وضوحًا.

وسنوضح كل ذلك في باب الرسائل.

(٤) المغنون والقصصيون

لا نرتاب في أن الذين حملوا مشاعل الأدب المصري كانوا من المتعلمين الذين يحترفون الكتابة، وليس معنى ذلك أنهم خلقوه خلقًا، أو أنهم الذين ابتدعوه في أرض الفراعنة ابتداعًا، وإنما ارتقوا به من حالته الساذجة التي كان عليها إلى حالة أكثر افتنانًا؛ فإن الطبيعة التي أوحت إلى الحمام بالهديل، وإلى العصفور بالشقشقة، وإلى الهزار بالتغريد، لا بد دافعة بالإنسان إلى محاكاة هذه المخلوقات، بل إن أساس المحادثة نفسها قائم على هذه المحاكاة، لذلك لا نشك مطلقًا في وجود الغناء — وهو فرع من الأدب — قبل أن ينهض بالأدب الكتَّابُ في مصر القديمة، غير أنه كان بسيطًا لا تكلُّفَ فيه ولا تعقيد ولا ازدواج، واعتبر ذلك بما تراه من الفلاح المصري الآن وقد رفع داليته أو أدار ساقيته، ومن البحَّار وقد أطلق في النيل جاريته أو تسنم ساريته، تجد أن الطبيعة قد أوحت لهما بما يقولان؛ فانطلقَا يرجِّعان على تلك الصورة الصغيرة المحبَّبة التي تنير

العاطفة، وتجلو صورة من صور الحياة. ولا شك أن في الغناء راحة ولذة أخذها الأبناء عن الآباء بطريق الوراثة، وهي خير معوان على مداومة العمل الشاق، وتذليل ما صعب منه، ولأمرٍ ما تميل الإبل وتنشط في رحلاتها الطويلة إلى الحداء، فتحث في السير وتسرع في طي المفاوز، والفلاح والصانع في مصر القديمة كانا يستعينان على عملهما الشاق بغنائهما المتواضع، حتى لقد كان الغناء جزءًا من العمل الذي يقوم به العامل، يدلنا على ذلك أن المثَّال كان يضيف إلى تمثاله الذي صوَّره الأغنيةَ التي تناسبه، وقد أوردنا أمثلة من هذه الأغاني في العصور المختلفة في مواضعها المناسبة، وكنا نظن[٢] إلى عهد قريب جدًّا أن تلك الأغاني التي كان يردِّدها فاتنات الوصيفات في حضرة سادتهن لم تكن موجودة، ولكنا عثرنا عليها في كشف جديد ممثلة معهن، رأينا منظر غانيات شاديات، وأخريات راقصات، تلمح فيه تناسق الحركات مع إيقاع النغمات، ولا يبعد أن تكون تلك الأغاني ساذجة بريئة كأختها التي كان يرددها العمال.

ولا نشك في أن الغناء قد تأصَّلت جذوره في أرض الفراعنة، ونبتت سيقانه، حتى صار حِرفة معترفًا بها يزاولها الرجال والنساء؛ فقد رأينا رجالًا حُرِموا حاسة البصر، ونساء فاتنات قد اتخذوا من الغناء حرفة مربحة، كما تحدثنا قصة «سياحة ونأمون» في نهاية الدولة الحديثة عن مغنية مصرية عملت على نشر الحضارة المصرية في سوريا من ناحية الغناء.

وإذا كنَّا قد رأينا المغنين والمغنيات ممثلين في آثار الفراعنة، فإننا لم نجد للقصصيين أثرًا؛ وذلك لأن الغناء من مظاهر الترف التي تلازم قصور الأغنياء، والقصص من السلع التي تعرض في الطرقات، ويتلهف على سماعها العامة وصغار القوم كما نرى في أيامنا هذه، وحياة الطرقات وما إليها لم يمثِّلها المصريون في مقابرهم، وإنما سجلوا ما كان من ألوان الحياة المحبَّبة لدى السادة والأمراء.

وعندنا قصص للعامة والخاصة من كل عصور التاريخ المصري إلا الدولة القديمة، فلم يصلنا حتى الآن شيء منها، وتدل مادتها ونغماتها على أنها من أصل قديم، وإذا كانت قصص الروائيين الحديثة تتناول شخصيات تاريخية عظيمة مثل «عنترة العبسي» و«صلاح الدين»، فإن القصص القديمة كذلك لم تهمل أبطال التاريخ، فلدينا قصة من العصر المسيحي في مصر تدور حول «قمبيز»، وأخرى من العصر الإغريقي تتناول «نقطانب»، وثالثة ممتعة حفظها لنا «هيرودوت» عن «رمبزنيتس»، وفي الأوراق البردية الديموطيقية نقرأ قصة الملك «بيتوبستس»، وحكاية رئيس الكهنة «خاموس»، وفي نهاية الدولة الحديثة نجد قصة الملك «تحتمس الثالث»، وقصة ملك الهكسوس «أبوفيس»، ومن أواخر عهد الهكسوس نطالع قصة «الملك خوفو والسحرة».

ولا شك في أن هذه القصص قد وضعها وأذاعها قوم عرفوا ميول العامة وأذواقهم فاستهووهم بها، وإذا كانت هذه القصص قد جاءت في بعض الأحيان على شكل أساطير دينية، كأسطورة «إيزيس» و«أوزير»، وخرافة «هلاك الإنسانية» — والآلهة التي لم تستطع العودة ثانيةً إلى مصر — فإن ذلك لا يمنع من كونها عامية، خلقت للعامة تغذية لميولهم، وإشباعًا لعواطفهم وأهوائهم. هذا وقد طالعتنا الكشوف الحديثة بلون جديد من القصص كان يظن أنه من اختراع اليونان، وأعني بذلك القصص الخرافي الذي تدور حوادث أبطاله حول الآلهة دون البشر؛ إذ عثرنا أخيرًا على قصة للمخاصمة بين «حور» و«ست»، كان كل أبطالها من الآلهة، وتعتبر هذه القصة تجديدًا في الأدب المصري القديم، وسنوردها بعدُ.

(٥) أوزان الشعر المصري

من المعلوم أن الشعر يمتاز بما فيه من الصور الخيالية الجميلة، وبما يقيده من الأوزان الخاصة به، وإذا نظرنا إلى الشعر المصري من هاتين الناحيتين وجدنا أن الصور الخيالية كثيرة فيه،

ولكن أي وزن يقيِّده؟ وهل له وزن واحد أو أوزان مختلفة كالشعر العربي؟ وهل له قيود أخرى غير الأوزان كالقافية في الشعر العربي مثلًا؟ الواقع أننا تائهون في بحار الشعر المصري، فكل ما كُتِب بلغة عالية في أسطر قصيرة، متقاربة الطول، يرجح أنه شعر يخضع لوزن من الأوزان، فإذا تكررت المقطعات، واتحدت في عدد سطورها، وتناسبت معانيها؛ كان ذلك شعرًا مؤكدًا لا نثرًا، وتكون القطعة عادة من ثلاثة أسطر أو أربعة، كالأمثلة الآتية:

أنت تنزل في سفينة من خشب الصنوبر
تحرك من المقدم إلى المؤخر
وتصل إلى قصرك الجميل
الذي بنيته لنفسك

•••

فمك مفعم بالنبيذ والجعة
والخبز واللحم والفطير
وتذبح الثيران وتفتح أباريق النبيذ
وأمامك الشدو الجميل

•••

ورئيس معطريك يضمخك بعطر «كمي»
وساقيك يحمل تيجان الأزهار
ورئيس فلاحيك يقدم الدجاج
وصيادك يقدم السمك.

وليس تكرار المقطعات واتحاد عدد سطورها هو كل ما يقيِّد الشعر المصري، بل يلتزم أن تبتدئ المقطعات كلها بكلمات مشتركة تُكرَّر في جميعها، فمثلًا في «جدال بين إنسان سئم الحياة وبين

روحه»، نجد أن المقطعات الثانية التي تتكوَّن منها الأغنية الأولى تبتدئ كل واحدة منها بهذه العبارة: «انظر إن اسمي ممقوت»، كما أن مقطعات الأغنية الثانية تبتدئ كل مقطعة بهذه الجملة: «لمَن أتكلم اليوم؟»

وقد نجد القيد مزدوجًا كما في قصيدة تحتمس الثالث؛ إذ نجد أن الأسطر الأولى قد اتحدت في استهلالها، كما نجد الأسطر الثالثة قد اتحدت أيضًا في صدورها.

فالأبيات الأولى من هذه القصيدة تبتدئ بما يأتي:

إني قد أتيت حتى أجعلك تدوس …

وصدر الأسطر الثالثة منها هذه العبارة:

إني أريهم جلالتك …

أما السطران الثاني والرابع فليسا مقيَّدين في بدايتهما.

وقد نجد مقطعات شعرية مختلفة في الطول ومختلفة في عدد السطور، متشابهة أو غير متشابهة في بدايتها، فنسميها شعرًا مطلقًا من القيود، ولا نخفي على القارئ حيرتنا وتردُّدنا بين اعتبار مثل هذا الكلام نثرًا أو شعرًا؛ لجهلنا بالوزن الذي كان يلتزمه المصري القديم عند تأليفه القصيد. والظاهر أن الشاعر المصري ما كان يتقيَّد بوزن خاص، بدليل أن مصريي العصر المسيحي «الأقباط» كانوا ينظمون شعرهم حرًّا خاليًا من القيود الوزنية كما ترى:

رجل آخَر يذهب إلى الخارج
يمكث سنة ثم يعود إلى بيته
ولكن أرشليت، قد ذهب إلى المدرسة

وكم يومًا حتى أرى وجهه.

ولا بد أن المقطوعات الشعرية المصرية المركَّبَة من أسطر كانت تشبه في توقيعها الرباعيات القبطية.

ولا شك أن تحلُّل الشاعر المصري من قيود الوزن يجعله أكثر حرية في تفكيره وفي صياغته، فبدلًا من أن يبدأ مقطوعته بقوله: «أوزير يستيقظ بسلام»، يستطيع أن يبدأها بقوله: «الباقي المخلد، رب المأكولات، الذي يهب الحياة مَن يحب، يستيقظ بسلام.»

ومن مميزات الشعر المصري التي انفرد بها، أن يسوق إليك المعنى الواحد في صورتين مختلفتين متلاحقتين، مثال ذلك: «القاضي يستيقظ»، «تحوت يجلس»، ومثل: «ثم تكلم أصدقاء الملك هؤلاء»، «وأجابوا أمام إلههم»، ومثل: «وهم الذين يدخلون في هذا القبر»، «وهم الذين يشاهدون ما فيه».

ففي المثالين الأولين نحد أن الجملة الثانية مرادفة للأولى، ولا فائدة منها، وفي المثال الأخير نجد أن الجملة الثانية تفيد معنى جديدًا، ولكنه من لوازم معنى الجملة الأولى.

ويرجع إغرام المصريين بهذه الطريقة إلى عنايتهم بالزخارف اللفظية في العهد القديم — كما سبق بيانه — وإلى إظهار الكتَّاب قدرتَهم على اللعب بالأساليب، والافتنان فيها، واعتيادهم ذلك، حتى صار أمرًا مقرَّرًا في كل أسلوب فني عالٍ، ويظهر أن كتَّاب العهد القديم أخذوا هذا النوع الغريب من الأداء عن العبرانيين والبابليين الذين ألفوه وساد بينهم.

وتستطيع أن تدرك مبلغ غرابة هذه الطريقة إذا حوَّلت قطعة ما من الشعر إلى الأسلوب المصري، وخُذْ مثلًا هذه القطعة وهي بداية الكتاب الخامس من «الأوديسا»:

الآن طلع الفجر من مخدعه من جانب «تيتونس»؛ ليحمل النور إلى الخالدين والناس، وكانت الآلهة تجتمع لجلسة ومن بينهم «زيوس» الذي يرعد من أعلى، والذي تعلو قوته كل القوى.

فهذه القطعة تُقرَأ بالأسلوب المصري كما يأتي:

إن الفجر رفع نفسه من سرير «تيتونس»
وشفق الصبح طلع من مكان راحته
حتى يستطيع أن يضيء للخالدين
ويحضر النور لبني الإنسان
والآن كانت الآلهة ذاهبة إلى المجلس
وجلس الخالدون ليتشاوروا
وجلس في وسطهم «زيوس» الراعد
وجلس على عرشه ملك الآلهة رئيسًا لهم
ذلك الذي قد عظمت قوته
وفاقت قوته كل شيء.

ولا شك أن هذا الترادف أو المزاوجة في التعبير مما يذهب بإمتاع القطعة، ويكد الذهن، ويمنعه متابعة المعاني وتسلسلها ببساطة وسهولة، ولكن لم يكن ذلك قالبًا يجب صب الشعر فيه، أو مقياسًا يجب عرضه عليه، بل كان مجرد حلية لفظية يلزم الشاعر باتباعها ما دام قد اختار لمعانيه الأساليب العالية.

ولقد جَرَّهم غرامُهم بالترادف والازدواج إلى الترصد للممدوح قبل ذكر اسمه، بسرد عبارات مختلفة تشير إليه، وتدل عليه، كما جاء في أنشودة الصباح المترجمة بعدُ، ويتنوع البيت الواحد بهذه الطريقة إلى ما لا نهاية له من الصور والأوضاع، ويبدو هذا مملًّا وثقيلًا على آذاننا، ومَن

يدري، لو أنا وُهِبْنَا آذانَ الفراعنة الأقدمين، وعرفنا كما عرفوا أسرار مسمياتهم التي اختاروها، لَكان هذا الشعر خفيفًا على أسماعنا، محبَّبًا إلى قلوبنا! وقد فشا هذا الأسلوب في قصائد المديح خاصة، وهي التي يمتاز بها الأدب المصري، فيسبق اسمَ الممدوح جملٌ للتعظيم مثل «المديح لك» أو «التعبُّد لك»، تتبعها نعوت، وأسماء، وأسماء أفعال، وجمل موصولة للتعريف بالممدوح، وللتذكرة بجميل أفعاله، وتُحشَد هذه النعوت حشدًا كثيرًا بلا ترتيب مما لا يجعل تفاضلًا بينهما، ومما لا يجعل لهذا الشعر معنى. ومن الظواهر الملموسة في الشعر المصري تداعي المعاني وتساوق الأفكار، وإذا قرأت «تحذيرات نبي» وجدت هذه الظاهرة واضحة، فهذا الشاعر الذي تفجَّرَ قلبه حزنًا وأسى على بلاده، أخذ يرسل الزفرات الواحدة بعد الأخرى، شاكيًا مما يشجيه ويحزنه، ولكن لا اتصال بين ما يشكو منه على كثرته، لظاهرة الاستطراد وتداعي المعاني التي تواضَعَ عليها هؤلاء الشعراء، فكل فكرة يعبِّر عنها تسوقه إلى فكرة جديدة فيتناولها أيضًا، فتسلمه هذه بدورها إلى غيرها وهكذا، وإليك مثلًا مما قال: «إن كل شيء مملوء بالحياة حتى الأطفال الصغار.» وعند ذِكْر الأطفال يثب إلى ذهنه أنهم يُقتَلون، ويُلقَى بهم على تلال الصحراء؛ فيتناول هذا الموضوع، ثم تذكره تلال الصحراء بالموميات التي تنزع هناك من قبورها، ويلقى بها عليها؛ فيعالج ذلك أيضًا بدون أن يكون لكل ما ذكر علاقة أصلية بالموضوع الذي أنشأ فيه القصيدة أولًا.

ومن الزخارف اللفظية التي أولعوا بها الجناس، وكان أسلوبًا محبَّبًا إليهم، وقد وُجِدت في «متون الأهرام» صيغ دينية قديمة جدًّا لتقديم القرابين، التزم فيها الجناس في كل اسم من أسماء مواد الطعام، واستعمل الجناس كذلك بنظام في قصيدتين من أدب الدولة الحديثة؛ قد دُوِّنَتَا فيما بعدُ، ولا نستطيع أن نبرز هذا الجناس باللغة العربية طبعًا لاختلاف ظروف اللغتين.

ومن الحلى التي كان لها شأن كذلك في تزيين اللفظ وقتها: بداية الكلمات بحروف واحدة، ولكن لا يلتزم هذا الاتحاد الحرفي دائمًا، ومثالُه بيتان من الشعر يشيران إلى «أمنحوتب الثالث»:

«حاربَتْ عصاه بلادَ النهرين، وأخضعَ قوسُه السود.»

ولقد عثرنا على شعر مصري في العصر اليوناني تشابهت فيه الحروف الأولى لكلماته؛ مما يجعلنا نعتقد أن تلك العادة وُجِدت قبل ذلك التاريخ عند أدباء المصريين، وكانوا يميلون إلى اتباعها في نقوش معابدهم، بل إن رجال الدين كانوا يجدون لذةً في ذكر كلمات تتحد حروفها الأولى في الجملة الواحدة، وهناك رأي ينسب مثل هذا الأسلوب إلى الدولة الحديثة أيضًا.

(٦) الكتابة والكتب

إن ذلك المخترَع الذي اهتدى إليه المصريون، فضمن للحياة العقلية النمو — ونعني به الكتابة — جدير بأن نجعل له نصيبًا من عنايتنا، وأن نتحدث — ولو بشيء من الإجمال — عن بدئه وتطوره.

بدأت الكتابة المصرية على نظام الصور الذي اتبعه غير المصريين، ينقشها الإنسان ليذكر بها شيئًا في ذهنه، ولكنه من الصعب على غيره أن يهتدي إلى ما يريد؛ لذلك كانت هذه الطريقة ناقصة، وغير مضبوطة، ولا تؤدي إلى الغرض من اختراع الكتابة، وإليك مثلًا: اتفق شخصان على أن يبيع أحدُهما الآخَرَ ثورًا في مدى ثلاثة أشهر مقابل خمس جرات من العسل، فإنه يكفي لتسجيل هذه الصفقة أن يرسم «القمر، والثور، والنحلة، والجرة، وبعض شرط أفقية تدل على العدد»، وبدهي أن الأجنبي عن هذين المتعاقدين لا يستطيع أن يفهم صيغة ما تعاقَدَا عليه على وجه الدقة إذا عُرِضت عليه هذه العلامات؛ لذلك مست الحاجة إلى تلافي هذا العيب، فبدأ كل قوم من ناحيتهم يفكِّرون في إكمال ما لمسوه من النقص حتى وصلوا إلى أنواع من الكتابات والكلمات والمقاطع، وقد لازَمَ المصريين وحدَهم التوفيقُ فوصلوا إلى أعلى شكل للكتابة، وهو الحروف الأبجدية.

والفكرة الأولى التي وصلت بهم إلى غايتهم في ذاتها سهلة، فإن هناك من الكلمات ما يصعب رسمه وتصويره، كأسماء المعاني مثلًا، فيجب أن ينقش بدلها كلمات أخرى يمكن رسمها، وتتفق معها في النطق، وإن كانت تختلف عنها في المدلول، وعلى القارئ أن يفهم المعنى المقصود من سياق الكلام، فمثلًا أردنا أن نعبر عن معنى عظيم «ور»، وهذا يصعب علينا رسمه لأنه معنوى، فلا علينا إذن إذا استعملنا بدله لفظ عصفور الجنة 𓅨 «ور»؛ لأنه يماثله في النطق، وإذا أردنا أن نعبِّر مثلًا عن كلمة يصير «خبر» وتصويرها أيضًا متعذر، فلا بأس من أن نستبدل بها مثلًا كلمة جعل 𓆣 «خبر» التي تماثلها في النطق، والمرجع في فهم المعنى المقصود منها إلى حذق القارئ.

والكلمة التي نستعيرها يجب أن تحتوي على حروف الكلمة التي نستعيرها لها، بصرف النظر عن الحركات التي تحدِّد موقعها من الإعراب.

وكثير من العلامات التي تستعمل في معنى واحد اتسعت معانيها على مر الأيام، وأصبحت لا تختص بمدلول واحد، بل إنها صارت على مر الأيام أجزاءً من كلمات أخرى، فمثلًا عصفور الجنة لم يَعُدْ يُستعمَل — كما في المثال الأول — ليدل على «ور» (عظيم) فحسب، بل ليدل أيضًا على الحرفين الساكنين «و، ر»، إذا دخلا في تركيب الكلمات الأخرى مثل «حور»، «سور»، «ورس»، «ورريت» … إلخ. ومن هنا اكتسبت الكتابة إشارات من حرفين ساكنين. وتقدَّمَ المصريون خطوة أخرى؛ فاستعملوا كلمات قصيرة، فيها حرف ساكن واحد، تدل بجملتها على هذا الحرف الساكن، فمثلًا 𓂋 = ر = (فم)، كانت تُستعمَل للدلالة على حرف الراء، و𓊃 = زت = (أفعى)، كانت تُستعمَل للدلالة على حرف الزاي — والتاء فيها علامة التأنيث — و 𓈙 = شي = (بحيرة)، للدلالة على حرف الشين، وهكذا. وكانت نتيجة هذه الخطوة أن تكوَّنت

حروف أبجدية من أربعة وعشرين حرفًا ساكنًا، وهي التي انتهت فيما بعدُ إلى أرض كنعان، وأُخِذت منها الحروف الأبجدية الأوروبية.

وبهذه الحروف الأبجدية كتبت كلمات قصيرة مفردة، مثال ذلك 𓂋 = ر = إلى، و𓅓 = م = في. 𓇋𓅱 = أو = يكون، كما كُتِبت نهاية بعض الكلم مثل 𓆣𓂋 = خبر. ف = هو يصير، كما أنها سهَّلت قراءة الإشارات التي تدل على كلمات، فمثلًا في 𓏠 بمعنى الضامة أو 𓌻 بمعنى فأس، لو تُرِكت هذه الإشارات كما هي مرسومة لاحتمل تفسيرها بكلمات أخرى لا تدل على الضامة، ولا على الفأس، ولكن بإضافة «ن» للأولى، و«ر» للثانية، وكتابتهما هكذا 𓏠𓈖𓌻𓂋 «من، مر» يتحدَّد معناهما ويدلان على الضامة والفأس لا غير، كما أن كثيرًا من الكلمات كُتِب بالحروف الأبجدية الخالصة على حسب هجائها.

والخلاصة أن الحرف الواحد كان يدل على كلمة أو يحلق بأخرى، أو يضاف إلى إشارة؛ ليحدد معناها أو يلتزم وظيفةً أصليةً فيكون جزءًا من الكلمة.

وقد بقي نظم الكتابة خليطًا بضم كلمات يراد بها معناها الأصلي، أو معناها الاستعاري، أو علامات أبجدية تدل على كلمات، أو تحدد معاني كلمات.

وقد خطت الكتابة خطوة أخرى نحو النمو، وأُدخِل عليها عنصر جديد ينحو بالكلمة إلى الهدف المراد منها، وهو ما يُسمَّى بالمخصص، فمثلًا: «نهت» أي جميز أُضِيف إليها شجرة فأصبحت تُكتَب هكذا 𓈖𓉔𓏏𓆭 «ونفر» أي جميل أُضِيف إليها إضمامة بردية لتدل على الشيء المعنوي، فأصبحت تُكتَب هكذا 𓄤𓆑𓂋𓏛 وكذلك غير ما تقدَّم من الكلمات.

والكتابة بعد هذه الخطوة أصبحت سهلة على القارئ المصري القديم؛ يكتبها ويقرؤها ويفهمها بيسر وسهولة، بدليل أنه وقف عندها، ولم يحاول أن يطوح بالمخصص، ويقتصر على الحروف الأبجدية وحدها بوضع نظام يوصل إلى هذه الغاية.

ولقد اعتدنا أن نقتفي أثر الإغريق في تسمية الكتابة المصرية، فنسمي بعضها «الإشارات المقدسة» (هيروغليفية)، ونسمي بعضًا آخَر خاصًّا «الهيراطيقي»، وهو الذي نقلنا عنه معظم ما في هذا الكتاب، وفي هذه التسمية بعض التجوز أو التساهل؛ لأن الهيراطيقي ليس نوعًا خاصًّا منفصلًا عن قسيمه، بل هو بمثابة خط الرقعة في اللغة العربية، إنْ جعلنا الهيروغليفي بمنزلة خط النسخ، والفرق بين الاثنين كالفرق بين حروف المطبعة وخط اليد.

ومما ساعَدَ على تقدُّم الأدب المصري بوجه عام الأدوات التي كان يستعملها الكتَّاب في كتابتهم، فلم يتأثروا البابليين في طَبْع إشاراتهم على اللوحات الطينية التي أنتجت الخط المسماري القبيح الشكل، بل إنهم كانوا يكتبون كما نكتب، وبعبارة أصح: أصبحنا نكتب كما كانوا يكتبون، فكان عندهم المداد الأسود الثابت اللون، وكانوا يطحنون مادته على ألواح من الخشب، وكانوا يأخذون أقلامهم من القصب؛ يبرون أطرافها، ويدببونها وفق رغبتهم، وكان عندهم فوق ذلك ورق ناعم جميل صنعوه من لب سيقان البردي، فتهيَّأ لهم بذلك ما لم يتهيَّأ لغيرهم من الأمم؛ فنمت كتابتهم، وتوطدت أركانها. ويمكننا إذا رأينا الآن النُّسَخ الخطية التي تركوها أن نلمح بين سطورها مهارة الكاتب وقدرته، وأن ندرك من رسمها أن ناقشها كان متمكنَ اليد، منشرحَ الصدر.

وكان من السهل عمل صحائف طويلة يصل طولها إلى بضع عشرات من الأمتار، بضم صحائف صغيرة منفصلة بعضها إلى بعض وإلصاقها، وهناك صحائف خطية جميلة من هذه النوع يبلغ طول الواحدة منها نحو أربعين مترًا.

وكانت الكتابة عادةً على وجه واحد من البردي، وهو الوجه الذي تكون الألياف فيه أفقية، حتى يأخذ القلم سبيله بلا مقاومة، وهذه الطريقة تستدعي الإسراف في الورق، ولم يكن في مقدور كل كاتب مصري أن يلجأ إليها، ولدينا أمثلة كثيرة للكتابة على وجهي الصفحات اقتصادًا في الورق.

والشخص الذي ندين له بأمتع مثال لدينا من هذا النوع هو صاحب «ورقة هريس» رقم ٥٠٠؛ إذ حصل على أوراق مكتوبة من البردي، وغسل ما عليها من المداد، وكتب على أحد وجهيها ثلاث مجاميع من أغاني الحب وأنشودة الشراب القديمة، وجاء بعده كاتب آخَر، وكتب على الوجه الثاني من الورقة قصتين.

وقد استعمل كاتب ورقتي «لينينجراد» طريقةً مغايرة للسابقة؛ إذ كان يشتغل كاتب حسابات، فأخذ وثائق من مصلحته، وألصق بعضها ببعض، ونسخ على الوجه الأبيض هاتين الورقتين، محتفظًا بملكية ما كتب له، ولأخ عزيز موثوق به، وقد حفظَتْ لنا هاتان الورقتان تعاليمَ للملك «ميركارع» ونبوءة «نفررهو».

والكاتب الذي يعجزه الحصول على ورق البردي كان يجد ضالته في قِطَع الخزف؛ فتحلُّ مع رخص ثمنها محل البردي، وقد نطلق اسم الخزف على كسر من آنية الفخار، أو على قطع من الحجر الجيري الناعم، وكثيرًا ما نشاهد هذه الآثار المكتوبة ملقاة على الأرض في أي مكان في مصر، وكثير منها مما كان يستعمله تلاميذ المدارس المصرية القديمة لكتابة تمارينهم، وقد نقلنا عنها كثيرًا مما في هذا الكتاب.

(٧) فهمنا للمتون المصرية

إذا قرأنا ترجمتين إحداهما قديمة والأخرى حديثة، لمتن صعب من المتون المصرية، هالنا ما نجده بين الترجمتين من فرق كبير، ولا يرجع كل السبب في ذلك إلى تقدُّم علم الآثار في الزمن الحديث، بل هناك عامل أساسي سبق أن تحدَّثنا عنه، وهو نقص نظام الكتابة عند المصريين القدماء، فالألفاظ المصرية لم تُضبَط بحركات تجعل القارئين والمترجمين في مأمن من الخطأ، فأصبحت الكلمة المصرية يمكن نطقها بأشكال مختلفة تعطيها معاني متباينة، مثال ذلك: «سزم» فإنها تحتمل معنى من المعاني الآتية: سماع، يسمع، سمع، سامع، مسموع … إلى غير ذلك،

وليس لدينا طريقة لتحقيق المعنى المقصود بالضبط إلا سياق الكلام، وقد يضطر المترجم الأمين من علماء الآثار إلى ترك بعض الجمل من غير ترجمة، أو يترجمها ويعترف بأن هناك من التراجم ما يمكن أن يخالفها ويصح اتباعه، وذلك إذا كان المتن يضم غير المألوف من الأساليب، وغير العادي من الأفكار، أما إذا كان المتن بسيطًا فإننا نجد من السياق، ومن الاستعمالات الكثيرة التي مرت بنا وعُرِفت لدينا؛ خيرَ معوانٍ يصل بنا إلى ما يهدف إليه المتن من الأفكار.

وليس قصور نظام الكتابة هو كل ما يعترضنا من صِعاب عند ترجمتها، بل إن استخفاف الكاتب المصري وجهله بعمله عقبة كَأْداء، وأغلاط الكتَّاب المصريين كثيرة وشائعة، وإن لم تصل إلى درجة الخطورة، ويكفي الكاتب أن يترك أو يضيف «مخصصًا» خطأ إلى كلمة؛ فينقلب معناها، ويبعد عما يريد الكاتب الإبانة عنه، على أن المصريين القدماء كانوا أقل احتفالًا منا بأمثال هذه الأغلاط، وكانوا يصحِّحون أخطاءها أثناء القراءة على ما نعتقد، فليس من المعقول أن يصطفي إنسان كتابًا وينقله لإغرامه به، ثم يغض النظر عن أخطائه الكثيرة، إلا إذا كان معتمدًا على تداركها عند القراءة.

ويظهر أن تلاميذ المدارس المصرية في عهد الدولة الحديثة كانوا أحيانًا يؤدون واجباتهم بَرِمين بها، فهم ينقلون ما يُكلَّفون نقله من المتون في سرعة وعدم اكتراث على أوراق البردي وقطع الخزف؛ ولذلك فشا الخطأ في هذا العهد حتى لم تخلُ أسلس المتون وأسهلها عبارة منه، ولا نشك في أن جزءًا كبيرًا من متن موقعة قادش كان مصيره الغموض لو لم يَسُقِ الله إلينا كثيرًا من النقوش التي ساعدتنا على فهمه وتصحيح أخطائه، وما كانت نسخة «بنتاور» لتغنينا عن ذلك فتيلًا.

على أن بعض التلاميذ كانوا لا يتورعون إذا صُدِموا بنقل كتاب يصعب عليهم فهمه، لالتواء أساليبه اللغوية القديمة، عن أن يغيِّروا فيه ما شاءوا، ولو أدَّى ذلك إلى ضياع المعنى. ومما يُؤسَف له أن يقع كتاب قيِّم مثل تعاليم «دواوف»[٣] فريسةً في أيدي تلاميذ مدارس الأسرة التاسعة عشرة، فيحرِّفوا الكَلِم عن موضعه، وأن يجيء إخوانهم تلاميذ مدارس الأسرة الثانية والعشرين بعد بضعة قرون فيسيئوا من ناحيتهم نقل كتابات الأدب المصري الحديث، ولكنَّا نغفر لهم بعض ما أساءوا؛ لأنهم حفظوا لنا هذا التراث من الضياع.

---

[١] وجد بعضه في العصور الوسطى وما بعدها.

[٢] عثر الأستاذ أحمد فخري كبير مفتشي الوجه القبلي على مقبرة «خيروف» من عهد الأسرة الثامنة عشرة، ومن مناظرها الفريدة ذلك المنظر الذي أشرنا إليه. انظر: Annales Du Service des Antiquites De L’Egypte. T. XLII. P. 449 ff.

[٣] عُرِفت هذه التعاليم بهذا الاسم إلى عهد قريب، غير أن الأستاذ «جاردنر» أثبت أن كاتبها اسمه «خيتي»، كما سنرى ذلك في موضعه.

القصص المصري

لم تصل إلينا الحياة العقلية في مصر سلسلةً متصلةَ الحلقات حتى نتبعها من أولها إلى آخرها، ونسلط عليها أشعة البحث والدرس، ونخرج منها بنتيجة نقطع بها ونؤمن بصحتها، ولكنها وصلت إلينا وبها حلقات مفقودة، فلا نستطيع إلا درس ما وصلنا وبناء أحكامنا عليه.

والمتتبع لتاريخ القصة في الأدب المصري لا يرى أمامه أي مثال للقصة في الدولة القديمة ولا ما سبقها من العهود، وإن كانت ظواهر الأحوال وإشارات «متون الأهرام» تدلنا على أنه كانت هناك أساطير وأقاصيص عن الآلهة يرجع عهدها إلى ما قبل التاريخ. ومَن يدري! فلعل الأرض تبوح بسرها يومًا ما، وينشق جوفها عما نلتمسه الآن فلا نجده، إن لم تكن عوادي الزمن قد طغت عليه.

والقصص التي وصلت إلينا من عهد الدولة الوسطى قصص ناضجة تدل على أن هذا الفن بلغ في عهد هذه الدولة ذروته، وإن كان قد أخذ في الهبوط بعد ذلك، كما أن سائر ألوان الأدب التي تُنسَب إلى هذه الدولة كاملة النمو أيضًا، وليس من الطبيعي أن يُولَد الشيء ناميًا كاملًا، بل من الطبيعي أن يُولَد طفلًا، ثم يصعد في معارج النمو حتى يستوي خلقه وتكمل بهجته في ربيع شبابه، فأدب الدولة الوسطى جاءنا كالشعر العربي الجاهلي محكم النسج، راقي المعنى، تام النمو؛ فلا بد أنه بدأ مثله بمحاولات ناقصة، أخذت ترقى وتتم على مر الزمان. وإذا عرفنا أن عهد الدولة القديمة بين الأسرة الرابعة والسادسة عهد ازدهار في العلم والفن، من رياضة، وطب، وعمارة، ونحت، وتلوين؛ ما تردَّدنا في أن نقطع بأنه كان للأدب أيضًا في عهد الدولة القديمة شأن؛ لأنه فن، ولما بين الفنون من تجاوبٍ وصِلَةٍ مرجعهما نضج العقل والذوق، ومما يقوي صحة هذه النتيجة أن المصريين أنفسهم في عهد الدولة الوسطى كانوا ينسبون ما اشتهر من حِكَمهم وأمثالهم إلى حكماء الأسرة الخامسة.

ولا مراء في أن الأدب التعليمي الذي وصل إلى ذروته عقب انقضاء عهد الدولة القديمة قد أثَّر تأثيرًا عظيمًا في خلق القصة القصيرة، وترى علامة ذلك في القصص الثلاث الأولى التي سندرسها في هذا الفصل، وهي: قصة «الغريق» وقد حُكِيت بطريقة سهلة ولغة عذبة، وقصة «سنوهيت» وقد خلق الكاتب لحوادثها جوًّا وقعت فيه، ونقل القارئ إليه، ولغتها عالية دخلت فيها بعض الصناعة اللفظية، وقصة «الفلاح الفصيح» وهي في مجموعها قطعة من الأدب الراقي المتكلف في كثير من نواحيه، وتشبه في صناعتها مقامات الحريري، وقد ابتدأها كاتبها بوصف البيئة التي وقعت فيها.

وبعد عهد الدولة الوسطى نرى ركودًا في فن القصة، وربما ننقض هذا الرأي في المستقبل إذا جاد جوف الأرض بما يثبت عكسه، ولكنه لم يمت جملة، فإنه ظهر في عهد الدولة الحديثة سلسلة من القصص بعضها تاريخي، وبعضها خرافي محض، ولكنها بسيطة في موضوعها، ويظهر أنها كانت تُعَدُّ لتُلقَى في قصور الملوك للتسرية عنهم في أوقات الفراغ، وربما كان الغرض منها مجرد الدعاية كما ترى في قصة «الملك خوفو والسحرة»، أو لإظهار الحق في ثوب المنتصر على الباطل بسرد أعمال عظيمة خارقة للعادة قام بها الآلهة، وتنتهي بهذه النتيجة. وقد كُتِبت كلها باللغة المصرية الحديثة أو لغة العامة، وكانت اللغة المستعملة وقتئذٍ.

ولا نريد أن نتعجل الحكم على هذه القصص الآن، بل سنتناول الكلام على كل واحدة منها، وطريقتنا في ذلك هي أن نورد ملخص القصة بلغة سهلة، ثم نتناولها بالنقد والتحليل، وفي النهاية نورد المتن المصري الأصلي كما هو مُترجَم ترجمة دقيقة حسب التعابير المصرية الأصلية، وغرضنا من ذلك أن يقف القارئ الحديث على الأساليب المصرية القديمة بدون إدخال أيَّة محسِّنات لفظية عليها، أو تعابير عربية تقابل التعابير المصرية، وهذه الطريقة هي التي سار على نهجها كل علماء الآثار عند نقل أي متن من اللغة المصرية إلى لغة أوروبية، ولا غرابة فإن نفس هذه الطريقة هي التي اتُّبِعَتْ في ترجمة التوراة.

(١) قصص الدولة الوسطى

(١-١) قصة سنوهيت

أُلِّفت هذه القصة الطريفة في أوائل الأسرة الثانية عشرة حوالي سنة ٢٠٠٠ق.م، وقد ذاع صيتها ولقيت رواجًا عظيمًا، وظلت تُنسَخ وتُقرَأ نحو ٥٠٠ سنة في المدارس المصرية.

(أ) ملخص القصة

روى «سنوهيت» هذه القصة بصيغة المتحدث عن نفسه، وملخصها: أنه كان عائدًا من غزو ضد اللوبيين بقيادة ولي العهد «سنوسرت الأول»، فحدث في تلك الأثناء أن مات الملك «أمنمحات» الأول، ونعاه الناعي إلى «سنوسرت» فترك الجيش، وخفَّ مسرعًا إلى العاصمة ليطمئن إلى عرشه الذي آلَ إليه، ولكن أمر الوفاة كان قد ذاع بين الأمراء المرافقين للحملة، وسمع به «سنوهيت» خلسة، فما كان منه إلا أن فرَّ هاربًا إلى سوريا لأسباب غامضة لم يستطع هو أن يجد لها تعليلًا مقبولًا، وقد أحسن استقباله هناك أحد رؤساء القبائل، وزوَّجه؛ فأصبح رب أسرة، وصارَعَ أحد رؤساء العشائر السورية المعادية فصرعه وجدَّ له، وبعد فترة طويلة عاوده الحنين إلى وطنه، وتاقت نفسه للرجوع إلى مصر ليكون في خدمة مولاه الملك الذي ظلَّ مخلصًا له طول حياته، وليلقى ربه، ويُدفَن في البلد الذي وُلِد فيه وترعرع، ولما سمع الملك بآلامه وأحلامه عفا عنه، وأعاده إلى منصبه في الحكومة، وسمح له أن يعود إلى وطنه معزَّزًا مكرَّمًا ليقضي ما بقي له من أيام تحت سمائه.

(ب) دراسة القصة

يرى الأستاذ «جاردنر» الذي ترجم هذه القصة وعني بدرسها، أنها تُعَدُّ من روائع القطع التي تدل على المهارة الأدبية، ورقة التعبير عن الأحاسيس الإنسانية.

ونرى أن هذه القصة قطعة من الأدب الكلاسيكي؛ لأنها تجلو لنا مرحلة من تاريخ الأدب العالمي، ولأنها تفصح لنا عن الخلق المصري القديم، وتبديه لنا في مظهر يجمع بين السذاجة والمكر، ونفاذ البصيرة، والشعور بالعظمة، والبراعة في النكتة. ولا شك أن علماء الآثار المصرية القديمة الذين اتسعت آفاقهم العلمية يجدون متاعًا ولذة في التقلبات التي مرت «بسنوهيت» في مغامراته، كما أنهم يعجبون بمراحل القصة المختلفة من وصف للملك المسن، وتصوُّر لهرب «سنوهيت»، والتعبير عن مخاوفه من الصحراء، وإطراء كرم قبائل البدو، ومديح «سنوسرت» الأول بلغة شعرية جميلة، وإلباس المبارزة التي تمت بينه وبين الرجل السوري القوي ثوبًا تلمح فيه جو التوراة، وإظهار حنين «سنوهيت» إلى وطنه المحبوب مصر في صورة صادقة للخلق المصري الذي يعتزُّ دائمًا بوطنه، ويملأ الحنين إليه فراغ قلبه، ويأتي بعد ذلك كتاب العفو من الفرعون يمثِّل أسلوب الملوك الأرستقراطي، كما يمثِّل عطف الملوك على المخلص من رعاياهم، وعفوهم عمَّن تثبت توبته، ويسبق صالح عمله، وإنعامهم عليه بما يُعلِي قدره، ويثلج صدره، كما يبدو ذلك من التأكيد الوارد بكتاب الفرعون عن موضوع شعائر الدفن التي كانت تشغل كل مصري أثناء حياته. أما رد «سنوهيت» على هذا الكتاب فكان جامعًا لمظاهر الفزع العظيم من الملك القوي، ومشاهد الملق المصطنع المتكلَّف الذي يضعه بين يدي الملك؛ ليستل بذلك سخيمته ويضمن به رضاه.

ومن الصور الحية الناطقة في القصة تلك التي رسمها «سنوهيت» بألفاظ، يصف استقباله في بلاط الملك حتى كأنك حاضر بجسمك في قصر الفرعون منذ أربعة آلاف عام تشاهد «سنوهيت» وقد قيَّد الفزعُ حركاته، فهو يلقي بنفسه عند قدمي الفرعون طالبًا الغفران، كما تلمس قلب الفرعون وهو يضفي عطفه على مولاه المغبر الملابس، ويقدمه للملكة، وتكاد تسمع صوت الملكة وهي تصيح صيحة الدهشة والغرابة مما ترى، وكأني بك بعد ذلك تتبع أقدام

الأميرات الصغيرات في رقصهن، وتؤخذ بروعة شدوهن، وتشاركهن عواطفهن عندما يطلبن العفو عن هذا المحارب الغريب.

أما ختام القصة فوصف مألوف لعهد الشيخوخة الذي قضاه صاحبه في نعيم مقيم، ومقام كريم، وهو يشعرنا بالجانب المادي الذي يميل إليه المصري ميلًا شديدًا، والذي كان شعار الحضارة المصرية القديمة.

وبعدُ، فإذا كنَّا ننادي الآن بوجوب تمصير القصة في الأدب العربي، فإن المصريين القدماء قد سبقونا إلى تمصيرها بمثل قصة «سنوهيت»، الذي كان دافعه الأكبر في الرجوع إلى مصر، وترك ما كان فيه من عز وسيطرة، أن يُدفَن في بلاده كعادة المصريين، ومما نراه في جانبها أنها درس نفسي عظيم، ومما نأخذه عليها ظهور الصناعة في الصياغة والأسلوب، وإن كان ذلك يدلنا على أن الأدب المصري قد تخطَّى دوره الإنشائي الأول، فإنه من ناحية أخرى نذير بالتكلُّف الذي يؤدي إلى انحطاط الأسلوب. هذا وليست نقطة الجاذبية عند القارئ المصري القديم في وقائع القصة التي يمكننا تلخيصها في بعض جمل، بل في تعبيراتها الجذابة التي تستهوي لبه، وتجعله يعكف على قراءتها بلذة وشغف.

(ج) المصادر

(١) أحدث ما كُتِب عن هذه القصة دراسة الأستاذ «جاردنر» A. H. Gardiner, Notes on the Story of Sinuhe, Paris 1915. وفي هذا المؤلَّف يجد القارئ كل المراجع التي يحتاج إليها في درس هذه القصة.

(٢) تكلَّمَ الأستاذ «بيت» عن هذه القصة في كتابه: A Comparative Study of the Literatures of Egypt, Palestine and Mesopotamia P. 33 ff.

(٣) كتب عنها وترجمها الأستاذ «إرمان» في كتابه الأدب المصري القديم. Erman: Die Liltratur Der Aegypter. (translated) by Blackman. The Literature of The Ancient Egyptians P. 14 ff.

(٤) انظر ملاحظات عن الترجمة في مجلة الآثار المصرية: Journal of Egyptian Archeology Vol. XXII P. 35 ff.

(٥) انظر ماسبرو: Popular Stories of Ancient Egypt. London 1915 P. 68 ff.

وفي هذا الكتاب يجد القارئ بحثًا مستفيضًا عن المصادر والنسخ التي عثر عليها مستعمَلَة في عهد الدولة الحديثة.

(٦) انظر كذلك كتاب ماكس بيبر عن الأدب المصري القديم: Die Agyptische Literatur Von Dr Max Pieper P. 38 ff.

(د) متن القصة

الأمير الوراثي، والباشا، ومدير ضياع الملك في بلاد الآسيويين، والسمير الوحيد للملك، والمحبَّب إليه القاب «سنوهيت»، الخادم «سنوهيت» يقول: كنتُ خادمًا يتبع سيده، وخادم نساء الملك يخدم الأميرة، صاحبة الثناء العظيم، زوجة «سنوسرت» الملكية في بلدة الهرم المسماة «خنم-أسوت»، والابنة الملكية «لأمنمحات» في بلد الأهرام «كانفرو» المسمَّاة «نفرو» المحترمة.

واتفق أنه في السنة الثلاثين، في اليوم التاسع من الشهر الثالث من فصل الفيضان، دخل الإله أفقه[١] — مات.

فطار الملك «أمنمحات» إلى السماء، واتحد مع قرص الشمس، وامتزج جسم الإله بجسم خالقه،[٢] وعندئذٍ صمت القصر، وامتلأت القلوب حزنًا، وأُغلِق البابان العظيمان،[٣] وجلس رجال القصر ورءوسهم على ركبهم، وحزن القوم.

وكان قد أرسل جلالته جيشًا إلى أرض «التمحو»[٤] وكان بكر أولاده «سنوسرت» الطيب ضابطًا فيه، وقد كان في هذه الأثناء عائدًا بعد أن استولى على أسرى من «التحنو»،[٥] وكل أنواع الماشية التي يخطئها العد.

وأرسل أمناء القصر إلى حدود غرب «الدلتا» ليخبروا ابن الملك بالحادث الذي وقع في البلاط، وقد قابَلَه الرسل في الطريق ولحقوا به عند الغروب، فلم يتأخر طرفة عين؛ إذ طار الصقر[٦] مع خادمه، ولم يعلم بذلك الجيش، ورغم ذلك فقد أُرسِلت رسالة[٧] إلى أولاد الملك الذين كانوا معه في الجيش وطلب واحد منهم. وتأمل! لقد وقفت وسمعت صوته حينما تكلَّمَ؛[٨] إذ كنت عن كثب.

وعندئذٍ كان قلبي يتحرق، وخارت ذراعاي، واستولت الرعدة على جميع أعضائي،[٩] فقفزت باحثًا عن مكان أختبئ فيه، فوضعت نفسي بين أيكتين لأفسح الطريق للمسافر فيها.[١٠]

ثم سرت نحو الجنوب، ولم يكن غرضي الوصول إلى مقر الملك؛ لأني فكرت أن الشجار قد يقوم هناك، ولم يكن يهمني أن أعيش بعده، وعبرت ماء «موتى»[١١] القريب من «الجميزة»،[١٢] ووصلت إلى جزيرة «سنفرو»،[١٣] ومكثتُ هناك في الحقول المكشوفة، ثم أخذتُ في السير مبكرًا، وعندما طلع النهار، وقابلتُ رجلًا اعترضني في طريقي، وقد أظهر الرعب مني وخاف، ولما جاء وقت العشاء كنتُ قد اقتربتُ من بلدة «جو»،[١٤] فعبرت في معبر[١٥] بدون سكان، وبمساعدة نسيم ريح الغرب، ومررت إلى الشرق من المحجر الذي في إقليم «سيدة الجبل الأحمر»،[١٦] ثم أسلمت الطريق إلى قدمي متَّجِهًا نحو الشمال، ووصلت «جدار الأمير»[١٧] الذي

كان قد أُقِيم لصد الآسيويين والقضاء على سكان الصحراء، وقد أخبأت نفسي في خميلة؛ خوفًا من أن يراني الحارس الذي كان رابضًا فوق الجدار ليل نهار.

وقد استأنفت السير ليلًا، ولما طلع فجر النهار وصلت إلى «بتن» ووقفت عند جزيرة «قمور»، [١٨] وهنا أُغمي عليَّ حتى سقطت من الظمأ، وكنت صاديًا، وحنجرتي تحترق، وقلت: «هذا هو طعم الموت.» ولكني رفعت قلبي، وجمعت أعضائي؛ لأني سمعت صوت ثغاء الماشية وخوارها، ورأيت بدوًا، وقد عرفني الشيخ[١٩] الذي كان بينهم، وقد كان فيما مضى في مصر، فقدَّمَ إليَّ ماءً، كما كان يعطيني لبنًا، وذهبت معه إلى قبيلته، وقد عاملوني بشفقة.

ثم أسلمتني أرضٌ إلى أرضٍ[٢٠] ثم استأنفت السير إلى «جبيل»، وتابعت السير إلى «قدمي»، وقضيت هناك نصف عام، ثم أخذني «ننشي» بن «آمو» أمير «رتنو العليا»[٢١] وقال لي: «إن حالك معي سيكون حسنًا؛ لأنك تسمع هنا كلام مصر.» وقال لي هذا لأنه عرف صفاتي، وسمع بحكمتي، وقد شهد لي المصريون الذين كانوا معه هناك.

وقال لي: «لماذا أتيت إلى هنا؟ هل حدث شيء في مقر الملك؟» فقلت له: «إن الملك «سحتب أبرع»[٢٢] قد ذهب إلى الأفق، ولا يعرف أحد ماذا تم في هذا الأمر.» وقلت ثانيًا متعاميًا: «إني أتيت من حملة أرض «التمحو»، وقد أخبرت الخبر فارتعدَتْ فرائصي، ولم يَعُدْ قلبي يستقر في جسمي، وقد أقصاني على طريق القفار، مع أنه لم ينم عليَّ أحد، ولم يبصق في وجهي إنسان، ولم أسمع كلمة قذف، ولم يسمع اسمي في فم المنادي،[٢٣] ولا أعرف ماذا أتى بي إلى هذه الأرض، فكأنه القضاء والقدر.»[٢٤] وعندئذٍ قال لي: «وكيف يكون حال تلك البلاد من بعده، ذلك الإله المحسن، الذي كان مُهَابًا في كل الأراضي مثل «سخمت»[٢٥] في عام وباء؟» ولكني قلت له مجيبًا إياه: «في الحق إن ابنه قد دخل القصر وأخذ إرث أبيه، وهو الإله المنقطع القرين الذي لا يفوقه أحد، وإنه رب الحزم المتفوق في النصيحة، والحازم في إعطاء الأوامر، والرواح[٢٦]

والغدو تحت إرادته، وهو الذي أخضع الأراضي الأجنبية، في حين كان والده جالسًا في القصر ليتلقَّى أن ما قد أمر به قد نفذ.

وإنه القوي الذي يحرز «النصرَ» بساعده القوي، البطل الذي لا نظير له عندما يُشاهَد منقضًّا على العدو، أو مقتربًا من حَوْمَةِ الوغى، وهو الذي يثني القرون[٢٧] ويضعف الأيدي، وأعداؤه لا يمكنهم تنظيم صفوفهم.

وإنه لمنتقم، محطِّم للجباه، ولا أحد يجسر على الوقوف بجواره.

وهو الواسع الخطى، المهلك للهارب، ولا نهاية لمَن يولي ظهره له (أي إن الهارب لا يصل إلى غايته سالمًا).

شجاع القلب عندما يرى الجموع، ولا يسمح لقلبه بأية راحة.

الجسور عندما ينقضُّ على الشرقيين، وسروره أن يأسر «الربدتو» — العدو (؟).

وهو يقبض على درعه، ويدوس تحت القدم «العدو»، ولا يعيد ضربته ليقتل (أي لا يضرب إلا ضربة واحدة قاتلة).

وليس هناك مَن حوَّل سهمه «عن هدفه»، وليس هناك مَن حنى قوسه «لصلابته».

و«شعب الأقواس» يهرب أمامه كما يهرب أمام قوة «الآلهة العظيمة».[٢٨]

وهو يحارب بدون نهاية، وهو لا يبقي ولا يذر.

وهو رب الرشاقة، غني في عذوبة، وبالمحبة قد تغلَّبَ «على قلوب الناس».

ومدينته تحبه أكثر من نفسها، وهي تبتهج به أكثر من إلهها.

والرجال والنساء يمرون أمام قصره[٢٩] فرحين به.

وهو ملك قد فتح وهو لا يزال في البيضة (أي طفلًا) وقد كانت وجهته أن يكون ملكًا منذ ولادته.

وهو الذي يكثر عدد مَن وُلِدوا معه،[٣٠] وهو نسيج وحده، ومنحة من الله.

وإن تلك الأرض التي يحكمها تبتهج به، فهو الذي يمد الحدود.

وسيفتح الأراضي الجنوبية، ولكنه إلى الآن لم يلتفت إلى الأراضي الشمالية.

ومع ذلك فقد خُلِق ليضرب «على أيدي» البدو، ويحطِّم سكان الرمال.

أرسل إليه، دعه يعرف اسمك، ولا تنطقنَّ بلعنة ضد جلالته، وهو لا يفوته أن يعمل خيرًا إلى أرض ستكون مسالمة له.»

ثم قال لي: «حقًّا إن مصر سعيدة؛ لأنها تعرف أنه[٣١] يفلح «في حكمه»، ولكن تأمَّلْ! إنك هنا وستسكن معي، وسأعاملك بشفقة.»

وقد جعلني على رأس أولاده، وزوَّجَني من كبرى بناته، وقد جعلني أختار لنفسي من بلاده أحسن ما في حيازته على حدوده إلى بلاد أخرى، وقد كانت أرضًا جميلة تُسمَّى «ياء»، وكان فيها التين والكروم، ونبيذها أكثر من مائها، شهدها غزير، وزيتونها كثير، وكل الفاكهة محملة على أشجارها، وكان فيها الشعير والقمح، وماشية يخطئها العد من كل نوع، وكذلك كان نصيبي عظيمًا بسبب ما نلت من الحب[٣٢] (حب الناس). وقد نصبني حاكم قبيلة من أحسن قبائل بلاده، وقد كان يضع لي الخبز لأكلي اليومي، والخمر لشرابي اليومي، وكذلك اللحم المطبوخ والدجاج المشوي، هذا فضلًا عن صيد الصحراء؛ لأن ذلك كان القوم يصطادونه، ويضعونه أمامي خلافًا لصيد كلابي، وكان يضع لي كثيرًا من الحلوى، ويحضر اللبن بكل الأشكال.

وقد قضيت سنين عدة، وقد نما أولادي، وأصبحوا رجالًا أشداء كلٌّ يحكم قبيلته، والرسول الذي كان يأتي من قِبَل مقر الملك شمالًا أو جنوبًا، كان ينزل عندي، وقد أعطيت ماءً للظمآن، وهديتُ إلى الطريق مَن كان ضالًّا، وخلصت مَن كان قد نهب، ولما أخذ البدو يخرجون عن الطاعة، ويقاومون رؤساء الصحاري كبحت جماحهم؛[٣٣] وذلك لأن أمير فلسطين قد جعلني عدة أعوام رئيس جيشه، وكل بلاد سرت إليها قد طردتها من مراعيها وآبارها، ونهبت ماشيتها، وأسرت أهلها، وحملت طعامهم، وذبحت القوم فيها بساعدي القوي، وبقوسي وهجماتي وتدابيري الحسنة، وقد حزت بذلك الحظوة لديه، وأحبني، وقد جعلني على رأس أولاده عندما شاهَدَ كيف تتفوق يداي.

وقد جاء رجل قوي من فلسطين ليبارزني في معسكري، وقد كان بطلًا منقطع النظير، أخضع كل فلسطين، وقد أقسم أن يحاربني، وقد دبَّر سرقتي، وتآمَرَ على أن يأخذ ماشيتي غنيمةً بمشورة قبيلته، وقد تكلَّمَ معي هذا الأمير فقلت له: أنا لا أعرفه، وفي الحقيقة لست محالفًا له، ولا من الأفراد الذين حاموا معسكره، ومع ذلك هل فتحت بابه قطٌّ أو اخترقت سياجه؟ كلا، إن ذلك حقد؛ لأنه يرى أني أنفذ أوامرك، والحق أني كثور الماشية في وسط قطيع غريب، وثور الأبقار يهاجمه، والثور صاحب القرن الطويل ينطحه؛ وهل يوجد رجل خامل الذكر يكون محبوبًا في منزله سيدًا؟ وليس هناك بدوى يحالف رجلًا من الدلتا؛ إذ ما الشيء الذي يمكن أن يربط البردية بالصخرة؟ هل يحب الثور النزال، ويريد من ثور أقوى منه أن يعلن تقهقره؛ خوفًا من أنه ربما كان مضارعًا له في القوة؟! فإذا كان قلبه مصمِّمًا على الحرب فدعه ينطق بإرادته. وهل الإله يعلم ما قُدِّرَ له، أو هل يعرف هو كيف يكون المصير؟[٣٤]

وفي وقت الليل شددت قوسي، وفوقت سهامي،[٣٥] وأرهفت خنجري، وصقلت أسلحتي، وعند الفجر كانت فلسطين قد جاءت؛ إذ إنها أثارت قبائلها، وحشدت نصف ممالكها، وهيَّأت هذا النزال، وقد برز إلى المكان الذي كنتُ أقف فيه، وقد وقفت بالقرب منه، وكان كل قلب يحترق

من أجلي، ولغط النساء والرجال، وكان كل قلب مكلومًا بسببي، وقالوا: «هل هناك رجل آخَر شديد يستطيع منازلته؟»[٣٦]

ثم سقط درعه وفأسه وحزمة حرابه عندما تفاديت سلاحه، وجعلت سهمه يمر بي طائشًا، ولمَّا اقترب كلٌّ منَّا من الآخَر هاجمني، وأرسلت سهمي عليه فلصق بعنقه، فصاح وسقط على أنفه، وألقيته أرضًا بفأسه، وصحت صيحة النصر على رقبته، وصاح كل آسيوي، وقدمت الثناء «لمنتو»[٣٧] قربانًا، وحزن له أتباعه، أما هذا الأمير «ننشي» بن «آمو» فضمَّني إلى صدره.

وبعد ذلك أخذتُ متاعه، وأتلفت ماشيته، وما قد دبَّره من النكاية بي جعلته يحيق به، واستوليت على كل ما في خيمته، ونهبت معسكره، وقد أصبحت عظيمًا بهذا، واسعًا في ثروتي، غزيرًا في قطعاني.

وقد فعل الإله[٣٨] «ذلك»؛ رحمةً بفرد غضب عليه، وجعله يفر إلى أرض أخرى، واليوم أصبح قلبه فرحًا ثانية.

كنت فارًّا هرب في وقته
والآن يكتب التقرير عني في مقر المليك
وكنت ثقيلًا يتضاءل بسبب الجوع
والآن أقدم الخبز إلى جاري
وكنت رجلًا ترك بلاده بسبب العري
والآن أرتدي الملابس البيضاء والكتان
وكنت رجلًا أُسرِع الخطى لعدم من أرسل
والآن أملك العبيد بكثرة
بيتي جميل، ومحل إقامتي رحب
وإني أُذكَر في القصر الملكي.

وأنت يأيها الإله، أيًّا كنتَ، الذي أمرتَ بهذا الهرب، كُنْ رحيمًا وأعدني ثانية إلى مقر الملك، وربما تسمح لي أن أرى المكان الذي يسكن فيه قلبي، والأمر الذي هو أهم من ذلك أن تدفن جثتي في الأرض التي وُلِدت فيها، تعالَ لمساعدتي. ولقد وقع حادث سعيد، لقد جعلت الإله يرحمني، وليته يرحمني ثانية؛ حتى تحسن خاتمة مَن قد عذَّبه، وقلبه رحيم يحن لمَن حتم عليه أن يعيش في الخارج، وإذا كان رحيمًا بي اليوم فليته يصغي إلى دعوات فرد ناءٍ، وليته يعيد مَن قد نكبه إلى المكان الذي أخذ منه.

آه ليت ملك مصر يرحمني حتى أحيا برحمته، وليتني أسأل سيدة الأرض التي في قصره عن إرادتها، وليتني أسمع أوامر أولادها.

آه ليت جسمي يعود إلى الشباب ثانية؛ لأن كبر السن قد نزل بي، واستولى عليَّ الضعف، وعيناي ثقيلتان، وذراعاي ضعيفتان، وساقاي قد وقفتا عن السير، وقلبي متعب، والموت يقترب مني، حينما سأحمل إلى مدن الأبدية[٣٩] دعني أخدم سيدتي الملكة، وليتها تتحدَّث إليَّ عن جمال أطفالها، وليتها تخلع عليَّ «قبرًا» للأبدية.[٤٠]

واتفق أن جلالة الملك «خبركارع»[٤١] قد حُدِّث عن الحالة التي كنتُ عليها،[٤٢] وعلى ذلك أرسل إليَّ جلالته هدايا من الفيض الملكي لينشرح صدر الخادم هناك،[٤٣] كأنه أمير بلد أجنبي، وكذلك أولاد الملك في القصر جعلوني أسمع أوامرهم.[٤٤]

صورة من القرار الملكي الذي أُحضِر إلى الخادم المتواضع خاصًّا بعودته إلى مصر

«حور»، حياة المواليد الممثل للآلهتين حياة المواليد، ملك الوجه القبلي والوجه البحري «خبركارع» بن «رع»، «سنوسرت»، الحي إلى أبد الآبدين.[٤٥]

قرار ملكي إلى التابع «سنوهيت»

انظر، إن قرار الملك هذا قد أُحضِر إليك ليُعلِمك بما هو آتٍ: «لقد اخترقت الأراضي الأجنبية، وخرجت من «كدمى» إلى فلسطين، وقد أسلمَتْكَ أرض إلى أرض، وذلك بمشورة قلبك، فما الذي فعلته حتى يبرم شيء ضدك؟ إنك لم تلعن حتى تعنف على كلامك، ولم تتكلم في محفل الحكام حتى يُلعَن حديثك، وهذا العزم «على الفرار» قد ملك عليك قلبك أنت، ولم يكن في قلبي شيء ضدك «عن هذا الهرب»، ولكن سماءك هذه[٤٦] التي في القصر لا تزال تسكن وتفلح اليوم، ولها نصيبها في ملك الأرض وأولادها في البلاط، وليتك تعيش طويلًا على الأشياء الطيبة التي سيعطونك إياها،[٤٧] وليتك تحيا على فيضهم.

تعالَ ثانية إلى مصر لترى مقر الملك الذي تموت فيه، وتقبل الأرض عند البابين العظيمين، وتنال نصيبك بين رجال القصر.

وذلك لأنك قد أخذتَ فعلًا تتقدَّم اليوم في السن، وقد ضيعت شبابك، فكِّرْ في يوم الدفن، والمرور إلى دار النعيم![٤٨] وكيف سيخصص الليل لك بالعطور والأكفان من يد «تايت»،[٤٩] وسيُقَام لك محفل جنازي يوم الدفن، وسيكون غطاء المومية من الذهب، والرأس من اللازوَرد، وسيقام فوقك سماء،[٥٠] وستوضع زحافة،[٥١] وتجرك الثيران، ويمشي أمامك المغنون، ويقام أمامك رقص «مور» عند باب قبرك، وقائمة مائدة القربان ستُتلَى من أجلك، وتُذبَح الضحايا بالقرب من لوحتك، وعمدك[٥٢] تُصنع من الحجر الأبيض في وسط مقابر أولاد الملك، وعلى ذلك لن تموت في الخارج، ولن يدفنك الآسيويون، ولن توضع في جلد غنم عندما يُصنع لك قبرك، حقًّا كل هذه الأشياء ستسقط في الأرض، ولهذا يجب عليك أن تفكِّرَ في جثتك وتعود.

وقد وصلني هذا القرار الملكي عندما كنتُ واقفًا في وسط قبيلتي، وقد قُرِئ عليَّ فانبطحت على بطني، ولمست التراب، ونثرته على شعري، ومشيت حول معسكري فرحًا قائلًا: «كيف تُفعَل أشياء مثل هذه لخادم قد أضَلَّه قلبه، وقاده إلى أراضٍ متوحشة؟! نعم، إن ذلك الواحد المحسن الذي يخلصني من الموت طيب حقيقة، وإن[٥٣] حضرتك ستسمح لي بأن أختم نهاية حياتي في مقر الملك.»

صورة من الاعتراف بهذا القرار الملكي

يقول خادم نساء القصر «سنوهيت» — في سلام غاية في الرقة — إنه من المحقَّق أن هذا الهرب الذي ارتكبه الخادم هناك «أنا» كان بدون تعقُّل، بحياتك أنت يأيها الإله الطيب يا رب الأرضين،[٥٤] المحبوب من «رع»، المثنى عليه من «منتو» رب «طيبة»، ليت «آمون» رب الكرنك، و«سبك»، و«رع»، و«حور»، و«حاتحور»، و«آتوم»، و«تاسوع الآلهة»، و«سبدو-نفربايو-سهرو» حور الشرقي،[٥٥] وسيدة «بوتو» الموضوعة فوق رأسك،[٥٦] وإلهة الماء، و«مين-حور»، الذي يوجد في البلاد الأجنبية، و«وررت» سيدة «بنت»، (بلاد الصومال) و«حرور-رع»، وكل آلهة مصر وجزر البحر؛[٥٧] ليتهم كلهم يمنحون أنفك الحياة، وليتهم يمنحونك هداياهم، وليتهم يعطونك الأبدية المطلقة، والخلود الأبدي.

والناس يتحدثون عن الخوف منك في السهل والحزن، وقد أخضعت كل ما تحيط به الشمس، وهذه الصلاة من الخادم هناك «أنا» إلى سيده لينجيه من الغرب،[٥٨] رب الفطنة الذي يفهم صغار الناس، قد أدركها في قصره المنيف[٥٩] والخادم هناك خاف أن يقولها؛ لأن ذلك أمر خطير أن يعيدها، وأنت أيها الإله العظيم الذي يماثل «رع» في إعطاء الفطنة لفرد يجاهد لنفسه، وخادمك هذا في يد ناصح طيب في مصلحته، وفي

الحق إني قد أصبحت تحت إرشاده؛ لأن جلالتك «حور» المظفر، وساعداك قويان على كل البلاد.

والآن فَلْتأمر جلالتك أن يحضر «مكي» من «كدمي»، «وخنتواش» من بلاد «خنتكش»، و«منوس» من أراضي «الفنخو»، وهم أمراء مشهورون قد نموا على حبك غير أنهم منسيون، وفلسطين ملكك كأنها كلابك.[٦٠]

أما من ناحية هذا الهرب الذي فعلته فلم أدبره، ولم يكن في قلبي، ولم أفهمه، ولم أعرف الشيء الذي أقصاني عن مكاني، وقد كان ذلك كحلم كما لو كان رجل من الدلتا يرى نفسه على غفلة في «الفنتين»، أو رجل من المستنقعات في النوبة، ولم يكن هناك أي شيء أخافه، ولم يطاردني إنسان، ولم أسمع أي كلام معيب، واسمي لم يُسمَع في فم المنادي، وكل ما حدث أن جسمي أخذته الرعدة وبدأت قدماي تخوران، وقادني قلبي، والإله الذي أمر بهذا الهرب جرني بعيدًا، ومع ذلك لم أكن دعيًّا من قبلُ،[٦١] على أن الرجل الذي يعرف بلاده يخاف؛ لأن «رع» قد بث خوفك في كل الأرض، والرعب منك في كل البلاد الأجنبية، وسواء أكنت في مقر الملك أم في هذا المكان، فإنك أنت الذي في قدرتك أن تظلم ذلك الأفق،[٦٢] وتطلع الشمس بإرادتك، ومياه النهر تشرب حينما تريد، وهواء السماء يُستنشَق حينما تأمر.

وسيسلم خادمك مركز الوزارة الذي كنت أشغله في هذا المكان،[٦٣] ولكن دَعْ جلالتك تفعل ما تريد، فالناس يعيشون على النفس الذي تمنحه، ليت «رع» و«حور» و«وحاتحور» يحبون أنفك الرفيع[٦٤] الذي يريد «منتو» رب طيبة أن يبقى إلى الأبد.

وقد حضر إلى هذا الخادم الرسل، وقد سمح لي أن أمضي يومًا في «ياء»، وسلمت فيه متاعي إلى أولادي، فأصبح ابني الكبير المشرف على قبيلتي، وكل ما أملك أصبح في

يده: عبيدي، وكل ماشيتي، وفاكهتي، وكل شجرة لذيذة أملكها.

ثم سار هذا الخادم المتواضع نحو الجنوب، ووقف عند «ممرات-حور»[٦٥] وأرسل القائد الذي كان مكلَّفًا بحراسة الحدود هناك رسالةً إلى مقر الملك تحمل الأخبار بوصولي، فأرسل جلالته أحد رؤساء الصيد في القصر ممَّن يثق بهم ومعه سفن محمَّلة بالهدايا من الفيض الملكي، للبدو الذين أتوا معي ليقودوني إلى «ممرات-حور»، وقد ناديت كلًّا منهم باسمه.[٦٦]

وكان صنَّاع الجعة يعجنونها ويصبونها في حضرتي، وكان كل خادم منهمكًا في عمله، ثم أخذت في سياحتي إلى أن وصلت بلدة «فاتحة الأرضين»[٦٧] وعند انفلاق الصبح، أتوا ليطلبوني مبكرين جدًّا، وقد كان عشرة رجال يأتون، وعشرة رجال آخَرين يذهبون ليقودوني إلى القصر.

واستلمت الأرض بين تماثيل أبي الهول بجبهتي، ووقف أولاد الملك عند الباب، واستقبلوني، أما أمناء القصر الذين يقودون إلى القاعة فإنهم ذهبوا بي إلى الطريق المؤدية إلى الحجرة الخاصة، فوجدت جلالته على عرشه العظيم في مدخل من الذهب، فانبطحت على بطني، وذهب عني عقلي في حضرته، مع أن هذا الإله حيَّاني بفرح. وقد كنتُ كرجل أطبق عليه الظلام؛ إذ فرت روحي، وتزلزلت أعضائي، ولم يَعُدْ قلبي في جسمي، ولم أشعر إذا كنتُ حيًّا أو ميتًا.

وعندئذٍ قال جلالته لأحد هؤلاء الأمناء: «ارفعه ودعه يكلمني.» وقال جلالته: «انظر! لقد عدتَ بعد أن قطعت الصحاري، واخترقت الفيافي، والكبر قد تغلَّبَ عليك، وقد بلغت الشيخوخة، وإنه ليس بالأمر الهين أن يُدفَن جسمك في الأرض، دون أن يسير في مشهدك المتوحشون، ولكن لا تَبْقَ هكذا صامتًا باستمرار عندما ينطق باسمك.» ولكن

في الحق خفت العقاب، وأجبت عن ذلك جواب الخائف: «ماذا يقول سيدي لي؟ ليت في مقدوري أن أجيب عليه، ولكن لا يمكنني. انظر! كأن ذلك يد الله؛ إذ إن الفزع الذي في جسمي كالفزع الذي سبب هذا الهرب الذي قُضِي به عليَّ. انظر إنني في حضرتك والحياة ملكك، وليت جلالتك تتصرف كما تريد.»

ثم أمر بدخول أولاد الملك، وقال جلالته للملكة: «انظري، هذا هو «سنوهيت» الذي عاد كآسيوي من نسل أهل البدو.» فصاحت صيحة عالية جدًّا، وكذلك صاح أولاد الملك معًا، وقالوا لجلالته: «حقًّا كأنه ليس هو يأيها الملك، يا سيدي.» فقال جلالته: «حقًّا إنه هو.» وبعد ذلك أحضرن معهن عقودهن ودفوفهن وصاجاتهن ورفعنها إلى جلالته[٦٨] قائلات: «لتكن يداك على الواحدة الجميلة، أيها الملك الخالد، على حلي «سيدة السماء»، ليت «الواحدة الذهبية»[٦٩] تمنح الحياة أنفك، و«سيدة النجوم»[٧٠] تضم نفسها إليك. دَعْ آلهة الوجه القبلي تنحدر مع النهر، وآلهة الوجه البحري تصعد مع النهر[٧١] متحدتين ومنضمتين في اسم جلالتك.[٧٢] ليت الصِّل يُوضَع على جبهتك، لقد خلصت رعاياك من الأذى. ليت «رع» يكون رحيمًا بك يا سيد الأرضين، مرحبًا بك وكذلك بملكتنا. أخرِجْ قرنك[٧٣] وانزعْ قوسك، وامنَحِ النفس مَن قد اختنق، وامنحنا هدية جميلة للعيد. هذا الشيخ ابن آلهة الشمال،[٧٤] البدوي المولود في مصر.

وقد هرب خوفًا منك، وترك الأرض رعبًا منك، ولكن الوجه الذي قد رأى جلالتك لن يصفرَّ بعدُ، وأما العين التي شاهدتك فلن تخاف.»[٧٥]

وعندئذٍ قال جلالته: «لن يخاف، ولن يرتاع؛ لأنه سيصير أمينًا في القصر بين الحكام، وسيُوضَع بين رجال الحاشية. اذهبوا إلى قاعة الزينة[٧٦] لتكونوا في خدمته.»

وبعد أن تركت الحجرة الخاصة، وقد صافحني أولاد الملك، ذهبنا إلى البابين العظيمين،[٧٧] وقد أسكنت في بيت ابن من أولاد الملك، وكان مزيَّنًا بثمين الأثاث، وكان فيه حمام وأشكال ملونة للأفق، وكان فيه أشياء ثمينة من الخزانة، فكان فيه ملابس الكتان الملكي والبخور والزيت الثمين الخاص بالملك ورجال البلاط الذين يحبهم، وكان كل خادم في عمله، وقد أخذت السنون تذهب عن جسمي، وأزيلت لحيتي ورُجِّل شعري، وقد ألقي في الصحراء حمل أوساخ، وأعطيت الملابس القذرة رجال الرمال.

وقد زُيِّنْتُ بأحسن ملابس الكتان، ودُلِّكت بأحسن الزيت، وفي الليل نمت على سرير، وتركت الرمال لمَن هم فيها، وزيت الخشب لمَن يدلِّك نفسه به.

وقد أهدي لي بيت حاكم مقاطعة كما يليق بسمير ملكي، وقد بناه كثير من الصناع، وكانت كل الصناعة الخشبية فيه جديدة.

وكان يؤتى إليَّ بالطعام من القصر ثلاث مرات وأربع مرات في اليوم، هذا فضلًا عن أعطانيه أولاد الملك بدون انقطاع في أي وقت.

وقد أُقِيم لي قبر من الحجر في وسط المقابر،[٧٨] والبنَّاءون الذين ينحتون المقابر قد وضعوا تصميمه، وكبير مهندسي العمارة بدأ في بنايته (؟)، وأخذ النقَّاشون ينقشونه، وأخذ مهرة النحاتين ينحتون فيه، أما رؤساء بنَّائي الجبانة فوجَّهوا عنايتهم له،[٧٩] وكل ما يحتاج إليه من لامع المتاع الذي يُوضَع في القبر[٨٠] قد مُدَّ به، وقد رتب لي كهنة جنازيون، وصُنِعت لي حديقة للقبر كان فيها حقول مقابلة لمأواي كما كان يُصنَع للسمير الأول للقصر، وقد رُصِّعَ تمثالي بالذهب[٨١] ومئزره كان من خالص النضار، وإن جلالته هو الذي أمر بصنعه، وليس هناك رجل فقير قد عمل له مثل ذلك، وقد تمتعت بعطف من الفيض الملكي إلى أن أتى يوم الممات.

«كُتِبت من البداية إلى النهاية كما وُجِدت مخطوطة.»

(١-٢) قصة الغريق

(أ) ملخص القصة

في يوم أرسل الملك أميرًا من أمراء الفنتين إلى أرض الإله — بلاد الصومال — ليحضر بعض النفائس، فلم يُوفَّق في مهمته فرجع خائبًا، ولاقى في طريقه أهوالًا عظيمة وصل بعدها إلى أرض الوطن سالمًا، ولكنه كان حزينًا يتوقَّع شرًّا مستطيرًا عند مقابلته لفرعون وإخباره بما مُنِي به من الفشل، وكان له تابع أمين أحزنه ما رآه على وجه متبوعه من الحزن والألم، فأراد أن يهدئ خاطره، ويخفِّف من آلامه، فذكر له «أنه كان مسافرًا على ظهر سفينة إلى بعض الأصقاع الغنية بمعادنها، ليؤدي رسالة ملكية — ويظهر أن الأرض التي كان يقصدها هي سيناء — وحدث أن ثارت عاصفة هوجاء حطمت سفينته، وأرسلتها إلى قعر البحر، فغرق ركَّابها ولم ينجُ إلا ذلك التابع البحَّار؛ حيث حمله الموج على أجنحته إلى جزيرة رملية، فلما أفاق من غشيته رأى أمامه ثعبانًا هائلًا فكاد يطير قلبه شعاعًا، ولكن ذلك الثعبان الهائل حارس الجزيرة أحسن استقباله، وأخذ يطيب خاطره، ويسري عنه بذكر مجازفة حدثت له مثل مجازفة ذلك البحَّار، وانتهت بنجاته، ثم تنبَّأ له بأن سفينة مصرية ستمر بهذه الجزيرة، وستحمله إلى مصر سالمًا.» ويظهر أن هذه القصة، التي قصها التابع ليتأسى بها متبوعه ولتهدأ بسماعها نفسه، إذا ما رأى أن الأمور المحزنة قد تنتهي بخير وسلام؛ لم تُحدِث أثرَها المطلوب في نفس سامعها؛ إذ إن البحار ما كاد ينتهي من سردها حتى فاجأه ذلك الأمير بقوله: «إن قولك هذا كمَن يسقي طيرًا في الصباح المبكر ليذبحه بالنهار.» أي إنه مقضي عليه بالموت لا محالة، فلا فائدة من هذه المسكِّنات.

(ب) دراسة القصة

تُعَدُّ هذه القصة من القصص النادرة التي وصلت إلينا كاملة غير منقوصة؛ فقد جاء في نهايتها: «لقد كُتِبَ هذا الكتاب من البداية إلى النهاية.» على عادة الكتَّاب المصريين إذا انتهوا من كتابة مقالة — شعرًا أو نثرًا — ذيَّلوها بهذه العبارة، فلم يُفقَد إذن من نهايتها شيء، كما أن بدايتها ليست مهشمة أو ممحوة، فالقصة على ما نعتقد كاملة، ولكنا لاحظنا أن استهلالها كان نسيجَ وحدِه، وليس له نظائر سابقة في القصص؛ فقد جاء فيه: «يقول خادم حاذق: كُنْ فرحًا أيها الأمير، لقد وصلنا إلى مقر الملك، وقد أُخِذت المطرقة، ودُقَّتْ أوتاد المرسى، وأُلقِيت الحبال على البر.» ولم تُذكَر المقدمة التي تشير إلى تكليفه من الفرعون بمهمة في الأقاليم الجنوبية وفشله فيها، مما اضطر معه إلى العودة لمصر متجشمًا الأهوال، ولكن تصورها بالصيغة التي أوردناها بها أمر محتمل راجح.

وليس من البعيد أن تكون هذه القصة واحدة من سلسلة قصص متصلة الحلقات لم تصل إلينا، فكان مع الأمير أتباع كثيرون؛ كل واحد منهم يقص قصة فيها تخفيف من آلام الأمير، وتسرية عن قلبه، وطمأنته من ناحية النتيجة التي يخشاها، على مثال قصة الملك خوفو والسحرة في العهد القديم، وقصة ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة في العصر الحديث.

وإذا قرنتها بقصة «الملك خوفو والسحرة» وجدتَ تشابهًا في موقف التابع وسرده حكايته، واختلافًا في أن الملك في قصة خوفو كان يريد تسلية نفسه، وطرد الهموم عنها، وفي قصتنا كان أتباع الأمير هم الذين يريدون ذلك؛ فيتناوبون سرد القصص لهذه الغاية.

وإذا صَحَّ أن قصة الغريق سلسلة من القصص كانت التي ذكرناها هنا آخرتها؛ بدليل وجود هذه العبارة التي سبق ذكرها، والتي تدل على نهاية المطاف: «لقد أُخِذت المطرقة، ودُقَّتْ أوتاد المرسى، وأُلقِيت الحبال على البر، وكان الثناء والحمد لله، وقد عانق كل فرد زميله.»

ونلاحظ أن الكاتب هنا قد خالَفَ ما تواضَعَ عليه القاصُّون القدماء من بدء قصصهم بجمل فعلية تدل على الاستمرار، ومن وضع عنوان لها مأخوذ من مقدمتها، كما نجد في قصة «الفلاح الفصيح»، وقد يكون عنوانها: «هذه هي قصة أمير الفنتين وتابعه» والكاتب تركه سهوًا.

وقصة الغريق بهذا الوضع الذي سبق تصويره لا يمكن أن تكون قصة للعامة؛ فهي قطعة أدبية ذات أسلوب رشيق ترمي إلى أهداف سامية، وتعبِّر عن عواطف مختلفة، فنرى القاصَّ يتألَّم لغرق سفينته بركَّابها، وعدم نجاة أحد سواه، ويتألَّم لوصوله إلى جزيرة لا إنسان فيها، ويعبِّر لنا عن خوفه وهلعه عند ظهور حاكم الجزيرة الروحاني — وهو ثعبان عظيم الجسم له رأس إنسان — واطمئنانه بعد أن حادَثَه ووجد منه عطفًا عليه، فالدمعة الأولى والابتسامة الأخيرة وردتا متتابعتين في عبارة موجزة، كما نرى القاصَّ والثعبان قد تطارَحَا ما أصابهما في حياتهما، وجاءت على لسان الثعبان عظة ليس لها علاقة مباشرة بالموضوع، وهي: «ما أشد فرح الإنسان الذي يقص ما ذاقه بعد زوال الكارثة.» ثم نبأ الشهاب الذي انقض من السماء فأهلك أهله. وفي القصة إيجاز حول الغرض من هذه المطارحات، وتوضيحها أن الثعبان أراد أن يقول: «لقد حدث لي أفجع مما حدث لك، ومع ذلك فقد خرجتُ سالمًا، وما زلتُ سائرًا في حياتي.» وكأنه أراد أن يقول له: «يجب أن تنظر إلى الأمور ببسالة وثقة، فإنك لم تلاقِ من المصائب ما لاقيتُ أنا.» فنصحه قائلًا: «إذا كانت لديك شجاعة، فعليك أن تكبح جماح قلبك.» ثم طمأنه على أنه سيعود إلى وطنه بعد أربعة أشهر، وسيرى ثانية زوجته وأولاده.

أما الحالة النفسية للغريق، فيبدو لنا من القصة أنها تحسَّنت كثيرًا، فها هو الغريق يشكر الثعبان من أعماق قلبه، وتدفعه تلك الحالة النفسية الطارئة على أن يقدِّم إليه فروض العبادة والخضوع، وعلى أن يَعِده بعظيم الهدايا، ولكن الثعبان يعفيه من ذلك في سخرية مستترة فيقول: «ما الذي تريد أن ترسله إليَّ؟ إن عندي من ذلك الفيض الغزير.» ثم عقَّبَ على ذلك بما يحرِّك النفس

الساكنة: «لا يمكنك أن ترسل إليَّ شيئًا بعدُ، فإن الجزيرة سيغمرها الماء.» — أي ستختفي وتزول — وكأنه أراد أن يقول له: وأنا بالتالي سأختفي وأزول معها، وينتهي أمري بالموت.

وهنا يثب إلى أذهاننا ما جاء في قصة «ألف ليلة وليلة» مشابهًا لما ذُكِر؛ إذ نسمع الرسول يقول عند خروج السلطان: «هذا هو سلطان الهند العظيم، وهذا السلطان العظيم لا بد أن يموت، لا بد أن يموت.»

وإذا كان كل حي إلى زوال، فكل شدة إلى فرج، وهذا ما كان؛ فقد عاد القاص إلى وطنه سليمًا معافًى، ولقي من الملك العطف والرضا. وإذا كان بعض الغافلين يعتقد أن القاص أورد قصته ناقصة هذه النتيجة، فإن اليقظ منهم لا بد واصل بثاقب نظره إليها، وإن مَثَل الفرعون مع الأمير كمَثَل الثعبان مع الغريق، كلاهما عطف على تابعه وأحسن إليه.

ولا نزاع في أن هذه القصة شرقية بروحها، وهي فضلًا عن ذلك تقدِّم لنا أثمن ما يقدِّمه الشرق من إيجاز، وحسن سبك، ومهارة في التعبير، وحكمة بالغة، ولقد استطاع القاص بمهارته ألَّا يجعل قصة البحار تطغى على قصة الأمير، وهي المقصودة لِذَاتها بما أورده في نهاية القصة من العبارات التي تلفت الذهن إليها.

ولقد كنَّا في شوق لأن نعرف أكثر مما عرفنا عن أول قصة وصلتنا تدور حول بحَّار مصري، ولكنها كُتِبت كما قلنا للطبقة الراقية من المتأدبين القدماء؛ فكان نصيبها الإيجاز.

والسؤال الذي يرتسم أمام الباحثين الآن: أترى قد عنيت الأساطير المصرية بالثعبان، فجعلته بطلًا يدور حوله كثير من الأقاصيص كما كان للثعبان «الدراجون» في عالم الخرافات اليونانية؟ أم اكتفت الأساطير المصرية بتقديمه لنا في قصة الغريق وحدها؟ ونحن من جهتنا لا نستطيع الجزم بأحد الأمرين؛ فقد تكون الأرض محتفظة بقصص من هذا القبيل، والتي ذكرناها هنا تثبت ميل المصريين ونزوعهم إلى هذا النوع من الخيال والسحر، وكلنا يعلم أن اليونان قد

أخذوا كثيرًا عن المصريين في آدابهم وخرافاتهم، فليس ببعيد إذن أن يكون الثعبان قد لعب دورًا كبيرًا في عالم الأساطير المصرية، ولم ينفرد اليونان بذلك، كما أثبتت قصة «حور» و«ست»، أن القصص المصري جعل من الآلهة أبطالًا، ولم يكن اليونان وحدهم أصحاب الفضل في ذلك، والكلمة الآن لما سوف تجود به علينا الكشوف الحديثة.

(جـ) المصادر

عثر الأستاذ «جلونيشف» العالم الأثري الروسي على الورقة التي كُتِبت عليها هذه القصة، وهي محفوظة الآن في متحف لييننجراد، وهو أول مَن درسها ثم درسها غيره كما يأتي:

(1) Golenischeff, Le Conte du Naufragé (Cairo 1912).

(2) Erman. Zeitschrift fur Agyptische Sprache X L III P. 1 ff.

(3) Gardiner. Notes on the Tale of the Shipwrecked Sailor in Zeitschrift fur Agyptische Sprache XIV P. 60 ff.

(4) Notes in the Journal of Egyptian Archeology Vol. XXII P. 37. by Blackman.

(5) Peet, A Comparative Study of the Literatures of Egypt. Palestine and Mesopotamia P. 28 ff.

(6) Maspero, Populor Stories of Ancient Egypt. P. 98 ff.

(7) Erman. The Literature of the Ancient Egyptians P. 29 ff C translated by Blackman.

(8) Dr. Max Pieper. Die Agyptische Literatur. P. 43 ff.

(9) The Metrical Scheme of The Shipwrecked Sailor by Vladimir Vikenfiev in Bulletin De L'institut. Français D'Archeologie orientale T. XXXV. P. 1 etc.

(د) متن القصة

يقول تابع حاذق: كُنْ فَرِحًا أيها الأمير، انظر لقد وصلنا إلى مقر الملك،[٨٢] وقد أُخِذت المطرقة، ودُقَّت أوتاد المرسى، وأُلقِيت حبالها على البر، وكان الثناء والشكر لله، وقد عانَقَ كل فرد زميله، وقد وصل ملَّاحونا سالمين أصحاء، ولم نفقد من جنودنا أحدًا، وقد وصلنا إلى أقصى «واوات» ومررنا «بسنموت». تأمَّلْ! لقد عدنا بسلام ووصلنا إلى بلادنا، أصغِ إليَّ أيها الأمير، إنني فرد خلو من المبالغة. اغسل نفسك، وصب الماء على أصابعك، وأجب عندما تحيا، وتكلَّمْ إلى الملك وأنت مالك لشعورك، وأجِبْ في غير تلعثم، وإن فم الإنسان هو الذي ينجيه، وكلامه هو الذي يجعل الناس يرفقون به، وستفعل ما يحلو لك، وعلى ذلك فالكلام[٨٣] معك غير مُجْدٍ.

ومع ذلك سأقصُّ عليك شيئًا مماثلًا لقصتك، فقد حدث لي شخصيًّا عندما أقلعت إلى إقليم مناجم الملك[٨٤] ذاهبًا إلى البحر في سفينة ذرعها ١٢٠ طولًا و٤٠ عرضًا، وكان فيها ١٢٠ بحَّارًا من نخبة مصر، وكانوا يتعرَّفون السماء، وكانوا يتعرَّفون الأرض، وكانت قلوبهم أثبت من قلوب الأسود، وكانوا يتنبئون بالعاصفة قبل أن تحدث، والزوبعة قبل أن تمر.

وقد هَبَّتْ عاصفة ونحن ما زلنا في البحر، وقبل أن نصل إلى الأرض، وقد قامت الريح فضاعفت من شدتها، وجاءت موجة ذرعها ثمانية ارتفاعًا، وقد حملت من على سطح السفينة مع الصاري.

وبعد ذلك غرقت السفينة ولم يَبْقَ إلا واحد من بين الذين كانوا فيها، وقد رمت بي موجة إلى جزيرة، وقد قضيت ثلاثة أيام وحيدًا ولم يكن لي رفيق غير قلبي، ونمتُ في خباء من الخشب، واحتضنت الفيء[٨٥] ثم وقفت على قدمي لأجد ما يمكن أن أضعه في فمي، فوجدت تينًا وعنبًا هناك وكل أنواع الخضر الجميلة، وكان هناك فاكهة «كاو» و«نكوت» وخيار كأنه مزروع، وكان هناك سمك وطيور، ولم يكن هناك شيء لا يوجد فيها،[٨٦] وعندئذٍ أشبعت نفسي، وتركت بعضها على الأرض؛ لأن حمله كان ثقيلًا على ذراعي، ثم أخذت زنادًا، وأوقدت نارًا لنفسي، وقدمت قربانًا مشويًّا للآلهة.

وبعد ذلك سمعت صوت رعد، وظننت أنها موجة بحر، فتكسرت الأشجار وزلزلت الأرض، ولما كشفت عن وجهي[٨٧] وجدت أنه ثعبان يقترب مني، وكان ذرعه ثلاثين ذراعًا طولًا، ولحيته يزيد طولها على خمسة أذرع، وكان جسمه مرصَّعًا بالذهب، وحاجباه من خالص اللازورد،[٨٨] وقد كان غاية في العقل، ثم فغر فاه لي حينما كنتُ ملقًى على بطني أمامه وقال لي: «مَن أحضرك هنا؟ مَن أحضرك هنا أيها الصغير؟ مَن أحضرك هنا؟ وإذا تأخرت عن إجابتي عمَّن أحضرك إلى هذه الجزيرة جعلتك لا تجد نفسك إلا ترابًا، وتصير كالذي لم يكن قد رئي.» [٨٩] فأجبت: «إنك تتحدث إليَّ ومع ذلك لم أسمع ما تقول، إني في حضرتك ولكن حواسي قد ذهبت.»

وبعد ذلك أخذني في فمه وأحضرني إلى جحره، ووضعني دون أن يلمسني، وكنت صحيحًا ولم يُمزَّق شيء مني،[٩٠] وفغر فاه لي عندما كنتُ ملقًى على بطني أمامه، وقال لي: «مَن أحضرك إلى هنا؟ مَن أحضرك إلى هنا أيها الصغير؟ مَن أحضرك إلى جزيرة البحر هذه التي يحيط بها الماء من الجانبين؟» وقد أجبته وذراعاي مثنيتان[٩١] في حضرته وقلت له: «إني فرد ذهبت إلى المناجم في أمر للملك في سفينة ذرعها ١٢٠ طولًا و٤٠ عرضًا، وكان فيها ١٢٠ بحَّارًا من نخبة مصر، وكانوا يتعرَّفون السماء، وكانوا يتعرَّفون الأرض، وكانت قلوبهم أثبت من قلوب

الأسود، وكانوا يتنبئون بالعاصفة قبل أن تحدث، والزوبعة قبل أن تكون، وكان كل واحد منهم شجاع القلب، قوي الساعد أكثر من زميله، ولم يكن بينهم أحمق، وقد هبت عاصفة ونحن لا نزال في البحر قبل أن نصل إلى الأرض، وقد قامت الريح فضاعفت من شدتها، وجاءت موجة ذرعها ثمانية ارتفاعًا، وقد حملت من على سطح السفينة مع الصاري، وبعد ذلك غرقت السفينة بمَن كانوا فيها ولم يَبْقَ غيري. وتأمَّلْ! فإني هنا بجانبك وقد أُحضِرت إلى هذه الجزيرة بموجة البحر.»

وعندئذٍ قال لي: «لا تخف، لا تخف أيها الصغير، ولا تدع محياك يصفرُّ ما دمت قد جئت إليَّ. انظر! لقد حفظك الإله حيًّا؛ ليحضرك إلى جزيرة الطعام «الوفير»[٩٢] التي لا شيء إلا وينمو فيها؛ لأنها مفعمة بكل شيء حسن. وانظر ستمضي الشهر بعد الشهر في هذه الجزيرة إلى أن تتم أربعة أشهر، ثم تأتي سفينة من مقر الملك تحمل بحَّارة تعرفهم، وستذهب معهم إلى مقر الملك، وتموت في نفس بلدك.

ما أشد فرحة الذي يقص ما جرى له بعد أن تمر الكارثة، وهكذا سأقص عليك شيئًا مماثلًا لهذا قد حدث في هذه الجزيرة،[٩٣] وذلك أنني كنت فيها مع إخوتي، وأطفالي في وسطهم، وكان كل عددنا ٧٥ ثعبانًا (أولادي وإخوتي) هذا غير بنت امرأة مسكينة كانت قد أحضرت إليَّ …[٩٤] ثم انقض شهاب، فذهب هؤلاء في النار بسببه (أي الشهاب) وقد حدث ذلك، وأنا لست مع المحرقين (؟) ولم أكن بينهم، وقد كدت أموت من أجلهم عندما وجدتهم كومة من الجثث.

«فإذا كنتَ شجاعًا فاكبح جماح قلبك،[٩٥] على أنك ستضم أطفالك، وتقبِّل زوجتك، وترى منزلك، وهذا أحسن من كل شيء، وستصل إلى مقر الملك، وتسكن هناك في وسط أولادك.»

وعند ذلك ألقيت بنفسي على بطني، ولمست الأرض في حضرته، وقلت له: «سأتحدث للملك عن قوتك وأعلمه بعظمتك، وسأعمل على أن يجلب إليك «إبي»، و«حكنو»، و«أدنب»،

و«خسلت»،[٩٦] وكذلك بخور المعابد التي يسر لها كل إله، وسأقص ما حدث لي وما قد شاهدت ... وستشكرني المدينة أمام ضباط الأرض كلها، وسأذبح لك ثيرانًا قربانًا مشويًّا، وأضحي لك الأوز، وسأرسل لك سفنًا محمَّلَة بكل بضائع مصر الثمينة، كما يجب أن يفعل لإله يحب الناس في أرض نائية لا يعرفها الناس.» عند ذلك ضحك مني ومما قلت، كأن ذلك سخافة لقلبه[٩٧] وقال لي: «ليس عندكم «عنتيو»[٩٨] بكثرة، ولا تملكون إلا البخور، ولكنني أمير «بنت» والمر متاعي الخاص، أما من حيث «حكنو» الذي تقول عنه إنك ستجلبه إليَّ، فهو أهم حاصلات هذه الجزيرة، ولكن الواقع أنك لن ترى قطُّ هذه الجزيرة بعد سفرك؛ لأنها ستصير ماءً.»

وبعد ذلك أتت هذه السفينة كما تنبَّأ، وذهبت وتسلقت شجرة طويلة، ورأيت أولئك الذين كانوا فيها، وذهبت لأخبره فعلمت أنه قد عرف ذلك من قبلُ، وقال لي: «بسلام، بسلام للوطن، أيها الصغير، وشاهد أطفالك، واجعل لي اسمًا حسنًا في مدينتك. اسمع فإن هذا هو كل ما أبغي.»

وعندئذٍ ألقيت بنفسي على بطني وثنيت ذراعيَّ في حضرته، وأعطاني حمولة «مر» و«حكنو» و«إيدنب» و«خسلت» و«تشبس» و«شاس» وكحل، وذيول زرافات، وكمية عظيمة من البخور، وسن فيل، وكلاب صيد، وقردة ونسانيس وكل الذخائر الجميلة،[٩٩] وأنزلتها في هذه السفينة.

ولما ألقيت بنفسي على بطني لأشكره قال لي: «انظر، ستصل الحاضرة بعد شهرين، وستضم أولادك في حضنك، وتصير شابًّا ثانية في مقر الملك ثم تُدفَن.»[١٠٠]

وذهبت إلى الساحل حيث كانت هذه السفينة، وحييت الفرقة التي كانت في هذه السفينة، وأثنيت على رب هذه الجزيرة على الساحل، وكل مَن كان في السفينة فعل كذلك.

ثم سحنا شمالًا إلى حاضرة الملك ووصلنا إلى العاصمة في شهرين كما قال، ومثلت أمام الملك، وقدَّمت له هذه الذخائر التي أحضرتها من هذه الجزيرة، وقد شكرني أمام كل ضباط الأرض

قاطبة، وعُيِّنت حاجبًا، وكافأني ببعض حشمه (؟).

انظر إليَّ بعد أن وصلت الأرض، وبعد أن شاهدت ما لاقيته،[١٠١] اسمع لما أقول. انظر، إنه من الخير للناس أن يصغوا.

فقال لي: «لا تلعبن دور الحكيم[١٠٢] يا صديقي! فإن ذلك كالذي يعطي عند الفجر ماءً لطائر سيذبحه مبكرًا في الصباح.» (أي إني مقضيٌّ عليَّ بالموت عندما أقابل الفرعون؛ وعلى ذلك فإن كلامك المطمئن لا فائدة منه لي.)

(١-٣) قصة الفلاح الفصيح

(أ) ملخص القصة

ترجع حوادث هذه القصة إلى عهد الملك «خيتي» أحد ملوك هيراكليوبوليس — أهناس المدينة — في نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد، والاسم الذي أطلق عليه العلماء تجوزًا «الفلاح» حقيقته في اللغة المصرية «ساكن الحقل»، أي بطل هذه القصة أحد سكان «حقل الملح» وهو «وادي النطرون» الآن، وقد أطلق عليه في العهد المسيحي «صحراء النطرون»، وكان هذا الفلاح يسكن في مجاهل هذه البقعة، وكان يسافر من حين لآخَر إلى مصر ليبيع محصول أرضه محمَّلًا على حمير له، ولما وصل في مرة إلى مصر اعترضه أحد الموظفين المسمَّى «تحوت نخت» واغتصب منه حميره وما عليها بحيلة دنيئة، فذهب الفلاح على إثر ذلك إلى عاصمة المقاطعة ليشكو أمره إلى «رنزي» رئيس «تحوت نخت» المغتصِب، فجمع «رنزي» مجلس الأشراف ليفصل في هذه القضية، غير أن أعضاءه لم يعلنوا حكمهم لأسباب لم تُذكَر في القصة، فصاغ الفلاح شكايته لرنزي في أسلوب فصيح بهره وأعجب به، فرأى أن الأمر جدير بأن يُعرَض على جلالة مولاه الملك؛ نظرًا لذلك الأسلوب الأخَّاذ، وتلك البلاغة النادرة التي لم يعهد لها مثيلًا من قبلُ، ولقد أمر جلالة الملك ألَّا يبتَّ في أمر ذلك الفلاح الفصيح حتى يكرِّر الشكوى؛ فيكون ذلك

مصدرَ خطبٍ بليغة أخرى يغتني بها الأدب، ويكتسب مادة وإمتاعًا، وهذا ما كان؛ إذ ألقى الفلاح تسع خطب رائعة في موضوع هذه الشكوى.

(ب) دراسة القصة

ترجع هذه القصة إلى العهد الأهناسي، وهو عهد سادت فيه الفوضى، وعم الاضطهاد؛ فالقصة مظهر لما يحتدم في نفوس الناس، ولما يشكون منه في ذلك العهد، وهي من أبلغ وأروع ما كُتِب في الأدب المصري القديم، حتى إنها كانت تُعَدُّ نموذجًا يحتذى ويقتبس منه عهد الدولة الحديثة.

والقصة تتكون من مرحلتين أساسيتين: الأولى مقدمة قصصية، والثانية خطب تسع، فأما المقدمة القصصية فإن طريقة عرضها أبدع ما رأيناه في الأدب المصري، وهي جديرة من حيث تعبيرها عن العواطف الإنسانية بأن تُوضَع جنبًا لجنب مع أية قطعة من هذا النوع وردت في التوراة. وقد قال الأستاذ برستد عن هذه المرحلة من القصة في كتابه «فجر الضمير» ما يأتي: «وهذا المشهد يُعَدُّ من أقدم الأمثلة التي تدل على المهارة الشرقية في تصوير المبادئ المعنوية في شكل مواقف ملموسة، وهي التي صُوِّرت بشكل مدهش بعد ذلك في أقوال عيسى عليه السلام.»

وأما المرحلة الثانية فتلك الخطب التسع التي أَشْهَرَ بها ذلك الفلاحُ الحربَ على ما كان يرتكبه الموظفون من الفوضى والظلم والعبث بصغار الفلاحين، فكان بخطبه من حَمَلَة الأقلام الذين طلبوا العدالة الاجتماعية، وكانت خطبه تَلَقَى رواجًا لإمتاعها، ولأنها موجَّهة إلى أغنياء هذا العصر الذين اختصوا أنفسهم دون الفقراء بالثروة والمتاع، وبالرغم من بعض الغموض الذي يبدو في أسلوبها، لجهلنا باللغة المصرية ونواحي بلاغتها، ولما احتوته من استعارات قوية وتشبيهات غريبة؛ فإنها تُعتبَر أدبًا من الطراز الأول في عصرها وفي العصور التي تلته. ومما أكسبها ذيوعًا وانتشارًا ما تضمنته في طيَّاتها من تهكُّم لاذع يميل إليه المصريون القدماء

بسليقتهم، ولو أنه كان يهدف إلى غرض خلقي سامٍ. ولا ريب في أن القصة ترسم صورةً حيةً ناطقةً لميل الموظفين عن جادة العدل والحق، إذا لم يكن عليهم ملك رشيد عادل يخافون سطوته. ومن الظواهر الغريبة فيها أنها لأول مرة في تاريخ أدب العالم تشبِّه العدالة بالميزان، وتتخذ من أجزاء الميزان استعاراتٍ وأوصافًا لنواحي العدالة، ونجد هذا التشبيه الآن سائدًا كل لغات العالم، وقد ظهر بصورة واضحة في القرآن الكريم.

(جـ) المصادر

وصلت إلينا هذه القصة في أربع نُسَخٍ يرجع عهدها إلى عصر الدولة الوسطى، وقد عني بترجمتها والتعليق عليها فوجلزانج الألماني في كتابه:

(1) Vogelsang. Kommentar Zu Den Klagen des Bauern. Lepzig 1913.

وترجمها حديثًا جاردنر في مجلة:

(2) Gardiner Journal of Egyptian Archeology. Vol. IX P. 1 ff.

وترجمها كذلك إرمان في:

(3) Erman. The Literature of the Ancient Egyptians (Translated by Blackman) P. 116 ff.

وهناك مصادر أخرى بحثت فيها هذه القصة، أهمها ما يأتي:

(4) The Dawn of Conscience 183 ff. (By Breasted.)

(5) Die Agyptische Literatur P. 38 ff. (Dr. Max. Pieper.)

(د) متن القصة

كان رجل اسمه «خنوم أنوب»، وهو فلاح من حقل الملح،[١٠٣] وكان له زوجة اسمها «ماري»، فقال هذا الفلاح لزوجته: «انظري، إني ذاهب إلى مصر لأحضر منها طعامًا لأطفالي، فاذهبي الآن وكيلي لي القمح الذي في الجرين، وهو ما بقي من الحصاد الماضي.» ثم كالها ستة (؟) مكاييل من القمح.

ثم قال هذا الفلاح لزوجته: «انظري، لقد بقي عشرون مكيالًا من القمح لتكون طعامًا لك ولأطفالك، وعليك أن تصنعي لي ستة مكاييل القمح هذه خبزًا وجعة للأيام التي سأكون فيها على سفر.» (؟)

وعلى ذلك ذهب هذا الفلاح إلى مصر، بعد أن حمَّل حميره بالسمار ونبات «رمت» والنطرون والملح، وعصي من ... «تيو» و«قضبان» «تحو»[١٠٤] وجلود الفهد، وفرو الذئاب، والخيزران والحصى (؟)، ونبات «تنم»، ونبات «خبرور» و«ساهوت» و«ساسكوت»، ونباتات «ميسوت»، وأحجار «سنوت»، وأحجار «عباو»، ونباتات «ابسا»، ونباتات «أنبي»، ويمام وطيور «نعرو»، وطيور «وجس»، ونباتات «وبن»، ونباتات «تبسو» و«جنجنت»، وشعر الأرض، و«أنست»، ومكيال وافٍ من كل محصولات «حقل الملح»، وسافَرَ هذا الفلاح نحو الجنوب تجاه «ننسو»،[١٠٥] ووصل إلى جوار «برفيوفي» في شمالي «مدينت»،[١٠٦] وهناك رأى رجلًا واقفًا على شاطئ النهر يُدعَى «تحوت نخت»، وهو ابن رجل يُدعَى «أسرى»، وهو من مستخدمي المدير العظيم للبيت المسمَّى «رنزي» بن «مرو».

وقال «تحوت نخت» هذا حينما رأى حمير هذا الفلاح، وقد مال قلبه إليها: «ليت لديَّ وثنًا قويًّا؛[١٠٧] حتى أتمكن من سرقة متاع هذا الفلاح!» واتَّفَقَ أن بيت «تحوت نخت»

هذا كان على ممر بجانب النهر، وقد كان ضيقًا وليس بالعريض؛ إذ كان عرضه يعادل قطعة النسيج التي تستر الجسم، وكان أحد جوانب هذا الممر مغمورًا بالماء، والثاني مغطًّى بالقمح.

وقال «تحوت نخت» هذا لخادمه: «اذهب واحضر لي قطعة نسيج من داري.» فأُحضِرت إليه في الحال، فمدها على الممر بطريقة جعلت هدبها على الماء، وطرفها على سيقان القمح. ثم سار هذا الفلاح على الطريق العام.

فقال «تحوت نخت» هذا: «احترس أيها الفلاح، أتريد أن تطأ ملابسي؟»

فقال هذا الفلاح: «سأفعل ما تريد، إن طريقي طريق جيد.» وعندئذٍ سار إلى الأمام.

فقال «تحوت نخت» هذا: «أتريد أن تجعل قمحي ممرًّا؟»

فقال هذا الفلاح: «إن طريقي جيد، إن الجسر عالٍ وطريقنا الوحيد تحت القمح، ومع ذلك فإنك تجعل ملابسك عقبة في طريقنا، أفلا تريد أن تجعلنا نمر على الطريق؟»

عندئذٍ ملأ أحد الحمير فمه بحزمة من القمح، فقال «تحوت نخت» هذا: «انظر سآخذ حمارك أيها الفلاح؛ لأنه يأكل قمحي. انظر إنه سيشتغل بسبب جرمه.»

فقال هذا الفلاح: «إن طريقي حسن، ولم تُؤخَذ إلا قبضة واحدة من القمح، لقد أحضرت حماري لأنه حمول (؟) وأنت تغتصبه لأنه ملأ فمه بحزمة من القمح! بلى، ولكني أعرف رب هذه الضيعة، فهي ملك المدير العام للبيت «رنزي» بن «مرو»، وهو الذي يكبح جماح كل لص في كل البلاد قاطبة، وهل أُسرَق في «نفس» ضيعته؟»

وقال «تحوت نخت» هذا: «هل هذا هو المثل الذي على ألسنة الناس، إن اسم الرجل الفقير لا ينطق به إلا إكرامًا لسيده؟ إنني أنا الذي أتكلم إليك وليس المدير العظيم للبيت

الذي أتى على ذاكرتك!»

ثم أخذ غصنًا من الأثل الأخضر وأوجعه به ضربًا في كل جسمه، وقبض على حميره وساقها إلى ضيعته.

وعندئذٍ أخذ هذا الفلاح يبكي بكاءً مرًّا من الألم الذي لحقه، وقال «تحوت نخت» هذا: «لا ترفع صوتك أيها الفلاح. انظر، إن مصيرك سيكون مسكن «رب الصمت».»[١٠٨]

فقال هذا الفلاح: «إنك تضربني وتسرق متاعي، وبعد ذلك تغتصب الشكاية من فمي! أنت يا «رب الصمت» أَعِدْ إليَّ ماشيتي؛ حتى أسكت عن الصياح الذي يزعجك!»

وقد مكث هذا الفلاح عشرة أيام يتضرع إلى «تحوت نخت» هذا، غير أنه لم يلتفت لشكايته، وعلى ذلك سافَرَ هذا الفلاح إلى «ننسو» ليرفع ظلامته إلى المدير العظيم للبيت «رنزي» بن «مرو»، وقد وجده وهو خارج من بيته لينزل في قاربه الخاص بقاعة العدل (أي القارب الرسمي الخاص بالمحكمة).

فقال هذا الفلاح: «هل تسمح لي بأن أسر قلبك بهذه القصة؟ هل من الممكن أن يحضر معي خادم حسب اختيارك حتى يحمل إليك أخبارًا مني خاصة بها.»[١٠٩]

وعلى هذا أمر المدير العظيم للبيت «رنزي» بن «مرو» خادمًا قد اختاره ليذهب أمامه، ليحمل إليه أخبارًا من هذا الفلاح خاصة بهذا الموضوع من كل وجوهه.

وعندئذٍ عمل «رنزي» بن «مرو» المدير العظيم للبيت تحقيقًا ضد «تحوت نخت» أمام الحكَّام الذين كانوا معه.

فقالوا له: «يجوز أنه أحد فلاحيه قد أتى إلى واحد آخَر خلافه، انظر تلك هي الطريقة التي كانوا يتَّبِعونها مع فلاحيهم عندما يذهبون إلى آخَرين خلافهم، وهل هذه قضية

حتى يُعاقَب الإنسان «تحوت نخت» هذا بسبب مقدار تافه من النطرون، ومقدار ضئيل من الملح؟ مُرْهُ أن يُعطَى بدلًا منها، وعلى ذلك يمكنه أن يُعطَى بدلًا منها.»

غير أن المدير العظيم للبيت «رنزي» بن «مرو» لزم السكينة، ولم يُجِبْ هؤلاء الحكَّام ولا هذا الفلاح أيضًا.

الشكوى الأولى

عندئذٍ أتى هذا الفلاح ليقدِّم ظلامته إلى المدير العظيم للبيت «رنزي» بن «مرو»، فقال: يا مدير البيت العظيم، يا سيدي، يا أعظم العظماء، يا حاكمًا على ما قد فني وما لم يفن![110] وإذا ذهبت إلى بحر العدل[111] وسحت عليه في نسيم رخاء، فإن الهواء لن يمزِّق قِلْعك، وقاربك لن يتباطأ، ولن يحدث لصاريك أي ضرر، ومرساك لن تُكسَر، ولن يغوص قاربك (؟) حينما ترسو على الأرض، ولن يحملك التيار بعيدًا، ولن تذوق أضرار النهر، ولن ترى وجهًا مُرتاعًا، والسمك القفاز سيأتي إليك، وستصل «يدك» إلى أسمن طائر، وذلك لأنك أب لليتيم، وزوج للأرملة، وأخ لتلك التي قد نُبذت، ومئزر لذلك الذي لا أم له.[112] دعني أجعل اسمك في هذه الأرض يتفق مع كل قانون عادل، فتكون حاكمًا خِلْوًا من الشره، وشريفًا بعيدًا عن الدنايا، ومهلكًا للكذب، ومشجعًا للعدل، ورجلًا يلبي نداء المستغيث. إني أتكلم، فهل لك أن تسمع؟ أقم العدل أنت يأيها الممدوح الذي يمدح بهؤلاء الذين يُمدَحون، اقضِ على فقري، انظر إني مثقل بالحمل، جربني، انظر إني في حيرة.

مقدمة للشكوى الثانية

وقد اتفق أن الفلاح قد ألقى هذه الخطبة في عهد الملك المرحوم «نبكاو رع».

وقد ذهب المدير العظيم للبيت «رنزي» بن «مرو» أمام جلالته، وقال: «سيدي لقد عثرت على أحد هؤلاء الفلاحين، وفي الحق إنه فصيح، وهو رجل قد سُرِق متاعه. وانظر، إنه قد حضر ليتظَلَّم لي من أجل ذلك.»

عندئذٍ قال جلالته: «بقدر ما تحب أن تراني في صحة دَعْه يمكث هنا دون أن تجيب عن أي شيء قد يقوله، ولأجل أن تجعله يستمر في الكلام الزم الصمت، ثم مُرْ بأن يُؤتَى لنا بذلك مكتوبًا حتى نسمعه، ولكن مُدَّ زوجه وأطفاله بالمئونة، ثم انظر، لا بد أن يأتي أحد الفلاحين إلى مصر وذلك بسبب فقر بيته،[١١٣] وزيادة على ذلك مُدَّ هذا الفلاح نفسه، فلا بد أن تأمر بإعطائه الطعام دون أن يعلم أنك أنت الذي أعطيته إياه.»

وعلى ذلك أعطي عشرة أرغفة وإبريقين من الجعة كل يوم، وقد تعوَّدَ رب البيت العظيم «رنزي» بن «مرو» أن يعطي ذلك أحد أصدقائه، وكان هذا يعطيها إياه (إلى الفلاح) ثم إن المدير العظيم للبيت «رنزي» بن «مرو» أرسل إلى شيخ بلدة «سخت حموت» ليصنع الطعام لزوج ذلك الفلاح، ومقداره ثلاثة مكاييل من القمح (؟) كل يوم.

الشكوى الثانية

ثم إن هذا الفلاح أتى ليتظلَّم له مرةً ثانيةً، وقال: «يا أيها المدير العظيم للبيت، يا سيدي، يا أعظم العظماء، يا أغنى الأغنياء، يا مَن عظماؤه لهم واحد أعظم منهم، يا مَن أغنياؤه لهم واحد أغنى منهم، أنت يا سكان السماء، ومثقال ميزان الأرض، ويا خيط الميزان الذي يحمل الثقل، يأيها السكان لا تنحرف، ويا مثقال الميزان لا تمل، ويا خيط الميزان لا تتذبذب ملتويًّا: إن السيد العظيم يأخذ «فقط» مما ليس له سيد، وينهب واحدًا فقط (أي نفسه). إن ما يحفظ أودك في بيتك: قدح من الجعة وثلاثة رُغْفان.[١١٤] وما الذي يمكن أن تصرفه لإطعام عملائك؟ على أن الإنسان سيموت مع خدمه. وهل ستكون رجلًا مخلدًا؟

أليس من الخطأ: ميزان يميل، وثقالة تنحرف، ورجل مستقيم يصير معوجًّا؟ تأمَّلْ، إن العدل يفلت (؟) من تحتك، وذلك لأنه أقصي من مكانه، فالحكام يشاغبون، وقاعدة الكلام تنحاز إلى جانب، والقضاة يتخاطفون ما اغتصبه (أي «رنزي») ومعنى ذلك أن مَن يقلب الكلام من موضع الصواب، يحرِّفه عن معناه (؟)؛ وبذلك يخور مانح النفس على الأرض، وذلك الذي يأخذ راحته يجعل الناس يلهثون، والمحكم يصير مُتلِفًا،[١١٥] ومبيد الحاجات يأمر بصنعها، والبلدة تكون فيضان نفسها، والمنصف يخلق المشاغبة.»

ثم قال المدير العظيم للبيت «رنزي» بن «مرو»: «هل تعتقد في قلبك أن ممتلكاتك أمر أهم من أن يقصيك خادمي؟»[١١٦]

وقال هذا الفلاح: «إن كيَّال أكوام الغلال يعمل لمصلحة نفسه، وذلك الذي يجب عليه أن يقدِّم حسابه تامًّا لآخر يسرق متاعه، وذلك الذي يجب عليه أن يحكم بمقتضى القانون يأمر بالسرقة، فمَن ذا الذي يكبح الباطل إذن؟! وذلك الذي يجب عليه أن يقضي على الفقر (؟) يعمل على العكس، ويسير الإنسان إلى الأمام في الطريق المستقيم في منحنيات، وآخَر ينال الشهرة بالضرر، فهل تجد لنفسك هنا أي شيء (؟)؟»[١١٧]

«إن الإنصاف قصير، ولكن الضرر يمكث طويلًا،[١١٨] والعمل الطيب يعود ثانية إلى مكانه بالأمس، والواقع أن الحكمة تقول: «عامِلِ الناسَ بما تحب أن تُعامَل به.»[١١٩] وذلك كشكر إنسان على ما يعمله، وكمنع شيء قبل تشكيله، مع أن الأمر بصنعه قد أعطي للصانع. (يتمنى الشر للأمير) ليت لحظة تخرب، فتجعل كرمك رأسًا على عقب، وتفتك بطيورك، وتودي بدواجنك المائية،[١٢٠] فالمبصر قد غشي بصره، والمستمع قد صُمَّ، والحاكم أصبح متمردًا …

تأمَّلْ، إنك قوي وشديد البأس، وإنك نشيط الساعد وقلبك مفترس، وقد تَخَطَّتْكَ الرحمة، ما أعظم حزن الرجل الفقير الذي قد قضيت عليه، ومثلك كرسول من عند الإله التمساح، بل إنك تفوق

«ربة الوباء».[١٢١] فإذا كنتَ لا تملك شيئًا فهي لا تملك شيئًا أيضًا، وإذا كانت لا تدين بشيء فكذلك أنت لا تدين بشيء، وإذا كنت لا تفعلها فهي لا تفعلها أيضًا.[١٢٢] وذلك الذي يملك خبزًا (؟) يجب أن يكون رحيمًا، ولكن المجرم قد يكون (؟) قاسيًا فظًّا، على أن السرقات أمر طبيعي لمَن لا متاع له، وكذلك خطف المجرمين لأمتعة الغير.

حقًّا إنه عمل مشين، إلا أنه لا مندوحة عنه (؟)، ويجب على الإنسان ألَّا يصوب اللوم إليه؛ لأنه يبحث لنفسه،[١٢٣] على أنك قد امتلأت بخبزك وسكرت بجعتك، وإنك غني … إن وجه مدير السكان متجه إلى الأمام، ومع ذلك (؟) فإن القارب يتجه كما يشاء، فالملك في داخل قصره، والدفة في يدك، ومع ذلك فإن المشاغبات منتشرة بجوارك! إن «عمل» الشاكي طويل، والفصل فيه يسير ببطء، وسيتساءل الناس عن هذا[١٢٤] الرجل الذي هناك. كُنْ حاميًا حتى يصير شاطئك واضحًا. تأمَّلْ، إن مسكنك قد أصبح موبوءًا (؟) اجعل لسانك يتجه إلى الحق، ولا تضل، وإن لسان (؟) الرجل قد يكون سبب تلفه.

لا تنطق كذبًا، واحترس من الحكام … إن قول الكذب عشبهم، وعلى ذلك (؟) من المحتمل أن يكون خفيفًا على قلوبهم. وأنت يا أكثر الناس تعلُّمًا، هلا تريد أن تعرف شيئًا عن أحوالي؟ وأنت يا مَن تقضي على كل حاجة (؟) للماء، تأمَّلْ، فإني أملك مجرى ماء من غير سفينة، وأنت يا مرشد كل غارق إلى البر، نجِّ مَن غرقت سفينته، نجني …»

الشكوى الثالثة

ثم حضر هذا الفلاح مرة ثالثة ليشكو، فقال: «يأيها المدير العظيم للبيت، يا سيدي، إنك «رع» رب السماء، في صحبة حاشيتك، إن قوام بني الإنسان منك لأنك كالفيضان، وأنت «حعبي» (إله النيل) الذي يجعل المراعي خضراء، ويمد الأراضي القاحلة، اكبَحْ جماح السارق، دافِعْ عن الفقير، ولا تكونن فيضانًا ضد الشاكي، واحذر من قرب الآخِرة. ارغب في أن تعيش طويلًا على

حسب المثل: «إن إقامة العدل هو نفس الأنف.» وقع العقاب على مَن يستحق العقاب، ولن يكون هناك شيء يماثل استقامتك. هل الميزان يتحول؟ وهل يميل لسانه إلى جهة؟ هل يُظهِر «تحوت» تساهلًا؟

فإذا كان الأمر كذلك فيمكنك أن تعمل ضررًا، واجعل نفسك معادلًا لهذه الثلاثة (يشير إلى الميزان واللسان و«تحوت») فإذا أظهرت الثلاثة لينًا فكن ليِّنًا، ولا تُجِبْ على الخير بالشر، ولا تضعن شيئًا مكان آخَر،[١٢٥] ما أكثر نمو الكلام من عشب خبيث![١٢٦] وأكثر مما يتفق مع من يشمه! أفلا تجيبن عليه، وعلى ذلك يروى الشقاق حتى يسبب نمو (؟) غطاء.

وقد كان (؟) لديه ثلاث فرص (؟)، تحمله على أن يعمل (؟)، قُدِ الدفة على حسب القِلْع،[١٢٧] وصدَّ (؟) الفضيان بعيدًا على حسب (؟) ما يقتضيه العدل، واحترس من أن تصطدم على الشاطئ (؟) مع حبل السكان (؟)، وإن أصدق وزن للبلاد هو إقامة العدل. ولا تكذبن وأنت عظيم، ولا تكونن خفيفًا وأنت رزين، ولا تقولن كذبًا فإنك الميزان، ولا تتكمش فإنك الاستقامة. انظر، إنك على مستوى واحد مع الميزان، فإذا انحرف انحرفت أيضًا، ولا تحيدن، بل أَدِر السكان، واقبض على حبل الدفة. لا تغتصبن، بل اعمل ضد المغتصب، وذلك العظيم ليس عظيمًا ما دام جشعًا. إن لسانك هو ثقالة الميزان، وقلبك هو ما يُوزَن به، وشفتاك هما ذراعاه، فإذا سترت وجهك أمام الشرس فمَن ذا الذي يكبح الشر؟

تأمَّلْ، إنك غسال يشقى، وشخص جشع لإتلاف صاحبه، وهاجر شريكه من أجل عميله، وإنه لأخ له الذي قد أتى ونفَّذَ «حيلته».

تأمل، إنك نوتي تعبر بمَن معه الأجر، ورجل مستقيم في معاملته، ولكن تلك الاستقامة مذبذبة.

تأمل، إنك رئيس مخابز لا يسمح لأحد خلو (؟) (مفلس) أن يمر وهو مدين.

تأمل، إنك صقر لعامة القوم يعيش على أحقر الطيور.

تأمل، إنك مُورِّد سروره الذبح؛ إذ لا «يوقع» عليه تشويه.

تأمل، إنك راعٍ، لا ... وليس عليك أن تدفع؛ ولذلك يجب عليك أن تظهر الشراهة أقل من تمساح جشع؛ إذ إن الأمان قد انتزع من كل مساكن البلاد قاطبة. أنت أيها السامع، إنك لا تصغي ولماذا لا تصغي؟ واليوم قد كبحت جماح المتوحش، والتمساح يتقهقر. وما الفائدة التي تعود عليك، إذا وجد سر الصدق، وظهر الكذب قد وضع على الأرض (؟)، ولكن لا تتجهز[١٢٨] للغد قبل أن يأتي؛ لأنه لا إنسان يعلم المتاعب التي ستكون فيه.»

وقد تكلَّمَ هذا الفلاح هذا الكلام إلى المدير العظيم للبيت «رنزي» بن «مرو» عند مدخل قاعة المحاكمة ثم أمر حاجبين أن يتعهداه بسياط، وقد أسخناه ضربًا بها في كل أجزاء جسمه.

عندئذٍ قال هذا الفلاح: «إن ابن «مرو» لا يزال متنكبًا في غيه، وإن حواسه قد عميت عما ينظر، وصُمَّتْ عما يسمع، وانحرفت عما يُتلَى عليه. انظر، إن مَثَلك كمَثَل بلد لا عميد له،[١٢٩] أو جماعة لا رئيس لها، أو كسفينة لا ربان لها، أو كعصابة أشقياء لا مرشد لها.

انظر، إنك حاكم[١٣٠] يسرق، وعميد قرية يقبل «الرشوة»، ومفتش صقع كان يجب عليه أن يقطع دابر التخريب، ولكنه أصبح مثالًا للمجرم.»

الشكوى الرابعة

وبعد ذلك أتى هذا الفلاح ليشكو له للمرة الرابعة، ووجده خارجًا من معبد «أرسافيس»،[١٣١] فقال له: «أنت أيها الممدوح، ليت «أرسافيس» الذي تخرج من معبده يمدحك، لقد قضى على الخير وليس له التئام، وحقًّا قد ألقي الكذب على الأرض ظهريًّا، هل أحضر قارب التعدية إلى البر؟ فبماذا إذن يمكن الإنسان أن يعبر؟ على أن هذا العمل لا بد أن ينفذ كرهًا على أية حال (أي التعدية) (؟) وهل عبور النهر بالنعال طريقة حسنة للعبور؟ لا. وقل لي: مَن ذا الذي ينام

«الآن» حتى مطلع الفجر؟ لقد قضى عليَّ السير ليلًا، والسياحة نهارًا، والسماح للإنسان أن يتعهد قضيته الحقة. انظر، إنه لا فائدة لمَن يقول لك: «إن الرحمة قد تخطتك، فما أعظم حزن الرجل الفقير الذي قد خربته!

انظر، إنك صياد يشفي غليله، وإنسان منغمس في إرضاء ملاذه، فيصيد جاموس البحر، وتخترق «نبله» الثيران الوحشية، ويصيد السمك، ويرمي شباكه للطيور، على أنه لا يوجد إنسان متسرع في كلامه يخلو من العثار،[١٣٢] ولا إنسان خفيف القلب يقدر أن يكون حازمًا في كبح هواه، كن صبورًا حتى يمكنك أن تصل إلى العدل. اكبح جماح اختيارك حتى إن الشخص الذي تعوَّد أن يدخل بسكون يمكنه أن يكون سعيدًا، على أنه لا يوجد إنسان طائش يتفوق في عمل، ولا متسرع تطلب مساعدته، اجعل عينيك تتأملان، وعلم قلبك. ولا تكونن قاسيًا بنسبة قوتك؛ خوف أن يحيق بك الأذى. تغاضَ عن قضية وإذن ستتضاعف «في صعوبتها»، وإن الذي يأكل هو الذي يتذوق، والذي يخاطب يجاوب، والنائم يرى الحلم.[١٣٣] أما القاضي الذي تجب معاقبته فإنه نموذج للمجرم. تأمَّلْ أيها الأحمق فإنك قد ضربت، وتأمل أيها المغفل فإنك استجوبت، وأنت يا مانح الماء تأمَّلْ فإنك قد أدخلت،[١٣٤] وأنت يا مدير السكان لا تجعل قاربك يرتطم، وأنت يا معطي الحياة لا تودين بأحد، ويا مخربًا لا تسببن خراب أحد، ويأيها الفيء لا تقومن مقام الهجير، ويأيها الستر لا تجعلن التمساح يفترس. والآن هل سأقضي طول اليوم في الشكوى الرابعة؟»

الشكوى الخامسة

ثم أتى هذا الفلاح يشكو للمرة الخامسة وقال: «يأيها المدير العظيم للبيت، يا سيدي، (وهنا المتن غامض جدًّا، غير أننا نفهم أنه يتكلم عن كل أنواع صيد السمك، وكلها استعارات وتشبيهات غامضة، إلى أن يقول) تأمَّلْ، إنك في حالة كهذه (في كل ما سبق من الكلام الغامض، قد شبَّه

فيه «رنزي» بصيادي السمك)، لا تحرمن رجلًا رقيق الحال أملاكه، وهو رجل ضعيف أنت تعرفه، فإن أملاك الرجل الفقير بمثابة النَّفَسِ له، ومَن يغتصبها يكتم أنفه،[١٣٥] ولقد نصبت لتسمع الشكاوى وتفصل بين المتخاصمين، وتكبح جماح اللص، ولكن تأمَّلْ؛ فإن ما تفعله هو أنك تعاضد اللص، والإنسان يضع ثقته فيك، ولكنك أصبحت معتديًا، لقد نصبت سدًّا للفقير فاحترس خوف أن يغرق، ولكن تأمَّلْ، إنك تيار سريع له.»

الشكوى السادسة

وبعد ذلك أتى هذا الفلاح للمرة السادسة ليشكو فقال: «يأيها المدير العظيم للبيت، يا سيدي، إن كل محاكمة حقة تدحض الباطل، وتعلو بالصدق، وتشجع الحسنة، وتقضي على السيئة، كالشبع عندما يأتي يقضي على الجوع، والكساء يقضي على العري، وكالسماء تصفو بعد العاصفة الشديدة وتدفئ كل مَن شعر بالبرد، وكالنار التي تسوي النيئ، وكالماء الذي يطفئ الظمأ. انظر بعينيك؛ إن المحكم متلاف، والمصلح موجد للحزن، ومهدئ «الخلافات» خالق للألم، والمغتصب يحط من قدر العدالة، ولكن الشخص إذا قضى بالقسطاس المستقيم فإن العدالة إذن لن يحاد عنها، ولن يبالغ (؟) في إجرائها، (ولكن) إذا أخذت فأعط زميلك أيها المشداق (؟) الخلو من الصراحة.

إن حزني يفضي إلى نزاع، واتهامي يؤدي إلى تحول، والإنسان لا يعرف ما في القلب.[١٣٦] لا تكن خاملًا بل اهتم بالتهمة، فإذا قطعت فمَن الذي يصل؟ إن مجداف القلوب (؟) في يدك كالعمود السهل (؟) المتناول عندما يوجد الماء العميق.[١٣٧] (؟)، فإذا ارتطم القارب فإنه يدفع ولكن (؟) حمولته تتلف (؟) وتضيع (؟) على كل شاطئ رملي (؟). (كل العبارة غامضة.)

«إنك متعلم، وإنك ماهر، وإنك عادل، ولكن ليس في النهب. (والآن؟) فإن مَثَلك مَثَل كل بني الإنسان، كل أعمالك ملتوية، ومفسد الأرض كلها يمشي مستقيمًا إلى الأمام (لا يرى أمامه

اعوجاجًا)، وزارع الشكر (البستاني) يروي حقله بالأعمال الخاطئة حتى يجعل مزرعته تنمو بالكذب، وبذلك يرى المتاعب إلى الأبد (؟).»

الشكوى السابعة

وبعد ذلك أتى الفلاح ليشكو له للمرة السابعة فقال: «يأيها المدير العظيم للبيت، يا سيدي، إنك سكان البلاد قاطبة، والأرض تسبح على حسب أمرك، إنك معادل «لتحوت» تقضي دون أن تنحاز إلى جانب. يا سيدي كن صبورًا حتى يمكن الإنسان أن يستغيث بك لقضيته العادلة، ولا تجعلن قلبك جموحًا؛ فذلك لا يليق بك، وإن الرجل البعيد النظر يكون حليمًا. لا تفكرنَّ فيما لم يأتِ بعدُ، ولا تفرحن بما لم يحدث بعدُ، والتحمُّل يطيل أمد الصحبة. اقضِ على الأمر الذي مضى،[١٣٨] والإنسان لا يعلم ما في القلب.

إن منتهك حرمة القانون، وخارق المتبع من الأمور، لا يستطيع رجل فقير أن يقاوم نهبه إذا لم تواجهه العدالة.[١٣٩] حقًّا إن جوفي لملآن، وقلبي لمفعم، وقد طفح من جوفي تقرير عن تلك الحالة، لقد كان صدع في السد، فتدفَّق منه الماء، وقد انفتح فمي للكلام، وعندئذٍ قد أعملت مجدافي لسبر الغور، ونزحت مائي، ورَوحت عما في جوفي، وغسلت كتاني (ملابسي) القذر، والآن قد انتهى خطابي وانتهى بؤسي في حضرتك، فما الذي تطلبه الآن؟[١٤٠]

إن خمولك سيضلل بك، وشراهتك ستغشك، وإن عدم اكتراثك سيولد لك أعداء، ولكن هل يمكنك أن تجد فلَّاحًا آخَر مثلي؟ وهل الشاكي يقف على باب بيت الخامل؟ على أنه لا يوجد إنسان صامت قد أنطقته، ولا نائم قد أيقظته، ولا مكتئب قد نَشَّطْتُه، ولا إنسان فمه مغلق قد فتحته، ولا جاهل قد جعلته يعرف، ولا غبي قد علمته، (ومع ذلك) فإن الحكام هم الذين يقصون السوء، وأرباب الخير هم أصحاب فن ليصنعوا أي شيء كائن، ويصلوا الرءوس التي قد فصلت «عن أجسامها».»

الشكوى الثامنة

وبعد ذلك أتى هذا الفلاح ليشكو مرة ثامنة فقال: «يأيها المدير العظيم للبيت، يا سيدي، إن الناس يتحملون السقوط البعيد بسبب الطمع، والرجل الجشع يعوزه النجاح، ولكنه ينجح في الخيبة. إنك جشع وذلك لا ينسجم معك، إنك تسرق وذلك لا يفيدك، أنت يا مَن يجب عليه أن يسمح للإنسان أن يشرف على قضيته الحقة، ذلك لأن ما يقيم أودك في بيتك، ولأن جوفك قد ملئ، ولأن مكيال القمح قد طفح، وإذا اهتز فإن الفائض منه يبعثر على الأرض.

آه أنت يا مَن يجب عليه أن يقبض على اللص، ويا مَن يبعد الحكام وقد نصبوا ليدرءوا السوء، وهم حمى الساخط، والحكام قد نصبوا ليكبحوا الكذب، وليس الخوف منك هو الذي يجعلني أشكو إليك، إنك لا تبصر (ما في) قلبي، وإنه لإنسان صامت مَن يجعله يرتد دائمًا عن توبيخك، ولا يخاف ممَّن يطالبه بحقوقه، وإن أخاه لا يؤتى به لك من قارعة الطريق.[١٤١]

إنك تملك حقلك في الريف، ومكافأتك (أرضك) في ضياع الملك، وخبزك في المخبز، والحكام يعطونك، ومع ذلك تغتصب! هل أنت لص؟ هل يحضر إليك بجنود لتصاحبك عند تقسيم الحقول (معك).[١٤٢]

أقم العدل لرب العدل، والذي عَدْلُ عدالته موجود.[١٤٣] وأنتَ يأيها القلم، وأنتِ يأيتها البردية، ويأيتها الدواة، ويا «تحوت» ابتعدوا عن عمل السوء، وعندما يكون الحسنُ حسنًا فالأمر إذن حسن، غير أن العدل سيكون إلى الأبد، ويذهب مع مَن يعمله إلى الجبانة، وسيدفن وتطويه الأرض، أما اسمه فلن يُمحَى من الأرض، بل سيذكر للخير، وهكذا القانون في كلمة الله.[١٤٤] فهل هو ميزان؟ إذن لا يميل. هل هو لسان الميزان؟ إذن لا يحيد إلى جانب (لا يزن غشًّا). وإذا حضرتُ أو حضر غيري فخاطبه، ولا تجيبن كإنسان يخاطب رجلًا صامتًا، أو كإنسان يهاجم مَن لا يمكنه أن يهاجم، إنك لا تظهر الرحمة، إنك لا تضعف، إنك لا تَبيد (؟)، إنك لا تعطيني

مكافأة على تلك الخطب التي تخرج من فم «رع» نفسه، انطق بالعدل وأقم العدل لأنه خطير، وعظيم، ويعيش طويلًا، والثقة به قد عرفت، فهو يؤدي إلى العمر الطويل المحترم. هل الميزان يحيد؟ فإذا كان الأمر كذلك، فإن ذلك يكون بسبب كفتيه اللتين تحملان الأشياء.[١٤٥] ولا يجوز وجود الظلم مع القانون، وإن العمل الحقير لا يصل إلى المدينة، على أن أصغر الأشياء (؟) سيصل إلى الريف.»

الشكوى التاسعة

وبعد ذلك أتى هذا الفلاح إليه للمرة التاسعة ليشكو فقال: «يأيها المدير العظيم للبيت، يا سيدي، إن لسان الناس ليس إلا لسان ميزانهم، وهو الميزان الذي يبحث عن نقائصهم،[١٤٦] وقع العقاب على مَن يستحق العقاب، على أنه لا شيء يماثل استقامتك ... والكذب قد انتهى عمله (؟) والصدق يرجع معارضًا له (الكذب) (؟)، إن الصدق هو ثروة (؟) الكذب، إنه ينمِّي (؟) وإنه ... وإذا مشى الكذب في «الخارج» فإنه يضل، ولن يعبر في قارب التعدية، ولن يقوم بأي تقدم (؟)، أما مَن تنمو ثروته به فلن يكون له أطفال، ولن يكون له وارث على الأرض، ومَن يسيح به «بضاعة» لن يصل إلى بر، وسفينته لن ترسو على مدينته.

لا تكونن ثقيلًا يا مَن لست خفيفًا، ولا تتوانينَّ يا مَن لا يسرع، لا تكونن متحزبًا، ولا تصغينَّ لقلبك، ولا تسترنَّ وجهك من إنسان تعرفه، ولا تتعامينَّ عن إنسان قد رأيته، ولا تردنَّ إنسانًا يشكو إليك، واترك هذا الخمول حتى إن حكمتك (القائلة): «افعل الخير لمَن يفعله لك.» يمكن أن تُروَى إلى مسامع كل الناس، وحتى يرجع إليك الناس فيما يتعلق بمطالبهم الحقة. والخامل لا أمس له،[١٤٧] والأصم عن العدل لا رفيق له، والرجل الجشع لا فراغ لديه (إجازة)، وذلك الذي يوجِّه إليك التهمة يصير رجلًا فقيرًا، والفقير سيصير شاكيًا، والعدو يصبح ذابحًا (للفلاح). تأمَّلْ، إني أشكو إليك وأنت لا تسمع شكواي، فسأذهب وأشكو منك إلى «أنوبيس».»[١٤٨]

الخاتمة

وبعد ذلك أمر «رنزي» بن «مرو» المدير العظيم للبيت اثنين من الحُجَّاب ليذهبا ويحضراه ثانية، وقد خاف هذا الفلاح ظنًّا منه أن ذلك قد عُمِل لمعاقبته على الخطبة التي فاه بها.

فقال هذا الفلاح: «مَثَل اقتراب الظمآن من الماء ووصول الشفة التي تتحرق إلى اللبن، كمَثَل الموت الذي يتاق إلى رؤيته في مجيئه عندما يأتي متباطئًا.»

ولكن المدير العظيم للبيت «رنزي» بن «مرو» قال: «أيها الفلاح، انظر، جهِّزْ نفسك على أن تسكن معي.»

فقال هذا الفلاح (؟): «هل سأعيش قائلًا دعني آكل من خبزك، وأشرب من «جعتك» إلى الأبد؟!»

فقال المدير العظيم للبيت «رنزي» بن «مرو»: «لا بأس، انتظر هنا حتى يمكنك أن تسمع شكاياتك.» ثم أمر بقراءتها من ملف بردي جديد، كل شكوى على حسب محتوياتها، ثم إن المدير العظيم للبيت «رنزي» بن «مرو» أمر بإرسالها إلى جلالة الملك المرحوم «بنكاورع»، وقد سُرَّ منها جلالته أكثر من أي شيء في الأرض قاطبة، وقال جلالته: «اقضِ أنتَ بنفسكَ يابن «مرو» (في هذا الأمر).»

فأمر (المدير العظيم) للبيت «رنزي» بن «مرو» اثنين من الحجاب ليذهبا ويحضرا «تحوت نخت»، فأُحضِر وأُحصِيت «كل أملاكه» … ستة أشخاص خلافًا … قمحه من الوجه القبلي وشعيره وحميره … وخنازيره وماشيته الصغيرة … وقد أُعطِي بيت «تحوت نخت» لهذا الفلاح، وكذلك كل … قال إلى «تحوت نخت» …»

لقد انتهت (بسلام كما وُجِدت مدوَّنةً).

(٤-١) قصة الراعي

(أ) مقدمة

أراد أحد كتاب الدولة الوسطى أن يمحو كتابة من ورقة بردية؛[١٤٩] ليستعملها مرة أخرى، فمحا بعضها، وبقي منها خمسة وعشرون سطرًا من وسطها، ولكن هذا الجزء اليسير الذي بقي لنا لا يكفي لنتعرف منه وقائع القصة أو مغزاها؛ لذلك اقتصرنا على تسجيل ما قرأناه منها هنا، وقد يجوز أن يكون موضوع القصة دائرًا حول إلهة نصبت شباكها لراعٍ يعيش مع ماشيته في إحدى مناقع الدلتا.

(ب) متن القصة

... تأمل، فإني عندما ذهبت إلى المستنقع الذي يحف بهذه الأرض المنخفضة، رأيت امرأة هناك، منظرها ليس كمنظر الآدميين، فقف شعري حينما نظرت إلى ضفائرها؛ لأن لون «جسمها» كان لامعًا جدًّا، على أني لن أفعل قط ما قالت، والخوف منها في جسمي.

وإني أقول لك: أنت أيتها الثيران، دعينا نذهب إلى البيت (؟)، دَعِ العجول تعبر، والماعز تبقى في مكان ... مع الرعاة خلفها، أما قاربنا الخاص بالسياحة إلى مأوانا فيوضع في مؤخرته الثيران والأبقار، وفي هذا الحين يقوم أعقل الرعاة بتلاوة تعويذة مائية[١٥٠] ويقول هكذا: «إن أرواحي[١٥١] (كاوو) مبتهجة.» وأنتم أيها الرعاة، وأنتم أيها الناس، لن يقدر أحد أن يطردني من هذا الحقل حتى في عام نيله مرتفع، يشرف فيه على هضاب الأرض، ولا يمكن أن تميز فيه البركة من النهر.[١٥٢]

اعمد إلى بيتك،[١٥٣] أما الماشية التي كانت قد بقيت فقد عادت، والخوف منك قد زال، والرهبة منك قد تلاشت، وحتى يمحى الرعب من «الواحدة القوية»، والخوف من «سيدة الأرضين».
[١٥٤]

ولما ظهر النور على الأرض في الفجر الأول نفذ ما قال. وهذه الإلهة قابلته بينما كان يعرج في طريقه إلى البركة، وقد خلعت ملابسها ونفشت شعرها …

(١-٥) قصة هلاك الإنسانية

(أ) ملخصها

شعر الإله «رع» إله الشمس أنه صار مسنًّا، وأن رعيته من بني الإنسان يتآمرون على قتله، فاستنجد بالإلهة «حتحور» التي تُسمَّى في هذه القصة «عين رع»؛ لتقضي على بني الإنسان جملةً، ولكنها بعد أن بدأت عملها عَزَّ على الإله «رع» ذلك، فدبَّرَ طريقة ينقذ بها مَن بقي من البشر، ويخلصهم من بطش هذه الإلهة، وتم له ذلك بمعونة شراب الجعة الذي حبب إلى قلبها، فاحتست منه حتى ثملت ولم تَعِ ما كانت تريد.

(ب) دراسة القصة

تمثِّل لنا هذه القصة — أو بعبارة أدق هذه الخرافة — نوعًا من الشعر القصصي الذي يدور حول «الإلهة حتحور» إلهة السماء، والإله «رع» إله الشمس، وقد حُفِظت لنا بتوفيق غريب؛ إذ إنها كانت قد نُقِلت في كتاب تعويذات سحرية، وقد نُقِش هذا الكتاب على جدران مقبرة الملك سيتي الأول من الأسرة التاسعة عشرة، ثم على جدران مقبرة رعمسيس الثالث من الأسرة العشرين. ووردت هذه القصة فيما نُقِش باعتبارها جزءًا من هذا الكتاب كما وُجِدت مكتوبة على «ناووس» «توت عنخ آمون» الخشبي (ولم تُنشَر بعدُ)، غير أنه من النقشين الأولين — وإنْ وُجِدا مهشمين — استطعنا أن نحصل على نص كامل تقريبًا لهذه الخرافة، ويرجع تاريخ هذه الوثيقة إلى الدولة الوسطى، والمرجح أنها كُتِبت في بدايتها.

على أن أول ما يسترعي النظر في أسلوب هذه القصة هو سذاجة التعبير، والتكرار الممل، كالذي نسمعه في بيوتنا عندما تُقَصُّ علينا خرافة من الخرافات، يضاف إلى ذلك أن القصة تحتوي على اشتقاقات لغوية خاصة بأسماء الآلهة تلفت نظر المشتغلين باللغة المصرية، وكذلك نجد فيها صورة طريفة للاحتفالات والمراسيم المحلية التي كان لا بد منها في الطقوس المصرية.

أما أهم ما يلفت النظر فيها من حيث القصص، فهو وجه الشبه بين قصة الطوفان الذي جاء ذكره في الكتب المقدسة، والذي كان من جرَّائه فناء الإنسانية تقريبًا، وبين فيضان الشراب الذي غمر البلاد المصرية في قصتنا، مع الفارق أن الخيال المصري في قصتنا قد قلب الطوفان الذي أُرسِل هناك لهلاك البشر، ليكون حافظًا ورحمةً لهم هنا. ولكننا نذكر هذه المقابلة بشيء كبير من التحفُّظ المقرون بالشك، وسيبقى هذا الشك موجودًا إلى أن تصل إلينا وثائق أخرى تثبت حدوث هذا الطوفان في مصر، وبخاصة إذا علمنا أن «أفلاطون» قد أنكر ذلك (Timaeus P. 22 ff).

والواقع أنه لا يوجد في الوثائق المصرية خرافة خاصة بالطوفان، والمصدر الوحيد الذي تلمح فيه عن بُعْدٍ إشارةً عن الطوفان هي الخرافة الخاصة «بأوزير» أو «حور» جَدِّ بني الإنسان؛ إذ نرى فيها الإله يطفو على سطح الماء في صندوق عند ولادته، أو عند موته، حسب الإله المذكور إن كان «أوزير» أو «حور» (انظر Max Müller Egyptian Mythology P. 76 ff).

(جـ) المصادر

أول مَن بحث هذه القصة هو الأستاذ «نافيل»، ثم ترجمها بعده «ماكس مولر»، فالأستاذ «إرمان»:

(1) Naville. Transactions of the Soc. of Bib. Arch IV P. 1–9.

(2) Max Müller Egyptian Mythology. P. 73 ff.

(3) Erman. The Literature of The Ancient Egyptians P. 47 etc.

(4) Roeder Urkunden. zur Religion des Alten Agypten P. 141.

(د) متن القصة

… الإله الذي أوجد نفسه عندما كان ملكًا على الآلهة والناس جميعًا، وقد دبَّرَ له بنو البشر مؤامرة، وقد كان جلالته وقتئذٍ متقدمًا في السن، وكانت عظامه من فضة، ولحمه من ذهب، وشعره من اللازورد الحقيقي (الظاهر أن هذه كانت أمارات على كبر السن في الآلهة).

ولكن جلالته قد فطن لما يدبِّره ضده بنو البشر، وعند ذلك قال جلالته لمَن كانوا في حاشيته: تعالوا ونادوا إليَّ عيني، وكذلك «شو» و«تفنوت» و«جب» و«نوت»، ومعهم الآباء والأمهات الذين كانوا في صحبتي عندما كنتُ لا أزال في نون (المحيط الأبدي)، وكذلك نادوا إلهي «نوت» نفسه ودعوه يُحضر معه حاشيته، ويجب عليكم أن تحضروهم سرًّا حتى لا يراهم بنو الإنسان، فيأخذ قلوبهم الفزع، ويجب عليكم أن تحضروا معهم إلى القصر العظيم حتى يمدوني بنصيحتهم.

من أجل ذلك حضر هؤلاء الآلهة، وهؤلاء حضروا أمامه ولمسوا الأرض بجباههم في حضرة جلالته، لأجل أن يقول كلماته في حضرة والد أكبرهم سنًّا «نون»، ذلك الذي سوى بني البشر وملك الناس.

فقالوا لجلالته: تحدَّث إلينا حتى نسمع حديثك. فقال «رع» للإله «نون»: يا أسن إله به جئت للوجود، وأنتم أيها الآلهة الأقدمون، انظروا إلى بني البشر الذين أتوا للوجود بعيني، فقد دبَّروا

مؤامرة ضدي، فأخبروني ما عساي أفعل في ذلك. تأملوا، فإني لا زلت أبحث، ولن أذبحهم حتى أسمع رأيكم في ذلك. عندئذٍ قال جلالة «نون»: يا بني «رع»، أنت أيها الإله الذي هو أعظم من الذي خلقه وأسن من الذين سووه، ابقَ حيث أنت؛ فإن الخوف منك سيكون عظيمًا، إذا التقت عينك بمَن تخيل لك سوءًا. فقال جلالة «رع»: انظر، إنهم قد هربوا إلى الصحراء لأن قلوبهم في وجل مما قالوا. وعندئذٍ قالوا لجلالته: أرسل عينك لتذبحهم لك ... لتذبحهم لك عندما تنزل بصورة «حتحور».

وهكذا عادت هذه الإلهة بعد أن قتلت بني الإنسان في الصحراء، وقال جلالة هذا الإله: مرحبًا مرحبًا يا حتحور، لقد فعلت ما أرسلتك من أجله. فقالت له هذه الإلهة: بحياتك لقد تغلبت على بني البشر وقلبي فَرِح لذلك ...[١٥٥]

وقال «رع»: تعالوا نادوا رسلي المسرعين في العَدْو حتى يعدوا مثل ظل الجسم. وقد أحضر هؤلاء الرسل، فقال لهم جلالة هذا الإله: أسرعوا إلى الفنتين (أسوان)، وأحضروا لي كمية عظيمة من الطَّفْل الأحمر. فأحضر له هذا الطفل الأحمر، ثم إن جلالة هذا الإله العظيم أمر الإله «ذو الذؤابة» الذي في عين الشمس أن يطحن هذا الطفل الأحمر، ثم أعدت الخادمات شعيرًا للجعة، وأضيف له هذا الطفل المطحون، فصار يشبه الدم البشري، ثم جهز ٧٠٠٠ إبريق (هنت) من الجعة، ثم حضر جلالة الملك «رع» ملك الوجهين القبلي والبحري وبصحبته هؤلاء الآلهة ليروا هذا الشراب، وانفلق صبح اليوم الذي كانت ستذبح فيه الإلهة بني الإنسان في وقت ذهابهم إلى النهر، وقال جلالة هذا الإله: إنها حسنة جدًّا، سأحمي بها بني الإنسان (؟). وقال «رع»: احملوها الآن إلى المكان الذي قالت عنه إنها ستقتل فيه بني الإنسان. وبكر جلالة «رع» ملك الوجه القبلي والوجه البحري في أعماق الليل ليصب هذا الشراب المنوم (؟) والحقول التي ... قد مُلِئت بالشراب بقوة جلالة هذا الإله.

وفي الصباح ذهبت الإلهة ووجدتها غطيت بالفيضان، وكان وجهها جميلًا فيه (أي في الفيضان) فشربت، وكان الشراب لذيذًا إلى قلبها فسكرت، ولم تعِ بني الإنسان.

(١-٦) قصة الملك خوفو والسحرة

عندما تقرأ هذه القصة تلمس في أسلوبِها والغرضِ منها روحَ قصص «ألف ليلة وليلة»، فهي سلسلة من القصص تُعتبَر الأولى من نوعها، قد صيغت باللغة المصرية الحديثة التي ساد استعمالها في عهد الدولة الحديثة، وبقيت اللغة الرسمية للبلاد إلى أمد بعيد من ألف السنة الأولى قبل الميلاد، وأظهر مميزات هذه اللغة الجديدة: اختفاء الضمير المتصل الذي كنَّا نجده في اللغة القديمة يحتل آخِر الكلمة، فمثلًا كلمة «بيتي» كانت تُكتَب في اللغة القديمة كلمة واحدة، ولكنها في اللغة الحديثة أصبحت تُكتَب كلمتين: الضمير ويُوضَع في أول الكلمة، والكلمة نفسها وتأتي بعد ذلك، كما في اللغات الأوروبية. يضاف إلى ذلك اختفاء بعض صيغ قديمة، واستحداث عدد عظيم من الأدوات لم تكن موجودة من قبلُ، ولا يفوتنا أن هذه اللغة الحديثة لم تصر اللغة الرسمية للبلاد إلا بعد مائتي سنة على ظهور قصتنا، وذلك في عهد الفرعون «إخناتون»؛ حيث أخذت اللغة القديمة تتوارى وتختفي.

(أ) ملخص القصة

«خوفو» باني الهرم الأكبر جمع أولاده يومًا، وطلب أن يقصَّ عليه كلٌّ منهم قصة غريبة تتناول السحر ومعجزاته فيما مضى من الدهور، فأخذوا يتناولون الحديث، إلى أن قام أحدهم وذكر قصةً عن ساحر لم يَزَلْ على قيد الحياة يأتي بخوارقِ الأمورِ، وأحضره فعلًا أمام الملك، فبعث الحياة مرة ثانية إلى حيوانات فُصِلت رءوسها عن أجسادها، فلما رأى الملك قدرته على إحياء الموتى طلب أن يعرف منه عدد أقفال معبد الإله «تحوت»، فاعتذر بأنه لا يعرف عددها، وإن كان يعرف مكانها، وأن رجلًا واحدًا هو الذي يستطيع الإتيان بها للملك، وهذا الرجل لم يُولَد

بعدُ، ولا يزال مع أخويه في بطن أمه، وهي كاهنة «رع»، وقد قدر لأولادها الثلاثة أن يحكموا ثلاثة أجيال.

فهلع قلب الملك «خوفو» لما سمع من كلام الساحر؛ خشيةً على ملكه أن يتوارثه غير أبنائه، فسأل الساحر مرة أخرى عن موعد ولادة هؤلاء الإخوة الثلاثة، فأجابه الساحر، ومن ثَمَّ شغل بأمر الكاهنة وأخذ يترقب ولادتها، وظهر أثناء ذلك بعض المعجزات السحرية سيراها القارئ في متن القصة.

(ب) دراسة القصة

تتميز في هذه القصة مرحلتان متباينتان:

الأولى: ما سرده أولاد الملك من قصص السحرة.

والثانية: ما حكت أمر الأطفال الثلاثة الذين سينتقل إليهم زمام الأمر في البلاد.

ووصل المؤلف بين المرحلتين بإقحام البحث عن مفاتيح الإله «تحوت» رب العلم والسحر؛ ليخلق بذلك مناسبة لذكر الأطفال الثلاثة الذين أسَّسوا — بعد أن شبوا وصلبت قناتهم — الأسرة الخامسة.

وهذه القصص تكوِّن وحدة متماسكة الأجزاء، كان الغرض منها أولًا تسلية الملك وإدخال السرور على قلبه، وانتهت في مرحلتها الأخيرة بالدعاية لملوك الأسرة الجديدة، وأنهم من نسل «رع»، ولذلك أسَّسَ كلٌّ منهم معبدًا للشمس قائمًا بذاته، وهي في جملتها تمجيد لفن السحر، وحرب على الرذائل الخلقية، فالزانية فيها قد أُحرِقت، والزاني أُلقِي طعامًا للتمساح.

ويمكننا أن نلقي ضوءًا على نهاية القصة الغامضة، فنقول بأغلب الظن: إن مساعي الملك لقتل هؤلاء الأطفال لم تنجح، فشبوا وترعرعوا ونصبوا ملوكًا متتابعين، والقصص التي من هذا

النوع كثيرة، مثل قصة الحكماء الثلاثة الذين أتوا من المشرق (إنجيل متى، الإصحاح الثاني).

قلنا: إن هذه القصص تكون وحدة متماسكة الأجزاء، وبعبارة أوضح نستطيع أن نقول إنها قصة واحدة، فإن اقتطاع جزء منها، أو الاقتصار على قصة واحدة من قصصها يُظهِرها لنا ناقصة شوهاء، لا تؤدي إلى الغرض الذي سِيقَتْ من أجله.

وإذا نظرنا إلى هذه القصة باعتبارها أدبًا قصصيًّا، حكمنا بأنها ليست من النوع الراقي، وإذا نظرنا إليها باعتبارها قصصًا قوميًّا رأينا أنها في بابها قطعة فنية تستحق الذكر.

ولا تظن أن القصص القومي الذي يميل إليه جمهرة الشعب ويتفهمونه في سهولة ويسر لا صنعة فيه ولا يستلزم حذقًا ومهارة، فإنه استعداد وقدرة ومران على ما تواضَعَ عليه القُصَّاص وروَّاد مجالسهم، فتتربى عند الواحد مَلَكة يستطيع بها إذا سمع قصة أن يلحقها بشبيهة لها وردت على أذنه من قبلُ، فهي بهذا حرفة وفن وتقاليد موروثة؛ ومن هنا أتت شهرة القصاص الأذكياء الذين يدركون ذوق جمهور المستمعين، فيغذونهم بما يناسبهم، ويكافئهم هؤلاء بالتهافت على مجالسهم، والتحدث بمواهبهم.

ومع ذلك فإنه إذا صيغ هذا النوع من القصص في ثوب جميل من الأساليب، كانت له قيمته العظيمة، كما تشاهد ذلك في قصص الدولة الوسطى، وسيرى القارئ عند الكلام على شكاوى «خع – خبر – رع – نب» أن المؤلف كان يندب حظ الأسلوب الأدبي في الكتابة ويقول عنه: إنه أصبح خاليًا من كل تنميق.

وهذا النقد نراه ظاهرة في كل آداب العالم، فإذا ساد لون منه عصرًا من العصور قام مَن ينادون بتغييره؛ لأن الجدة والتغيير ترتاح إليهما النفوس كثيرًا، كما نرى الآن بين أنصار الأدب القديم وأنصار الأدب الجديد، وبين أنصار الأدب المحتشم والأدب المكشوف، وبين أنصار العربية والعامية.

(جـ) المصادر

أول مَن عني بترجمة هذه القصة هو الأستاذ «أدلف إرمان»، والبردية التي وُجِدت مكتوبة عليها تُعرَف باسم ورقة «وستكار»، وأحدث ترجمة لها هي التي تجدها في كتاب «إرمان» في الأدب المصري القديم، وقد بحث موضوعها وعلَّقَ عليها غيره من علماء المصرية. وهاك المصادر التي يمكن الرجوع إليها، والاعتماد على ما جاء فيها:

(1) Erman: The Literature of the Ancient Egyptians P. 86 ff.

(2) Peet: A comparative Study of the Literatures of Egypt, Palestine and Mesopotamia. P. 41 ff.

(3) Max Pieper: Die Agyptische Literatur. P. 55 ff.

(4) Maspero: Popular stories of Ancient Egypt P. 21 ff.

(5) A. Wiedeman: Altaegyptische Sagen und Marchen. Leipzig. 1906.

(د) متن القصة

(أول هذه القصص خاص بحوادث في عهد الملك «زوسر»، غير أنه لم يُحفَظ منها إلا الخاتمة، وفيها يأمر الملك «خوفو» — اعترافًا منه بأعمال هذا الملك «زوسر» وساحره (رئيس المرتلين)[١٥٦] — بتقديم مأكولات لهما تُوضَع في قبريهما.)

ثم قام الأمير «خفرع»[١٥٧] يتكلم وقال: «أنا أقص على جلالتك أعجوبة حدثت في عهد والدك «نبكا»[١٥٨] حينما ذهب إلى معبد «بتاح» في «منف»؛ وذلك أنه حينما ذهب جلالته إلى منف، زار رئيس المرتلين «وباونر» أيضًا …

وكان لـ «وباونر» هذا زوجة قد أغرمت بحب أحد سكان المدن، وقد كانت على اتصال معه بوساطة خادمة، وقد أرسلت له صندوقًا مفعمًا بالملابس هدية له، وحضر مع الخادمة.

وبعد أن مضت عدة أيام،[١٥٩] كان يوجد منزَه على بحيرة[١٦٠]«وباونر»، فقال ذلك المواطن لزوج «وباونر»: لماذا؟ إنه يوجد منزه في بحيرة «وباونر». انظري، سنمكث فيه معًا. فأرسلت زوجة «وباونر» إلى مدير البيت المشرف على البحيرة قائلة: «جهِّزْ[١٦١] بيت النزهة الذي في البحيرة.» وبعد ذلك ذهبت هناك وقضت اليوم تشرب مع ذلك المواطن حتى مغرب الشمس، ولما حان وقت الغروب ذهب إلى البحيرة ووقفت الخادمة لقضاء حاجته كأنها خادم حمام، وقد لمحها رئيس البيت.

ولما أضاءت الأرض وحلَّ اليوم التالي،[١٦٢] ذهب مدير البيت وأخبر سيده بالأمر ... فقال «وباونر»: «اذهب وأحضر لي ... من العاج والذهب.» وبهذه الآلة صنع تمساحًا من الشمع طوله سبعة أشبار، وتلا عليه تعويذة وقال: «إن مَن يأتي ليستحمَّ في بحيرتي اقبض عليه.» وأعطاه مدير البيت وقال له: «حينما ينزل المدني إلى بحيرتي على حسب عادته اليومية، ألقِ التمساح وراءه في الماء.» وعلى ذلك ذهب مدير البيت في سبيله وأخذ تمساح الشمع معه.

وأرسلت زوجة «وباونر» إلى مدير البيت الذي كان مشرفًا على البحيرة قائلة: «جهِّزْ بيت النزهة الذي على البحيرة. انظر، إني سأسكن فيه.»

فأثَّثَ بيت النزهة بكل شيء جميل، ثم ذهبتا[١٦٣] وقضتا يومًا بهيجًا مع المدني.

وعندما حان الغروب جاء المدني على حسب عادته اليومية، وألقى مدير البيت تمساح الشمع وراءه في الماء، فانقلب إلى تمساح طوله سبعة أذرع، وقبض على المدني ... ولكن «وباونر» مكث مع جلالة الملك «نبكا» سبعة أيام، وفي هذه الأثناء كان المدني في الماء من غير تنفس، ولما انقضت سبعة الأيام أتى الملك «نبكا» ... وحضر أمامه رئيس المرتلين «وباونر»، ثم قال

«وباونر»: «... ليت جلالتك تأتي وتشاهد الأعجوبة التي حدثت في عهد جلالتك.» فذهب الملك معه، ثم نادى «وباونر» التمساح وقال: «أحضر إلى هنا المدني.» وعلى ذلك خرج التمساح وأحضره ... فقال جلالة الملك «نبكا»: «أستميحك عفوًا، ولكن هذا التمساح مخيف (؟).» وعند ذلك انحنى «وباونر» وأخذه، فصار تمساحًا من شمع في يده.

وبعد ذلك قصَّ رئيس المرتلين «وباونر» على جلالة الملك «نبكا» هذا الأمر الذي فعله المدني في بيته مع زوجه، فقال جلالته للتمساح: «خذه فهو ملكك.»

وعندئذٍ غاص التمساح في أعماق البحيرة، ولم يعرف أحد المكان الذي ذهب إليه معه.

وأمر جلالة الملك «نبكا» أن تُؤخَذ زوج «وباونر» إلى الحقل الذي في شمال مقر الملك، وأُشعِلت النار فيها، وأُلقِي برمادها في النهر.

«انظر، إن هذه أعجوبة حدثت في عهد والدك «نبكا»، وهي من أعمال رئيس المرتلين «وباونر» العظيمة.»

فقال جلالة الملك «خوفو»: «فليقدم للملك «نبكا» ألف رغيف من الخبز، ومئة إناء من الجعة، وثور، وكيلان من البخور، وليُعْطَ رئيس المرتلين «وباونر» فطيرة، وإبريقًا من الجعة، وقطعة كبيرة من اللحم، وكيلًا من البخور؛ لأني رأيت مثلًا من علمه، وقد نفَّذَ كلَّ ما أمر به جلالته.

ثم وقف الأمير «بوفرع» ليتكلم وقال: «أقص عليك أعجوبة حدثت في عهد والدك «سنفرو»،[١٦٤] وهي من الأعمال العظيمة التي قام بها رئيس المرتلين «زازا معنخ»، وذلك أنه ذات يوم كان الملك «سنفرو» حزينًا، ومن أجل ذلك جمع رجال القصر ليجد لنفسه تسلية، ولكنه لم يجد شيئًا، وعند ذلك قال: اذهب وأحضر لي رئيس المرتلين «زازا معنخ». فأُحضِر إليه في الحال، فقال له جلالته: «لقد جمعتُ رجال القصر جميعًا ليجدوا لي تسلية، ولكن لم أجد.»

فقال له «زازا معنخ»: «إذا ذهبت جلالتك إلى بحيرة البيت العظيم،[١٦٥] اركب قاربًا كل ما فيه عذارى من إماء قصرك، عندئذٍ قلب جلالتك ينشرح حينما ترى كيف يجدفن جيئة وروحة، وعندما ترى الأماكن اللطيفة التي على البحيرة، وتنظر إلى حقولها وشاطئيها الجميلين، فإن قلبك ينشرح بذلك.»

فقال له جلالته: «سأفعل هذا، عُدْ إلى منزلك (؟) وسأذهب لأجدف، فليؤتَ إليَّ بعشرين مجدافًا من الأبنوس مرصَّعة بالذهب، ومقابضها من خشب «سكب» مطعمة بخالص النضار.

فَلْيؤتَ إليَّ بعشرين امرأة ممَّن لهن أجمل الأعضاء، وصدورهن رشيقة، وشعورهن مجدولة ممَّن لم يلدن بعدُ، وفوق ذلك أحضروا لي عشرين شبكة، وأعطوها النساء بدلًا من ملابسهن.» وقد نُفِّذ كل ما أمر به جلالته، وجدفن جيئة وروحة، وكان قلب جلالته فرحًا حينما رأى كيف يجدفن.

ثم تعثرت قائدة[١٦٦] منهن في جدائل شعرها، وسقطت سمكة حلي[١٦٧] من «الملخيت» الجديد في الماء، فسكتت[١٦٨] ولم تَعُدْ تجدف، وسكت الصف الذي كانت تقوده وانقطع عن التجديف، عندئذٍ قال جلالته: «لماذا لا تجدفن؟» فقلن: «إن قائدتنا صامتة ولا تجدف.»

فقال لها جلالته: «لماذا لا تجدفين؟»

فقالت: «إن السمكة — من الملخيت الجديد — قد سقطت في الماء.» فأحضر إليها أخرى وقال: «إني أعطيك هذه بدلًا.» فقالت: «إني أريد قعبي حتى قاعه.»[١٦٩]

عندئذٍ قال جلالته: «اذهب وأحضر إليَّ رئيس المرتلين «زازا معنخ».» فأُحضِر فورًا، وقال جلالته: «يا زازا معنخ، يا أخي، لقد فعلت كما قلت، وقد سُرَّ قلب جلالتي حينما نظرت كيف يجدفن، ولكن سمكة حلي من الملخيت الجديد لقائدة قد سقطت في الماء، فسكتت ولم تجدف، وبذلك أضرب صفها عن التجديف، وقد قلتُ لها: لماذا لا تجدفين؟ فقالت لي: إن سمكة حلي من

الملخيت الجديد قد سقطت في الماء، فقلت لها: جدفي وأنا أعطيك بدلها. فقالت لي: إني أريد قعبي حتى قاعه.»

وعندئذٍ تلا «زازا معنخ» رئيس المرتلين عزيمة سحرية، وجعل ماء أحد جانبي البحيرة على الجانب الآخَر،[١٧٠] ووجد سمكة الحلي موضوعة على قطعة خزف، فأحضرها وأعطاها صاحبتها، أما الماء فكان عمقه اثني عشر ذراعًا في الوسط، وقد بلغ أربعة وعشرين ذراعًا حينما رُفِع، وعند ذلك تلا تعويذة سحرية فردَّ ماء البحيرة ثانيةً إلى مكانه.

وقضى جلالته كل اليوم في سرور مع كل القصر، وكافَأ رئيس المرتلين «زازا معنخ» بكل الأشياء الطيبة.

انظر! إنها أعجوبة حدثت في عهد والدك «سنفرو»، وهي من أعمال رئيس المرتلين ناسخ الكتاب «زازا معنخ».

فقال جلالة الملك «خوفو»:[١٧١] «فَلْيُقدَّم إلى جلالة الملك «سنفرو» مائة رغيف من الخبز، ومائة إناء من الجعة، وثور، وكيلان من البخور، وَلْيُعْطَ رئيس المرتلين ناسخ الكتاب «زازا معنخ» فطيرة، وإبريقًا من الجعة، وكيلًا من البخور؛ لأني رأيت مثلًا من علمه.»

وقد نفذ كل ما أمر به جلالته.

ثم نهض الأمير «حردادف» ليتكلم فقال: «إنك لم تسمع إلى الآن غير أمثلة لسحرة سبقونا، والإنسان لا يستطيع أن يتبيَّن فيها الصدق من الكذب، غير أنه في زمنك هذا يوجد ساحر.»

فقال جلالته: «مَن هو يا «حردادف»، يا بني؟» فأجاب الأمير «حردادف»:[١٧٢] «يوجد مدني اسمه «ددي» يقطن في «دِدْ-سنفرو»[١٧٣] بلغ من العمر مائة وعشرة أعوام، ويأكل خمسمائة وخمسين رغيفًا من الخبز، وفخذ ثور من صنف اللحم، ويشرب مائة إبريق من الجعة، إلى

يومنا هذا.[١٧٤] وهو يعرف إلى الآن كيف يُرَكِّبُ ثانيةً رأسًا قد قُطِع، ويعرف كيف يجعل الأسد يتبعه وحبله[١٧٥] يجر على الأرض، وهو يعرف عدد الأقفال التي يحتوي عليها معبد «تحوت».» واتفق أن جلالة الملك «خوفو» كان دائمًا يبحث عن أقفال معبد «تحوت»؛ ليعمل لأفقه[١٧٦] مثلها.»

وعندئذٍ قال جلالته: «أنت بنفسك يا بني «حردادف» ستحضره لي.»

وأعدت سفن للأمير «حردادف» وسافر مصعدًا إلى «دد-سنفرو»، وعندما رست السفن على الشاطئ سافر برًّا جالسًا في محفة من الأبنوس، قوائمها مصنوعة من خشب «سسنم» ومطعمة بالذهب.

ولما وصل إلى «ددي» وضعت المحفة على الأرض، ووقف يسلم عليه، فوجده جالسًا على حصير على عتبة بيته، وكان رأسه قد أمسك به خادم مملسًا عليه، وكان آخَر يدلِّك قدميه.

وقال الأمير «حردادف»: إن حالتك الآن كحالتك قبل التقدم في السن، وقبل الكبر، وهو بيت الداء، ومكان الكفن، ومحل الدفن؛ (وأنت لا تزال رجلًا) ينام إلى مطلع النهار معافًى من المرض، وبدون أن تتقدم في السن المشينة[١٧٧] (أي التي يجزع الإنسان منها). تحياتي أيها المحترم، لقد أتيت إلى هنا في طلبك برسالة من والدي «خوفو»؛ حتى تأكل أطيب الأشياء التي يعطيها الملك، وهي مأكولات مَن في خدمته، وحتى يوصلك بعد عمر طويل إلى آبائك الذين في عالم الأموات.

فقال «ددي» هذا: «في سلام، في سلام يا «حردادف»، أنت يا ابن الملك الذي يعزه والده! ليت والدك «خوفو» يكافئك، وليته يرفع مكانتك بين الكبار! وليت روحك[١٧٨] تحارب قرنك! وليت روحك تعرف الـ … طريق إلى باب «مَن يخبئ الضعف»،[١٧٩] مرحبًا يابن الملك!»

ومدَّ الأمير «حردادف» إليه يده وساعده على القيام، وبعد ذلك ذهب معه إلى شاطئ النهر؛ آخِذًا بيده طوال الوقت.

وقال «ددي»: «مُرْ بسفينة لي لتحضر إليَّ الأطفال[١٨٠] وكتبي معًا.» فوُضِعت تحت تصرفه سفينتان ونواتيهما؛ أما «ددي» فإنه انحدر في النهر في سفينة الأمير «حردادف».

ولما وصل الأمير «حردادف»: إلى مقر الملك دخل ليقدم تقريره للملك «خوفو»، فقال الأمير «حردادف»: «أيها الملك، سيدي، لقد أحضرت «ددي».» فقال جلالته: «اذهب وأحضره لي.»

ثم ذهب الملك إلى القاعة ذات العمد في القصر، وأحضر «ددي» إليه، وقال جلالته: «كيف كان ذلك يا «ددي»؟! إني لم أرك قطُّ من قبلُ؟»

فقال «ددي»: «إن مَن يُطلَب عليه أن يحضر، إن الملك طلبني، وها أنا قد أتيت.»[١٨١] فقال جلالته: «أصحيح ما يقال من أنك يمكنك أن تركِّب ثانيةً رأسًا قد قُطِع؟!» فقال «ددي»: «نعم، أعرف ذلك يأيها الملك، يا مولاي.» فقال جلالته: «أحضروا لي سجينًا من السجن حتى يوقع عليه عقابه.» فقال «ددي»: «ولكن ليس على رجل[١٨٢] أيها الملك، يا مولاي، انظر، أليس من الخير أن يُجرَّب شيء مثل هذا على الماشية السامية؟»[١٨٣]

فأُحضِرت إليه إوزة ثم فصل رأسها، ووضعت الإوزة في الجانب الغربي من القاعة، ورأسها في الجانب الشرقي منها، وتلا «ددي» تعويذة سحرية، فوقفت الإوزة ومشت، وكذلك فعل رأسها، ولما وصل أحد الجزأين إلى الآخَر وقفت الإوزة وصاحت، وأُحضِرت إليه بطة وعمل فيها بالمثل.

وأحضر له جلالته ثورًا وجعل رأسه يسقط على الأرض، وتلا «ددي» تعويذته السحرية فوقف الثور وراءه، على حين أن حبله سقط على الأرض،[١٨٤] فقال الملك «خوفو»: «يقال إنك تعرف عدد أقفال معبد تحوت.» فقال «ددي»: «معذرة فإني لا أعرف عددها أيها الملك يا مولاي،

ولكني أعرف أين هي.» فقال جلالته: «أين هي؟» فقال «ددي»: «يوجد صندوق من الظران في حجرة تُسمَّى «فهرس هليوبوليس» (انظر إنها) في الصندوق.»[١٨٥] فقال «ددي»: «أيها الملك يا مولاي، انظر، لستُ أنا الذي آتي بها إليك.» فقال جلالته: «مَن الذي يحضرها إذن؟» فقال «ددي»: «إنه أكبر ثلاثة الأطفال الذين في بطن «رد-ددت» الذي سيحضرها لك.» فقال جلالته: «ولكني أرغب في أن تقول مَن هي «رد-ددت» هذه.» فقال «ددي»: «إنها زوجة كاهن «رع» في بلدة «سخبو»،[١٨٦] وهي التي حملت في ثلاثة أطفال «لرع» رب «سخبو»، وقد أخبرها أنهم سيتولون هذه الوظيفة الكبرى[١٨٧] في كل هذه البلاد، وإن أكبرهم سيكون الكاهن الأعظم في عين شمس.»

وعندئذٍ استولى الحزن على قلب الملك من أجل ذلك، فقال «ددي»: «أستميحك عفوًا، ما هذه الحالة أيها الملك يا مولاي؟ أمن أجل ثلاثة الأطفال؟! وعلى ذلك أقول لك: ابنك، فابن ابنك، وبعد ذلك واحد منهم.»[١٨٨]

فقال جلالته: «ولكن أخبرني في أي وقت ستضع «رد-ددت» هذه؟» (فقال «ددي»): «ستضع في اليوم الخامس عشر من الشهر الأول من فصل الشتاء.» فقال جلالته: «هي ... إقليم (؟) «قناة السمكتين»، وأنا بنفسي سأضع قدمي (؟) هناك، وسأرى معبد «رع» رب «سخبو».» فقال «ددي»: «إذًا سأجعل الماء يقف على عمق أربعة أذرع في إقليم «قناة السمكتين».»[١٨٩]

وبعد ذلك عاد جلالته إلى قصره، وقال جلالته: «رع ... يخبر بأن يقيم «ددي» في بيت الأمير «حرددف» ليسكن معه، واجعل جرايته ألف رغيف من الخبز، ومائة إناء من الجعة، وثورًا واحدًا، ومائة حزمة من الكراث.» وقد نفذ ذلك على حسب ما أمر به جلالته.

والآن اتفق أن «رد-ددت» كانت في ألم المخاض، فقال جلالة «رع» رب «سخبو» عندئذٍ إلى «إزيس» و«نفتيس» و«مسخنت» و«حكت» و«خنوم»:[١٩٠] «قفن واذهبن أنتن وخلصن «رد-

ددت» من ثلاثة الأطفال الذين في فرجها، وهم الذين سيتولون هذه الوظيفة الممتازة في هذه الأرض قاطبة، إنهم سيبنون معابدكن، وسيمدون موائدكن بالطعام، وسيملئون موائد شرابكن، وسيجعلون قرابينكن عظيمة.»[١٩١]

وعندئذٍ ذهبت هؤلاء الإلهات وقد تزين بزي الراقصات، وكان «خنوم» معهن يحمل محفتهن،[١٩٢] وأتين إلى بيت «رع وسر»[١٩٣] ووجدنه واقفًا وقميصه متدلٍّ،[١٩٤] وبعدئذٍ قدَّمنَ له عقودهن ودفوفهن،[١٩٥] فقال لهن: «يا سيداتي،[١٩٦] انظرن إن هنا سيدة في المخاض.» فقلن له: «دعنا نرها، حقًّا إنَّا نعرف في الولادة.» فقال لهن: «احضرن.»

وعندئذٍ سبقن «رد-ددت» وأغلقن باب الحجرة عليهن وعليها، وجلست «إيزيس» أمامها، و«نفتيس» خلفها، وأسرعت «حكت» في عملية الوضع، وقالت «إيزيس» تخاطب الجنين: لا تكونن شديدًا في فرجها كاسمك «وسر-كاف».[١٩٧] فانزلق هذا الطفل إلى الخارج على يديها وطوله ذراع، قوي العظم، وكان لقبه الملكي مكتوبًا على جسمه بالذهب، ولباس رأسه من خالص اللازورد،[١٩٨] فغسلنه وقطعن حبل سرته، ووضعنه على رقعة من نسيج فوق قالب من اللبن، واقتربت منه «مسخنت» وقالت: «ملك سيتولَّى الملك في البلاد قاطبة.»

ومنحه «خنوم» الصحة في جسمه.

(وقد قُصَّتْ ولادة الطفلين الآخَرين بنفس الألفاظ والتفاصيل، غير أن العزائم السحرية مختلفة طبعًا.)

«لا تقتربن من فرجها، كما ستسمى حقيقة «ساحو-رع».»[١٩٩] «ولا تكونن مظلمًا في فرجها، كما ستسمى حقيقة «ككو».»

ثم خرجت هؤلاء الإلهات بعد أن خلصن «رد-ددت» من الأطفال الثلاثة، ثم قلن: «ليكن قلبك فرحًا يا «رع وسر». انظر، لقد وُلِدَ لك ثلاثة أطفال.» فقال لهن: «يا سيداتي ماذا يمكنني أن

أفعل لَكُنَّ؟ أرجو منكنَّ أن تعطين هذا الكيل من الشعير لحامل محفتكن، وخذنه لأنفسكن معكن في أوانيكن أجرًا.»[٢٠٠] فحمل «خنوم» الشعير.

ولما ذهبن في طريقهن من حيث أتين قالت «إيزيس» لهؤلاء الإلهات: «ما معنى أننا أتينا إليها ولم نأتِ بأية أعجوبة لهؤلاء الأطفال حتى نخبر بها والدهم الذي أرسلنا إلى هنا؟»

وعلى ذلك صنعن ثلاثة تيجان ملكية، ووضعنها في الشعير، وجعلن العاصفة والمطر يحدثان في السماء، وعُدْنَ إلى البيت،[٢٠١] وقلن: «نرجو منكم أن تدعونا نضع الشعير في حجرة مغلقة إلى أن نعود ثانيةً ...»

ووضعن الشعير في حجرة مقفلة.

وطهَّرت «رد-ددت» نفسها طهور الأربعة عشر يومًا،[٢٠٢] وقالت لخادمتها: «هل أُعِدَّ البيت؟» فأجابت: «لقد أُعِدَّ، كل شيء جميل اللهم إلا الأواني فلم يمكن إحضارها.» فقالت «رد-ددت»: «لماذا لا يمكن إحضار الأواني؟» فقالت الخادمة: «لا يمكن عمل شيء ما هنا؛[٢٠٣] إذ إن شعير الراقصات قد وُضِع في حجرة عليها خاتمهن.» فقالت «رد-ددت»: اذهبي وأحضري بعضًا منه، وسيكافئهن «رع-وسر» بعد عودته.

وعلى ذلك ذهبت الخادمة وفتحت الحجرة وسمعت في الحجرة غناءً وموسيقا ورقصًا وفرحًا، وكل ما يفعل احتفالًا بالملك، فعادت وأخبرت «رد-ددت» بكل ما سمعت، فذهبت «رد-ددت» إلى الحجرة، ولكنها لم تَرَ المكان الذي كان يحدث فيه ذلك، ثم وضعت جبهتها على صومعة الغلال ووجدت أنه فيها، فوضعتها في صندوق، ثم وضعت هذا في خزانة أخرى، وربطتها بجلد، ووضعتها في حجرة صغيرة تحتوي على أوانيها، وأغلقت الباب عليها.

ولما عاد «رع-وسر» من الحقل قصت عليه «رد-ددت» هذا الأمر ففرح كثيرًا، وجلسا وأخذا في أسباب السرور.

وبعد أن مضت أيام معدودات غضبت «رد-ددت» على خادمتها لسبب ما وعاقبتها بالضرب، فقالت الخادمة للقوم الذين في البيت: «هل ستفعل الـ ...؟ لقد ولدت ثلاثة ملوك، وسأذهب وأخبر جلالة الملك «خوفو» بذلك.»

وعلى ذلك ذهبت ووجدت أخاها من أمها[٢٠٤] يربط خيوط الكتان في الجرين، فقال لها: «إلى أين تذهبين أيتها العذراء الصغيرة؟» وعندئذٍ قصَّتْ عليه هذا الأمر، فقال لها أخوها: «وعلى هذا قد أتيت إليَّ لأشترك معك في الخيانة! (؟)»[٢٠٥] وأخذ ... من الكتان وضربها ضربة مؤلمة.

وبعدئذٍ ذهبت الخادمة لتحضر لها شيئًا من الماء، فقبض عليها تمساح، وعندئذٍ ذهب أخوها ليخبر «رد-ددت» بذلك، فوجد «رد-ددت» جالسة ورأسها على ركبتها، وقلبها مكتئب جدًّا، فقال لها: «لماذا أنت مضطربة كذلك؟» فقالت له: «إن هذه البنت التي قد نمت في هذا البيت، خرجت الآن قائلةً: سأذهب لأفشي السر!»

فحنا رأسه وقال: «يا سيدتي، لقد أتت وقالت لي ... بجانبي، وضربتها ضربة مؤلمة، وقد ذهبَتْ لتجلب لنفسها شيئًا من الماء، فقبض عليها تمساح.»

(وهنا كُسِرت الورقة البردية.)

(٢) قصص الدولة الحديثة

(٢-١) قصة الأخوين

مقدمة

قصة الأخوين أول قصة من نوعها في الأدب المصري القديم، ولقد جذبت أنظار العالم؛ لغرابة وقائعها، ومشابهتها قصصًا أخرى حُكِيت في الزمن الحديث، وهي بلا شك أكثر دلالة على أصلها المصري من زميلاتها التي رُوِيت لنا من عهد الفراعنة، وهي قطعة من الشعر القصصي

العام ترجع إلى عهد الأسرة التاسعة عشرة، وتحلِّق بوقائعها الخيالية في عالم الخرافات، وقد نقلها الكاتب «أنانا» تلميذ كاتب الخزانة الملكية «كاجبو».

(أ) ملخص القصة

يضم بيت واحد أخوين مخلصين، كبيرهما متزوج ويُسمَّى «أنوبيس»، وصغيرهما غير متزوج ويُسمَّى «باتا»، وكان ساعد أخيه الأكبر في فلح الأرض وزراعتها وتربية أنعامها، وفي يوم كانا يزرعان في الحقل فاحتاجا إلى بعض البذر، وذهب الأخ الصغير إلى البيت ليحضره، وكانت زوجة أخيه الكبير تمشِّط شعرها، فما رأته يحمل قدرًا كبيرًا من البذور على سواعده حتى راقها جماله، وأُعجِبت بقوته، فراودته عن نفسه، وغلَّقت الأبواب، وقالت: هيت لك. قال: معاذ الله، إن أخي الكبير رب نعمتي، وقد أحسن مثواي فلا أخونه في زوجته. فأضمرت المرأة في نفسها الكيد لهذا الفتى الذي فوَّت عليها ما كانت تريد من اللذة والمتاع، وقابلت زوجها في المساء متمارضة متباكية متظاهرة بالألم، وادعت أن أخاه الصغير راودها عن نفسها، وما جزاء مَن يفعل ذلك إلا أن يُقتَل أو عذاب أليم، فصمَّم الأخ الكبير على قتله عندما يعود بالماشية، واختبأ وراء الباب لهذه الغاية، وما إن قرب الصغير من البيت حتى أخبرته بقرة من التي كان يسوقها بما دُبِّرَ له، ففرَّ «باتا» وتبعه «أنوبيس» بسلاحه، ولكن إله الشمس حجز بينهما بخلق بحيرة مملوءة بالتماسيح، فعجز «أنوبيس» عن اللحاق به، وجرت بينهما محادثة برَّأ فيها «باتا» نفسه، وَجَبَّ عضو التناسل منه، وأبَانَ عزمه على الرحيل إلى وادي الأرز، وأنه سيضع قلبه على زهرة في أعلى إحدى أشجاره، وعيَّنَ له علامة إذا حدثت كانت دليلًا على وفاته، وعلى الأخ الكبير حينئذٍ أن يذهب إلى وادي الأرز، ويبحث عن قلبه، ويضعه في الماء؛ فتعود الحياة إلى «باتا» ثانيةً، وينتقم لنفسه من القاتل.

وبعد هذه المحاورة رجع «أنوبيس» إلى قريته فقتل زوجته انتقامًا لأخيه، أما «باتا» فقد سعى إلى وادي الأرز، ولما رأته الآلهة وحيدًا في هذا الوادي أشفقت عليه وجعلت الإله «خنوم» يسوي له زوجة، وقد خالفته هذه الزوجة فخرجت إلى البحر رغم تحذيره لها من هذا العمل، فأراد البحر أن يختطفها، ولكن «باتا» أنقذها منه، وكل ما استطاع البحر أن يأخذه خصلة من شعرها طفت على وجهه حتى وصلت إلى مصر، وهناك فاح شذاها وانتشرت رياها، فشغف الفرعون بصاحبتها، وأرسل إلى وادي الأرز في طلبها، فحضرت زوجة باتا مع الرسل، وصارت حظية عند الفرعون. ولما كانت تخاف بأس زوجها أغرت الفرعون بقطع شجرة الأرز التي تحمل قلبه، فسقط قلبه بسقوطها ومات، وعندئذٍ حدثت العلامة التي كان قد ذكرها لأخيه ليعلم بها أمر موته — وهي فوران إبريق من الجعة — فسعى في الحال «أنوبيس» إلى وادي الأرز لينقذ قلب أخيه، وبعد سنتين وجده في صورة فاكهة، فأعاده إلى الحياة بوضعه في الماء، ثم صيَّر «باتا» نفسه ثورًا وحمل أخاه إلى مصر، وأفصح لزوجه عن شخصيته، فأغرت الفرعون بذبحه، فتطايرت منه نقطتان من الدم نبتتا بعدُ شجرتين من الأثل سكن فيهما «باتا»، وأسر إلى زوجته بأمره، فأغرت الفرعون بقطع الشجرتين، وصنع أثاث لها منهما ففعل، وأثناء صنع الأثاث تطايرت شظيتان من الخشب، دخلتا فم الزوجة؛ فحملت وأنجبت صبيًّا صار وليًّا للعرش، وعند وفاة الملك نصب هذا الصبي خلفًا له ملكًا على البلاد، ولم يكن ذلك الصبي إلا «باتا» نفسه، فانتقم لنفسه من زوجته الخائنة بقتلها.

(ب) دراسة القصة

أسلوب هذه القصة ركيك، وليس فيه تلك الروعة التي نلمسها في قصة «سنوهيت»، أو في قصة «الغريق»، ولقد اتبع في قصها كاتبُها أسلوبَ الدولة الحديثة المألوف، وأقحم فيها بعض العبارات التي لا حاجة إليها، ولا مناسبة لها، كما نراه من عامة المصريين الآن إذا قصوا

قصة، أو حملوا إليك خبرًا، فجاءت خالية من طلاوة العبارة، ورشاقة الأسلوب، ولكن نرى من جهة أخرى أن مؤلفها قد أظهر في صناعتها مهارة وحذقًا من حيث هي قصة.

وإذا أمعنا في النظر إلى هذه القصة وجدناها ذات مرحلتين كأختها «قصة الملك خوفو والسحرة»، فالمرحلة الأولى قصة الأخوين، وإغراء زوجة الكبير أخاه الصغير بارتكاب الفاحشة، وتعفُّفه، وقلب الزوجة الحقائق للتنكيل به، وقد حاول بعض رجال الأدب إثبات أن قصتي «يوسف وزليخا» و«قمر الزمان في ألف ليلة وليلة» مأخوذتان من هذه القصة القديمة؛ لما بينهما وبينها من شبه كبير. ولكنا نرى أن في ذلك بعض التكلُّف، فإن هذه المحاولة التي رغبت فيها الزوجة، وتعفَّفَ عنها الصغير، وما تلاها من كيد وتدبير، تحصل كل يوم بين ظهرانينا، وهي تكاد تكون أمرًا طبيعيًّا يحدث في كل أمة مع اختلاف يسير في التفصيل. وليس في هذه المرحلة الأولى من القصة ما تمتاز به من نظائرها إلا ما خالف الأمر المألوف؛ كتحدُّث الحيوان، وخلق إله الشمس بحيرة مملوءة بالتماسيح للحيلولة بين الأخ وأخيه.

وأما المرحلة الثانية فكلها من خوارق العادة والمعجزات، وخلاصتها: إثبات خيانة الزوجةِ زوجَها — وإن كان الإله قد صاغها — بعدما عرفت أن عضو التذكير مبتور فيه، وتعرض علينا أثناء ذلك كثيرًا من الأمور الخارقة للطبيعة التي لا تأتي في العادة على يد إنسان؛ فنرى البحر يمتد لابتلاع زوجة «باتا»، ونرى العبير يتأرج من خصلة الشعر حتى يصل إلى الفرعون في مصر، ونرى «باتا» يعود للحياة ثانية ويتحوَّل إلى ثور، ويسافر إلى مصر ويخاطب زوجته، ونرى نقطتين من دمه تتحولان بعد ذبحه شجرتين هما «باتا» نفسه، فيسر بالأمر إلى زوجته، ونرى أخيرًا قطعتين صغيرتين من الخشب تصيران طفلًا في بطن زوجته، يئول إليه عرش مصر.

وقد ربط الكاتب بين المرحلتين بوصية «باتا» لأخيه «أنوبيس»، بأن يعيد إليه قلبه عندما يعلم أنه قد مات تكفيرًا «لأنوبيس» على اتهامه أخاه زورًا وبهتانًا.

ولما كانت هذه القصة المصرية الصميمة قديمة العهد ومملوءة بالخرافات؛ فإن الباحثين في الأدب العالمي يعتقدون أن ما شابهها عند الأمم الأخرى مأخوذ عنها. وقد عني بعض العلماء بهذا الموضوع وقرنوا بين هذه القصة وما يقابلها من قصص العالم (Hyacinthe Husson Le Chaine Traditionelle Contes et Legendès au point de vue .Mythique. Paris 1874 P. 91)

والواقع أننا نجد صدى لهذه القصة في الأدب الفرنسي والإيطالي، وفي مختلف أجزاء ألمانيا، وفي النمسا والمجر، وفي الروسيا، وفي البلاد السلافية، وفي رومانيا، وفي بلاد اليونان، وفي آسيا الصغرى، وفي بلاد الحبشة، والهند. وَلْنأخذِ القصة الروسية[٢٠٦] على سبيل المثال؛ لنرى إلى أي حد تشابهت مع قصة الأخوين.

نجد في القصة الروسية أن «باتا» اسمه «إيفان» بن «جرمان» خادم الكنيسة، وقد وجد سيفًا سحريًّا في بعض الأدغال، وذهب ليحارب به الأتراك الذين غزوا «أرنيار» Arinar وذبح منهم ثمانين ألفًا، وقد كوفئ على عمله هذا بأن زوَّجه الملك ابنته «كليوباترا»، ولما مات حموه تولى الملك من بعده، ولكن زوجته خانته وأعطت الأتراك السيف، فلما أصبح «إيفان» أعزلَ مات في حومة الوغى، وسلَّمت زوجه نفسها لسلطان الترك — كما فعلت بنت الآلهة عندما ذهبت إلى فرعون — ولقد استطاع أبوه «جرمان» خادم الكنيسة أن يخلص جسم ابنه عن طريق مجرى من الدم كان يتدفق من وسط الإصطبل، وعندئذٍ قال له الحصان: «إذا كنتَ تريد إعادة الحياة إليه فافتح بطني، وخذ أحشائي، ودَلِّك الميت بدمي، وعندما تأتي الغربان لتلتهم جسمي بعد ذلك خذ واحدًا منها، وكلِّفه أن يحضر لك إكسير الحياة العجيب». ففعل «جرمان»

ذلك، وعاد «إيفان» إلى الحياة، قام «إيفان» وقال لوالده: «ارجع إلى حصانك، وسآخذ على عاتقي الانتقام من عدوي.» وتركه وانصرف فرأى فلاحًا في طريقه، فقال له: «سأصيِّر نفسي حصانًا جميلًا ذا معرَفة من الذهب، وعليك أن تقوده وتقفه أمام قصر السلطان.» وكان، فلما رأى السلطان الحصان وضعه في إصطبل معجبًا به، كلفًا برؤيته، فسألته كليوباترا يومًا عن سبب ملازمته للإصطبل، فأجاب: «لقد أحضرت حصانًا جميلًا له معرفة من الذهب.» فقالت له: «ليس هذا بحصان، إنه «إيفان» ابن خادم الكنيسة! مُرْ بأن يُذبَح، ولكن وُلِد من دم الحصان ثور مكسو بالذهب، فأمرت «كليوباترا» بذبحه أيضًا، فنبت من رأسه شجرة تفاح ثمرها من الذهب، فأمرت «كليوباترا» بقطعها، فطارت شظية عند ذلك من جذع الشجرة وتحولت ذكرًا عظيمًا من البط، فأمر السلطان بصيده، وقفز هو بنفسه في الماء ليمسكه، ولكنه أفلت إلى الناحية الأخرى، ثم ظهرت صورة «إيفان» مرة ثانية في زي السلطان، وألقى بكليوباترا وعشيقها في أتون النار، واستولى على الملك بعدهما.

فهذه القصة الروسية نرى من روحها أنها مأخوذة من الأصل المصري القديم بعد انقضاء ٣٠٠٠ سنة، على أننا نستطيع أن نجد في آداب العالم عناصر مختلفة تشبه عناصر هذه القصة؛ مما يحملنا على القول بأن مصر كانت مصدرًا ثابتًا يُستمَد منه مثل هذا القصص.

ولا شك أن في هذه القصة المصرية قصورًا لا يرتفع بها إلى مستوى القصص في العصر الحديث، ولكن يجب علينا أن نذكر وقتها الذي صِيغَتْ فيه أولًا، وأن نذكر أنها كُتِبت للعامة وبلغتهم ثانيًا، وإذا جادت علينا التربة المصرية بقصة من أدب الخاصة وجدنا وجهًا للموازنة والقياس والحكم. ومع كل ذلك فإنه يكفي أن يقال عن هذه القصة إنها ترسم لنا صورة صادقة عن حياة الفلاح في ذلك العصر السحيق؛ مما نراه مصوَّرًا على مقابر العظماء في كل عصور التاريخ المصري القديم.

(جـ) المصادر

لقد تناول معظم علماء اللغة المصرية هذه القصة بالبحث والتحليل، وترجمها الكثير منهم، وأحدث التراجم لها ترجمة الأستاذ إرمان.

والمصادر الهامة هي:

(1) Erman: The Literature of the Ancient Egyptians (translated by Blackman) P. 15 ff.

(2) Griffith in The World's Best Literature P. 5253.

(3) Maspero: Popular Stories of Ancient Egypt P. 1–20).

ويجد القارئ في المصدر الأخير فهرسًا لكل مَن ترجَمَ هذه القصةَ قبل مسبِرو، وآخِر مَن حلَّلَ هذه القصة هو «ماكس بيبر» في كتابه:

(4) Die Agyptische Literatur. P. 78 ff (Max Pieper).

(د) نص القصة

يُحكَى أن أخوين كانا يسكنان في بيت واحد، وكان أبوهما واحدًا، وأمهما واحدة، واسم أكبرهما «أنوبيس» والآخَر «باتا»، وقد تزوَّجَ «أنوبيس» أكبر الأخوين، وأسكن معه أخاه «باتا» وجعله كابنه، وكان «باتا» يصنع ملابس أخيه، ويرعى ماشيته في الحقل، ويحرث له الأرض، ويحصد الزرع، ويقوم بكل أعمال الحقل، وفي الحق كان أخوه الصغير فلَّاحًا ماهرًا لا مثيل له في كل الأرض بقوته. وبعد[٢٠٧] مرور عدة أيام على ذلك، كان أخوه الأصغر يرعى ماشية أخيه في الحقل كل يوم، ويروح إلى بيت أخيه كل مساء محمَّلًا باللبن والعشب والكلأ والخشب

الجاف، ويقدِّمه راضيًا إلى أخيه الأكبر وهو جالس إلى زوجته ... فإذا ما انتهى من ذلك تناوَلَ طعامه وشرابه، وأخذ سبيله إلى مرقده في حظيرته ليحرس أبقاره.

فإذا خلع الليل سواده وانبثق فجر اليوم الجديد، كان يهيئ لأخيه الأكبر طعامًا ويضعه أمامه، ثم يأخذ طريقه إلى الحقل ويحمل معه طعامه، ويسوق أبقاره ليرعاها في الحقل، وكان يمشي خلف ماشيته، وكانت تقول له: إن العشب والكلأ في مكان كذا جميل جدًّا، وكان يستمع إلى قولها، ويتبعها إلى حيث المرعى الخصيب والمكان الرغيب ... وعلى ذلك أصبحت ماشيته التي يرعاها سمينة بدينة، وأصبح نتاجها كثيرًا صالحًا.

ولما جاء فصل الحرث قال له أخوه الأكبر: «جهِّزْ زوجًا من الثيران للحرث، فإن الأرض قد جفَّتْ من الماء، وأصبحت صالحة لأن تُحرَث، وهيِّئ البذر للأرض فإننا سنحرث بعزم عند البكور.» وهكذا كان يقول له، وكان أخوه الأصغر ينفذ كل ما يأمر به أخوه الأكبر، وعندما انبثق الفجر وطلع يوم جديد ذهَبَا إلى الحقل ومعهما ... وابتدأا يحرثان بعزم، وكانت الغبطة تملأ قلبيهما؛ لأنهما بدأا يعملان في عام جديد. وبعد مضي عدة أيام على هذا اليوم كانا في الحقل ونفدت منهما البذور، فأرسل أخاه الأصغر إلى القرية قائلًا: «اذهب وأحضر لنا من القرية بذرًا.» فذهب إلى القرية (ودخل البيت على حين غفلة من أهله) فوجد امرأة أخيه جالسة تمشط شعرها، فقال: أسرعي وهيِّئِي لنا البذر لأذهب إلى الحقل، فإن أخي هناك ينتظرني، لا تتأخري. فقالت له: اذهب وافتح المخزن بنفسك، وخذ منه ما تريد، واتركني أكمل تمشيط شعري. فذهب الغلام إلى حظيرته وأخذ وعاءً كبيرًا ليأخذ فيه بذورًا كثيرة، وحمل نفسه القمح والشعير وخرج بهما، فابتدرته قائلة: ما مقدار ما تحمله على كتفك؟ فأجابها: أحمل ثلاث حقائب من القمح، واثنتين من الشعير، فتلك خمس كاملة. وهكذا كان حديثه إليها وهي ... فقالت له: «إنك إذن لذو بأس عظيم، حقًّا إني أرى كل يوم عِظَم قوتك، وكان شغفها أنها تعرفه كما تعرف المرأة الشاب القوي، ثم همَّتْ به وقالت: تعالَ، سنتمتَّع سويًّا، وننام، وسيكون ذلك من حظك أيضًا؛ لأني

سأصنع لك ملابس جميلة.» وإنها لقولة نكراء ثار لها الغلام كالفهد، فخافت زوجة أخيه، فأخذ يخاطبها قائلًا: «اسمعي، إنك بمثابة أم لي، وزوجك بمثابة والد، وقد ربَّاني لأنه أكبر مني، فما هذا الإثم العظيم الذي تتحدثين به إليَّ؟ لا تعيدي الحديث على سمعي، ولن أخبر به إنسانًا، ولن أدعه يخرج من فمي، ولن أفضي به إلى أي مخلوق.» ثم حمل البذر وأخذ سبيله إلى الحقل، وهناك لقي أخاه الأكبر، فأخذ كلٌّ منهما يعمل بجد.

وفي المساء عاد أخوه الأكبر إلى بيته، أما الأصغر فظل يرعى قطيعه، ويحمل نفسه بكل أنواع حاصلات الحقل، وعاد يسوق قطيعه إلى حيث ينام في حظيرته بالقرية.

وكانت زوجة أخيه الأكبر تخشى عاقبة ما قالت، فأخذت دهنًا و«سوت»؟ وتظاهرت كذبًا بأنها قد ضُرِبت، وتريد بذلك أن تقول لزوجها: «إن أخاك هو الذي ضربني.» وعاد زوجها إلى البيت عند الغروب كعادته، ودخل بيته، ووجد زوجته راقدة ومتمارضة بشدة، فلم تصبَّ الماء على يديه كما عوَّدته، ولم تشعل لأجله نورًا عند عودته، فبدا البيت في ظلام دامس وهي راقدة تقيء، فقال لها زوجها: «هل تكلَّمَ معك أحد؟» فقالت له: «لم يتكلم معي إلا أخوك الأصغر، وكان ذلك حينما أتى ليأخذ البذر من هنا، ووجدني جالسة وحدي، وقال لي: تعالي نتمتع وننم، تحلي بشعرك (المستعار؟) وهكذا قال لي، ولكنني عصيته وقلت له: انظر، ألستُ لك أمًّا، أَوَليس أخوك الأكبر لك أبًا؟» فمشى الخوف في نفسه، وضربني حتى لا أخبرك بشيء مما حدث، فإذا كنتَ إذن تتركه حيًّا فإني سأقتل نفسي؛ لأنه عندما يعود إلى البيت عند الغروب، وأقص هذه القصة الدنيئة، فإنه سيكون قد جعلها تظهر بيضاء (أي لا غبار عليه).

وعندئذٍ ثار أخوه الأكبر ثورة الفهد الغضوب، وحدَّ نصل حربته، وأمسكها في يده، واحتلَّ مكانًا خلف باب الحظيرة ليقتل أخاه حينما يعود في المساء مع أبقاره إلى حظيرته.

ولما مالت الشمس إلى الغروب حمَّل «باتا» نفسه بما اعتاد أن يحمله من أعشاب الحقل وعاد، وما كادت تدخل طليعة الأبقار حظيرتها حتى قالت لراعيها: خذ حذرك! إن أخاك الأكبر واقف أمامك بحربته ليذبحك، فِرَّ من أمامه. ففهم «باتا» ما قالته طليعة أبقاره.

ثم دخلت البقرة الثانية وقالت له بالمثل، فنظر تحت باب حظيرته فرأى قدَمَيْ أخيه الأكبر وهو واقف خلف الباب وفي يده حربته، فألقى حمله إلى الأرض ولاذ بالفرار مسرعًا، وأخوه الأكبر يعدو خلفه بحربته، ونادى أخوه الأصغر ربه «رع حور أختي» قائلًا: «يا إلهي الطيب، إنك أنت الذي تفصل بين المبطل والمحق.» فسمع «رع» ظلامته، وجعل بينهما متَّسعًا من الماء مملوءًا بالتماسيح، فاصلًا بينه وبين أخيه الأكبر، وصار كلٌّ منهما على جانب لا يجد إلى صاحبه سبيلًا، وضرب أخوه الأكبر على يده[٢٠٨] مرتين (آسفًا)؛ لأنه لم يذبحه، ثم نادى الأخُ الأصغر أخاه من الجانب الآخَر قائلًا: «امكث هنا حتى ينبلج الصبح، وسنحتكم إلى الشمس معًا عند شروقها، وسيسلم المبطل للمحق؛[٢٠٩] لأني لن أكون معك بعدُ، ولن أعيش في مكانٍ أنتَ فيه، وسأتخذ لي في وادي الأرز مقامًا.»[٢١٠]

ولما انبثق الفجر عن يوم جديد أشرق «رع حور أختي» فرأى كلٌّ منهما صاحبه، وهنا ابتدر الصبي أخاه الأكبر قائلًا: «ماذا تعني بتتبعك إياي لتذبحني غدرًا دون أن تسمع مني ما أقول؟ لأني — في الحق — أخوك الأصغر، وإنك لي كوالد، وإن زوجتك لي كوالدة، أليس كذلك؟ (وسأقص عليك القصص): عندما كلَّفتني الذهاب (إلى القرية) لأحضر البذر، (راودتني زوجك عن نفسي) وقالت: «دعنا نتمتع وننم.» ولكن تأمَّلْ، لقد شُوِّهَ ذلك لديك، وحُرِّفَ إلى شيء آخَر.» وأعلمه بكل ما وقع له مع زوجته، وحلف «برع حوارختي» قائلًا: وا أسفاه! إنك يا أخي أردت أن تغتالني لوقيعة دسَّتْها عليَّ امرأةٌ بغيٌّ قذرة.[٢١١]

ثم أخذ سكينًا من الغاب وقطع بها (قُبُلَهُ) وألقى به في الماء، فابتلعته سمكة كبيرة فأغمي عليه وأصبح تعسًا. وإذ ذاك حزن عليه أخوه الأكبر حزنًا عظيمًا، ووقف وأجهش بالبكاء عليه بصوت عالٍ، إلا أنه كان عاجزًا عن أن يَعْبُرَ حيث يوجد أخوه الأصغر بسبب التماسيح، وبعد ذلك صاحَ عليه أخوه الأصغر قائلًا: «إذا كنت قد فكرت في شيء خبيث، فهل لك أن تفكِّر في شيء طيب، أو في شيء يمكنني أن أفعله لك[٢١٢] أيضًا؟ اذهب الآن إلى بيتك، وارع بنفسك ماشيتك؛ فقد نويت ألَّا أسكن في مكان أنت فيه، وسأذهب إلى وادي الأرز، ولن يكون بيني وبينك إلا أنك ستعودني إذا علمت أن شيئًا نزل بي، وسيحدث أني سآخذ قلبي وأضعه في أعلى زهرة شجرة أرز، فإذا نُشِرت شجرة الأرز وسقطت على الأرض وأتيت تبحث عنه، ثم قضيت في بحثك سبع سنين، فلا تمل من ذلك، وإذا ما وجدته ووضعته في إناء فيه ماء بارد فإني حينئذٍ سأحيا ثانية،[٢١٣] وسأجيب عن التهمة التي أُسنِدت إليَّ، وإذا أعطاك إنسان قدحًا من الجعة فاختمر، أدركتَ حينئذٍ ما حاق بي من الأذى، ولا تتوانَ فإن ذلك في مصلحتك.

ذهب «باتا» إلى وادي الأرز، وعاد أخوه الأكبر إلى بيته ويده على رأسه، وهو ملطَّخ بالطين،[٢١٤] ولما أتى منزله تذكَّرَ أخاه الصغير (فثارت بنفسه ثورة)، وذبح زوجته، ورمى بها للكلاب، وقعد حزينًا على أخيه الأصغر.

وبعد ذلك بأيام عدة كان أخوه الأصغر في وادي الأرز وحيدًا، وكان يقضي يومه في صيد وحوش الصحراء، ويقضي ليله في النوم تحت شجرة الأرز التي وضع قلبه في أعلى إحدى زهراتها، وبعد أيام عدة على تلك الحياة الهادئة بنى لنفسه قصرًا في وادي الأرز، وكان مملوءًا بكل شيء حسن؛ لأنه كان يريد أن يتزوج.

وخرج «باتا» ذات يوم من قصره فقابَلَ تاسوع الآلهة في طريقهم إلى نواحي الأرض يشرفون عليها، ولقد نطق التاسوع بلسان واحد قائلين له: «إيه يا «باتا» أنت يا ثور التاسوع،[٢١٥] أأنت

هنا وحدك؟! أتركتَ مدينتك أمام زوجة أخيك الأكبر «أنوبيس»؟ اسمع، إن زوجته قد ذُبِحت؛ لأنك كشفتَ له عن الجناية التي ارتكبت ضدك.» وأظهروا عطفهم الشديد عليه، ثم قال «رع حور أختي» لـ «خنوم»:[٢١٦] سوِّ زوجة «لباتا» حتى لا يكون في بيته وحيدًا، فوهبه «خنوم» رفيقة تَبُزُّ كل امرأة في الأرض جمالًا، ونفخ فيها كل إله من روحه، ثم أتت سبع البقرات «حاتور»[٢١٧] ليرينها، وقلن جميعًا بلسان واحد: «إنها ستموت ميتة شنعاء.»

وكان قد أُغرِم «باتا» بها (وقد شغفته حبًّا)، وأسكنها في بيته، وكان يقضي يومه في صيد وحوش الصحراء، فإذا جاء المساء عاد إليها محمَّلًا بصيده، فيضعه أمامها وقال لها: «لا تخرجي كي لا يحملك البحر بعيدًا؛ لأني أنثى مثلك لا أستطيع إلى تخليصك سبيلًا، وإن قلبي في أعلى زهرة إحدى شجر الأرز، فإذا عثر عليه إنسان آخَر كنتُ تحت سلطانه.» وقد فتح لها كل قلبه (أي باح لها بكل سره).

وبعد أيام عدة على ذلك ذهب بعدها «باتا» ليصطاد كعادته اليومية، فخرجت العذراء لتتنزه تحت شجرة الأرز التي كانت بجوار بيتها، ونظر البحر إليها وامتدَّ خلفها، فأخذت الحسناء تعدو أمامه حتى دخلت بيتها، ولكن البحر نادَى شجرة الأرز قائلًا: «اقبضي لي عليها.» فأخذت شجرة الأرز خصلة من شعرها وقدَّمتها إلى البحر، فأخذها البحر إلى مصر ووضعها في المكان الذي كان فيه سقاة الملك،[٢١٨] فتأرجت ملابس فرعون بأريج هذه الخصلة من الشعر، وقد شجر بين «الواحد»[٢١٩] وبين سقاة فرعون خلاف من أجل هذا العطر المتأرج، وقال الواحد للسقاة: «إن رائحة العطر في ملابس فرعون.» وكان الواحد يتنازع معهم يوميًّا (ولم يجد السقاة إلى الخلاص من هذا الخلاف سبيلًا).

وذهب كبير السقاة يومًا إلى شاطئ النهر، وكان قد ضاق صدره بهذا الخلاف الذي يشجر كل يوم، ووقف على كثيب من الرمل[٢٢٠] ساكنًا، وكانت وقفته أمام خصلة الشعر التي كانت في

الماء.

فكلَّفَ أحد أتباعه أن ينزل إلى الماء ويحضر الخصلة، فأُحضِرت إليه، فوجدها تفوح عن أريج طيب، فأخذها إلى فرعون.

وأتى بكُتَّاب فرعون وحكمائه إلى حضرته، ثم قالوا له: «إن هذه الخصلة لبنت «رع حور أختي»، وفيها من كل إله نفحة، حقًّا إنها هدية سِيقَتْ إليك من أرض أخرى. ابعث في كل أرض رسولًا ليحضروها لك، فإذا بعثتَ إلى وادي الأرز رسولًا فاشدد أزره بعدة رجال ليحضروها إلى هنا.»

فقال جلالته: «إن ما قلتموه حسن جدًّا.» وأرسلت الرسل.

مضت على ذلك أيام عاد بعدها الرسل الذين بعثهم الملك في كل أرض ليقدموا إليه تقريرًا، إلا أن الذين ذهبوا إلى وادي الأرز لم يعودوا؛ لأن «باتا» ذبحهم إلا واحدًا منهم ليقدِّم تقريره إلى جلالته، فأرسل جلالته ثانيةً جنودًا عدة وجهَّزَها بعجلات تجرها الخيل ليحضرها، وكان معهم امرأة قد أعطيت كل أنواع الحلي الذي تتحلى به امرأة، وعادت المرأة معها إلى مصر وقد عمَّ الفرح البلاد بها (أي الحسناء)، وكانت موضع الحب من جلالته فجعلها أميرة عظيمة.[٢٢١] وتحدَّثَ الواحد (الملك) إليها في شئونها، فسألها أن تخبره عن حال زوجها، فقالت لجلالته: «مُرْ بقطع شجرة الأرز وإبادتها.» فبعث «الواحد» إلى وادي الأرز جنودًا ومعهم أسلحتهم ليقطعوا شجرة الأرز، فأتوا إلى شجرة الأرز وقطعوا الزهرة التي كان عليها قلب «باتا»، فَخَرَّ لوقته صريعًا.

وانبثق الفجر عن يوم جديد، وكانت شجرة الأرز مقطوعة، وذهب «أنوبيس» الأخ الأكبر إلى بيته، وقعد وغسل يديه (قبل الأكل) وقد أعطي قدحًا من الجعة فاختمرت، وقُدِّم إليه آخَر من النبيذ فصار رديئًا (حامضًا).

عندئذٍ أخذ عصاه وانتعل، واشتمل بملابسه، وحمل سلاحه وجدَّ في السير إلى وادي الأرز، ولما دخل قصر أخيه «باتا» وجده راقدًا على السرير وقد فارقته الحياة، فبكى عندما رأى أخاه على الفراش ميتًا، وأخذ يبحث عن قلبه تحت شجرة الأرز التي كان ينام تحتها كل مساء.

قضى «أنوبيس» … ثلاثة أعوام يبحث عنه (القلب) فلم يهتدِ إليه، ولما بدأ العام الرابع تاقَ قلبه إلى مصر فقال: «سأسافر غدًا.» وكان هذا حديثه لقلبه.

انبثق صباح يوم جديد فأخذ يمشي تحت شجرة الأرز، وقضى يومه في البحث عنه، ولما جاء المساء كفَّ عن بحثه، ثم ألقى نظره مرةً أخرى ليبحث عنه، فوجد فاكهة، فعاد بها إلى البيت، وكانت هي قلب أخيه الأصغر.

فأعَدَّ قدحًا من الماء البارد ورمى فيه قلب أخيه وجلس كعادته كل يوم، ولما جَنَّ الليل وامتص القلب ماء القدح، ارتعَدَ «باتا» في كل أعضائه وأخذ ينظر إلى أخيه الأكبر، على حين كان قلبه لا يزال في القدح، ثم أخذ «أنوبيس» أخوه الأكبر قدحَ الماء البارد الذي كان فيه قلب أخيه الصغير، وقدَّمه إلى «باتا» ليشربه، ولما أخذ قلبه مكانه عاد «باتا» إلى شكله الأول فتعانقا، وتحدَّثَ كلٌّ منهما إلى أخيه، فقال «باتا» لأخيه الأكبر: «اسمع سأصير ثورًا عظيمًا فيه كل لون جميل جدًّا،[٢٢٢] لا يعرف طبيعته أحد، وستركب أنت على ظهري، فإذا أشرقت الشمس فستكون في المكان الذي فيه زوجتي، وهناك سأجيبها على ما فعلت، وستأخذني إلى الملك، وسيقدم إليك كل شيء طيب، وستُكافَأ بالفضة والذهب على أخذي إلى فرعون؛ لأني سأكون أعجوبة، وسيفرح الناس بي في كل الأرض، وبعد ذلك تسافر أنت إلى قريتك.»

ولما كان يوم جديد أخذ «باتا» الشكل الذي تحدَّثَ به إلى أخيه، وركب «أنوبيس» على ظهره، وعند الفجر وصل إلى حيث كان الملك، وقد علم جلالته به ففحص عن حقيقته بنفسه وفرح به فرحًا شديدًا، وقدَّمَ إليه قربانين عظيمين قائلًا: «عجيبة عظمى تلك التي حدثت.» وكان لها في

الأرض كلها رنة فرح، وكافئوا أخاه الأكبر على هذه العجيبة وزنها ذهبًا وفضة، ثم استقر في قريته وأهداه الواحد (أي الملك) ملابس كثيرة وعدة عظيمة، وغمره الفرعون بحبه أكثر من كل الناس الذين كانوا في البلاد جميعًا.

وبعد أيام من ذلك الحادث دخل الثور مطبخ «الواحد»، ووقف حيث كانت الأميرة، فأخذ يتحدَّثَ معها قائلًا: «اسمعي إني لا أزال حيًّا.» فقالت له: «أرجو أن تخبرني مَن أنت؟» فقال لها: «أنا (باتا) حقًّا، أتذكرين حينما أوعزتِ إلى فرعون أن يبيد شجرة الأرز حتى لا أعيش بعدها؟ ولكن انظري فأنا الآن حي وإني ثور.» وهنا وجلت الأميرة أشد الوجل للقصة التي قصَّها عليها زوجها.

ثم خرج من المطبخ، وجلس جلالته وتفكَّهَ مع الأميرة، وصبَّتِ الماء لجلالته، وكان ملاطفًا لها كلَّ الملاطفةِ، وعندئذٍ قالت لجلالته: «أقسم لي بالإله قائلًا: إن أي شيء ستقولينه سأستمعه منك.» ثم أصغى إلى كل ما قالت وهو: «إن هذا الثور لن يفيدنا شيئًا،[٢٢٣] فدعني آكل كبده.» وهكذا كان قولها، فحزن «الواحد» لما قالته حزنًا عظيمًا، وصار قلبه من أجله مكلومًا.

وانبثق الفجر عن يوم جديد، وأعلن إقامة عيد ضحية عظيم، وسيكون الثور ضحية ذلك العيد، وجيء برئيس قصابي جلالته ليذبح الثور، وبعد ذبحه كان موضوعًا على أكتاف الناس، فهَزَّ رأسه فسالت نقطتان من الدم بجانب منكبي باب جلالته: سقطت واحدة على جانب من جانبي الباب الأعظم لفرعون، وسقطت الثانية على الجانب الآخَر، وتحوَّلت النقطتان إلى شجرتين ناميتين من السنط، وكانت كلٌّ منهما جميلة، فحمل رجل ذلك النبأ إلى جلالته قائلًا: «إن شجرتين من السنط عظيمتين قد نمتا في الليل! عجيبة عظيمة لجلالته! وهما بجانب باب جلالته الكبير.»

وفرح الناس بهاتين الشجرتين في كل البلاد، وقدَّم «الواحد» لهما قربانًا، وبعد ذلك بأيام ظهر جلالته من نافذة «اللازورد» وحول رقبته إكليل من كل أنواع الزهر، وركب عجلة من الذهب، وخرج من القصر ليرى شجرتي السنط، وامتطت الأميرة ظهر جواد[٢٢٤] خلف فرعون.

ثم قعد جلالته تحت إحدى شجرتي السنط، وعندئذٍ تكلَّمَ «باتا» مع زوجته: «إيه يا خائنة، أنا «باتا» وسأعيش بالرغم منك، حقًّا إنك تذكرين كيف أغريت فرعون بقطع شجرة الأرز، وكيف ذُبِحْتُ بإغرائك بعدما صرتُ ثورًا.»

وبعد أيام من هذا صبت الأميرة الماء لجلالته وكان «الواحد» متطلفًا معها، ثم قالت لجلالته: «أقسم لي بالإله قائلًا: إن كل ما تقوله الأميرة لي سأصغي إليه.» فاستمع لكل ما تقول، فقالت: «مُرْ بقطع شجرتي السنط؛ لنصنع منهما أثاثًا جميلًا.» فأصغى الواحد لكل ما قالت، وبعد عدة أيام من هذا أرسل جلالته عمَّالًا مهرة، وقطع شجرتي السنط.

ووقف الفرعون يشاهد مع زوجه (عملية القطع)، فطارت شظية ودخلت فم الأميرة فابتلعتها، وفي اللحظة عينها حملت (أي صارت حبلى)، وعمل منهما (أي الشجرتين) كل ما رغبت فيه (من الأثاث).

وبعد عدة أيام من هذا وضعت الأميرة ولدًا، فذهب رجل وبلغ جلالته قائلًا: «لقد وُلِدَ لك ولد.» فأحضر وعيَّن له مرضعًا، وجعل له خادمًا، وعمَّ الفرح به البلاد، وأقام جلالته له الأفراح، وقد رُبِّيَ وأحبه في الحال جلالته حبًّا شديدًا، وعيَّنه حاكمًا لإثيوبيا» (ابن الملك)، وبعد عدة أيام من هذا جعله ولي عهد للبلاد جميعًا.

وبعد مضي عدة أيام على ذلك بعد أن قضى عدة سنين وهو ولي عهد للبلاد جميعها، طار «الواحد»[٢٢٥] إلى السماء، وقال الواحد:[٢٢٦] «ليحضر إليَّ كل المستشارين الملكيين لأخبرهم كل

ما حدث لي.» ثم أحضرت إليه زوجه، وتحاكما أمام المستشارين الذين انتصفوا له منها، وأحضر إليه أخوه الأكبر فعيَّنه وليًّا للعهد في كل أملاكه.

وقضى ثلاثين عامًا ملكًا على مصر، ثم رحل عن هذا العالم واستولى أخوه على عرشه يوم مماته.

(٢-٢) الأمير المسحور

(أ) ملخص القصة

اشتاق ملك أن ينجب ذكرًا بعد أن حُرِم ذلك دهرًا طويلًا، فأعطاه الإله ما يتمناه، ولكن قدر على هذا المولود أن يلقى حتفه على يد تمساح، أو حية، أو كلب، وعرف والده ذلك فأفرده في بيت بناه له في الصحراء، حتى شبَّ فرأى في الطريق كلبًا يتبع صاحبه، ولم يكن له عهد بسحنة الكلاب، فسأل عنه، ثم طلب واحدًا من جنسه، فأمر له والده بجرو صغير حتى يأمن عليه من ناحية، ولا يغضبه من ناحية أخرى.

كبر الطفل، فاشتاق إلى الحرية، وطلب الخروج إلى أرض الله الواسعة، فأجيب إلى طلبه، سافر الطفل وأبعد في سفره حتى وصل إلى رئيس النهرين، وكانت له بنت جميلة، جعل صداقها استطاعة المرء أن يقفز إلى شرفة بيتها التي ترتفع عن الأرض ستة وخمسين ذراعًا، فلم يستطع أحد من أولاد رؤساء سوريا ذلك، واستطاعه ذلك الشاب الوافد إليهم من مصر، فتزوَّجَ البنت بعد لَأْيٍ وامتناع، وأحبته وأخلصت له، وسهرت على راحته وحفظ حياته، وأنقذته مرات من الموت، حتى انتهى أجله بإحدى الطرق التي كانت مقدَّرة له من قبلُ.

(ب) دراسة القصة

إن العنوان الذي اختاره «جورج إبرس» الأثري الألماني المعروف لهذه القصة لا ينطبق على موضوعها، فليس الأمير فيها مسحورًا، وليس في القصة شيء عن السحر، والعنوان الصحيح الذي أصبحت تُعرَف به القصة الآن هو: «الأمير المحتوم عليه الموت».

ومن الصعب علينا أن نرجع هذه القصة إلى عهدها بالدقة، والمرجَّح أنها كُتِبت في عهد الأسرة التاسعة عشرة، ومما يُؤسَف له أن نهاية البردية التي كُتِبت عليها قد حُطِّمت، ويقال إنه عُثِر عليها سليمة، ولكن حدث انفجار في البيت الذي كانت مُودَعة فيه في الإسكندرية، فأصابها التحطيم. ومن الممكن أن نتبيَّن خاتمتها من سياقها، فنعرف أن الأمير لا بدَّ ملاقٍ حتفه وفق ما قُدِّر له.

والقصة بادية في ثوب خرافي، وإذا حذفنا منها التمساح، وغيَّرنا الأسماء، كانت أشبه بقصصنا الخرافية الحديثة، والقصة تدور حول وحيد الأبناء المدلَّل المعنيِّ به، ووحيدة البنات التي يُبذَل كل نفيس في سبيل سعادتها. ويحدث أن يخرج الشاب في مخاطرة من مخاطرات الحياة، فيلتقي عن غير قصد بالفتاة، فيتحابَّان ويتزوجان بعد تذليل الصعوبات بإتيان المعجزات، وبعد التغلُّب على الفوارق الاجتماعية التي تكون دائمًا عقبة كبيرة بين الحبيبين المُدَلَّهين، ونقرأ الآن كثيرًا من شبيهات هذه القصص في الأمم المختلفة، ولا يبعد أن يكون مصدرها الأول مصر.

وإذا نظرنا إليها من ناحية الأسلوب رأيناها تشبه قصة الأخوين، والتكرار في عباراتها واضح؛ شأن قصص عصر الدولة الحديثة، وهي ترينا من الناحية التاريخية أن السفر من مصر إلى بلاد النهرين كان ميسورًا، وما على المسافر إلا أن يمتطي عربته، ويأكل مما يصادفه من صيد الصحراء، ويتخذ وجهته إلى هدفه فيصل إليه، وبخاصة لأن اللغة المصرية كانت معروفة هناك، كما كانت معروفة في سوريا، فإن الأمير حين قابَلَ أولاد أمرائها تحدَّثَ معهم من غير حاجة إلى وسيط يترجم قوله إلى لغتهم، أو يترجم قولهم إلى لغته، مما يشعرنا بأن أميرنا كان

يعرف لغة هذه البلاد، وليس هذا بغريب، فإن مما يعاب عند الكتَّاب المصريين أن يجهل أحدهم طرق السفر، أو لغة التخاطب التي لجيرانه. وسنجد في ورقة أنستاسي الأولى أن الكاتب يلوم زميله ويعيره بأنه لا يعرف الطريق الحسنة التي يخترقها إلى سوريا …

هذا في عصر الدولة الحديثة الذي اختلط فيه المصريون بالأقوام المجاورة لهم عن طريق الفتح أو التجارة، أما في عصر الدولة الوسطى فلم تكن العلاقة قد توثَّقت بين مصر وجيرانها؛ ولذلك نجد «سنوهيت» (وقد سبقت قصته) عندما فرَّ هاربًا إلى «سوريا» قال: إنه وجد أميرًا هناك يعرف المصرية وتحادَثَ معه، مما خفَّفَ عنه بعض عنائه، ثم تعلَّمَ لغة القوم وصار منهم. وسيجد القارئ كذلك عندما نعرض عليه قصة «ونأمون» أنه لما وصل إلى جزيرة «قبرص» سأل جماعة من الحاشية التي كانت تحيط بملكتها عمَّن يعرف منهم اللغة المصرية، وقد أخبره واحد منهم أنه يعرفها.

فاللغة المصرية كانت منتشرة لدى جيران مصر انتشارًا يسايِر كثرةً وقلةً ما كان بين مصر وجاراتها من صلات، وهو أشبه بذيوع اللغة الإنجليزية في كثير من بقاع العالم التي تتبع إنجلترا أو تتصل بها. جاء في تعاليم «آني»: إن اللغة المصرية كانت منتشرةً في كل البلاد الأجنبية (انظر نصائح آني).

وبعدُ، فقصتنا ليست بسيطة في تركيبها، بل إنها تحتوي على جزأين منفصلين وصل بينهما الكاتب كما فعل في قصة الأخوين، مع اختلاف في مغزى كلٍّ من القصتين.

والقسم الأول من قصتنا يعرض القضاء المقدَّر على الوليد بأنه سيلاقي حتفه حتمًا بإحدى وسائل ثلاث: الكلب، أو التمساح، أو الثعبان.

والقسم الثاني ما شاع في عالم القصص من أن ملكًا وملكة حُرِمَا إنتاج الأبناء، فدَعَوا ربهما، أو سألا منجِّمًا عن حظَّيْهما فبشرهما بإجابتهما إلى ما يبغيان. وقد مزج الكاتب القسمين وصقلهما

فكان منهما هذه القصة التي نتحدث عنها، وأهم ما يلفت النظر إليها أخلاق الأمير وزوجه؛ فالأمير يعرف نوع الميتة التي تنتظره على يدي التمساح أو الثعبان أو الكلب، ومع ذلك تأبى أخلاقه ويأبى وفاؤه أن يقتل الكلب لمَّا عُرِض عليه ذلك؛ حرصًا على حياته، حتى بعد أن أعدم التمساح والثعبان؛ لأن الكلب قد تربَّى في ظله، فلم يَرَ من الشهامة أن يزهق روحه وقد أظَلَّهما سقف واحد، والزوجة تمثِّل الإخلاص النقي الصافي، فها هي تسهر على حماية زوجها، وتحرص على حياته، وتنتظر رحمة ربه، في الوقت الذي أسلم فيه نفسه لمصيره المحتوم، وهي التي بيقظتها قتلت الثعبان الذي كان يتربص به ريب المنون، وهي التي أشارت عليه بقتل الكلب فأبى، وهي التي كانت تبعث فيه الأمل فتقول: «إن ربك قد خلصك من أحد أعدائك، وسينجيك من الآخرين.»

وإن مَن يرى ذلك الموقف الطاهر النبيل الذي وقفَتْه هذه الزوجة من زوجها، ويقرنه بموقف الخسَّة الذي وقفته الزوجة مع زوجها «باتا» في قصة الأخوين؛ ليأخذه العجب من الاختلاف الكبير بين الموقفين؛ تبعًا لاختلاف المعدنين، ولا يبعد أن يكون كاتب هذه القصة هو نفسه كاتب تلك، وقد صوَّرَ لنا النقيضين ليرينا أن المرأة لا تكون دائمًا شرًّا، ولا تكون دائمًا خيرًا، بل إنه إذا صفا جوهرها كانت مخلصة شديدة الإخلاص، وإذا خبث معدنها كانت خائنة فاجرة في الخيانة، وأن الطبائع البشرية تختلف باختلاف نفس الإنسان وجرثومته.

(جـ) متن القصة

يُحكَى أن ملكًا لم يُولَد له ولد ذكر، وقد دعا آلهة زمانه أن يهبوه ولدًا، فقضوا أن يُولَد له ولد، وفي تلك الليلة حملت منه زوجته، ولما أتمت أشهر الحمل وضعت ذكرًا، ثم أتت البقرات «حتحور» ليقررن مصيره، فقلن إنه سيلاقي حتفه على يد تمساح، أو حية، أو كلب، وقد سمع الناس الذين كانوا حول الطفل ذلك، ونقلوه إلى جلالته، وعندئذٍ صار الملك حزينَ القلب جدًّا،

وأمر الملك أن يُبنَى له بيت من الحجر في الصحراء، مُجهَّز بالخدم وبكل شيء جميل يليق ببيت ملكي، على ألَّا يغادره الصبي إلى خارجه. ولمَّا ترعرع الطفل صعد إلى سطح البيت، ولمح كلبًا سلوقيًّا يتبع رجلًا يمشي في الطريق، فقال لخادمه الذي كان واقفًا بجانبه: «ما هذا الذي يتبع الرجل في سيره؟» فقال له: «إنه كلب.» عندئذٍ قال له الطفل: «مُرْ بإحضار واحد مثله لي.» فذهب الخادم وأخبر جلالته بذلك، فقال جلالته: «دعوا جروًا صغيرًا يُجلَب إليه لئلا يحزن قلبه.» وعلى ذلك أخذوا له جروًا.

وبعد أن مضت عدة أيام نما الطفل جسمًا وعقلًا، وأرسل إلى والده قائلًا: «ما فائدة مكثي هنا؟ انظر، إني قد صرت في يد القدر، دعني أكن طليقًا حتى أعمل حسب رغبتي، وإن الله سيفعل ما في قلبه.» فأصغوا إليه، وأمروا أن يُعطَى عربة مجهَّزَة بكل نوع من العدة، وتبعه خادمه بمثابة رفيق (حامل الدرع)، ثم عبروا به إلى الشاطئ الشرقي وقالوا له: «اذهب حيث شئتَ.»

وقد كان كلبه معه، ثم اتجه شمالًا متبعًا في ذلك ما يميل له قلبه في الصحراء، وعائشًا على أحسن لحوم صيد الصحراء، حتى وصل إلى رئيس النهرين، ولم يكن قد وُلِد لرئيس النهرين إلا بنت، وقد أقام لها بيتًا، شرفته على ارتفاع ٥٦ ذراعًا من الأرض، وقد أحضر كل أولاد رؤساء بلاد سوريا وقال لهم: «إن مَن يصل إلى شرفة بنتي سيأخذها زوجة له.»

والآن بعد انقضاء عدة أيام مَرَّ بهم الشاب وهم يقومون بعملهم اليومي، فأخذوا الشاب إلى بيتهم فاغتسل، وأعطوا جياده علفًا، وقد قاموا بكل خدمة لهذا الأمير؛ إذ دلَّكوه ولفوا قدميه، وأعطوا تابعه طعامًا، ثم قالوا له من طريق المحادثة: «من أين أتيتَ أيها الشاب الجميل؟» فقال لهم: «إني ابن ضابط من أرض مصر، وقد ماتت والدتي واتخذ والدي له زوجة أخرى، وقد بدأَتْ تمقتني، وقد وليت الفرار منها.» وعندئذٍ ضموه إلى صدورهم، وقبَّلوه مرارًا، وبعد انقضاء عدة أيام قال للشبان: «ما هذا الذي تفعلونه …؟»

فقالوا له: «لقد كنَّا هنا منذ شهور مضت ننفق وقتنا في الطيران؛ لأن مَن يصل منا إلى شرفة بنت رئيس النهرين، فإنه سيهبها له زوجة.» فقال لهم: «ليتها تكون لي، فإذا أمكنني أن أسحر ساقي فإني أذهب للطيران معكم.» ولقد ذهبوا جميعًا للطيران حسب عادتهم اليومية، ولكن الشاب وقف بعيدًا يرقب، وكانت نظرة بنت رئيس النهرين متجهة نحوه.

وبعد انقضاء عدة أيام أتى الشاب ليطير مع أولاد الرؤساء، فطار ووصل إلى شرفة بنت رئيس النهرين، فقبَّلَتْه وضمَّتْه مرارًا، فذهبوا ليخبروا والدها، وقالوا له: «إن رجلًا قد وصل إلى شرفة بنتك.» فسألهم الرئيس: «ابن مَن في الرؤساء هو؟» فقالوا له: «إنه ابن ضابط قد أتى طريدًا من أرض مصر فارًّا من وجه زوج والد.» ولكن رئيس النهرين استشاط غضبًا وقال: «هل أعطي ابنتي طريدَ مصر؟! دَعْه يبتعد من هنا ثانيةً.» فأتوا ليخبروه قائلين: «ارجع إلى المكان الذي أتيت منه.» ولكن الابنة أمسكت به وحلفت يمينًا قائلة: «بحياة «رع حور أختي» إذا أخذتموه بعيدًا عني فلن آكل ولن أشرب وسأموت في الحال.» وعندئذٍ ذهب الرسل وأخبروا والدها بكل ما قالت، فأرسل الرئيس أناسًا ليقتلوه في الحال، ولكن البنت قالت: «بحياة «رع» إذا قتلتموه فإني عند مغيب الشمس سأكون ميتة، ولن أعيش بعد ساعة واحدة.» فذهبوا ليخبروا والدها بذلك … الابنة … وعندئذٍ … الخوف منه … دخل على الرئيس، فضمَّه وقبَّله مرات، وقال له: «أخبرني عن حالك، انظر، إنك لي بمثابة ابن.» فقال له: «إني ابن ضابط من أرض مصر، قد ماتت والدتي، واتخذ والدي له زوجة أخرى، وقد أخذت تمقتني، وقد لذت بالفرار أمام وجهها.» وعندئذٍ وهبه ابنته زوجة له، وقدَّمَ له جوادًا، وكذلك ضيعة، وكل أنواع الماشية الطيبة.

وبعد انقضاء عدة أيام على ذلك، قال الشاب لزوجته: «لقد قُدِّرَ لي أن أموت بواحد من ثلاثة: التمساح، أو الحية، أو الكلب.» فقالت له: «إذن فَلْيُقتَل الكلب الذي يتبعك.» ولكنه قال لها: «…

لن أقتل كلبي الذي ربَّيْتُه منذ أن كان جروًا.» وعلى ذلك أخذت تراقب زوجها بدقة، فلم تدعه يذهب إلى الخارج وحده. والآن تأمَّلْ.

... إلى أرض مصر ... ليتقهقر (؟) انظر، تمساح البحيرة ...

وأتى إليه في المدينة التي كان فيها الشاب ... بحيرة وكان فيها عفريت ماء.

ولم يسمح عفريت الماء للتمساح أن يخرج، ولكن عندما نام التمساح (؟) خرج ملاك الماء للنزهة، فعندما أشرقت الشمس وقَفَا يتحاربان كل يوم لمدة شهرين كاملين.

والآن بعد انقضاء عدة أيام على ذلك جلس الشاب يمتِّع نفسه في بيته، وعند حلول الليل نام الشاب على سريره، وأخذه النعاس تمامًا، ولكن زوجته ملأت (كأسًا ب) ... وكأسًا أخرى بالجعة، وعندئذٍ خرجت (حية) من جحرها لتلدغ الشاب، ولكن تأمَّلْ! لقد كانت زوجه جالسةً بجانبه يقظةً ... الحية، فشربت حتى ثملت، وذهبت لتستلقي على ظهرها، وعندئذٍ تسببت زوجه في أن تقضي عليها بفأسها، ثم أيقظت زوجها ...

وقالت له: انظر، لقد وضع الله أحد ما قُدِّر حتفك به في يدك، (وسيسلم لك الآخران أيضًا)، وعلى ذلك قدم قربانًا إلى «رع» مادحًا إياه، ومعظمًا قوته كل يوم.

وبعد انقضاء عدة أيام على ذلك خرج الشاب للتنزُّه على الشواطئ في ضيعته دون أن يذهب خارجها ... وقد كان كلبه يتبعه، وقد أعطي الكلب قوة الكلام ... وهرب منه، فوصل إلى البحيرة، ونزل فيها (ليهرب من) كلبه، فقبض عليه التمساح (؟) وذهب به إلى المكان الذي كان يسكن فيه عفريت الماء ...

وعندئذٍ قال التمساح للشاب: «إني أنا قابضك الذي كان يتبعك و... لعدة أيام مضت، إني على وشك محاربة عفريت الماء، وانظر سأطلق سراحك، ولكن إذا ... لتحارب ... وإنك ستصفِّق

إعجابًا بي، عندما يقتل عفريت الماء (؟) ... وإذا نظرت ... ننظر الـ ... والآن عندما انبثق الفجر، وحلَّ اليوم الثاني ... إني ... (وهنا نجد الورقة محطَّمَة — بكل أسف — ولا شك أن الكلب هو الذي سيقضي على حياة الشاب).

(د) المصادر

يجد القارئ أحدث ترجمة لهذه القصة في:

(1) The Journal of Egyptian Archeology Vol. XI P. 227 etc.

(2) Erman, The Literature of the Ancient Egyptians. P. 191 etc.

أما الأصل المصري القديم فمحفوظ بالمتحف البريطاني، وقد طُبِع في مجموعة الأوراق البردية المعروفة باسم: Facsimiles of Egyptian Hieratic Papyri in the British Museum Second Series. Pls XLVIII–LII). Pap Harris 500, verso 4–8.

وقد كان أول مَن لفت النظر إليها جدون Goodwin وقد ترجمها كذلك «جرفث».

(3) Griffith in The World’s Best Literature PP. 5250 ff.

(4) Maspero Popular Stories of Ancient Egypt P. 185.

ويجد القارئ فهرسًا كاملًا لهذه القصة في المؤلَّف الأخير.

(٢-٣) قصة الملك «أبوفيس» و«سقننرع»

(أ) ملخص القصة

أرسل ملك الهكسوس «أبوفيس» رسلًا إلى ملك طيبة «سقننرع»، مدعيًا أن جاموس البحر الذي يعيش في بحيرة طيبة يقضُّ مضجعه، بسبب أصواته المزعجة التي تصل لقوتها إلى مقر جلالته

— بصا الحجر — وأنه لذلك يأمر ملك طيبة بإبادة جاموس البحر الذي يسكن في تلك البحيرة جميعه إن أراد أن يبقى حائزًا لرضاه …

(ب) دراسة القصة

يظهر لنا أن هذه القصة، والقصة التي تليها المسماة «الاستيلاء على يافا» أشبه بقصص التاريخ وإن بدتا في ثوب خرافي، فنحن نعرف أن البلاد قد غزاها الهكسوس، وأن ملوك «طيبة» كانوا يناهضون الغزاة، ومن المحتمل جدًّا أن تكون هذه المقاومة قد بدأت في عهد «سقننرع تاعا» المعاصر لملك الهكسوس المسمَّى «أبوفيس» «عاقننرع» والذي اتخذ «أواريس» (صا الحجر الحالية) عاصمة له، وإذا صحَّ ذلك كان طلب ملك الهكسوس الغريب مجرد ذريعة اتخذها تَعِلَّة لإعلان الحرب على ملك طيبة الذي يكيد له، وتكون قصة «الذئب والحمل» التي نتناقلها ونتمثل بها في التاريخ الحديث صدى لأختها قصة «إبادة جاموس البحر» في العصر القديم. ويعزز هذا الرأي بردية من عهد الدولة الحديثة تؤيِّد ما سبق، إن لم يكن ما جاء فيها تردادًا لتلك الحوادث الدامية التي أدَّتْ إلى طرد الهكسوس من البلاد.

كما أنه ليس من البعيد أن تكون هذه القصة خرافية، وأنها من وحي الخيال جملةً، وأن دسَّ هذه الأسماء الحقيقية التي وردت في ثناياها كانت لتكسبها أهميةً، ولتذكر القارئ القديم بصفحة منسية من تاريخ بلاده؛ وحينئذٍ تكون مسألة طلب ملك الهكسوس إبادة جاموس البحر من قبيل الأحاجي التي كان يتهاداها الملوك في ذلك العصر على ما قاله «مسبرو»، ويسلطون عليها أشعة عقولهم حتى يجدوا حلًّا لما فيها من المآزق، وحينئذ يفوزون بمدح إنْ وُفِّقوا، أو يعودون بقدح إن أخفقوا، أو أن هذا الطلب الشاذ كان لغرض ديني يتبعه، فإذا رفض ملك طيبة مثلًا تنفيذ إرادة ملك الهكسوس أُجبِرَ على ترك عبادة إلهه «رع» إلى عبادة معبود الهكسوس الإله «سوتخ».

ولقد ظهر في الخرافات الشرقية مثيل لخرافتنا هذه، مبني على أساس فكرتها. وقد دُوِّنَتْ قصتنا هذه في عهد الملك «مرنبتاح» في الأسرة التاسعة عشرة، ونجد شبيهًا لها في قصة «إعماء الصدق» من نفس عصرها، وكذلك نجد مثيلًا لها في عهد الملك «نقطانب» من الأسرة الثلاثين، حُكِيت فيما بعدُ على لسان «أيسوب»، ومضمونها: أن الفرعون «نقطانب» أرسل سفيرًا إلى «ليسيرس» Lycerus ملك «بابل» وإلى وزيره «أيسوب» قائلًا: إن لديَّ أنثى من الأفراس لقاحها صهيل الجياد التي في «بابل»، فتحمل من هذا الصهيل؛ فما جوابك على ذلك؟ فأعَدَّ «الفريجي» جوابه بأن أغرى بعض الأطفال بضرب قطة في الشارع أمام الناس، ولما كان المصريون يقدِّسون القطة غضبوا لذلك أشد الغضب، وخلصوا القطة من أيدي الأطفال، وشكوا أمرهم إلى ملكهم، فأحضر «الفريجي» أمامه لاستجوابه، وسأله: «أَلَا تعرف أن القطة من آلهتنا؟! فلِمَ تعاملها بهذه الطريقة؟» فأجاب: «لقد فعلتُ ذلك لأنها ارتكبت جريمة بالأمس ضد «ليسيرس» Lycerus، فقد خنقت ديكًا له مجتهدًا كان يصيح في كل ساعة.» فقال له الملك: «كذبت، فكيف تستطيع قطة أن تقوم بسياحة طويلة كهذه في وقت قصير كهذا الوقت؟!» فأجاب «أيسوب»: «وكيف تستطيع إناث خيلك أن تسمع أصوات جيادنا مع طول الشقة وبعد المسافة، فتحمل من صهيلها بمجرد سماعه؟!»

فهذه القصة التي ذكرنا لبابها صدى لقصتنا المصرية، ظهر في خرافات «أيسوب»، وقد يحتمل أن يكون بين مستشاري «سقننرع» مَن أجاب بمثل ما أجاب به «أيسوب»، أو بمثل الجواب الذي رأيناه في قصة «إعماء الصدق».

هذا، ولا يختلف أسلوب قصتنا هذه عن أسلوب قصص عصرها، اللهم إلا بكثرة ما رأينا فيها من الأخطاء، ولعل ذلك لجهل التلميذ المصري القديم الذي نقلها، وفيها تكرار لبعض جملها، وغموض في بعض نواحيها نشأ من تهشُّم بعض أجزائها.

(جـ) متن القصة

حدث أن أرض مصر كانت في جائحة شنعاء (؟)، ولم يكن للبلاد حاكم بمثابة ملك في هذا الوقت، وقد حدث أن الفرعون «سقننرع» كان حاكمًا على المدينة الجنوبية (يعني طيبة)، ولكن كانت الجائحة الشنعاء في بلد العامو (الهكسوس)، وكان الأمير «أبوفيس» في «أواريس»، وكانت كل البلاد خاضعة له، وكذلك كل حاصلاتها بأكملها، وكذلك كل طيبات تميرا (أي مصر، وقد بقي هذا اللفظ في كلمة دميرة).

وقد اتخذ الملك «أبوفيس» الإله «سوتخ» ربًّا له، ولم يعبد أي إله آخَر في البلاد غير «سوتخ»، وقد بنى معبدًا ليكون عملًا حسنًا خالدًا بجانب قصر «أبوفيس»، وقد كان يستيقظ كل يوم ليقرب الذبائح اليومية للإله «سوتخ»، وكان موظَّفو جلالته يحملون الأكاليل من الزهر كما كان يُفعَل تمامًا في معبد «رع حور أختي».

أما فيما يتعلق بالملك «أبوفيس» فإن رغبته كانت في إيجاد موضوع للنفار بينه وبين الملك «سقننرع» أمير المدينة الجنوبية.

والآن بعد انقضاء عدة أيام على ذلك أمر الملك «أبوفيس» بإحضار ... رئيسه ...

عند هذه النقطة نجد المتن غير متَّصِل لكثرة الفجوات، وقد حاول «مسبرو» مَلْأها على وجه التقريب.)

... وقال لهم (أي للمستشارين): إن رغبة جلالتي في أن أرسل رسولًا إلى المدينة الجنوبية لآتي بتهمة) ضد الملك سقننرع. و... لم يعرفوا كيف يجيبونه، وعندئذٍ أمر بإحضار كتابه والحكماء من أجل ذلك، فأجابوه قائلين: أيها الحاكم يا سيدنا ... توجد بحيرة جاموس بحر (في المدينة الجنوبية ...) النهر (...) وهي (جاموس البحر) لا تسمح للنوم أن يأتي لنا نهارًا ولا ليلًا؛ لأن الضجيج في أذننا، وعلى ذلك أرسل جلالتك إلى أمير المدينة الجنوبية ... الملك «سقننرع»،

ودَعِ الرسول يقل له: الملك أبوفيس (...) يأمرك أن تجعل جاموس البحر يترك البحيرة ... وبذلك سترى جلالتك مَن يكون معه معينًا؛ لأنه لا يميل لأي إله في كل الأرض قاطبةً إلا «آمون رع» ملك الآلهة.

وبعد مرور عدة أيام على ذلك أرسَلَ الملك «أبوفيس» إلى أمير المدينة الجنوبية بشأن التهمة التي قالها له كتَّابه والحكماء؛ ووصل رسول الملك «أبوفيس» إلى أمير المدينة الجنوبية، فأخذوه إلى حضرة أمير المدينة الجنوبية، فقال الواحد (الفرعون) لرسول الملك «أبوفيس»: ما رسالتك إلى المدينة الجنوبية؟ وكيف قطعت هذه الرحلة؟ فقال له الرسول: «لقد أرسل لك الملك «أبوفيس» يقول: مُرْ بأن يَهْجُرَ جاموس البحر بحيرته التي في ينبوع المدينة الجاري (المدينة هنا طيبة)؛ لأنه (أي جاموس البحر) لا يسمح للنوم أن يغشاني ليلًا أو نهارًا؛ إذ إن أصواته المزعجة في أذني.»

وعندئذٍ بقي أمير المدينة الجنوبية صامتًا وبكى مدة طويلة، ولم يكن يعرف كيف يصوغ جوابًا لرسول الملك «أبوفيس»، فقال له أمير المدينة الجنوبية: كيف سمع سيدك عن البحيرة التي في ينبوع المدينة الجاري؟ فقال له الرسول: ... الموضوع الذي من أجله قد أرسلك (؟). وأمر أمير المدينة الجنوبية أن يقدِّم لرسول الملك «أبوفيس» كل الأشياء الطيبة من لحم وخبز ... وقال له أمير المدينة الجنوبية: ارجع إلى الملك «أبوفيس» سيدك! ... أي شيء تقوله له سأفعله عندما تأتي (؟) (...) وعاد رسول الملك «أبوفيس» مسافرًا إلى المكان الذي فيه سيده.

وعندئذٍ أمر أمير المدينة الجنوبية بإحضار ضبَّاطه العِظَام، وكذلك كل كبار الجند الذين كانوا عنده، وأعاد عليهم التهمة التي بعث بها إليه الملك «أبوفيس»، وقد ظلوا صامتين جميعًا لمدة طويلة، ولم يعرفوا أن يجاوبوا بأي شيء قطُّ، حسنًا كان أو سيئًا، وأرسل الملك «أبوفيس» إلى

...

(وهنا تنقطع القصة في الورقة التي استُعمِلَتْ بقيتها في خطابات نموذجية، وهي أسلوب إنشائي كان بلا شك في ذلك الوقت أكثر فائدة، ولكنها ليست بذات أهمية لنا الآن؛ لأننا كنَّا نود أن نعرف نهاية القصة.)

(د) المصادر

كان أول مَن فهم مضمون هذه القصة هو «دي روجيه»، ثم قام بترجمتها بعده عدة علماء، وأهم التراجم ما يأتي حسب جدتها:

(1) Gunn & Gardiner in The Journal of Egyptian Archeology Vol. V. P. 40 ff.

(2) Erman The Literature of the Ancient Egyptians Translated by Blackman P. 165 ff.

(3) Maspero Papular stories of Ancient Egypt P. 298 ff.

أما الأصل المصري القديم فيوجد في ورقة «ساليه» Pap. Sallier 1–3 In the British Museum.

(٢-٤) قصة الاستيلاء على يافا

(أ) ملخص القصة

الملك تحتمس قاهر الأعداء يرسل قائده ليستولي على يافا، ذلك الثغر العظيم الواقع جنوب فلسطين، فيحاصر القائدُ المدينةَ، وتمتنع عليه، فيعجز عن اقتحامها فيلجأ إلى الحيلة، ويغري أمير المدينة بالخروج إليه لمحادثته، ولما تقابَلَا أكرمه واحتفى به، وأدخل في روعه أنه سينضم

بجنوده إليه، وأنه سيسلمه زوجه وأطفاله، وباشتراكه مع عصا تحتمس التي كانت تشبه عصا موسى تغلَّبَ على العدو، وفتح بلاده بعد خدعة حربية رائعة.

(ب) دراسة القصة

لقد دوَّنَ تحتمس الثالث كل حروبه على جدران معبد الكرنك، وعلى صحائف أثرية أخرى، ولم يَرِدْ فيما دُوِّنَ من ذلك إشارة إلى حوادث هذه القصة.

والذي رواه لنا التاريخ أن تحتمس الأول قد فتح يافا، ونرى اسم حاكمها في قائمة غزوات هذا الملك باسم «مقهور يافا» (وكان لقب «مقهور» يُطلَق على كل أمير مغلوب في هذا العصر، فكان يُقَال «مقهور» قادش، مثلًا).

غير أننا نرى من جهة أخرى أن «تحوتي» الذي جاء في القصة أنه استولى على تلك البلدة كان شخصية معروفة في عهد تحتمس الثالث، ومن عظماء رجاله البارزين، ولا بد أنه كان من أعظم قوَّاده وأمهرهم في السياسة، ومقبرته قد كشف عنها في مقابر طيبة، ولقد تكلَّمَ عن نفسه، فأرانا أنه كان موضع ثقة الملك في كل الأصقاع الأجنبية، وفي جزر البحر الأبيض المتوسط، وأنه كان المشرف على الممالك الشمالية، وأنه كان أول قائد صاحَبَ الملك في كل الأراضي الأجنبية، والظاهر من كل هذا أنه كان ذا شخصية عظيمة، ولهذا كان اسمه يتردد على الشفاه أمدًا طويلًا بعد انقضاء عصره. ويوجد الآن في متحف «دارمستاد» خنجر «تحوتي»، وفي متحف «اللوفر» طبق من الذهب أهداه إليه الملك تحتمس أيضًا.

ويبدو أن الشخصيات التي مثَّلت أدوارًا في هذه القصة لها أصل تاريخي، أما ما نُسِب إليها من الأعمال، فغالب الظن أنه من نسج الخيال. هذا، وأرجو ألَّا تفوتنا الإشادة بذكر ما لتحتمس الثالث — الذي وقعت في عهده هذه القصة — من مجد حربي فاقَ كل أنداده من ذوي التيجان الفرعونية، وقد ظل اسمه يقذف الرعب في قلوب الأمم المقهورة التي ضرستها غزواته حتى بعد

موته بعدة أجيال، وقد كانت التعويذات تحصن باسمه، ولم ينقطع أمرها بعد أن لحق بخالقه، بل ظل الناس على ذلك قرونًا عديدة، وكان اسمه تميمة سحرية يُهزَم عند ذكرها الأعداءُ؛ وما ذلك إلا من آثار ما خلَّفه في النفوس من الذعر والهلع اللذين غرسهما بطشه وجبروته، فلا غرابة إذن في أن يؤلِّف المصريون القصص عن عهده، وأن ينسبوا إليه القدرة على هزيمة الأعداء — وإن لم يبرح بلاده — وأن يجعلوا لعصاه ما لعصا موسى من السحر والغلبة، فتقتل عدوه، وتيسِّر له السبيل إلى فتح يافا.

(جـ) متن القصة

والآن بعد ساعة سكرهم قال «تحوتي» لـ ... (سأحضر) ومعي زوجتي وأطفالي إلى مدينتك، فمُرِ المحاربين ليحضروا (الجياد) ويعطوها العلف، أو مُرْ أحد «العبر» يمر ... فأمسكوا بالجياد وأعطوها علفًا و... الفرعون «منخبر رع» فأتوا ليقصُّوا ذلك على «تحوتي»، وبعدئذٍ قال أمير يافا «لتحوتي»: إن رغبتي هي في أن أرى عصا الملك تحتمس المسماة «الجميلة»، وإني أستحلفك بحياة الملك «منخبر رع» أن تكون في يدك هذا اليوم ... «الجميلة» وأحضرها، ففعل ذلك وأحضر عصا الملك «منخبر رع» وأخفاها تحت عباءته، ثم وقف من فوقه (؟) قائلًا: انظر إليَّ يا أمير يافا! هذه هي عصا الملك «منخبر رع» الأسد الهصور ابن «سخمت»، وقد أعطاه «آمون» والده الطيب القوة ليستعملها؛ وعندئذٍ ضرب جبهة أمير يافا فسقط مطروحًا أمامه، فوضعه في ... جلد ... هو ... قطعة النحاس التي ... ضرب أمير يافا ووضعوا قطعة النحاس التي تزن أربعة أرطال على قدميه، وبعد ذلك أمر بإحضار خمسمائة سلة كان قد أعَدَّها لهذا الغرض، ووضع فيها مائتي جندي، وقد كبلوا أذرعتهم بالأغلال والسلاسل عليها أقفالها (؟) وأعطوهم نعالهم وعصيهم (اترر)، وجعلوا كل

خيرة الجند يحملونها، وكان عددهم خمسمائة رجل، وقالوا لهم: «عندما تدخلون المدينة يجب عليكم أن تطلقوا سراح رفاقكم (الذين في السلال) وتقبضوا على كل رجل في المدينة وتضعوهم في الأغلال.» وعندئذٍ خرجوا وقالوا لسائس أمير «يافا»: إن سيدك يقول: اذهب وأخبر سيدتك: افرحي؛ لأن الإله «سوتخ» قد أسلم إلينا «تحوتي» وزوجه وأطفاله. انظري، لقد أسرتهم يدي. وتشير إلى هذه السلال المائتين المملوءة بالرجال المكبلين بالسلاسل والأغلال. وذهب أمامهم ليخبر سيدته قائلًا: لقد أسرنا «تحوتي» وعندئذٍ فُتِحت حصون «يافا» أمام الجند ودخلوا المدينة فخلصوا رفاقهم، وقبضوا على كل رجل كان في المدينة — صغيرًا كان أو كبيرًا — ووضعوهم في السلاسل والأغلال في الحال، وهكذا استولت قوة فرعون الظافرة على المدينة، وأرسل «تحوتي» ليلًا إلى مصر لسيده «منخبر رع» قائلًا: انظر إن «آمون» والدك الطيب قد أسلم إليك أمير يافا مع كل رجاله ومدينته أيضًا؛ فأرسل لنا رجالًا ليأخذوهم أسرى حتى تملأ معبد والدك «آمون» ملك الآلهة بالعبيد من الرجال والنساء الذين سقطوا تحت قدميك إلى الأبد. لقد انتهت القصة بسرور بيد الكاتب الماهر بأنامله كاتب الجيش …

ولسنا في حاجة إلى أن نلفت نظر القارئ هنا إلى أن هذه القصة تشبه في بعض النقط ما جاء في «ألف ليلة وليلة» عن «علي بابا والأربعين حرامي». أما الحيل الأخرى فنجدها في قصص أخرى عند الإغريق والرومان. وأما لغة القصة فهي لا تختلف عن لغة هذا العصر وأسلوبه، بل نجد فيها التكرار الممل للأعلام والجمل المألوف تكرارها.

(د) المصادر

لقد وجدت هذه القصة مكتوبة بالهيراطقية في نفس الورقة التي كُتِبت عليها قصة الأمير المسحور؛ فهما من عصر واحد، ولغة واحدة، وقد تُرجِمت القصة مرارًا، وأهم التراجم ما يأتي:

(1) Peet: Journal of Egyptian Archeology Vol. XI P. 225 ff.

(2) Maspero Papular Stories of Ancient Egypt P. 108.

(3) Erman. The Literature of the Ancient Egyptians P. 197 ff.

(4) Grifrith The World's Best Literature P. 5250 ff.

(٢-٥) قصة «إزيس» وإله الشمس «رع»

(أ) دراسة القصة

هذه القصة تُعتبَر من الأمثلة الطريفة في الشعر القصصي عند المصريين، وبخاصة إذا علمنا أنه لم يصلنا إلى الآن مجموعة عظيمة من هذا النوع من الشعر، كما نجد ذلك في «بابل» و«فلسطين»، ولا شك أنه كان موجودًا، وربما تجود تربة مصر بشيء منه في القريب العاجل، ولدينا في الكتابات المصرية إشارات صريحة تدل على وجوده، فنعلم مثلًا أنه كان يوجد مجموعة من الخرافات خاصة بإله الشمس، وقد بقي منها نتف في «متون الأهرام»، وكذلك قصة «هلاك الإنسانية» التي أوردناها في هذا الكتاب، يضاف إلى ذلك قصة المخاصمة بين «حور» و«ست» التي سنفصِّل الكلام عنها. ولا نشك في أن «بلوتارخ» عندما بدأ الكتابة عن «إزيس وأزير» كانت أمامه معلومات طريفة عن هذا الموضوع.

وعلى أية حال فإن الحظ لم يواتنا في موضوع الخرافات المصرية؛ إذ لم يَبْقَ لنا منها إلا النزر اليسير، ولا بد أن مقدارها كان عظيمًا جدًّا، غير أننا لسنا في مركز يسمح لنا بأن نقول إنها كانت تشتمل على تلك الصفات العالية التي يمتاز بها الشعر القصصي في «بابل» و«فلسطين».

والقصة التي نحن بصددها الآن مثال من هذا الشعر، وهي تُرِينَا كيف أن «إزيس» خدعت الإله «رع» حتى أخبرها باسمه الخفي، ولا بد أن نفسِّر ذلك هنا بأن معرفة اسم الشخص تعطي مَن يعرفه قوة يسيطر بها عليه حسب اعتقادهم في الأمور السحرية؛ ومن ذلك نفهم السر في أن «رع» كان يحرص على إخفاء اسمه، وسبب خداع «إزيس» له حتى وصلت إلى معرفته.

(ب) متن القصة

كانت «إزيس» امرأة حكيمة الكلام، وكان عقلها أكثر مكرًا من ملايين الرجال، وكانت أعقل من ملايين الآلهة، وكانت تعادل (؟) ملايين الأرواح، وكانت تعرف كل ما في السموات وما في الأرض مثل «رع» الذي يعمل كل ما تحتاج إليه الأرض.

وقد كان «رع» يدخل السماء كل يوم على رأس نواتيه ويجلس على «عرش الأفقين»، غير أن الشيخوخة المقدَّسة جعلت لعاب فمه يسيل (؟)، وعلى ذلك بصق على الأرض، وسقط لعابه عليها، فجمعته (كشطته) إزيس في يدها بالتراب الذي كان عليه، وسوَّته في صورة ثعبان فخم، وصوَّرته في شكل … غير أنه لم يَتحرَّك كأنه حي أمامها، ولكنه امتد على الطريق الذي كان من عادة الإله العظيم أن يمر به حسب رغبته في طريقه. وخرج الإله المتعالي في بهاء، وفي معيته الآلهة الذين في القصر، ليمشي في الخارج كما كان يفعل كل يوم، وعندئذٍ لدغه الثعبان الفخم حتى نفث فيه النار المتقدة التي خرجت منه … فصاح الإله المقدس بصوته، فوصل صوت جلالته إلى السماء؛ حتى إن تاسوعه صاحوا: «ما هذا؟ ما هذا؟» وآلهته: «ماذا؟ ماذا؟» على أنه لم يجد صوتًا ليجيب، وارتعدت شفتاه، وزُلزِلت كل أعضائه؛ لأن السم كان قد أمسك بجسمه كما يمسك النيل بـ …

وعندما استرد الإله قلبه ثانيةً نادى أتباعه: «تعالوا إليَّ أنتم يا مَن أتيتم إلى الوجود من جسمي، أنتم أيها الآلهة الذين خرجوا مني، وذلك لأخبركم بما حدث لي. لقد لدغني شيء رديء، وقلبي

لا يعرفه، وعيني لم تره، ويدي لم تسوه، ولا أعرفه من بين كل الذين خلقتهم، ولم أشعر بألم مثله، ولا شيء أكثر ألمًا منه. وإني أمير وابن أمير، وإني بذرة إله اتخذت وجودها من إله، وإني عظيم وابن عظيم، اخترع والدي اسمي، وإني واحد له عدة أسماء وعدة أشكال، وصورتي في كل إله. «أتوم»، و«حور-حكنو» يُلتمسان فيَّ، وقد أعطاني والدي ووالدتي اسمي، وقد بقي مخفيًّا في جسمي منذ وُلِدت حتى لا يكون لساحر أو ساحرة سلطان عليَّ. والآن عندما خرجت لأشاهد ما صنعت، ولأسير في الأرضين اللتين خلقتهما لدغني شيء لا أعرفه، فلم يكن نارًا، ولم يكن ماءً، ومع ذلك كان قلبي يحترق، وجسمي يرتعد، وتجمَّدَتْ كل أعضائي. أرسِلوا إليَّ الأولاد المقدسين الذين لهم كلام ناجع، حكماء اللسان والذين يصل مكرهم إلى السماء.»

عندئذٍ أتى إليه الأولاد المقدسون كلٌّ منهم بعويله (؟)، وكذلك أتت «إزيس» بخدماتها، ونصيحتها نَفَس الحياة، وأقوالها تطرد المرض، وكلمتها تعطي الحياةَ مَن أخطَأَه النفس. فقالت: «ما الذي حدث؟ ما الذي حدث؟ أيها الوالد المقدَّس، ماذا؟ إذا كان قد ألحق بك ثعبان ضررًا (؟) أو أي مخلوق من مخلوقاتك قد رفع رأسه ضدك، فإني سألقي به أرضًا بالسحر الفعَّال وأمنعه مشاهدة أشعتك.»

وعندئذٍ فتح الإله الجليل فاه وقال: «لقد كنتُ ذاهبًا على الطريق، سائرًا في الأرضين وفي الصحراء؛ لأن نفسي كانت تتوق إلى رؤية ما خلقته، ولكن تأمَّلِي، لقد لُدِغت من ثعبان لم أره، وإنها ليست نارًا وليست ماءً، ومع ذلك فإني كنت أبردَ من الماء وأحَرَّ من النار، وقد تصبَّب كل جسمي عرقًا، وإني أرتعد، وعيناي ليستا قويتين، ولذلك لا يمكنني أن أرى؛ لأن الماء يتصبَّب على وجهي كما يحدث في قيظ الصيف.»

وبعد ذلك قالت «إزيس» «لرع»: «أخبرني عن اسمك أيها الوالد المقدَّس؛ لأن الرجل الذي تُتلَى باسمه تعويذة سيبقى حيًّا.» فأجابها «رع»: «إني أنا الذي خلقت السماء والأرض، وأرسيت

الجبال معًا وسويت ما عليها، أنا الذي خلق الماء، ومن ثَمَّ وجدت «محورت»، وأنا الذي خلقت الثور للبقرة، وعلى ذلك جاء الأب إلى عالم الوجود، وأنا الذي كوَّنت السماء وأسرار الأفقين، ووضعت أرواح الآلهة فيها، وأنا الذي فتح عينيه ومن ثَمَّ جاء النور إلى الوجود، والذي أغمض عينيه فجاء الظلام إلى الوجود، والذي بأمره يجري النيل، والآلهة لا يعرفون اسمه، وأنا الذي خلقت الساعات، ومن ثَمَّ جاءت الأيام إلى الوجود، وأنا الذي افتتح الأعياد السنوية، وأنشأ النهر، وأنا الذي خلقت نار الحياة لأجل أن توجد أعمال ... وأنا الإله «خبري» في الصباح، و«رع» في الظهيرة، و«آتوم» في المساء.»

ومع كل فإن السم لم يكف عن مجراه، ولا خفف ألم الإله العظيم، وعندئذٍ قالت «إزيس» للإله «رع»: إن اسمك لا يوجد بين الأسماء التي تلوتها عليَّ، فأخبرني به لأجل أن يخرج السم؛ وذلك لأن الرجل الذي ينطق باسمه سيعيش. ثم أخذ السم يحرقه بفظاعة، وأصبح أقوى من اللهيب أو النار، فقال جلالة «رع»: أعيريني أذنك أيتها البنت «إزيس»، وسينتقل اسمي من جسمي إلى جسمك.

وعندئذٍ خبَّأ نفسه (أو الاسم) من الآلهة؛ وذلك لأن المسافة كانت شاسعة في قارب ملايين السنين،[٢٢٧] وعندما حانت ساعة الكشف عما في القلب قالت لابنها «حور»: اجعله عاجزًا أمامي، وذلك بأن يحلف الإله يمينًا أنه يفقد عينيه (إذا أصابها بضرر)، وعلى ذلك كشف الإله العظيم عن اسمه للإلهة «إزيس»، ثم قالت «إزيس» الساحرة العظيمة: أيها السائل السام اخرج من «رع»، وأنت يا عين حور اخرجي من الإله ... ريق الفم. إني أنا الذي ينفذ، وأنا الذي أرسل، تعالَ إلى الأرض أيها السم القوي. انظر، إن الإله العظيم قد باح باسمه، إن «رع» يعيش والسم قد مات، وفلان[٢٢٨] ابن فلان يعيش والسم مات. وهكذا تكلمت «إزيس» العظيمة، أميرة الآلهة التي تعرف «رع» باسمه الحقيقي.

•••

ويرى القارئ أن هذه القصة لم تُكتَب بطريقة شائقة؛ وذلك لكثرة ما فيها من التفصيلات الخرافية، حتى إن النقطة التي تدور حولها القصة قد صارت غامضة لكثرة ما في القصة من الصفات التي يتحلَّى بها «رع». وقد كان في مقدور الكاتب أن يكتبها في سطور قليلة، ولكنه أراد أن يُظهِر كل صفات رع، أو بعبارة أخرى يكتب حسب الطريقة المصرية، ويرخي لنفسه العِنان في المترادفات.

وإذا أراد القارئ أن يرى الفرق في الاقتصاد في التعبير بين المصرية والعبرية مثلًا، فما عليه إلا أن يقرن قصتنا هذه بقصة تشبهها سطحيًّا في التوراة، وأعني بذلك قصة موسى والثعبان (كتاب العدد، الإصحاح الحادي والعشرون، الآيات ٤–٩)، فالأولى قد كُتِبت في صفحات، والثانية في سطور، والأولى على الطريقة المصرية، والثانية على الطريقة العبرية، وكلتاهما طريفة في بيئتها.

(جـ) المصادر

أحدث التراجم:

(1) Eric Peet. A comparative study of the Literatures of Egypt, Palestine and Mesopotamia P. 19 ff.

(2) Müller Egyptian Mythology P. 80 ff.

(٢-٦) عن ملك وإلهة

مقدمة

في متحف «برلين وفينا» قطع من ورقة بردي في حالة سيئة تتحدث عن ملك وإلهة وموظَّف يُدعَى «حورمين»، وإنَّا سنورد هنا القِطَع التي يمكن ترجمتها، وعلى خيال القارئ أن يستكمل الباقي.[٢٢٩] غير أنه يمكننا أن نقول إن وجود موظف في منف يحمل اسم «حورمين» النادر، ويمضي الملك معه عشرة أيام، وتظهر في بيته البنت الجميلة؛ يجعلنا نفكِّر قهرًا في شخص حقيقي.

(أ) القصة

المشرف على خدر النساء الملكي في «منف» «حورمين» الشهير، وهذا الرجل العظيم قد كافأه الملك «سيتي» الأول بالذهب حينما بلغ حياة طويلة وعمرًا مديدًا مباركًا، دون أن يرجع إلى الطفولة، ومن غير أن يرتكب خطأ ما في البيت الملكي.[٢٣٠] ونجد في كل المتاحف آثارًا من قبره في سقارة،[٢٣١] فمن الجائز إذن أن تكون خرافة قد علقت بهذا الرجل كما هو الحال مع القائد «تحوتي» (انظر قصة الاستيلاء على «يافا»).

وكل أنواع الهدايا قد أحضرت إلى الملك، وعند الغروب أتت (؟) على رأس القوم الذين كانوا محملين بالهدايا … بيتها، وقالت لجلالته … احضر له القدح، هو … على السطح، ونادى … ضابط الجنود الاحتياطي للجيش … أحضِرْ لي سلات فيها فضة وذهب، وفعل … وبعد أيام مضت على ذلك … نظرتها، وأخذت له … هذه ثلاث السنوات فيها، وقد انبطحوا أمام (الملك) (؟) …

… «سأفعل ما» يمليه قلبي … خمسون إناء من الشهد … قمح، وجعل جلالته … وأمر أن يحضر الحمل أمامه … تعال (؟) إلى «منف»، وحينئذٍ سيعمل لك … وبعد أيام عدة مضت على ذلك جاء جلالته «منف» إلى «حورمين» المشرف على خدر النساء، وأمضوا عشرة أيام، وبعد انقضاء عدة أيام على ذلك … وحولت نفسها إلى عذراء جميلة … وبعد أيام عدة مضت

على ذلك ... لا تخف (؟) اصعد أنت ... وبعد أيام عدة مضت على ذلك ركب جلالته (عربة) (؟) ووصلوا إلى المملكة الشمالية ... وقال القوم لفرعون ما أنت فاعل (؟) ... لا يرجع أحد ثانية؛ فإن الإلهة (تذبح) الناس ... وبعد عدة أيام مضت على ذلك ...

(ب) المصادر

Erman. The Literature of Ancient Egyptians P. 172-173.

(٢-٧) قصة عن عشتارت

كانت الآلهة «عشتارت» الفينيقية معروفة عند المصريين في خلال الأسرة التاسعة عشرة، وفي حكم «رعمسيس» الثاني كان لها معابد خاصة في عاصمته، ولا بد أنه كان لها معابد غيرها في المدن الأخرى، على أن حشر إلهة أجنبية يمكن أن يكون السبب في تأليف هذه القصة التي لسوء الحظ لم يَبْقَ منها إلا قِطَع صغيرة محفوظة. والظاهر أن هذه القصة تخبرنا كيف أحضرت «عشتارت» إلى مصر من بلادها،[٢٣٢] ويظهر من القطعة الأولى من البردية أن إلهًا يطلب الجزية بوصفه ملكًا، ويظهر أنه كان هناك قضية خاصة بذلك في المحكمة، و«رننوت»[٢٣٣] تخاطب «عشتارت» (؟): انظري، إذا أحضرت له جزية فإنه سيكون رحيمًا بك (؟)، وإذا لم تحضري الجزية فإنه سيأخذنا أسرى، وعلى ذلك أعطيه جزيته من الفضة والذهب واللازورد ... خشب، وقالت «لتاسوع الآلهة» ... جزية البحر. ليته يصغي إلينا ... وفي قطعة ثانية حيث لا يزال الموضوع خاصًّا بجزية البحر يمكن الإنسان أن يستخلص. ثم أخذت «رننوت» ... وقالت: اسمع ما أقول، لا تذهب لآخر واعل إلى «عشتارت» في بيتها، وتكلم تحت حجرة نومها، وقل لها: إذا استيقظت (؟) ... ولكن إذا نمت فسأعمل ... ليتك تأتي إليهم ... انظر، إن «عشتارت» تسكن في إقليم على البحر ... بنت «بتاح» الإلهة الغضبى المرعبة. هل النعلان

اللتان في قدميك … هل ملابسك التي تلبسها قد مُزِّقَتْ من ذهابك وإيابك الذي تقوم به في السماء وعلى الأرض؟

وقال: … ماذا أصنع ضده؟ وسمعت «عشتارت» الـ … البحر، فذهبت ودخلت في حضرة «تاسوع الآلهة» حيث كانوا … فرآها (الآلهة) العظام ووقفوا أمامها، ونظرها (الآلهة) الصغار وانبطحوا على بطونهم، وهناك قدم لها عرشها وجلست عليه، ثم أحضر إليها …

… وذهب رسول «بتاح» قائلًا: «قدموا الخضوع «لبتاح» و«لنوت». و«نوت» … الـ … التي كانت حول عنقها ووضعتها في الميزان …

ويجب أن نوافق كاشف هذه القطع قائلين: إن ما حفظ كافٍ ليجعلنا نأسف على فقدِ ما ذهب.

(أ) المصادر

أول مَن كتب عن هذه القطعة هو الأستاذ «برش»:

(1) Birch, Zeitschrift für Agyptische sprache 1871 P. 119.

ثم طبعها الأستاذ «نيوبري»:

(2) The Amherst Papyri Pls. XIX–XXI.

وترجمها الأستاذ «إرمان»:

(3) Erman, The Literature of the Ancient Egyptians P. 169-170.

(٢-٨) قصة عفريت

قد وصلت إلينا ثلاث قِطَع من نسخ محشوة بالأغلاط، مسطرة على أربع قطع من الخزف لقصة، ولكن هذه القطع لا تمكننا تمامًا من فهم مغزاها. وموضوعها أن شخصًا مات منذ زمن

طويل، ثم ظهر ثانية لرئيس كهنة «آمون» وأمره مهدِّدًا إياه بترميم قبره الذي قد خُرِّب ونُسِي، وبعد بحث متواصل وجد رئيس الكهنة القبر، والملك «رع حتب» الذي عاش في زمنه المتوفى هو من ملوك العهد الإقطاعي في نهاية الدولة الوسطى، أما رئيس الكهنة فلا بد أنه عاش في عهد الأسرة التاسعة عشرة أو العشرين، ويُعرَف ذلك من مدلول اسمه (ورئيس الكهنة الذي نتكلم عنه بوصفه شابًّا يحتمل أنه هو الذي يتكلم في الأول ويشتكي كما يأتي): أنا لا أرى نور الشمس ولا أتنفس … الهواء، والظلام فوقي يوميًّا ولا يأتون …[٢٣٤]

وقال العفريت له: حينما كنت حيًّا على الأرض كنت رئيس خزائن الملك «رع حتب»، وكنت ممثلًا للجيش،[٢٣٥] وكنت على رأس الرجال، وقريبًا من الآلهة.[٢٣٦]

وفي ثاني شهور الصيف من السنة الرابعة عشرة ذهبت إلى راحتي، وتوفيت في عهد الملك «منتوحتب» (؟) فقدَّمَ إليَّ أربعة أوانٍ مأتمية،[٢٣٧] وتابوتًا من المرمر، وأمر ببناء أهرام لي تليق برجل في مركزي، وجعلني أذهب إلى راحتي (الأبدية) … انظر، إن الأرض من تحتي (؟) صارت بالية (؟) وتتساقط[٢٣٨] (؟) …

أما ما يختص بقولك لي: سأجدد المدفن، فإني قد سمعت ذلك من قبلُ أربع مرات، ولكن ما الذي يفعلونه له (؟) … هذا لا يتم بكل الألفاظ …[٢٣٩]

فقال لي رئيس كهنة «آمون» ملك الآلهة «خنس امحب»: أرجو أن تنطق لي بأمر حسن يقضي بأنه يعمل ذلك لي أو يجعله يعمل لي (؟) وكذلك يعطيني خمسة من الأرقاء الذكور، وخمسًا من الإماء، فيكون مجموع ما أُعْطَاهُ عشرة ليصبوا الماء لي، وكذلك يخصص لي حقيبة من القمح يوميًّا لتُقدَّم إليَّ، ورئيس … يصب الماء لي.[٢٤٠]

وكان العفريت مغضبًا وقال له: لأي غرض ذلك الذي تفعله (؟) أليس الخشب معرضًا (؟) للشمس … والحجر الذي أصبح باليًا لا يمكث زمنًا أطول (؟) إنه يتداعى …

وبعد ذكر إرسال أناس للقبر نقرأ: ثم قال له العفريت: «وعليه كذلك أن يخلد اسم والد والدي، واسم والدتي.» فقال رئيس الكهنة: «سأجعله يفعل ذلك لك، وسأجعله يبني مدفنًا لك … وسأجعله يعمل لك ما يعمل لرجل في مركزك.» ومن المحتمل أنه يعده أيضًا أنه لن يبرد في الشتاء، ثم بعد جملة غير مفهومة يقول: ثم إن رئيس الكهنة «خنس امحب» قعد وبكى … ولم يأكل ولم يشرب … «لعل ذلك بسبب أنه لم يجد القبر الذي يجب أن يرممه.»

ولما كان من المحتمل أن المتوفى كان موظفًا للملك «رع حتب»، جاز أنه قد دفن بجواره.

وقد أرسل هناك الـ … «لآمون رع» ملك الآلهة ثلاثة رجال … فعبر النيل وتسلَّق إلى قبر بجانب قبر الملك «رع حتب»، السامي … هذا هو القبر الذي كان يبحث عنه، ثم نزلوا إلى شاطئ النهر وعبروا إلى رئيس كهنة «آمون رع» رب الآلهة ووجدوه، بينما كان يقوم بتأدية وظيفته في المعبد.

وقابلهم بكلام يحتمل أن يعبر عن بعض الشك فيما إذا كانوا قد وجدوا المكان المقصود، وعندئذٍ تكلَّمَ ثلاثة الرجال بفم واحد: «لقد وجدنا المكان الطيب.» ثم قعدوا أمامه وفرحوا، وكذلك استولى السرور على قلبه حينما قالوا له: «… الشمس طلعت من الأفق.» ونادى هو ممثل بيت «آمون» المسمى «منتوكا» (وكلفه) القيام بعمله.

وفي المساء عاد لينام في المدينة وهو …

(أ) المصادر

هذه القطعة يرجع عهدها للأسرة العشرين، وقد وُجِدت مكتوبةً على أربع قطع من الخزف: واحدة منها في متحف اللوفر بباريس، والثانية في فينا، أما الاثنتان الأخريان ففي متحف «فلرنسا» بإيطاليا. وكتب عنها الأستاذ «جولنيشف» في مجلة:

(1) Recuiel De Travaux Vol. III 3 ff. & ibid XVI P. 31.

ثم كتب عنها ثانية «برجمان»:

(2) Bergmann Hierat. Dem Texte, Vienna 1886 Pl. IV.

وقد ترجمها الأستاذ «مسبرو» مع بعض التصرف في كتابه:

(3) Maspero. Papular Stories of Ancient Egypt P. 275 ff.

(٢-٩) الشجار بين الجسم والرأس

مقدمة

هذه قصة قد يرجع تاريخها إلى الأسرة الثانية والعشرين، وفيها مناظرة بين أجزاء الجسم، تدور حول مَن يفضل منها بقية الأعضاء، وقد كتبها تلميذ قديم، ووقع في أغلاط كثيرة في كتابتها، وقد لاحظ «مسبرو» أنها شبيهة بخرافة «شجار البطن والأمعاء»، ولا نستطيع معرفة مدى وجه الشبه بينهما؛ لأن القصة لم ترد كاملة.

(أ) القصة

تشاجر البطن والرأس لحل … متكلمين بصوت مرتفع أمام الثلاثين، وكان لا بد لهؤلاء من أن يكشفوا عن حقيقة الإهانة التي بكت من أجلها عين الرأس، وأن يقرر الصدق أمام الإله الذي يمقت الظلم. ولما نطق البطن باتهامه صاح الرأس عاليًا قائلًا بفمه: أنا، أنا ذلكم الشعاع الذي في كل البيت، والذي يحتمل الأشعة، ويخضع الأشعة معًا.

وكل عضو يرتكن عليَّ سعيد، فقلبي سعيد، وأعضائي تنمو (؟) ورقبتي مثبتة تحت الرأس، وعيناي تنظران بعيدًا، وأنفي يتنفس وينشق الهواء، وأذناي مفتوحتان وتسمعان، وفمي مفتوح

ويعرف كيف يجيب، وذراعاه[٢٤١] تتموان وتعملان.

(ويظهر بعد ذلك أن الموضوع خاص برجل متكبر، يرى أن الأشراف منحطون، ولا نعرف بالضبط مَن يقصد بكلامه) ثم يعود الرأس إلى الكلام: إني سيدك، أنا الرأس الذي يريد إخوته أن يتهموه (؟).

وهذا ما قاله الفم له: «أليس هذا خطأ؟ دَعِ الرأس يكلمني، إني ذلك الذي يحفظ حيًّا …»

(ب) المصادر

أول مَن كتب عنها الأستاذ «مسبرو»:

(1) Maspero Etudes Egyptiennes I, P. 260 ff.

ثم ترجمها الأستاذ «إرمان»:

(2) Erman. The Literature of the Ancient Egyptians P. 173 ff.

(٢-١٠) قصة إعماء الصدق ثم الانتقام له

(أ) ملخصها

اتهم الكذب الصدق بتهمة كانت نتيجتها أن حُكِم على الصدق بالعمى، ووافق «تاسوع الآلهة» على ذلك الحكم، ويظهر أن هذه التهمة كانت تنحصر في أن الكذب أودع عند أخيه الصدق مدية يحتفظ بها أمانة عنده، ولكنها لسبب ما فُقِدت أو تلفت، وأراد الصدق أن يعوض أخاه عنها بأخرى مثلها، ولكن أخاه الكذب كان يتعلل بعلل مختلفة، وكان يخلع على مديته أوصافًا تضخِّم من شأنها، وتُعجِز الصدق عن الإتيان بمثلها، فقال عنها: إن جبال «إيل» سلاحها، وأشجار «قفط» مقبضها، وقبر «الإله» قرابها، وماشية «كار» رباطها. فعجز الصدق طبعًا عن رد مثل

هذه المدية، فحكم عليه «تاسوع الآلهة» بالعمى كما أراد الكذب. وبعد ذلك رغب الكذب في أن يقضي على حياة أخيه، ولكنه نجا من حبائله وأخذ الصدق مكانه تحت سفح جبل، فرأته خادم وأعجبت بجماله وأشفقت عليه، فأخبرت سيدتها بأمره وأحضرته إليها، فأعجبت به، واتصل بها اتصال الرجل بامرأته، فأنجبت طفلًا جميلًا اقتصَّ لأبيه بعد أن نما وأيفع، وأوقع به بمثل المكيدة التي دبَّرَها الكذبُ لأبيه، وانتهى الأمر بإعماء الكذب وانتصار الصدق عليه.

(ب) دراسة القصة

لا شك أن القارئ يلمح شبهًا بين هذه القصة وقصة الأخوين في الهدف الذي ترمي إليه كلٌّ منهما، وترجع كلتاهما إلى عهد الرعامسة، وأسلوب القصة بسيط، وتعبيراتها متشابهة مملة، وهي فقيرة في ثروتها اللغوية؛ وتلك سمة عُرِفت عن هذا العصر المتأخر، كما تمتاز بأن أسماء أبطالها ليست من أسماء البشر، بل من الآلهة أو غيرهم، وفيها شيء من خوارق العادات فيما يتصل بالسكين والثور. ولقد أبانت لنا بعض عادات للمصريين القدماء في عهد الرعامسة، كاستخدام عمى الرجال في حراسة الأبواب، وإيداع الثور عند راع مقابل أجر ضئيل، كما وضعت لنا صورة حية تمثل حياة الفلاح المصري في ذلك العصر، والحياة المدرسية التي تشبه حياة المدارس في عصرنا الحالي. ومما استرعى اهتمامنا أسماء بطلي القصة «الصدق» و«الكذب» اللذين خلعا على الأخوين المتخاصمين، ولم يكن ذلك منتظرًا؛ لأن كلمة «صدق» أو «عدالة» في اللغة المصرية القديمة من الأسماء[٢٤٢] المؤنثة، على أن إطلاق الأسماء المعنوية على الصور الحسية من الأمور الشائعة من قديم الزمان، فعندك الإلهة «ماعت» التي تدل على «الصدق»، «العدالة»، «الحق»، وهذا أقدم مثال للكناية، وقد استعمله «جون بنيان»[٢٤٣] في كتابه المشهور Pilgrim’s Progress.

ومغزى القصة في إظهار الفوارق الأخلاقية بين الصدق والكذب.

وإذا دقَّقنا البحث في موضوعها لمحنا في ثناياه صورة أخرى لخرافة «حور» و«ست»: فالأخ الأكبر هو الذي يتحلى بالفضيلة، وهو الذي يتآمَر على قتله أخوه الصغير الشرير كما نرى في «أوزير وست»، والابن الذي جاء ينتقم لأبيه في قصتنا يعادل «حور» بن «أوزير»[٢٤٤] في تلك، والخلاف في مسلك الأم فيهما.

ومما يثبت لنا أن هذه الخرافة صدى مشوَّه لأسطورة «أوزير»، تلك المحكمة التي انعقدت من «التاسوع الإلهي»،[٢٤٥] ونظرت في شكاية كلٍّ من الصدق والكذب حينما رفع كلاهما الأمر إليها.

ومن التفاصيل الساذجة فيها استعمال القَسَم التقليدي الذي كان يُستعمَل دائمًا من بداية الأسرة الثامنة عشرة حتى نهاية الأسرة العشرين، وهو القَسَم «بحياة آمون وبحياة الأمير»، وهذا مما يقفنا على تاريخ هذه الورقة على وجه التقريب.

(جـ) المصادر

(1) A. H. Gardiner, Late Egyptian Stories, Brussels 1932 P. 30–6.

(2) Erman. Forschungen und Forschnitte eighth year no. 4 (Feb., 1932) P. 43-4.

(3) Gardiner, Hieratic Papyri in the British Museum Vol. I Text P. 2 ff.

(د) متن القصة

(ومن ثَمَّ يقول النص):

وعندئذٍ قال «الكذب» للتاسوع: دعوا «الصدق» (يحضر) ثم تعمى عيناه الاثنتان، ثم اجعلوه حارس باب منزلي، ولقد فعل التاسوع وفق كل ما قاله.

وبعد أن انقضت عدة أيام على ذلك رفع «الكذب» عينه ليشاهد، فرأى فضيلة «الصدق»، أخاه الأكبر.

وعندئذٍ قال «الكذب» لعبدين من عبيد «الصدق»: خَذَا سيدكما واقذفا به إلى أسد شرير معه عدة لبؤات رفيقات له، ودعاها (تلتهمه).

(وعندئذٍ أخذه العبدان)، وبينما هما يصعدان معه إذ قال «الصدق» لخادميه: لا تأخذاني لأجل أن تضعا آخر …

هنا نجد أن الجزء الأكبر من الصفحة الثانية قد ضاع، وقد تركت لنا بعض جمل، غير أنه من الصعب أن يفهم الإنسان منها معنى متصلًا، ومن المحتمل أن ثلاثة الأسطر والنصف الأولى تقص كيف أن الخادمين قبلا رجاء «الصدق»، وكيف أنهما تفاديا الأسئلة التي وجَّهَها إليهما «الكذب» عند عودتهما. والفقرة التالية كذلك تضع أمامنا مسائل معقَّدَة، غير أنه يظهر أنها تخبرنا كيف أن خادمة للسيدة التي أصبحت فيما بعدُ والدة ابن «الصدق» (وقد فُقِد اسمها في كل مكان من الفقرة)؛ قد وجدت «الصدق» راقدًا تحت سفح تل، وقد تعجبت من جماله فذهبت لتخبر سيدتها بالأمر، وها هي ذي العبارة بنصها:

وبعد مضي عدة أيام على هذه الأشياء خرجت السيدة … من بيتها … وشاهدته نائمًا تحت سفح التل، وقد رأت جماله ولم يكن له مثيل في الأرض قاطبةً، وقد ذهبوا (؟) إلى المكان الذي فيه الـ … وكانت السيدة (تقول) تعالَ معنا وانظر … نائمًا تحت سفح التل، ودعهم يأخذوه ويجعلوه حارس باب بيتنا.

(وعندئذٍ) قالت السيدة لها (أي للخادمة): اذهبي وأحضريه حتى أراه. فذهبت وأحضرته، ولما رأته السيدة رغبت فيه كثيرًا؛ لأنها رأت جمال جسمه (؟)، ونام معها في الليل، وعرفها معرفة الذكر لأنثاه، فحملت منه على أثر ذلك في هذه الليلة في طفل صغير.

وبعد مضي عدة أيام على هذه الأشياء وضعت غلامًا، ولم يكن له مثيل في الأرض قاطبةً، وقد كان أكبر من ... وقد كان يشبه الإله الفتى، وقد وضعوه في المدرسة، وتعلَّمَ الكتابة بتفوق كما تعلَّم كل فنون الحرب، وتفوَّقَ على أقرانه ممَّن هم أكبر منه سنًّا في المدرسة.

وعندئذٍ قال له زملاؤه: ابنُ مَن أنت؟ إنك بدون أب. ثم سبُّوه وضايقوه قائلين: حقًّا إنك بدون أب.

وعندئذٍ قال الولد لأمه: ما اسم والدي حتى يمكنني أن أقوله لزملائي؛ لأنهم يضايقونني كثيرًا بقولهم: أين والدك؟ وهكذا يقولون لي ويؤلمونني.

عندئذٍ قالت والدته له: هل ترى ذلك الأعمى الذي يجلس بجوار الباب؟ هذا هو والدك، وهكذا قالت له.

عندئذٍ قال لها: كان خيرًا لكِ أن تجمعي أقاربك حتى يطلبوا تمساحًا ليحاسبك (ليلتهمك). ثم أخذ الولد والده وأجلسه على كرسي، ووضع مسندًا تحت قدميه، ووضع أمامه خبزًا، وجعله يأكل ويشرب.

وعندئذٍ قال الولد لأبيه: مَن أعماك حتى أنتقم لك؟ فقال له: إن أخي الصغير أعماني. ثم أخبره بكل ما حدث له.

فذهب الولد لينتقم لأبيه، ثم أخذ عشرة أرغفة وعصا، وحذاء، وقربة ماء، وسيفًا، ثم أحضر ثورًا جميل المنظر وذهب إلى المكان الذي فيه راعي «الكذب» وقال له: خُذْ هذه الأرغفة العشرة وهذه العصا وتلك القربة وهذا السيف وهذا الحذاء، وارعَ هذا الثور لي حتى أعود من المدينة.

وبعد مضي عدة أيام على هذه الأشياء كان ثوره قد أمضى عدة شهور مع قطيع ثيران «الكذب».

وعندئذٍ ذهب «الكذب» إلى الريف ليرى ماشيته، فرأى ثور الولد هذا، وقد كان جميلًا جمالًا فائقًا.

وعندئذٍ قال لراعيه: أعطني هذا الثور لآكله. فقال له الراعي: إنه ليس ملكي … وليس في مقدوري أن أعطيك إياه.

وعندئذٍ قال له «الكذب»: انظر، إن ماشيتي كلها معك، أعطِ واحدة منها صاحبه.

وعندئذٍ سمع الولد أن «الكذب» قد أخذ ثوره، فحضر إلى المكان الذي فيه راعي «الكذب» وقال له: أين ثوري؟ إني لا أراه بين الماشية.

عندئذٍ قال له الراعي: إن الماشية كلها هنا أمامك، خُذْ منها ما يحلو لك.

عندئذٍ قال الولد له: هل هناك ثور كبير مثل ثوري؟ فإنه إذا وقف في «بالامون»،[٢٤٦] فإن شعر ذيله يرتكز على سيقان[٢٤٧] البردي (في نهاية الدلتا)، وقرنه على جبل الغرب، وقرنه الآخَر على جبل الشرق، والنهر العظيم يكون موضع راحته، ويُولَد له ستون عجلًا كل يوم.

عندئذٍ قال له الراعي: هل هناك ثور بالحجم الذي قلته؟ فأمسك به الولد، وذهب به إلى المكان الذي فيه «الكذب»، ثم أخذ «الكذب» إلى المحكمة في حضرة التاسوع.

عندئذٍ قالوا للولد: إنك على خطأ، إننا لم نرَ قطُّ ثورًا بالحجم الذي ذكرته.

عندئذٍ قال الولد للتاسوع: وهل هناك سكينة بالحجم الذي ذكرتموه، سلاحها جبل «إيل»، ومقبضها أشجار «قفط»، وقرابها قبر «الإله»، ورباطها ماشية «كار»؟

وعندئذٍ قال للتاسوع: احكموا بين «الصدق» و«الكذب»؛ لأني أنا ابن «الصدق» وسأنتقم له.

وعندئذٍ حلف «الكذب» يمينًا بالملك قائلًا: بحياة «آمون» وبحياة الأمير إنه إذا وجد الصدق حيًّا فَلْتُعْمَ عيناي الاثنتان، ولأصبح حارس بيت «الصدق».

عندئذٍ حلف الولد يمينًا بالملك قائلًا: بحياة «آمون» وبحياة الأمير إنه إذا وُجِد حيًّا فإنهم سيعاقبون الكذب ... وسيضربونه مائة جلدة، وسيجرحونه خمسة جروح بالغة، وسيعمون عينيه الاثنتين، وسيجعلونه حارس باب «الصدق».[٢٤٨]

ثم إنه ... وبذلك انتقَمَ الولد لأبيه، ليحسم النزاع القائم بين «الصدق» والكذب ... الـ ... لقد أتت النهاية (طيبة).

(٢-١١) قصة المخاصمة بين «حور» و«ست»

(أ) ملخص القصة[٢٤٩]

اشتد النزاع بين الأخوين «أوزير» و«ست» على عرش مصر، فاغتال «ست» «أوزير»، ولكن الحياة دَبَّتْ ثانيةً في جسمه، بفضل أخته «إزيس»، فترك دنيا الغدر وما فيها، وهبط يحكم في العالم السفلي بعد أن نزل عن عرش مصر لابنه «حور». ولقد كان من الطبيعي أن يبدأ

النزاع من جديد بين «ست» و«حور» على العرش مرةً ثانيةً، فتشاحنا وتخاصما إلى محكمة الآلهة التي كان يرأسها الإله «رع»، وكان «حور» يعتزُّ في عراكه بعدالة قضيته، وبإرثه الشرعي، وبمساعدة «إزيس». وكان «ست» يعتد بقوته وجبروته، ومعاضدة الإله «رع» له، ومن ثَمَّ كانت الأحكام الأولية في هذه القضية في جانبه خشية بأسه، وفرارًا من أذاه؛ حتى إذا ضاقَتِ الحلقة، وتضافرت الأدلة كلها ضده، بعد تهديد «أوزير» «لرع» ومجلسه، ولم يجد القضاة من الآلهة فرجة ينفذون منها إلى مناصرته، أصدروا حكمهم في جانب الحق، فآلَ ملك مصر إلى وارثه الشرعي «حور».

(ب) دراسة القصة

مقدمة

في عام ١٩٢٨ اشترى المستر «شستر بيتي» مجموعة من الأوراق البردية، عثر عليها في «دير المدينة» الواقع في الجهة الغربية من النيل بالأقصر، ويرجع تاريخها إلى الأسرة العشرين والحادية والعشرين، أي في عهد الرعامسة، وتُعَدُّ من أكبر ذخائر الأدب المصري القديم التي عُثِر عليها حتى الآن، والمرجح أن بعضًا من هذه الأوراق لا يزال مخبَّأً عند بعض تجار العاديات بالأقصر. ولقد أهدى المستر «شستر بيتي» ما اشتراه من هذه الأوراق إلى المتحف البريطاني، وقام بترجمتها ونشرها في كتابٍ خاصٍّ الأستاذُ «جاردنر»، فرأينا من بينها وثيقة لها أهميتها الأدبية لما بدا لنا فيها من تجديد في عالم الأدب المصري القديم؛ ولذلك رأينا أن نعطيها مزيدًا من عنايتنا، وأن نتناول عناصرها بشيء من الإطناب والتفسير.

فقر الأدب المصري في الأساطير الدينية

إن كل مشتغل باللغة المصرية القديمة يدرك أن القصص الخرافية التي ينحصر أبطالها في محيط الآلهة وحدهم قليلة أو نادرة؛ فهذه متون الدولة القديمة والوسطى خالية من هذا النوع خلوًّا يثير دهشتنا، على حين أن كل إله مهما كان مغمورًا نرى لاسمه ذكرًا في متون الأهرام، أو في متون الدولة الوسطى التي كتبت على توابيت علية القوم بالمداد. وقد كان معروفًا ما علق بكل إله من الخرافات، وما أُذِيع عنه من المعجزات، فكان في تسطير اسمه ما يكفي لتذكير القوم بقصصه ووقائعه من غير حاجة إلى تطويل، أو مزيد تفصيل وإيضاح، ولم يكن يخلو الأمر بين آونة وأخرى من ظهور ومضة تجلو بعض ما غمض من هذه الدنيا المليئة بالإبهام والإلغاز.

وكان أول ما وصَلَ إلينا من قصص الآلهة ما وجدناه في كتب السحر وكتب الطب، التي تحمل في تضاعيفها تعويذات سحرية، ومن تلك: قصة شفاء «رع» على يد «إزيس»، وقصة إطفاء «إزيس» النار التي انغمس فيها ابنها «حور» (وقد وجدناها على لوحة «ماترنخ» الشهيرة)، وقصة هلاك الإنسانية، التي يحتمل أنها مقال عن أصل نشوء العالم والطوفان (وقد أوردناها في هذا الكتاب)، وقصة غزوات «حور» (وقد وجدناها منقوشة على جدران معبد «إدفو»)، وقصة أعمال «شو» بن «رع» الحربية العظيمة (وقد عُثِر على بعضها منقوشًا على مقصورة في وادي العريش).

والقصتان الأخيرتان وصلتا إلينا من نقوش عهد البطالسة أيام كانت الخرافات أحاديث السمار في المجالس، ينسبونها إلى عهدها القديم، ويتفكَّهون بها، ويتندرون بوقائعها. أما قصة مأساة «أوزير» — ولها علاقة وثيقة بقصتنا — فقد كان مصدرها الذي يشفي الغُلَّة ما ورد عنها في كتابة «ديدور» الصقلي و«بلوتارخ» من مشهوري كتَّاب اليونان، لولا ما دُسَّ فيها من العناصر الدخيلة التي شوَّهتها، وإذًا فليس لنا مرجع لهذه القصة إلا نتف يسيرة مبعثرة في المتون المصرية، وبخاصة الدينية منها والسحرية، تبدو كالشعرات البيض في الفرس الأشهب، وهي مع ذلك لا تخلو من تناقض واضطراب.

وقد عزا بعضهم إحجام «هيرودوت» عن وصف مأساة «أوزير» إلى أنه شمله رداء من الرهبة التي أُلبسها المصريون أمام آلهتم، وأنه انساق في موجة الورع الديني التي جرفت المصريين، فلم يشأ أن يخرج عن هذه الحال بذكر وقائع عن الآلهة قد تمسُّ النعرة الدينية عند المصريين. وهذه الحجة مردودة بما قاله «إيامبلخوس» Iamblichus:[٢٥٠] «إن المصريين وحدهم من بين أمم العالم كانوا معتادين تهديد آلهتهم.»[٢٥١] ولدينا في «متون الأهرام» وغيرها من النقوش المصرية ما يعزز هذا الرأي، وما يثبت أن المصريين لم يكن عندهم من سمو الشعور وعلو الوجدان نحو آلهتهم ما يخلق مثل هذا الجو الذي يخشاه «هردوت»، فيمتنع عن ذكر قصة أبطالها من الآلهة.

والذي نميل إليه أن العامل الحقيقي في فقر الأدب المصري من الأساطير الخرافية الدينية أو الإلهيات يرجع إلى سببين:

أولًا: أن هذا النوع من القصص الأدبية كان مألوفًا منتشرًا بدرجة عظيمة بين طبقات الأمة في كل مراحل النمو الإنساني، من الطفولة والصبا والفتوة والرجولة والكهولة والشيخوخة، بحيث أصبحت لا تحتاج إلى تدوين؛ لأنها على كل لسان، وفي كل قلب.

ثانيًا: أنه كان في نفوس القوم ميل غرزي إلى حب الكتمان، فيحسون أن الألفاظ تكون أدلَّ على الهيبة، وأكسبَ للاحترام إذا كانت رمزًا أو إشارة، أو كان مدلولها غامضًا.

ومهما يكن من الأسباب التي دعت إلى هذا الفقر في هذا النوع من الأدب، فإن العثور على هذه القصة بهذا التفصيل كان كسبًا للأدب المصري، ولونًا جديدًا منه بدا لعلماء الآثار. وقد تكون هناك أساطير إلهية أخرى خاصة كهذه بالآلهة وحدهم، وليس للإنسان دور ولو صغير في مسرحيتهم، مخبَّأة في جوف الأرض ولم يُرفَع عنها الغطاء بعدُ.

ومما يضفي على قصتنا أهميةً خاصةً غير التي كسبتها من موضوعها وأبطالها وممثليها، أنها صوَّرت لنا حياة البلاط الفرعوني وسياسته في عصر خاص من عصور التاريخ المصري كما سنورده بعدُ.

قصتنا ملحمة أدبية

يقسم الفرنج الآن الشعر عادةً إلى شعر غنائي، وهو الذي يعبِّر به الشاعر عما يضطرب في قلبه من عواطف. وشعر تمثيلي، وهو الذي يصوِّر حادثة ويتصوَّر لها أشخاصًا ينطق كلٌّ منهم بما يتفق وشخصيته وموقفه. وشعر الملاحم أو الشعر القصصي، وهو الذي يقال في الوقائع الحربية والمناقب القومية في شكل قصة طويلة «كإلياذة هوميروس» و«شاهنامة الفردوسي»، ولكن الشعر عند قدماء المصريين في بادئ الأمر غير ذاك، فهناك المتون السحرية التي تتضمن تعويذات لها أثرها النافذ في نفوس القوم، وتأثيرها القوي على عقولهم؛ لما يُظَنُّ من قدرتها على الإتيان بالمعجزات وخوارق الأمور، وأحسن مثال لها ما جاء في «متون الأهرام» والنقوش المكتوبة بالمداد على توابيت الدولة الوسطى، وغيرها من المتون التي ظهرت بعد هذا العهد.

وهناك الأناشيد الدينية التي تصف الإله وأحواله وحياته ومغامراته ومعجزاته، ومثال هذا النوع «أنشودة الإله أوزير» التي كُتِبت على لوحة نراها الآن في متحف باريس،[٢٥٢] وجاء فيها كيف حكم «أوزير» على الأرض، وما أحاطته به «إزيس» من العناية، وكيف ردَّتْ إليه الحياة بعد أن اغتاله أخوه «ست»، ومن هذا النوع أيضًا أنشودة الإله «آمون» العظيم، وهناك المتون السحرية المختلطة بالخرافات، ومثالها ما جاء في لوحة «ماترنيخ»[٢٥٣] التي نرى فيها الخرافة والتعويذات السحرية مختلطين، ومن هذا النوع أيضًا قصة شفاء «رع» على يد «إزيس» وقصة هلاك الإنسانية؛ وهناك الدراما، وتختلف عمَّا سبق بأنها وحدة متصلة ترمي إلى هدف معين وتدخل فيها الخرافة، غير أنها تمتزج معها، وتفنى فيها، فتبدوان شيئًا واحدًا، وهي إما أن

تمثِّل موضوعًا حقيقيًّا له أصل تاريخي، وإما أن تمثِّل موضوعًا خرافيًّا يتصل بالآلهة، وكلا النوعين يظهر للرائي في ثوب الحقيقة الواقعة. وبدأ هذا النوع أول ما بدأ بسيطًا، فكان الإنسان يمثِّل حادثة خرافية في صورة حقيقية واقعة يتخيلها هو ويجعلها ملموسة أمام النظَّارة، ويكون هذا عادةً في المآسي الدينية وغيرها، كتمثيل مأساة المسيح — عليه السلام — أو مأساة أوزير، وقد تدل الدراما على حادثة سياسية إلى جانب ناحيتها الدينية، وتُمثَّل أمام القوم في ثوب خرافة، ومثال ذلك «الدراما المنفية» التي يقال إنها أُلِّفَتْ في فجر اتحاد مصر؛ فهي تمثل من جهة الاحتفال بتأسيس مدينة «منف» التي شيَّدها «مينا»، ومن جهة أخرى لها مغزى ديني خاص بها،[٢٥٤] ولدينا نوع آخَر من الدراما يمثل حوادث واقعة استُعِير لتمثيلها خرافة دينية رمزية، ومثاله الدراما التي عُثِر عليها في «الرمسيوم»، وهي تمثل موت ملك في أوائل الأسرة الثانية عشرة (أمنمحات الأول)، وتتويج ملك آخَر (سنوسرت الأول)؛ فقد استعير لتمثيلها مأساة موت «أوزير»، ثم تتويج ابنه على عرش البلاد من بعده والانتقام لوالده، وقد مُثِّلت كلها برموز كانت تُذكَر أولًا ثم تُتبع بتفسيرها. ومما تقدَّمَ نرى أن الخرافة قد ارتبطت بالحقيقة، والحقيقة قد ارتبطت بالخرافة في قصص المآسي؛ فقد تجد أن الخرافة تمثِّل الحقيقة، كما نجد أن الحقيقة قد تصوِّر الخرافة وتعبِّر عنها، فإذا ما انتهى هذا الارتباط إلى اتحاد تام واندماج كلي لا انفصام لعراه، فتبدو الحوادث الخرافية مثلًا مصوَّرة في حوادث زمنية حقيقية، كان ذلك نوعًا ممتازًا من القصص نسمح لأنفسنا أن نطلق عليه اسم «الملاحم» أو «الإيبيك»؛ فالملاحم كما عرَّفها الكاتب العظيم «جوليس» Jolles هي أن يأخذ الإنسان حادثة من الماضي،[٢٥٥] ثم يلبسها صورة تجعلها تعيش في الحاضر، وينطبق هذا التعريف أيضًا على «إلياذة هومر»؛ لأنها قصص شعري عن عصور ما قبل التاريخ، وضعه «هومر» في صورةٍ حيةٍ ناطقةٍ تعيش في زمننا، وستبقى حيةً ما بقي الشعر القصصي. وليس من الضروري أن تقتصر حوادث القصة

على عصور ما قبل التاريخ، بل قد تضم معها حوادث عصر تاريخي معيَّن، وتتألف من مجموعهما قصة واحدة متسقة.

على أن المصريين من ناحيتهم كانوا ينظرون إلى الحوادث الخرافية كأنها حقائق ثابتة واقعة؛ لاعتقادهم بأن الوقت الذي سبق ظهور الإنسان كان عصرًا حكمت فيه الآلهة، وعاشت فيه بمفردها في دنياها، فلا فرق عندهم من هذه الناحية بين الحقائق التاريخية والخرافات الإلهية؛ فتعد من الملاحم أمثال هذه القصص التي امتزجت فيها الخرافة والحقيقة وانصهرتا معًا، وصبَّتَا في قالب واحد، فنيت فيه شخصية كلٍّ من المزيجين؛ فظهرا في صورة واحدة لا يتميز فيها أحدهما. ومن هذا النوع قصة المخاصمة بين «حور» و«ست»؛ إذ بينما نجد الحوادث فيها تجري على يد الآلهة وحدهم، نرى ظل هذه الحوادث نفسها ينطبق على حادث تاريخي معين وقع في مصر في وقت معين، فإذا أبدلنا بالإله «رع» ومَن مثل معه من الآلهة في هذه القصة، ملكًا جاء في بداية الأسرة الثانية عشرة ومعه حكَّام الإقطاع، رأينا أن هذه الرواية التي مثل الملك وحكام الإقطاع فصولها، تنطبق تمام الانطباق على أختها التي كان «رع» وأتباعه من الآلهة أبطالها ونجومها.

ومن الجائز أن تأخذ الملحمة صورةً جديدةً بما يضاف إليها ويلحق بها من حوادث تنشأ بعد عصرها، وتتكون من الجميع وحدة متماسكة الأجزاء في صورة ملحمة، وإن كانت في الواقع تتكون من عناصر مختلفة، أولها حادث معين من عصور ما قبل التاريخ، أضيف إليه ثانيًا حادث تاريخي يصف واقعة بذاتها، ولحقت به ثالثًا حوادث أخرى تناسبه جاءت في عصرٍ غير عصره، ومثال ذلك خرافة «حور» التي وُجِدت على جدران معبد «إدفو»،[٢٥٦] فنرى فيها أولًا حوادث ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ، ونرى فيها ثانيًا حادثة طرد الهكسوس من مصر؛ فيمثل «حور» المصريين، ويمثل «ست» الهكسوس، ويطارد «حور» «ست» حتى يقذف به إلى الحدود الشرقية للدلتا، ويطرده من بلاده. ثم نرى فيها ثالثًا إشارة إلى غزو «الأشوريين»

لمصر، و«الإثيوبيين» و«الفرس»، وإلى روح العداء التي ظهرت ضد الفرس في البلاد، كل ذلك تجمَّعَ في ملحمة «حور» التي كانت في أول أمرها كما قال الأستاذ «يونكر»[٢٥٧] عنها: إنها نضال بين الشمس والظلام.

موقف «أوزير» في القصة

كنَّا ننتظر من هذه القصة أن تعرض علينا في إسهاب أمر العداوة والنزاع بين «أوزير» و«ست»، واغتيال ثانيهما لأولهما، وعودة الحياة إلى «أوزير» بفضل أخته «إزيس» التي جمعت أشلاءه من مظانها، ونزول «أوزير» إلى العالم السفلي حاكمًا فيه بعد أن نزل لابنه عن عرش مصر، ولكن القصة أغفلت كل ذلك، وجاء استهلالها مطالبة «حور» بعرش والده الذي كان ينازعه فيه «ست» عمه. ومما يسترعي النظر أننا نجد في صلب القصة «ست» يدَّعِي مرة أنه الأخ الأكبر للإله «حور»، وأخرى يظهر في ثوب العم، وقد اختفى «أوزير» في طول مراحل القصة، وتناوَبَ أهمَّ الأدوار فيها «رع» و«إزيس»، ولم يظهر «أوزير» إلا في نهاية المطاف عندما كتب إليه «رع» سائلًا أن يمده برأيه القاطع في هذا النزاع المحتدم بين ابنه وأخيه، فيجيب «أوزير» بصفته حاكمًا للعالم السفلي بأن يُعطَى ابنُه العرش، معدِّدًا للإله «رع» الذي كان ظهيرًا «لست» في كل أدوار النزاع فَضْلَه على العالم الذي خلق له القمح غذاءً. ولكن «رع» لكون هواه في جانب «ست» يسخر منه في الرد عليه، وعندئذٍ يبدي له «أوزير» ناجذيه مهدِّدًا «رع» وحاشيته بأشد أنواع العقاب، وأنه سيصليهم نار جهنم خالدين فيها أبدًا؛ لأنه حاكِم العالم السفلي، والمسيطر على كل قواه، وسيُحشَر الناس إليه أجمعون. وإذا تكلمت الأسياف أنصتت العقول والقلوب، فهذا «رع» وأتباعه يصدعون لرأي «أوزير» ويحكمون بما قال.

وفي اعتقادي أن هذه الخاتمة دعاية للإله «أوزير» وديانته، ضد الإله «رع» وديانته التي بلغت أوجها في عهد الرعامسة.

موقف الإله «رع»

لقد كان موضوع النزاع أمرًا مفهومًا، لا يختلف اثنان في أن الحق والعدل يقضي «لحور» على «ست»، فيُمتَّع بميراثه الشرعي، ويجلس على عرش أبيه، ولكن «رع» ذلك الإله العظيم كان في جانب «ست» دائمًا، ولم يكن يحد من غربه أحيانًا إلا ذلك المجلس الذي كان يعاونه على نصرة العدالة وهو مجلس الآلهة، فكان هوى هؤلاء المستشارين في جانب الحق غالبًا مما غاظ «رع»، وكان أقواهم وأصلبهم في نصرة الحق ومعارضة «رع» في موقفه الإله «تحوت»، مع أنه معتبر في الأساطير الدينية وزيره. ولا يمكننا أن نفسِّر موقف «رع» في هذا النزاع إلا أنه موقف سياسي أملته عليه الضرورة، وإذا تدخَّلت السياسة في أمر أفسدته، أو في قضية حجبت الحق والعدالة والقانون، وحكمت للقوة والسلطان، وليس من علاج لمثل هذه الحال إلا المكر والخداع، وهذا ما كان في هذه القصة؛ إذ إن «إزيس» والدة «حور» عندما رأت العرش يوشك أن يفلت من يد ابنها، أخذت تستعمل حيلة المرأة ودهاءها وخداعها، باذلةً ما تستطيع برًّا بابنها وحَدَبًا عليه.

وإن «رع» الذي كان يحكم العالم ويحمل كل الألقاب الملكية الفرعونية، كان بين أمرين أحلاهما مُرٌّ، فإما أن يجعل «ست» يفوز بالملك؛ لأنه أثير عنده، أو اتقاءً لشره، وهذا ظلم سيلتصق باسمه، فهو يخافه كما يخاف معارضة مجلس الآلهة الذي كان ينظر معه في أمر هذا الخصام، وإما أن يجعل الأمر «لحور» وهذا لا يطاوعه عليه هواه، وقد يتعرَّض بسببه لغضب «ست» البطاش الجبَّار؛ فكان لذلك دائم التردد لا يحسم النزاع ولا يتخذ فيه رأيًا قاطعًا، فيعقد مجلس الآلهة ثم يفضه بعد مناقشة قصيرة لا تصل إلى حد الحكم الفاصل. وإذا قضى المجلس «لحور»

رفض «ست» ما قرَّره وبدأ المناقشة من جديد، كما حدث في أول جلسة، ومع كل هذه التيارات النفسية فإنه كان يضطر في بعض الأحيان إلى تجاهُلها إذا كانت الحجج دامغة تأخذ بتلابيبه، ولا يستطيع أن يجد فيها منفذًا لتحقيق رغبته، كما حدث عندما احتالت «إزيس» على «ست» وجعلته يحكم على نفسه من غير أن يدري حقيقة مراميها، فلم يجد الإله «رع» حينئذٍ بدًّا من أن يقول له: «لقد حكمت على نفسك بنفسك، ولا مفرَّ من أن يُسلِّمَ التاج لصاحبه.»

ولكن «ست» لم يقتنع، وطلب مبارزة «حور» ليهرب من حكم «رع»، واضطرت السياسة «رع» أن يخضع لطلب «ست» مرة أخرى. ومع موقف «رع» هذا الذي وقفه في هذه المخاصمة كانت مكانته محفوظة، وكان احترامه مفروضًا، حتى إن الإله «بابي» عندما تطاوَلَ عليه أمام التاسوع وقال له: «إن محرابك خلو من المتعبدين.» ويكني بذلك عن ضعف شوكته، وأنه لا أنصار له ولا أتباع؛ لم يطق التاسوع أن يسمع هذا القذف، وطرد الإله «بابي» من المجلس عقابًا له وترضية للإله «رع». وتصف المتون المصرية «رع» بأنه الإله الأعلى لا ينازعه في سلطانه منازع، وأن قوله القول الفصل، وأنه المنتصر على كل عدو، ولا تقف أمامه أي عقبة؛ ومن أجل ذلك نعتقد أن الدور الذي لعبه في قصة المخاصمة بين «حور» و«ست» إن هو إلا دور رمزي، أو بعبارة أوضح أن «رع» هنا في هذه القصة كان يمثِّل شخصية تاريخية، وأن القصة نفسها صدى لحادثة تاريخية بعينها، ولا غرابة في هذا؛ فإن الدور الذي مثَّله «رع» وأعانه عليه مَن حوله من الآلهة، يحكي قصة رمزية لبلاط ملكي على رأسه ملك توجِّهه حاشيته ومجلس إدارة بلاده حسبما يريدون.

موقف «إزيس»

قلنا فيما سبق إن هذه القصة اختلطت فيها الحقيقة بالخرافة، وكان من هذا المزيج وحدة متماسكة الأطراف، وإنها تعتمد على أصل تاريخي، ومن هنا نستعرض فيها حوادث خرافية ممتعة

تعطيها حلاوة وقوة، فتبرز فيها النواحي الإنسانية سائرة في إخاء تام مع خوارق الأعمال التي تأتيها الآلهة فتساعد على الوصول إلى الهدف المقصود.

وقد قام بتمثيل الدور الخرافي في معظم نواحي القصة الإلهة «إزيس»، وبذلك لم تحرم قصتنا أن تقوم المرأة بدور ممتع فيها، يمثل القدرة والمهارة والمكر والخداع وإحكام الأحابيل، حتى وصلت بهذه العدة إلى ما لم يصل إليه مجلس الآلهة والقانون والشرع. ومبدأ ظهورها في هذا الدور العظيم حينما خاف بَأْسَها «ست» وأحجم عن الاشتراك في مجلس الآلهة؛ لأنها عضو فيه وتحضر اجتماعاته، وقد انصاع المجلس لأمره، وانتقل إلى «جزيرة الوسط» ليستأنف النظر في موضوع (وظيفة الملك)، وحظر على النوتي «عنتي» أن يعبر بها إلى تلك الجزيرة التي اختاروها مكانًا لاجتماعاتهم، وعندئذٍ بدأت قدرة «إزيس» على تمثيل دورها تظهر، وقد آلَتْ على نفسها ألَّا تترك «ست» حتى يقر على نفسه ويشهد لابنها بعدالة مطلبه، فتراءت أولًا في صورة عجوز شوهاء قوَّسَتْ ظهرَها السنون، وأغرت «عنتي» النوتي حتى عبر بها إلى جزيرة الوسط، حيث كان الآلهة مجتمعين، وقدَّمت له في بادئ الأمر رغيفًا أجرًا له على مخالفة ما أصدره إليه الآلهة من الأوامر فأبى، فلما رفعت العطاء إلى خاتم من الذهب لم يقوَ «عنتي» على مقاومة هذا الشفيع الغالي، وأُخِذ ببريقه فاندفع يعبر «بإزيس» إلى الشاطئ الآخَر، وهناك خلعت رداء الشيخوخة المزري ولبست ثوب الكاعب الحسناء ترفل في أثوابها الهفهافة، فجذبت نظر «ست» إليها وهو جالس في مكانه بين الآلهة، فتدَلَّهَ في حبها وبدأ قلبه يحدثه في أمرها، فسعى إليها يمني نفسه بقنيصة يتمتَّع بها، وهنا مدت شراكها إليه فوقع فيها راضيًا سعيدًا، قالت له: «إن زوجي قد مات، وترك لي ابنًا وحيدًا يرعى ماشية والده، وجاء أجنبي فأكرمته، ولكنه ضرب ابني وأراد أن يغتصب ما نملك من الماشية (واستعملت في تعبيرها عن الماشية كلمة «ياوت»، ولهذه الكلمة معنًى آخَر هو «الوظيفة»، وبذلك استفادت من هذه التورية في تسجيل ما فاه به «ست» بعدُ)، فقال «ست»: «وكيف يمكن ذلك وابن الرجل لا يزال على قيد الحياة؟

فلا بد أن تُعطَى الماشية (الوظيفة على المعنى الآخَر للكلمة) لابنك.» وما كادت تسمع هذا الاعتراف الذي أرادته وقصدت إليه من أول الأمر حتى فرحت وانتفضت، فصارت حدأة طارت وحطت فوق شجرة وقالت «لست»: انعَ نفسك الآن فقد حكمت عليها بفمك، فإن الماشية (ياوت) ليست إلا وظيفة الملك التي تسعى لاقتناصها من ابني «حور» … ولما قصَّ «ست» هذه الواقعة على «رع» لم يسعه إلا أن يحكم «لحور» بملك والده راضيًا أو ساخطًا.

ولم ينتهِ دور «إزيس» بذلك، بل قامت بمغامرات أخرى في النزال الذي قام بين «حور» و«ست»، وفي إرجاع بصر «حور» إليه عندما أعماه عمه، ثم في إنقاذ ابنها من وهدة السقوط والفحش التي دبَّرها له «ست»، بل قلبت القضية وجعلت البئر تستقبل من حفرها لأخيه، فوضعت نطفة «حور» على شجرة الخس التي اعتاد «ست» أن يأكل منها فلصقت به الرذيلة، وانتكس عليه الحكم.

موقف الإله «ست»

يُلاحَظ في قصتنا أن الإله «ست» كان غبيًّا أعمته شهوته، فاندفع وراءها، ووقع في حبائل «إزيس»، وكان من جهة أخرى قويًّا عنيدًا يريد أن يصل إلى أغراضه، إما بالوعيد الإجرامي؛ فقد هدَّد الآلهة بأن يقتل كل يوم واحدًا منهم إذا وقفوا في سبيله، وإما بالحيل الدنيئة، وذلك عندما أراد أن يأتي الفاحشة مع أخيه «حور» حتى يسقط من قدره فلا يصل إلى الملك، وإن الدور الذي لعبه في هذه القصة كان الدور الذي يلائم شخصيته في كل أطوار التاريخ المصري تقريبًا، فإنه كان يمثِّل الشر والغدر والظلام، وقد أبرز في هذه القصة يده على الإله «رع»، فإنه كان حاميه من الثعبان «إبوبي»، وقد ذكره بهذه المنة ليكون في جانبه عند القضاء. وإذا جعلنا الإله «ست» رمزًا لشخص تاريخي، فإن ذلك الشخص التاريخي الذي يرمز إليه «ست» يكون حاكم إقطاع من الذين كان لهم نفوذ عظيم في بداية الأسرة الثانية عشرة.

وقد كان «ست» في عهد الرعامسة، أو بعبارة أخرى في عهد الدولة الحديثة، يُعتبَر إله الحرب والقوة، وقد تبدَّدَتْ بمضي المدة شهرتُه السيئة الماضية، وكان كذلك معتبرًا إله البلاد الأجنبية، ولذلك وَصَّتِ الإلهة «نيت» بأن يُزوَّج من الإلهتين «عنات» و«عشتارت»، وهما إلهتان آسيويتان. ونرى في آخِر الأمر أن «رع» رغب في النهاية أن يتخذه ابنًا له يعيش معه ويكون إله الرعد في السماء، وفي ذلك ما يشير إلى أن «رع» قد انحاز إلى «ست» في النهاية حتى بعد أن غلب على أمره؛ لأنه عدو «أوزير» الذي كانت له السيادة والكلمة العليا في ذلك الوقت، وبذلك أصبح «ست» يسكن مع «رع» في السماء، وتركا العالم السفلي «لأوزير» يحكم فيه كيف يشاء.

موقف الإله «تحوت»

إن الدور الذي قام به الإله «تحوت» (إله العلم والعرفان) خليق به؛ فقد كان ينوب عن التاسوع في أعماله، فهو الذي قدَّمَ العين المقدسة (أي مصر) للإله «رع» ليقرِّر مصيرها، وهو الذي ألَّفَ الرسائل التي تبودلت بين «رع» من جهة وبين الإلهة «نيت» والإله «أوزير» من جهة أخرى، وهو الذي حكم في نداء النطفة عندما ادَّعَى كل من «ست» و«حور» الغلبة له على قرنه، وقد كوفئ على عمله هذا بوضع القرص الذهبي الذي خرج من جبين «ست» على جبينه، وبواسطة هذا القرص أُحِّدَ تحوت بالإله القمر؛ لأن ذلك القرص كان يمثِّل القمر نفسه، على أن هناك رواية أخرى جاء فيها أن القرص الخارج من جبين «ست» هو الإله «تحوت» نفسه الذي كان يمثِّل القمر، ونجد في المتون الخرافية شيئًا آخَر غريبًا هو أن تحوت أو القمر وَلَدٌ للإلهين «حور» و«ست»، وهذا هو الحادث الوحيد الذي نسمع فيه أن الذكرين قد تناسَلَا. ولكن الخرافة في الواقع تُخفِي في ثناياها ظاهرة طبيعية هي النضال بين النهار والليل، أو بين النور والظلام، والذي انتهى بتغلُّب النور على الظلام لخلق القمر الذي شدَّ من أزره. ولما كان المصري لا

يعرف المعنويات صوَّرَ هذا النضال بمحسات وحقائق ملموسة؛ «فحور» وهو النور قد تغلَّبَ على «ست» وهو الظلام بالتلقيح، فنتج من ذلك القمرُ الذي أصبح يضيء الكون ويبدِّد دياجير الظلمات.

الموقف التاريخي الذي توضحه القصة

قد أشرنا من قبلُ إلى أن لهذه الملحمة أصلًا تاريخيًّا توضِّحه وتشير إليه، وعلينا أن نوضح الآن هذا الأصل التاريخي الذي تمثِّله، والعصر الذي بدأ فيه.

إن «رع» يمثِّل شخصية الفرعون، وآلهة التاسوع يمثِّلون مجلس بلاطه، ومظاهرة «رع» «لست» على «حور» صاحب الحق الموروث تعني رغبة فرعون في تنصيب أحد عظماء قومه في وظيفة حاكم، متخطِّيًا بذلك قانون الوراثة الذي تسير عليه البلاد، وما دمنا قد وصلنا إلى هذه النتيجة فإنه يسهل علينا أن نعرف العصر الذي ترمز إليه هذه القصة؛ فإن موقف فرعون الذي شرحناه من أحد عظماء القوم لم يحدث إلا مرة واحدة في تاريخ مصر، وذلك في العهد الذي تلا سقوط الدولة القديمة؛ فإن أمراء الإقطاع قد ازداد نفوذهم، وصارت المقاطعات التي يحكمونها كأنها ضياع لهم، يستغلونها في حياتهم، ويورِّثونها أبناءهم بعد مماتهم، ولما جاء ملوك الأسرة الثانية عشرة، ووجدوا أن قوة هؤلاء الأمراء عظيمة إلى حدٍّ بعيد، اضطروا أن يسلموا بالأمر الواقع، وبذلك اعترفوا بقانون الوراثة في تلك المقاطعات، ولكنهم أخذوا يعملون على هدم هذا النظام شيئًا فشيئًا بتنصيب حكام موالين لهم على تلك المقاطعات، والقضاء على الأسر الوراثية كلما مكَّنَتْهم الفرصُ من ذلك. وأكبر دليل على أن هذه السياسة قد نُفِّذَتْ ونجحت، هو نقصان عدد مقابر أمراء الإقطاع في عهد الأسرة الثانية عشرة، وإن كان محو هذا النظام جملةً كان بطيئًا وشاقًّا، ولم تظهر بوادره إلا في عهد «سنوسرت» الثالث. وقد أراد أحد الفراعنة — جريًا على تلك السياسة التي استَنُّوها لأنفسهم — أن ينصب حاكمًا قويًّا ممَّن يثق

بهم على إحدى المقاطعات بدلًا من آخَر يستحقها بالوراثة؛ فقام هذا العراك بين الاثنين، فصُوِّرَ ذلك بصورة «رع» يعاضد «ست» في الخصام الذي جرى بينه وبين أخيه على وظيفة الملك التي آلت «لحور» بطريق الوراثة، ويريد «ست» — ويعضده في تلك الإرادة «رع» — أن يجعلها لنفسه بالقوة والجبروت، فإرث «أوزير» الذي كان يستحقه «حور» يُفَسَّرُ هنا بمقاطعة، وإذن فليس الشجار الذي أمامنا واقعًا بين «حور» و«ست»، بل بين الملكية وبين حكام المقاطعات الوراثيين في بداية الدولة الوسطى؛ فهي قصة تشرح في طياتها موقفًا سياسيًّا تاريخيًّا يدور حول ما كان يلاقيه الملك في ذلك الوقت من الصعوبات، وما كان لأمراء المقاطعات من القوة والبطش.

وهناك موقف آخَر في القصة نستطيع أن نجد له مقابلًا يفسِّره في الأصل التاريخي الذي نتحدث عنه؛ ذلك أن «ست» قد أصبح من أصدقاء «رع»، مناقضًا بذلك الحقائق التي وردت في الخرافات المصرية. ولقد برَّرَ «ست» هذه الصداقة التي جمعت بين الاثنين مع اختلافهما بقوله: «ماذا حدث لي؟! إني «ست» أعظم الآلهة قوة، فأنا الذي أقتل عدو «رع» كل يوم لأني أقف في مقدمة سفينة الملايين، على حين أنه لا يوجد إله آخَر في قدرته أن يعمل هذا، ولهذا أرجو أن تسلم إليَّ وظيفة «أوزير» … إلخ.» وترجمة ذلك بلغة الواقع أن ذلك الحاكم الذي كان يعضده الملك كان يقوم بدور سياسي مستتر لمساعدة الملك على تعزيز ملكه وبناء سلطانه، ومن ثَمَّ زكَّاه الملك بدوره ليتقلد هذه الوظيفة.

ونرى كذلك مشهدًا آخَر في القصة يترجم عن حقيقة تاريخية؛ ذلك أن «ست» كانت له مكانة عالية بين أعضاء مجلس الآلهة، فكان يُعامَل معاملة حسنة، وكان في الوقت نفسه لا يأبه بهم، يدلُّك على ذلك أنه لما غضب منهم مرةً قال لهم مهدِّدًا: «سآخذ سيفي الذي يزن ٤٥٠٠ رطل، وأقتل به واحدًا منكم كل يوم.» وترجمة ذلك أن مَن تسوِّل له نفسه من حكام المقاطعات أن يقوم بعمل عدائي ضد الملك، فإنه مستعد لإبادته.

ومما يدل على علاقة «ست» الوثيقة بالإله «رع»، ما جاء عند تبادل الآراء بين «رع» والإلهة «نايت»، التي كانت تُعتبَر أمًّا للإله «رع» نفسه عندما سألها عن رأيها في مصير تلك الوظيفة التي تشاحَنَ الاثنان عليها؛ إذ قالت: أعطِ ابن «أوزير» الوظيفة، ولكن في الوقت نفسه ضاعِفْ أملاك «ست» وأعطه ابنتيك «عنات» و«عشتارت». فلِمَ هذا الإكرام كله «لست»؟ وما سبب تلك الخطوة التي جعلت أم «رع» تسعى لترضية «ست» وإعطائه ما يعوضه عن التركة التي ينشدها؟ السبب واضح، وهو أن «ست» هذا ليس إلا الحاكم الذي يفضِّله الملك أميرًا للمقاطعة، وأنه ما دام قد التوى عليه القصد، فلم يقدر أن ينصبه في المركز الذي طمح إليه، فلا أقل من أن يعوضه عن ذلك غنى وجاهًا؛ تطييبًا لخاطره، وجزاءً لما قدمه لمليكه من أجَلِّ الخدمات. على أنَّا نلاحظ هنا شيئًا، فإن ذكر إعطاء «عنات» و«عشتارت» «لست» لا يمكن أن يتفق مع تاريخ الدولة الوسطى الذي تُنسَب إليه قصتنا، وليس من البعيد أن تكون تلك الفقرة دخيلة على القصة، أضيفت إليها في العصر الذي كُتِبت فيه حينما كانت مصر على اتصال وثيق بالأمم المجاورة التي كانت تُعبَد فيها هاتان الإلهتان، وهذه ظاهرة نجدها في كثير من القصص المصري؛ فلقد وجدنا في خرافة «حور» المنقوشة على معبد «إدفو» حوادثَ ترجع كذلك إلى أقدم عهود التاريخ المصري، ومع ذلك قد دُسَّ عليها، وأضيف إليها حوادث ترجع إلى عهد الهكسوس وغيره.

وقد يظن القارئ أن تشبيه إرث «أوزير» بمقاطعة مع أنه كان ملكًا على مصر كلها غير صحيح أو غير دقيق، ولكن إذا علمنا أن «رع» هو رب العالم كله كما كان يُلقَّب بذلك، كانت مصر من غير شك بالنسبة إلى هذا العالم الفسيح كمقاطعة من مقاطعاته، فالتشبيه محبوك من كل أطرافه،[٢٥٨] كما أن المرتبة التي كان يسعى إليها وارث «أوزير» قد أُطلِق عليها في القصة «حك»، وهي وظيفة حاكم المقاطعة، والتعبير عنها بكلمة (وظيفة) لا شك أنه مقصود حتى يفهم القارئ أن هذه وظيفة تُقلَّد، لا تركة تُورث، لموقف البلاد السياسي الذي سبق شرحه.

وقد لمحنا في القصة بعض التناقض، فهذا «رع» يسمِّي نفسه مرة «رب العالمين»، وأخرى «الملك الطيب لمصر»، وهذا مجلس التاسوع يطلق عليه أحيانًا مجلس الثلاثين.

مجلس الثلاثين

ومجلس الثلاثين — وقد يُسمَّى مجلس الثلاثين العِظَام — يضم الحكَّام الذين كانوا يديرون دفة البلاد في عهد الحكم الإقطاعي، ومنهم يُؤلَّف مجلس البلاط، وقد خلف مجلسُ الثلاثين مجلسَ العشرة العظام للوجه القبلي، الذين كانوا يتولون أمور البلاد في عهد الدولة القديمة. وفي ازدياد أعضاء هذا المجلس الذي أنشئ لمساعدة الملك، وللحد من سلطان حكَّام المقاطعات؛ تقويةٌ لهم، وعونٌ على تعزيز الأداة الحكومية، وداعٍ إلى القبض على ناصية الحال في طول البلاد وعرضها؛ لأن معظم الأعضاء كانوا يشتغلون في الوقت نفسه حكَّامًا للأقاليم، وسادت هذه الحال في العهد الأهناسي، وعهد الأسرة الحادية عشرة، وهي الفترة التي طغت فيها سلطة حكَّام الأقاليم، واستمرت إلى أوائل حكم الأسرة الثانية عشرة. وقد كان أعضاء هذا المجلس يمثلون سلطة الملك في مختلف المقاطعات، غير أنه استبدل بهم حكَّامًا انتخبهم بنفسه، وقد لاحظنا أن لهذا المجلس سلطانًا قاهرًا في أوائل عهد الدولة الوسطى، وكان أعضاؤه يقومون بأهم الأعمال في كل مرفق من مرافق الدولة، ولقد كان له هذا السلطان في قصتنا أيضًا؛ فقد رأينا أن التاسوع كان يفصل في الأمور الخطيرة، وكان يحد من سلطة الفرعون. وهذا المجلس بعينه كان يُسمَّى «قنبت» أي المجمع، ولقد عرفنا تكوينه من نقش وُجِد في «حاتنوب» القريبة من ملوي، جاء فيه عن أمير مقاطعة «الأرنب» (المقاطعة الخامسة عشرة) المسمَّى «نِحْري» الأول ما يأتي: «وقد اجتمع للتشاور مع المجمع «قنبت» دون أن يعرف ذلك أحد، وقد كان البلاط منشرحًا للآراء التي أدلى بها، وقد كان من الرجال المخلصين، وقد كان يأتي إليه (المجلس) الحكَّام (حكَّام المقاطعات) من الوجه القبلي.» والظاهر أن اجتماع المجلس هذا كان سريًّا كما يدل على

ذلك سياق الكلام، وكذلك كان اجتماعه لمحاربة العدو ولتسيير دفة الحرب في الجنوب. ويمكننا هنا أن نجد وجه شبه بين مجيء «نحري» إلى هذا المجلس، وندب الإله «با» من بلدة منديس (تل الربع الحالية) لحضور مجلس الآلهة.

أوزير والعهد الإقطاعي

جاء في الأساطير المصرية في الفصل الخامس والسبعين بعد المائة من كتاب الموتى، أن «أوزير» كان إلهًا في صورة ملك، وقد تناوَلَ الأستاذ «كيس»[٢٥٩] هذا الفصل من كتاب الموتى بالبحث، واستخلص منه أن «أوزير» كان الإله الرسمي عند تأسيس المملكة الأهناسية في خلال الأسرة العاشرة، وعلى ذلك كانت تُعتبَر هذه المملكة ملكًا «لأوزير» في العهد الإقطاعي، ومن هنا نجد النواة التي نبتت منها فكرة قيام مملكتين متجاورتين لكلٍّ منهما ملك مستقل، كما نجد صدى ذلك في قصتنا، فكان «رع» يحكم في طيبة و«أوزير» يحكم في «هيراكليوبوليس» (أهناس المدينة)؛ وذلك قبل توحيد البلاد على يد «أمنمحات» الأول، وبهذا كان «أوزير» يمثِّل في قصتنا مملكة «أهناس». والواقع أن هذه المقاطعة في هذا العهد الذي وصلنا إلى معرفته كانت من أقوى المقاطعات، وكان الحاكم عليها صاحب صولة وسلطان، يُخشَى جانبه، وتُرهب سطوته، ومن هنا كانت كلمة «أوزير» في قصتنا فصل الخطاب.

ولقد قلنا إن هذه القصة تمثِّل حقائق تاريخية سياسية، فهل يتمشَّى ذلك مع تحدُّث ملك إلى الأحياء وهو في عالم الأموات؟ والجواب ما قلناه من أن الملاحم المصرية تجتمع فيها الحقيقة مع الخرافة، ويتكون من المزيج المنصهر وحدة ترمي إلى هدف معين، وهذا ما نراه هنا.

ومما يدل على أن هذه القصة لم تُكتَب في عصر الرعامسة إغفال ذكر اسم الإله «آمون»، مع أن كاتب القصة يقول إنها كُتِبت في طيبة في عهد رعمسيس الرابع، أي أيام أن كان الإله «آمون» هو الإله الأعظم للدولة، فلو كانت قصتنا قد كُتِبت في عصر الرعامسة لجاء ذكر

«آمون» كما جاء في أنشودة «آمون» العظيمة الموجودة بالمتحف المصري، والتي يرجع تاريخها إلى عصر الدولة الحديثة، والتي قالت: إن «آمون» كان القاضي فيما نشأ بين «حور» و«ست» من النزاع.

ومما يجب ذكره أن وصف بلاط «رع» في القصة ينطبق على حاله أيام العهد الإقطاعي وأوائل الدولة الوسطى، فنشاهد أن إدارة الملك لم تُوطَّد في مقر واحد ثابت، بل كانت تنتقل من مكان إلى مكان، وقد رأينا هذه العادة في أهرام ملوك الأسرة الثانية عشرة، مما يدل على أن قصتنا ليست من العصور الحديثة، وأنها — كما أثبتنا ذلك في مناسبات مختلفة — ترجع إلى العهد الإقطاعي. وإذا بحثنا الأمر من الناحية اللغوية، وجدنا في القصة تعبيراتٍ وأساليبَ لا يحذقها كتَّاب عهد الرعامسة، وتدل بمميزاتها على أنها من عهد الدولة الوسطى، وهذا الموضوع يهم طبعًا بصفة خاصة المشتغلين بأمر اللغة المصرية القديمة، ومَن شاء التوسع فيه فَلْيرجع إلى ما كتبه الأستاذ «جاردنر»، ثم الأستاذ «سبيجل» في هذا الموضوع في المراجع التي أشرنا إليها. على أنَّا نكتفي هنا بالإشارة إلى الموقف الذي حاوَلَ فيه «ست» أن يعتدي على «حور» اعتداءً منكرًا، فقد جاء هذا الحادث في ورقة «كاهون» (Heiratic Papyri From Kahun Vol. I Pl. I–III & Vol. II P. 4.) وفي كتاب الموتى في الفصل الثالث عشر بعد المائة، وترجع أقدم رواية لهما إلى الدولة الوسطى في متون التوابيت التي نشرها «لاكو»، وكذلك نجد محاربة «ست» و«حور» متشكلين في صورة جاموس البحر قد جاء ذكرها في ورقة «ساليه» رقم ٤، ويحتمل أنها من هذا العصر، ونجد أيضًا خرافة قتال «ست» للثعبان «أبوبي» عدو إله الشمس في كتاب الموتى في الفصل الثامن بعد المائة، ويرجع أصلها إلى نقوش الدولة الوسطى (Sethe A. Z. 59. P. 77 ff.)، كما نرى قصة «أوزير» ومملكته التي وعد أن يحكم فيها والتي كان منشؤها أهناس المدينة في العهد الإقطاعي، قد وردت في كتاب الموتى في الفصل الخامس والسبعين بعد المائة، ويرجع أصلها كذلك إلى الدولة الوسطى.

ومن كل ما تقدَّمَ يمكننا أن ننسب قصتنا إلى الدولة الوسطى، ولا يمنع هذا أن يكون الكاتب الذي صقلها قد أسبغ عليها سمة أساليب عصر الرعامسة.

أسلوب القصة ولغتها وطريقة إنشائها

نلاحظ في أسلوبها البساطة التي انحطت إلى حد الابتذال والتعبير بلغة العامة، وهذا عين ما نجده في أساليب الدولة الحديثة؛ ذلك إلى أن مفردات القصة قليلة في عددها، عادية في نوعها، إذا استثنينا بعض ألفاظ وتراكيب أغفلَها كاتب عهد الرعامسة الذي صاغ القصة من جديد ليُظهِرها في ثوب يلائم عصره، وأكثر التعبيرات سذاجةً ما جاء على لسان «ست» «لرع» يقصُّ عليه ما دار بينه وبين «إزيس» من الحديث، وفي نسج القصة تكرار ممل دفعنا واجب الأمانة إلى تسجيله كما رأيناه. كما أوردنا الألفاظ المكشوفة في صورة تهدي القارئ إلى ما أراده منها واضع القصة.

وبين أسلوب هذه القصة وأسلوب قصص الدولة الوسطى الرائع فرق كبير يتضح جليًّا إذا قرنتها بأخرى من إنتاج هذا العصر كقصة «سنوهيت» مثلًا، وكذلك نجد بينها وبين كتابات عصر الرعامسة فارقًا كبيرًا تلمسه إذا قستها بالخطاب الوارد في ورقة أنستاسي الأولى، وسنوردها بعدُ.

ولا بد أن يكون القاص لقصتنا هذه قد أراد أن تكون غذاءً للعامة، فانحدر بأسلوبها إلى مستواهم، كما يفعل قاصُّو القرى الآن في مجالس الفلاحين، ومن هذا النوع قصة الملك «خوفو» والسحرة، وقصة الأخوين، وقصة الأمير المسحور، وغيرها، وقد تشابهت في طريقها وأسلوبها وكثير من تعبيراتها. وقصتنا من ناحية أخرى متصلة الحلقات، تسير في سردها إلى نتيجة منطقية ناجحة.

(ج) المصادر

أول مَن كتب عن هذه القصة هو الأستاذ جاردنر، ثم كتب عنها سبيجل الألماني، وهاك المصادر:

(1) Gardiner, “The Chester Beatty Papyrus No. I”, P.P. 8–26, Pls I–XVI.

(2) J. Spiegel, “Die Erzählung vom streite des Horus und seth in Pap. Beatty 1”.

(3) Blackman, “The Journal of Egyptian Archaeology”, Vol. 19, 1933, p. 200 f.f.

(4) Gardiner, “Late Egyptian stories”, P.P. 37–60.

(د) متن القصة

(لقد حدثت) المحاكمة بين «حور» و«ست» صاحبي الصورة الخفية، العظيمين، وأكبر أميرين وُجِدَا.

جلس الطفل[٢٦٠] أمام رب العالمين،[٢٦١] مطالبًا بوظيفة والده «أوزير» صاحب الطلعة البهية، (وابن) «بتاح»،[٢٦٢] والذي ينير (أرض الغرب) بضوئه، على حين كان الإله «تحوت» يُقَرِّب العين[٢٦٣] (المقدسة) إلى الأمير الجليل في «عين شمس» (أي إله الشمس).

ثم تكلَّمَ «شو»[٢٦٤] بن «رع» أمام (آتوم) الأمير العظيم في عين شمس وقال: «إن العدالة هي رب القوة، فنفذها بقولك: أعطِ الوظيفة (أي وظيفة الملك) إلى «حور».» عندئذٍ قال «تحوت» للتاسوع:[٢٦٥] «حقًّا وألف ألف مرة (حقًّا).»

وهنا صاحت «إزيس» عاليًا وفرحت جدًّا، وخرجت أمام رب العالمين وقالت: «يا ريح الشمال هبِّي غربًا! وأنعشي «قلب وتنفر» (أوزير) بهذا الخبر، وهو أن ابنه سيكون خلفه. ثم قال «شو» بن «رع»: «قرِّب العينَ (إلى حور)، فإن في ذلك عدالة للتاسوع.»

وعندئذٍ قال «رب العالمين»: «ما معنى أنكم تتخذون تدابيركم وحدكم؟!»

وهنا تكلَّمَ (التاسوع) وقال: «ليته يأخذ خاتم الملك «لحور»، وليت التاج الأبيض يوضع على رأسه.» فوجم «رب العالمين» (برهة طويلة) وغضب من التاسوع، ولكن عندئذٍ تكلَّمَ «ست» بن «نوت»: «دعه يخرج معي لأجعلك ترى أن يدي تقبض على يده في حضرة التاسوع؛ لأنه لا يعرف أحد طريقة التغلب عليه.»

وعلى ذلك قال له «تحوت»: «إذن سوف لا يمكننا أن نعرف من الكذَّاب، فهل ينبغي للإنسان على ذلك أن يعطي وظيفة «أوزير» إلى «ست»، في حين أن ابنه موجود هنا؟»

وهنا غضب «رع-حور-أختي» جدًّا — لأن رغبة الإله «رع» كانت أن يُمنَح «ست» العظيمُ القوةُ ابن «نوت» الوظيفةَ (وظيفة الملك) — وعندئذٍ صاح «أنوريس»[٢٦٦] عاليًا أمام التاسوع وقال: «ماذا ينبغي إذن أن نفعله؟»

وحينئذٍ تكلَّمَ «آتوم» الأمير العظيم الذي يقطن «عين شمس»: «فَلْيُنَادَ «با» ربُّ[٢٦٧] «منديس»، والإله العظيم الحي، الذي يقطن كذلك في «سهل»[٢٦٨] أمام «آتوم».

وكذلك أحضر معه «بتاح-تاتنن»[٢٦٩] وقال لهما: «افصلا بين الشابَّيْنِ، واردعاهما عن أن يقفا متخاصمين كل يوم.»

وهنا أجاب «با» رب «منديس» الإله العظيم الحي، على ما قيل له: «لا تدعنا نتخذ أيَّة تدابير على غير علم تام، فَلْيُرسَل خطابٌ إلى «نيت»[٢٧٠] العظيمة أم الإله، وما تقوله سوف ننفذه.»

ولكن «التاسوع» قال لـ «با» رب «منديس»، الإله العظيم الحي: «لقد فصل بينهما سابقًا في القاعة (المسماة) «الوحيدة للعدل».»

وعندئذٍ تكلَّمَ التاسوع إلى «تحوت» أمام رب العالمين: «اكتب خطابًا إلى «نيت» العظيمة أم الإله، باسم «رب العالمين» الثور الذي يقطن عين شمس.»

فقال «تحوت»: «سأفعل ذلك حقًّا، سأفعل ذلك.»

وعندئذٍ جلس ليؤلِّف الخطاب فكتب: «ملك الوجه القبلي والوجه البحري «رع-آتوم» محبوب «تحوت» رب الأرضين وإله عين شمس، ونور الشمس الذي يضيء الأرضين بجمالها، والنيل العظيم في وفائه «رع حور أختي» — إلى «نيت» العظيمة أم الإله التي أنارت في الأزل، ليتك تعيشين في صحة وشباب غض يا روح رب العالمين الحي، الذي يقطن عين شمس وملك مصر الطيب، إن خادمك هنا: (أنا) (يعني نفسه) الذي أسهر الليل من أجل «أوزير»، وأهتم كل يوم بأحوال الأرضين.

أقسم بحياة سبك[٢٧١] الذي يعيش حقًّا إلى الأبد، «ما الذي ينبغي أن نفعله مع هذين الشابين اللذين قضَيَا ثمانين حجة أمام العدالة، ولم يكن في استطاعة أحد أن يفصل بينهما؟ فهل لكِ أن تكتبي عمَّا يجب أن نفعله؟!»

وعندئذٍ أرسلت «نيت» العظيمة وأم الإله جوابًا إلى التاسوع متضمنًا: أعطوا وظيفة «أوزير» ابنه «حور»، ولا تقترفوا تلك الفعال الذميمة التي ليست في موضعها، وإلا فإني سأغضب وستسقط السماء على الأرض، وَلْيُبَلَّغ رب العالمين الثور الذي في عين شمس: ضاعِف أملاك «ست»، وأَعْطِه «عنات» و«عشتارت»[٢٧٢] ابنتيك، وأجلس «حور» مكان والده «أوزير».

ووصل جواب «نيت» العظيمة أم الإله إلى «التاسوع» حينما كانوا جالسين في القاعة (المسماة) «حور أمام القرون»، وسلَّمَ الجواب ليد «تحوت»، وعندئذٍ تلاه «تحوت» أمام رب

العالمين، وأمام التاسوع كله، فقالوا بفم واحد: «هذه الإلهة على حق.»

فغضب رب العالمين على «حور» وقال له: «إنك ضعيف الأعضاء، ولهذا فإن الوظيفة (أي المُلْك) كبيرة عليك جدًّا، أنت أيها الغِرُّ ذو الفم الكريه الطعم!»[٢٧٣]

فغضب «أنوريس» لذلك ألف ألف مرة، وكذلك «التاسوع» كله، والمحلفون[٢٧٤] الثلاثون، ولكن الإله «بابي»[٢٧٥] قفز (من مكانه) وقال «لرع حور أختي»: «إن مقصورتك خاوية (أي لا يعبدك أحد).» فتألَّم «رع حور أختي» لهذا الجواب الذي قيل له، فاستلقى على ظهره، وحزن قلبه جد الحزن.

وعلى ذلك خرج «التاسوع» وصاحوا عاليًا في وجه الإله «بابي»، وقالوا له: «اخرج من هنا! إن الجرم الذي أتيته عظيم جدًّا.» وذهبوا إلى مآويهم.

وقد أمضى الإله العظيم يومًا مستلقيًا على ظهره في حجرته، وكان قلبه في شدة الحزن، وظل في عزلة.

وبعد فترة طويلة من الزمن جاءت «حتحور»[٢٧٦] سيدة شجرة الجميز الجنوبية ووقفت أمام والدها «رب العالمين» وكشفت عن سوأتها أمامه، فضحك الإله العظيم منها، وعلى أثر ذلك قام من مضجعه، وجلس مع التاسوع، وقال «لحور» و«ست»: «تكلَّمَا عن نفسيكما.»

فتكلم «ست» العظيم القوة وابن «نوت» وقال: أما فيما يختص بي فإني «ست» أعظم الآلهة قوة بين التاسوع، ولذلك فإني أقتل عدو «رع» يوميًّا؛ لأني (أجلس) في مقدمة «سفينة الملايين»، وليس هناك إله آخَر في قدرته أن يعمل هذا، و(لذلك) أرجو أن أتسلَّم وظيفة «أوزير»؛ وعندئذٍ قالوا (أي التاسوع): «إن «ست» بن «نوت» على حق.»

وعندئذٍ صاح «أنوريس» و«تحوت» عاليًا قائلين: «هل ستمنح تلك الوظيفة لأخ من جهة الأم، في حين أن ابنًا من العصب لا يزال موجودًا؟» وهنا تكلَّمَ «با» رب «منديس» الإله العظيم الحي قائلًا: «هل ستعطي الوظيفة هذا الغِرَّ، في حين أن «ست» أخاه الأكبر لا يزال موجودًا؟!»[٢٧٧]

وعندئذٍ صاح التاسوع صيحة عظيمة أمام «حور» (؟) وقالوا له: «ما هذه الكلمات التي فُهْتَ بها وليست جديرة بأن تُسمَع؟!»

وهنا تكلَّمَ «حور» بن «إزيس»: هذا ليس بالحسن في الواقع بأن أُظلَم أمام التاسوع، وأن تُغتصَب مني وظيفة والدي «أوزير».

وغضبَتْ «إزيس» من التاسوع وأقسمت بالله أمام التاسوع قائلةً: «بحياة والدتي الإلهة «نيت»، وبحياة «بتاح تاتنن» ذي الريش العالي وحاني قرون الآلهة، إن هذه الألفاظ ستُوضَع أمام «آتوم» الأمير الجليل قاطن عين شمس، وكذلك أمام «خبري»[٢٧٨] ساكن سفينته.» وعلى ذلك قال لها التاسوع: «لا تثوري؛ فإن الحقوق ستُعطَى مَن كان على حق، وإن كل ما قلته سيُنفَّذ.»

فاغتاظ «ست» بن «نوت» من التاسوع عندما قالوا هذه الكلمات لإزيس الجليلة أم الإله، وعندئذٍ قال لهم «ست»: سآخذ سيفي الذي يزن ٤٥٠ رطلًا وأقتل به واحدًا منكم كل يوم … ثم أقسم «ست» يمينًا لرب العالمين قائلًا: «لن أتناقش بعدُ أمام العدالة ما دامَتْ «إزيس» هنا.»

وعندئذٍ تكلَّمَ «رع حور أختي» إليهم: «اعبروا إلى «جزيرة الوسط» وافصلوا بينهما وقولوا لـ «عنتي» لا تعبر بأية امرأة في صورة إزيس.» وعلى ذلك عبر التاسوع إلى «جزيرة الوسط» وجلسوا يأكلون.

وهنا حضرت «إزيس» واقتربت من «عنتي»[٢٧٩] النوتي عندما كان جالسًا بقرب قاربه، ولكن غيَّرت نفسها في شكل امرأة عجوز، وسارت منحنية، وكانت تلبس خاتمًا من ذهب في إصبعها،

وخاطبته قائلةً: «لقد أتيتُ إليك لتعبر بي إلى «جزيرة الوسط»؛ لأني حضرت بهذا الوعاء من الدقيق إلى الصبي الصغير. لقد كان يحرس بعض الماشية في «جزيرة الوسط» منذ خمسة أيام إلى هذا اليوم، وهو جوعان.» فقال لها: لقد قيل لي لا تعبر بأية امرأة.

فقالت له: «هل ما قيل لك خاص «بإزيس»، ذلك الذي تكلمت به؟»

فقال لها: «ما الذي ستعطينه إياي حتى أعبر بك إلى «جزيرة الوسط»؟»

فقالت له «إزيس»: «سأعطيك هذا الرغيف.»

وعندئذٍ قال لها: «ماذا يكون رغيفك؟! هل ينبغي لي أن أعبر بك إلى جزيرة الوسط — على حين أنه قيل لي: لا تعبر بأية امرأة — من أجل رغيفك؟!»

وعندئذٍ قالت له: «سأعطيك الخاتم الذهبي الذي في يدي.»

فقال لها: «أعطيني الخاتم الذهبي.»

فأعطته إياه، وعلى ذلك عبر بها إلى «جزيرة الوسط»، وبينما هي سائرة تحت الأشجار، إذ نظرت فرأت التاسوع وهم جالسون يأكلون في حضرة «رب العالمين» في نزله؛ فنظر «ست» ولمحها وهي آتية من بعيد، فتلت تعويذة من سحرها وغيَّرت نفسها إلى عذراء جميلة الجسم لم يكن لها مثيل في الأرض قاطبةً، فأحبها حبًّا جمًّا.

وحينئذٍ قام «ست» بعد أن كان جالسًا يأكل مع التاسوع العظيم، وذهب ليقابلها، ولم يكن قد رآها أحد سواه، فوقف خلف شجرة وصاح بها وقال لها: «إني أريد أن أكون معك أيتها الفتاة الجميلة.»

فقالت له: «آه يا سيدي الرفيع! ما حدث لي أني كنت امرأة راعي ماشية، وقد جئتُ منه بولد، وقد مات زوجي وأصبح الصغير يرعى ماشية والده، ثم حضر غريب وجلس في حظيرتي

وخاطب ولدي قائلًا: «سأضربك وسأستولي على ماشية والدك وسأطردك.» وهكذا تكلَّمَ إليه، ورغبتي هي أن أجعلك تحميه.» وعندئذٍ قال لها «ست»: «هل ينبغي للإنسان أن يعطي الماشية الغريب، في حين أن ابن الرجل موجود هنا؟»

وعلى ذلك غيَّرَتْ «إزيس» نفسها إلى حدأة[٢٨٠] وطارت ثم حطت على قمة شجرة، ثم نادت «ست» وقالت له: «انعَ نفسك، إن فمك هو الذي قالها، وإن رأيك هو الذي قضى عليك، ما الذي تريده أكثر من ذلك؟»

فوقف باكيًا، ثم ذهب إلى المكان الذي كان فيه «رع حور أختي» وبكى، وعندئذٍ كلَّمَه «رع حور أختي»: «ماذا جرى لك ثانية؟»

فأجاب «ست» قائلًا: «هذه المرأة الشريرة قد اعتدت عليَّ كرة أخرى، وقد خدعتني مرة ثانية؛ فقد غيَّرَتْ صورتها إلى عذراء جميلة أمامي، ثم قالت لي: «ما حدث لي أني كنتُ زوجَ راعي ماشية، وقد مات بعد أن وضعتُ منه ابنًا، وأنه يرعى بعض ماشية والده، وأن غريبًا أتى إلى حظيرتي مع ابني فأعطيته طعامًا، وبعدَ مضيٍّ عدة أيام على ذلك قال الغريب لابني: «سأضربك وسأستولي على ماشية والدك وستكون ملكي.» وهكذا كلَّم ابني. وهكذا قالت لي.»

فكلَّمَه «رع حور أختي»: «وماذا قلتَ لها؟»

فقال له «ست»: «قلتُ لها: هل ستُعطَى الماشية (ياوت) الغريب، وابن الرجل لا يزال موجودًا هنا. وعلى ذلك قلت لها: يجب أن يُضرَب المتطفل على وجهه بعصا ثم يُطرَد، وينبغي أن يجلس ابنك في مكان والده — وهكذا قلت لها.»

فقال له «رع حور أختي»: «انظر، إنك حكمت على نفسك بنفسك، فماذا تريد زيادة على ذلك؟» فقال له «ست»: «مُرْ بحضور «عنتي» ليوقع عليه عقاب صارم، وسَلْهُ: لماذا سمحت لها أن تعبر؟ هكذا ينبغي أن يقال له.»

وعندئذٍ أحضر «عنتي» النوتي أمام التاسوع وقطعوا الجزء الأمامي من ساقيه، وكفر «عنتي» [٢٨١] بالذهب إلى يومنا هذا وقال في حضرة التاسوع العظيم: «لقد أصبح الذهب ممقوتًا لمدينتي.» عندئذٍ عبر التاسوع إلى الشاطئ الغربي[٢٨٢] وجلسوا على الجبل، ولكن عند المساء أرسل «رع حور أختي» وآتوم سيد الأرضين و(رب) عين شمس إلى التاسوع الرسالة التالية: ما الذي تفعلونه بمكثكم هنا إلى الآن؟ إنكم ستجعلون الشابين يمضيان كلَّ حياتيهما أمام العدالة، فعندما يصلكم خطابي يجب عليكم أن تضعوا التاج الأبيض على رأس «حور» بن «إزيس»، وينبغي أن ترفعوه على عرش والده «أوزير».

وعندئذٍ غضب «ست» غضبًا شنيعًا، ولكن التاسوع قال «لست»: لماذا أنت غاضب؟ أَلَا ينبغي أن يفعل كما قال «آتوم» رب الأرضين في عين شمس و«رع حور أختي»؟ وعلى ذلك وُضِع التاج الأبيض على رأس «حور» بن «إزيس»، فصاح «ست» عاليًا أمام التاسوع وعصف، ثم قال: «هل ستُعطَى الوظيفة أخي الصغير، وأخوه الأكبر ما زال موجودًا هنا؟»

وعندئذٍ حلف يمينًا وقال: ينبغي أن يُنزَع التاج الأبيض من رأس «حور» بن «إزيس»، وينبغي أن يُلقَى به في الماء حتى يمكنني أن أتنازع معه على وظيفة «الحكم!» (ياوت).

ووافقه على ذلك «رع حور أختي» فقال «ست» لـ «حور»: «تعالَ وليتقمص كلٌّ منَّا جاموس بحر، ودعنا نغص في الماء الذي في «الأخضر العظيم» (كناية عن البحر)[٢٨٣] ومَن يطفُ على سطح الماء قبل مضي ثلاثة أشهر لا يُعطَ هذه الوظيفة.»

وعندئذٍ غطس كلاهما في الماء وقعدت «إزيس» تبكي، وقالت: إن «ست» قد قتل ابني «حور». ثم أخذت كمية من الغزل وفتلت حبلًا، ثم أخذت رطلًا من النحاس وصهرته وصنعته سلاحًا للماء (شصًّا)، ثم ربطت فيه الحبل وألقته في الماء في المكان الذي غطس فيه «حور» و«ست»، فاشتبك الشص[٢٨٤] في جلالة ابنها «حور» فصاح «حور» عاليًا ونادى: النجدة يا

والدتي «إزيس» يا أمي! مُرِي شصَّكِ حتى ينفك عني، إني «حور» بن «إزيس». فصاحت «إزيس» عاليًا آمِرَةً شصَّها: «انفكَّ عنه، انظر، إنه ابني «حور» طفلي هو ذا.» فانفك شصُّها عنه.

وبعد ذلك ألقت به في الماء ثانيةً فاشتبك في جلالة «ست»، فصاح «ست» عاليًا وقال: ماذا فعلت ضدك يا أختي «إزيس»؟! مُرِي شصك أن ينفكَّ عني، إني أخوك من أمك يا «إزيس». فآلمها قلبها من أجله جدًّا، ثم ناداها «ست» قائلًا: «هل تحبين الغريب أكثر مما تحبين أخاك من أمك؟!» فأمرت «إزيس» شصَّها قائلة: «انفكَّ عنه، انظر، إنه أخو «إزيس» من الأم ذلك الذي عضضته.» وعلى ذلك انفكَّ الشصُّ عنه.

من أجل ذلك غضب «حور» من «إزيس» أمه وخرج، وكان وجهه وحشيًّا كأنه فهد من الوجه القبلي، وكان سكينه الذي يزن ستة عشر رطلًا في يده، فقطع[٢٨٥] رأس والدته «إزيس» ووضعه في حضنه، وصعد إلى الجبل، وعلى ذلك تقمَّصت «إزيس» تمثالًا من الظرَّان بدون رأس. ثم قال «رع حور أختي» «لتحوت»: «مَن هذه التي حضرت؟ إنها حقًّا بدون رأس.» فقال «تحوت» «لرع حور أختي»: «يا سيدي الطيب إنها «إزيس» العظيمة أم الإله، وقد قطع ابنها «حور» رأسها.» وصاح «رع حور أختي» عاليًا وقال للتاسوع: «سنسرع ونوقع عليه عقابًا صارمًا!»

وعلى ذلك صعد التاسوع إلى الجبل ليبحثوا عن «حور» بن «إزيس»، ولكن «حور» قد مضَّى الليلَ تحت شجرة «شنوشع» في إقليم[٢٨٦] الواحة، وقد وجده «ست» وقبض عليه، وألقاه على ظهره على الجبل واقتلع عينيه من مكانهما ودفنهما في الجبل، غير أن محجري عينيه أصبحا بيضتين، ثم نمَتَا فصارتا زهرةَ اللوتس[٢٨٧] وأضاءتا الأرض.

وعندئذٍ رجع «ست» وخاطَبَ «رع حور أختي» كذبًا: إني لم أجد «حور». والواقع أنه وجده.

ثم ذهبت «حتحور» سيدة شجرة الجميز الجنوبية ووجدت «حور» كما كان مضطجعًا يبكي في الصحراء، فأمسكت بغزالة وحلبتها وقالت «لحور»: «افتح عينك حتى أضع فيها هذه النقط من اللبن.» ففتح عينه ووضعت فيها نقط اللبن، ووضعت في العين اليمنى، ووضعت في اليسرى، وقالت له: «افتح عينك.» ففتح عينه، فتأملتها ووجدتها سليمة.

وعندئذٍ ذهبت إلى «رع حور أختي» لتقول: «إن «حور» قد وُجِد وقد اقتلَعَ عينَيْه «ست»، ولكني قد أعدتهما ثانيةً. انظر، إنه آتٍ.»

وعندئذٍ قال التاسوع: فَلْيُنَادَ كلٌّ من «حور» و«ست» ويُفصل بينهما. فأُحضِرَا أمام التاسوع، وتكلَّمَ رب العالمين أمام التاسوع العظيم إلى «حور» و«ست» وقال: «اذهبا واسمعا ما سأقوله لكما، وكُلَا واشْرَبَا، وبذلك ستكونان في سلام، تنحَّيَا عن المشاحنة كل يوم.»

وإذ ذاك قال «ست» «لحور»: «تعال وسنمضي يومًا سعيدًا في بيتي.»

فقال له «حور»: «بالتأكيد وعن طيب خاطر.»

ولما حلَّ المساء فُرِش (السرير) لهما واضطجع الاثنان، وفي الليل دسَّ «ست» قناته المنتشرة بين فخذي «حور»، ولكن حور وضع يديه في فخذيه وتلقَّى بها نطفة «ست»، وعندئذٍ ذهب «حور» ليقول لوالدته: «النجدة يا «إزيس» يا أمي! تعالي وانظري ما آتاه «ست» معي!»

وفتح يده وجعلها تنظر إلى نطفة «ست»، فصاحَتْ عاليًا وقبضت على سكينها وقطعت[٢٨٨] يده وألقت بها في الماء، ثم صنعت يدًا تماثلها، وأخذت قطعة مرهم حلو ووضعتها على قناة «حور» فانتصبت، ثم وضعتها في إناء وجعلت نطفة «حور» تجري إليه، وبعد ذلك ذهبت «إزيس» ومعها نطفة «حور» في الصباح إلى حديقة «ست»، وسألت بستاني «ست»: «ما العشب الذي يأكله «ست» معك؟»

فقال لها البستاني: «إنه لا يأكل أي عشب معي هنا إلا الخس.»[٢٨٩]

وعلى ذلك وضعت «إزيس» نطفة «حور» عليه (الخس)، ثم حضر «ست» حسب عادته كل يوم وأكل الخس الذي تعوَّدَ أكله فصار حاملًا من نطفة «حور»؛ وعلى ذلك ذهب «ست» ليقول لحور: «تعالَ، دعنا نسرع لنتخاصم معًا أمام العدالة.» فقال له «حور»: «بالتأكيد، وعن طيب خاطر!» وعلى ذلك ذهب الاثنان إلى المجلس ووقفا أمام التاسوع العظيم وقيل لهما: «تكلَّمَا عن شخصيكما!»

فقال «ست»: لتُعْطَ لي وظيفة الحكم، أما عن «حور» وهو الشخص الذي يقف هنا، فإني قد فعلتُ معه ما يعمل الرجل (مع المرأة). وإذ ذاك صاح التاسوع عاليًا: ابصقوا في وجه «حور». غير أن «حور» سخر منهم، وعندئذٍ أقسم «حور» يمينًا بالله قائلًا: «إن كل ما قاله «ست» كذب. مُرْ بأن تُنادَى نطفة «ست»، وسنرى من أين تجيب.» فوضع «تحوت» — رب «كلام الإله»، وكاتب الصدق للتاسوع — يده على ساعد «حور» وقال: تعالي يا نطفة «ست». فأجابته من ماء المستنقع، ثم وضع «تحوت» يده على ساعد «ست» وقال: تعالي هنا يا نطفة «حور». فقالت له (أي النطفة): «من أين ينبغي لي أن أخرج؟» فقال لها «تحوت»: «اخرجي من أذنه.» وعند ذلك قالت له: «هل أخرج من أذنه وأنا النطفة الإلهية؟!» وعلى ذلك قال لها: «اخرجي من جبينه.» فخرجت مثل قرص من الذهب على جبين «ست»، فغضب «ست» جدًّا، ومدَّ يده ليقبض على القرص الذهبي، فأخذه «تحوت» ووضعه حلية فوق رأسه[٢٩٠] هو، ولكن التاسوع قال: «إن «حور» على حق و«ست» على باطل.» وعندئذٍ غضب «ست» جدًّا وصاح صيحة عالية عندما قالوا: «إن «حور» على حق و«ست» على باطل.»

وعلى ذلك أقسم «ست» يمينًا بالله بهذه الكلمات: «لا ينبغي أن يُعطَى الوظيفة حتى ينزل معي لنصنع لنفسينا سفينتين من الحجر، ونتحارب سويًّا، والذي يتغلَّب على زميله يُعطَى وظيفة

الحكم.»

فصنع «حور» لنفسه سفينة من خشب الأرز، وغطَّاها بطبقة من الجبس، وألقى بها في الماء عند الغروب، ولم يَرَه أحد في كل العالم، ولكن رأى «ست» سفينة «حور» وظنَّ أنها من حجر، فذهَبَ إلى الجبل، وقطع قمته، وصنع لنفسه سفينة من الحجر، ذرعها مائة وثمانية وثلاثون، وفي هذا الوقت نزَلَا في سفينتيهما في حضرة التاسوع، فغرقت سفينة «ست» في الماء، فتقمَّصَ «ست» جاموس بحر، وسبَّبَ غرق سفينة «حور».

وعندئذٍ أمسك «حور» بشصٍّ ورمى به جلالة «ست»، فقال له التاسوع: «لا تَرْمِهِ به.» وإذ ذاك أخذ معدات الماء (يعني بذلك: القلع والسكان والمجداف) ووضعها في سفينة، وسار منحدرًا في النهر إلى «صا الحجر»؛ ليتحدث إلى «نيت» أم الإله فقال: «اعملي على أن يفصل بيني وبين «ست»، فمنذ ثمانين عامًا ونحن أمام العدالة، ولم يعرف أحد كيف يفصل بيننا، ومع ذلك لم يُعترَف له بالحق دوني، ولكن لألف مرة قبل ذلك كنتُ المحق الظاهر عليه كل يوم، وعلى الرغم من ذلك لم يبالِ بأي شيء قاله التاسوع. وقد تخاصمت معه في قاعة المحكمة (المسماة) «طريق العدالة»، وقد كان الحق في جانبي. وقد تخاصمت معه في قاعدة المحكمة (المسماة) «حور-ذي القرون-البارزة»، وقد كان الحق في جانبي. وقد تخاصمت معه في قاعة المحكمة (المسماة) «حقل البوص»،[٢٩١] وكان الحق في جانبي. وقد تخاصمت معه في قاعة المحكمة (المسماة) «بركة الحقل»،[٢٩٢] وقد كان الحق في جانبي.»

ثم تكلَّم التاسوع مع «شو» بن «رع»، فقال: «لقد كان «حور» بن «إزيس» على حق في كل ما قال.» ثم تكلَّم «تحوت» إلى رب العالمين قائلًا: «مُرْ بإرسال خطاب إلى «أوزير»[٢٩٣] حتى يمكنه أن يفصل بين الشابين، وعندئذٍ تكلَّم «شو» بن «رع»: «حقًّا وألف ألف مرة حقًّا ما قاله

«تحوت» للتاسوع.» والآن تكلَّم رب العالمين إلى «تحوت»: «اجلس واكتب خطابًا إلى «أوزير»، وإنَّا نريد أن نسمع ما الذي سيقوله.»

وإذ ذاك جلس «تحوت» ليؤلِّف خطابًا إلى «أوزير»، فكتب:[٢٩٤] «الثور الأسد الذي يصطاد لنفسه، والإلهتان (نبتي) الذي يحمي الآلهة وقاهر الأرضين، و«حور» الذهبي بارئ الناس في الأزل ملك الوجه القبلي والبحري، الثور الذي في عين شمس. ابن «بتاح» المنير في الأرضين (؟)، والذي يضيء بوصفه والد تاسوعه ليغذي نفسه من الذهب ومن الطرائف المقدسة — في حياة وعافية وصحة: اكتب لنا عمَّا ينبغي أن نفعله مع «حور» و«ست»، فنحن لا نريد أن نفعل شيئًا ما دمنا لسنا على علم (تام).»

وبعد ذلك وصل الجواب إلى الملك ابن «رع» غزير الفيضان ورب القوة، وهنا صاح صيحةً عاليةً عندما قرئ الجواب أمامه.

فجاوَبَ بسرعة عظيمة إلى المكان الذي كان فيه رب العالمين موجودًا مع التاسوع، فكتب: «لماذا تستعمل مع ابني «حور» القوة؟ هل كنتُ أستعمل معكم القوة! وإني أنا الذي أوجدت الشعير والحنطة، والذي أطعم الآلهة،[٢٩٥] وكذلك المخلوقات الحية بعد الآلهة، على أنه لا يوجد إله ولا آلهة في مقدوره أو مقدورها أن يفعل ذلك.»

وقد وصل جواب أوزير إلى المكان الذي فيه «رع حور أختي» أثناء جلوسه مع التاسوع في الحقل الأبيض في (بلدة) «سخا».

وقد قرئ في حضرته وفي حضرة التاسوع وقال «رع حور أختي»: أجِبْ بدلًا مني عن هذا الخطاب بغاية السرعة، واكتب إلى «أوزير» ردًّا عليه: «هَبْ أنك لم توجد بعدُ، وهَبْ أنك لم تُولَد قطُّ، فإن الشعير والحنطة كانا — لا بد — موجودين!»

وإذ ذاك وصل جواب «رب العالمين» إلى «أوزير» وقُرِئ أمامه.

وعندئذٍ أرسل إلى «رع حور أختي» ثانيةً ما يأتي: «قد يكون كل ما فعلتَ أنت يا خالق التاسوع حسنًا جدًّا حقيقة، إنه قد سمح للعدالة بذلك أن تهبط إلى العالم السفلي، ولكنْ تنبَّهْ إلى المركز الذي تجد نفسك فيه، أما الأرض التي أمكث فيها فإنها ملأى برُسُل ٍغِضاب،[٢٩٦] لا يخافون أي إله أو آلهة، فإذا تركتهم يخرجون منها فإنهم يحضرون قلب أي إنسان يرتكب خطيئة، وسيصيرون معي هنا، وإلَّا لَمْ أَبْقَ في الغرب[٢٩٧] وأنتم جميعًا في الخارج (أي في عالم الدنيا)! مَن يوجد بينكم أقوى مني؟ ولكنهم في الواقع افتروا الكذب، و«بتاح» العظيم القاطن جنوب جداره رب «عنخ تاوي» (منف) وخالق السماء، أَلَمْ يتكلَّم إلى النجوم التي فيها قائلًا: ينبغي أن تذهبي إلى الغرب كل ليلة حيث يوجد الملك «أوزير».

ولكن ينبغي أن يذهب بعد الآلهة البشر وعامة الخلق للراحة (الموت) أيضًا في المكان الذي[٢٩٨] أنت فيه؟ — هكذا قال لي (أي بتاح).»

وبعد ذلك وصل خطاب «أوزير» إلى حيث كان رب العالمين الذي كان مع التاسوع، فتسلَّم «تحوت» الجواب وقرأه أمام «رع حور أختي» والتاسوع.

فقالوا: «إن «العظيم في فيضانه ورب الطعام» محق في كل ما قاله.» وهنا قال «ست»: اذهبوا إلى «جزيرة الوسط»، وعلى ذلك يمكنني أن أتخاصم معه (هناك). وعلى ذلك ذهب إلى «جزيرة الوسط» وقد أعلن أن «حور» صاحب الحق عليه، وعندئذٍ أرسل «آتوم» رب العالمين في عين شمس إلى «إزيس» قائلًا: ائتي «بست» مكبَّلًا بالأغلال، وعلى ذلك أحضرت «إزيس» «ست» مكبَّلًا بالأغلال مثل السجين.

فقال له «آتوم»: لماذا لم تقبل أن يفصل بينكما (حسب القانون)، بل بحثت لتغتصب لنفسك وظيفة «حور»؟ فقال «ست»: ليس الأمر كذلك يا سيدي الطيب قطُّ. مُرْ بأن يُنادَى «حور» بن «أوزير»، ثم يُعطَى وظيفة والده «أوزير».

فأُحضِر «حور» بن «إزيس»، ووُضِع التاج الأبيض على رأسه، وأُجلِس على عرش والده «أوزير»، ثم قيل له: «إنك ملك مصر الطيب، وإنك الرب الطيب لكل بلاد أبد الآبدين.»

وعندئذٍ رفعت «إزيس» صوتها عاليًا أمام ابنها «حور» وقالت: «إنك الملك الطيب، وإن قلبي لفي سرور عندما تنير الأرض ببهائك.»

وإذ ذاك تكلَّمَ «بتاح» العظيم القاطن جنوب جداره، رب «عنخ-تاوي» (منف): ما الذي ينبغي أن يُعمَل لست (الآن)؟ إذ تأمل؛ فإن «حور» قد جلس في مكان والده «أوزير»، وعندئذٍ قال «رع حور أختي»: «أتمنى أن يُسمَح «لست» بن «نوت» أن يسكن معي بمثابة ابن، وكذلك ينبغي أن يرفع صوته في السماء (يرعد)، وأن يخاف الإنسان في حضرته.»

وعندئذٍ أتى مَن يبلغ «رع حور أختي» أن «حور» بن «إزيس» قد نصب حاكمًا، وعلى ذلك فرح «رع حور أختي» فرحًا شديدًا وقال للتاسوع: «أقيموا الأفراح في كل البلاد «لحور» لابن إزيس.» ولكن «إزيس» قالت: «إن «حور» قد نصب حاكمًا، والتاسوع في سرور، والسماء في حبور، وهم يأخذون أكاليل الأزهار عندما يشاهدون «حور» بن «إزيس»، وكيف أنه نصب حاكمًا عظيمًا لمصر.»

أما التاسوع فإن قلوبهم كانت فَرِحة، وكل البلاد في حبور، عندما رأوا «حور» بن «إزيس»، وكيف أنه قد أخذ وظيفة والده «أوزير» سيد «أبو صير». لقد انتهى بخير في طيبة في مكان الصدق (؟).

(٢-١٢) قصة سياحة ونـأمون

(أ) ملخص القصة

كان القارب الرسمي المشهور المسمى «وسرحات» الذي كان يستعمله «آمون» طيبة في حاجة إلى خشب من أرز لبنان، وكان ذلك سهلًا ما دامت مصر قوية، ولكن حوالي سنة ١١٠٠ق.م كانت مصر ضعيفة، فلم يكن لديها المال ولا النقود لجلب ما يلزم لإعادة بناء القارب من الخشب، ومع ذلك فقد جُمِع المال بطريق التبرع، واتفق على إرسال آمون نفسه إلى «ببلوس» «جبيل»، وقد اختير لهذا الغرض تمثال للإله يُسمَّى «آمون الطريق» وصاحبه «ونأمون» أحد موظفي المعبد (أسَن رجال القاعة)، وأخذ معه خطابات توصية «لسمندس»، و«تنتامون» لمدِّه بما يحتاج إليه في طريقه إلى ببلوس «جبيل».

وصل ونأمون إلى «تانيس» مقر «سمندس» و«تنتامون»، وفي الشهر الرابع وصل إلى «دور» في بحر سوريا العظيم، وهناك سُرِقت نقوده فشكا إلى أميرها فلم يُنصِفه، فاستمر في سياحته إلى «زاكار بعل» أمير «جبيل»، وقد قابل بعض الأهالي فسلبهم كيس نقود تعويضًا عما سُلِبَه، فغضب أمير «جبيل» لما حدث وأمر بطرده من ثغره، ولكن «ونأمون» لم ينفذ الأمر، ودار حوار بينهما حول السفر والإقامة وسبب المجيء إلى بلاده، وطلب ثمنًا لما يراد منه، وانتهى الأمر بإرسال سبع قطع من الخشب إلى مصر، وأرسل «سمندس» «وتنتامون» هدايا كثيرة فرح لها الأمير، وحشد جمعًا من الرجال والثيران لإعداد الخشب المطلوب، وبعد أن جُهِّزَ الخشب على شاطئ البحر جاءت سفن من «زاكار» للقبض على «ونأمون» وسجنه، وللحيلولة دون سفر الخشب إلى مصر، فأبى الأمير أن يُقبَض عليه في أرضه وأرسله بعيدًا عن بلاده، فساقت الريح سفينته إلى أرض «إرسا» وخرج أهلها ليقتلوه، فلجأ إلى ملكتها، ثم كُسِرت البردية بعد ذلك، فلم يُعلَم كيف نجا «ونأمون» من أخطاره؟ وهل حقَّقَ الغرض من رحلته أم رجع كما ذهَبَ.

(ب) دراسة القصة

هذه القصة تُعَدُّ من أدب الدولة الحديثة الراقي، وإذا قستها بغيرها من قصص الدولة الوسطى كقصة «سنوهيت» الراقية المغزى والتعبير، أو قصة «الغريق» السهلة التناول العذبة الأسلوب، وجدت أهم ميزة لقصتنا هذه الوصفَ الحيَّ الذي تضعه أمامنا، والحوار الحاد الممتع الذي تعرضه على أسماعنا، وأهم من هذا وذاك البيئة التي أظهرها القاص فيها، والجو الذي نقل القارئ إليه، والنواحي النفسية التي تناولها؛ كإبراز أخلاق «ونأمون» أهم شخصية فيها، وبيان أن الأسرة العشرين التي انحطت قوتها أعجز من أن تجلب لمصر ما اعتادت الأسر القوية أن تفعله؛ فلم يكن في مقدور حاكمها أن يصدر أمرًا في مصر لينفذ في لبنان. ولقد سرد الكاتب قصته بطريقة جميلة حتى لترسخ في ذهنك صورة أمير «جبيل» في حجرته العليا، وظهره مستند إلى شرفتها، وأمواج البحر السوري تتلاطم من خلفه، وحتى تشارك ونأمون أساه لهروب أحد أتباعه بما كان عنده من ذهب وفضة، وحتى لترثى لخذلانه عندما طُولِبَ بإبراز ما يتسلح به من توصية أو عدة، وحتى لتبكي معه سوءَ طالِعِه عندما رأى الطيور تنزح للمرة الثانية إلى مصر وهو على حاله من الخيبة والفشل في سوريا مقيم.

وقد وضع الكاتب أمام أعيننا صورة مدهشة لتدهور الدولة المصرية وسقوطها، مشربة باعتقاد رقيق مؤثر في قوة آمون، وقدرته على انتشالها من وهدتها وإعادتها لما كانت عليه في غابر الأزمان.

وهذه القصة جديرة بأن تُوضَع جنبًا لجنب مع بعض أحسن القصص التي وردت في التوراة، مثل قصة «يونس ورسالته» أو «قصة راعوت في وسط القمح»، مع فارق واحد هو أن قصتنا قد سبقت كلًّا منهما بنحو خمسة قرون، كما أنها تقدِّم لنا صورةً حيةً عن السياحة وعن التجارة في شرقي البحر الأبيض المتوسط، وتساعدنا على تصور ذلك العالم على حقيقته كما كان، ذلك العالم الذي لا تزال صورته نتمتع بها في قصة «الأوديسا» بأسلوبها البسيط الخالي من

المحسنات العميقة القديمة، هذا إلى أن القاص يستميلنا أكثر من هذا بنكاته الدقيقة التي تجري على لسانه من غير تكلُّف أو اصطناع.

(ج) المصادر

عثَرَ على هذه البردية الأستاذُ جولنيشف الروسي، وهي الآن في موسكو، وقد ترجمها وعلَّقَ عليها سنة ١٨٩٩ وأهم مَن ترجمها أو كتب عنها:

(1) Erman, Zeitschrift für Aegyptische Sprache, XXXVIII, P.P. 1. f.f.

(2) Erman, “The Literature of the Ancient Egyptians”, (translated by Blackman), P. 174.

(3) Eric Peet, “A comparative study of the Literature of Egypt, Palestine and Mesopotamia”, P. 47. f.f.

(4) Maspero, “Popular Stories of Ancient Egypt”, P. 202.

(5) Wiedmann, Altagptische Sagen und Märchen, (Leipzig, 1906). P.P. 94–113.

(6) Breasted, “Ancient Records of Egypt”, Vol. IV, P.P. 274 f.f.

(د) متن القصة

في اليوم السادس عشر من الشهر الثالث من فصل الصيف سنة خمس، سافَرَ في هذا اليوم «ونأمون» أكبر رجال قاعة إدارة «آمون» الكرنك؛ ليُحضِر الخشب للسفينة الكبرى المعظمة الخاصة «بأمون رع» ملك الآلهة، وهي التي على النهر وتُسمَّى «وسرحات آمون». ففي اليوم

الذي وصلت فيه إلى «تانيس» مقر «سمندس» و«تنتامون» أعطيتهما خطابات «آمون رع» ملك الآلهة، وقد قُرِئت في حضرتيهما وقالَا: «نعم، سنفعل كما قال سيدنا «آمون رع» ملك الآلهة، وقد مكثت إلى الشهر الرابع من الصيف في «تانيس»»، ثم أرسلني «سمندس» و«تنتانون» مع قائد المركب «منجبت»،[٢٩٩] وفي اليوم الأول من الشهر الرابع من فصل الصيف، نزلت في بحر سوريا العظيم، وقد وصلت إلى «دور» وهي مدينة «للزكار»،[٣٠٠] وقد أمر «بدر» أميرها بإحضار (؟) رغيف لي وإناء من النبيذ وساق ثور،[٣٠١] وقد ولى الأدبار أحد رجال سفينتي سارقًا أوانيَ من الذهب ... يبلغ مقدارها خمسة دبن،[٣٠٢] وأوانيَ فضة أربعًا يبلغ مقدارها عشرين دبنًا، وفضة في كيس يبلغ مقدارها ١١ دبنًا، فمجموع ما سُرِق خمسة دبن من الذهب وواحد وثلاثون دبنًا من الفضة، وكان في الكيس قِطَع من الفضة كانت تُستعمَل للتعامل زيادة على الأواني (هذا مبلغ عظيم كان لا بد أن يستعمل معظمه لشراء الخشب).

وفي الصباح نفسه (؟) استيقظت وذهبت إلى حيث كان الأمير، وقلت له: «لقد سُرِقت في ثغرك، ولما كنتَ أمير هذه الأرض وشرطيها فابحث عن نقودي، وفي الحق أن المال ملك «آمون رع» ملك الآلهة ورب الممالك، وهو ملك سمندس وملك «حرحور» سيدي، وملك عظماء مصر الآخرين،[٣٠٣] ومن ملكك أنت ومن مال «ورت» ملك «مكمر» و«زاكار بعل» أمير «جبيل».[٣٠٤] فقال لي: أأنت مؤذٍ أم مسالمٌ؟[٣٠٥] انظر، أنا لا أفهم شيئًا في هذا الموضوع الذي حدَّثتني عنه؛ لأنه لو كان اللص الذي دخل السفينة وسرق المال من بلادي، حينئذٍ كنت أدفعه لك ثانيةً من خزانتي إلى أن يُعرَف اللص المذكور، ولكن الذي سرقك هو منك وتابع لسفينتك، فانتظر هنا بضعة أيام حتى أبحث عنه.

وقضيت تسعة أيام مقيمًا في ثغره، ثم ذهبت إليه وقلت: «انظر، إنك لم تجد نقودي (فسأقلع أنا) مع القائد ومَن سيسافرون.»

وفي الكسر الكبير الذي في الورقة البردية في هذا المكان يمكن أن نقدِّر أن عبارة كالآتية قد قِيلت، قامت مناقشة حادة بين «ونأمون» وأمير «دور»؛ إذ قال له: «الزم الصمت.» وقد أساء له إنسان النصيحة بأن يعمل مثل غيره على أن يسترد ماله ثانية بنفسه — أي يذهبون ليبحثوا عن سارقهم — ومن ثَمَّ أتى إلى «صور».

وأتيت في الفجر من صور (واستمر في سياحته إلى زاكار بعل أمير «جبيل»، ولسوء الطالع قابَلَ بعض أهالي «زاكار» في خلال سياحته وظنَّ أنه محقٌّ في أن يعوِّض على نفسه السرقة التي كان هو فريستها في مدينتهم من متاعهم، فسلب منهم كيسًا) (؟) وَجَدْتُ فيه ثلاثين دبنًا من الفضة، فأخذتها، فاشتكوا ولكنه أجاب: (حقًّا إنها) نقودكم غير أنها ستبقى معي إلى أن توجد نقودي. وعلى ذلك أوجد لنفسه أعداءً من أهالي «زاكار» ثم ذهبوا، ووصل هو إلى ثغر «جبيل»، وهناك بحث لنفسه عن مكان أمين: وقد خبَّأت فيه «آمون الطريق» ووضعت فيه متاعه،[٣٠٦] ولكن أمير «جبيل» لم يُظهِر ارتياحه لزيارة رجل لم يكن على وئام مع «الزاكاريين»، فأرسل إليَّ أمير جبيل وقال: «اخرج من ثغري.» (لم يَبْقَ من جواب «ونأمون» على هذا الطلب إلا الكلمات الأخيرة): «إذا كان هنا أناس على سفر، فدَعْهم يأخذوني إلى مصر.» (والظاهر أن «ونأمون» نفسه كان مستعدًّا تمامًا ليتخلى عن هذه الرحلة الفاشلة، غير أنه لم يكن لديه أي فرصة ليسافر آمنًا إلى وطنه إذا لم يضمن له أمير «جبيل» مكانًا أمينًا على ظهر مركب مسافر إلى مصر. ثم يستمر المتن) وأمضيت تسعة عشر يومًا في ثغره، ولكنه استمر يبعث إليَّ كل يوم قائلًا: «اخرج من ثغري.» وبينما كان يُقدِّم القرابين لآلهته أصاب الإله أحد شبانه النبلاء،[٣٠٧] فصار مخبولًا وقال: «احضر الإله هنا؟ أحضر الرسول الذي معه، إنه آمون الذي أرسله، إنه هو الذي جعله[٣٠٨] يأتي.»

وهكذا استمر الشاب المخبول في خبله طول الليل، في حين أني وجدت سفينة مقلعة إلى مصر، وكنت أنقل كل ما عندي على ظهرها، وكنت أرقب الظلام حتى إذا أسدل ستاره أنزل الإله حتى

لا تراه عين أخرى، وأتى إليَّ رئيس الثغر قائلًا: «امكث إلى الصباح تحت تصرُّف الأمير.» فقلت له: ألستَ الذي لا يفتأ يأتيني كل يوم قائلًا: اخرج من ثغري، ولم تقل قطُّ «ابقَ»؟ والآن سيدع الأمير المركب التي وجدتها تسافر، ثم تأتي أنت إليَّ ثانيةً قائلًا: «فَلْتذهب»؟

فذهب وأخبر الأمير بذلك، ولكن الأمير أرسل إلى قائد المركب قائلًا: «امكث إلى الصباح تحت تصرُّف الأمير.»

ولما جاء الصباح أرسل إليَّ وأحضرني أمامه والإله بقي في ... الذي كان فيه على ساحل البحر، فوجدته قاعدًا في حجرته العليا، وظهره متَّكِئ على النافذة، وأمواج بحر سوريا العظيم تتلاطم من خلفه، فقلت له: «رحمة (؟) آمون!» فقال لي: ما المدة التي قضيتها منذ أتيت من مقر آمون[٣٠٩] إلى الآن؟ فقلت له: خمسة شهور كاملة إلى الآن ... فقال لي: «أحقًّا تتكلم الصدق؟ وأين إذًا مكتوب رئيس كهنة آمون الذي يجب أن يكون معك.» فقلت له: أعطيتها «سمندس» و«تنتامون». فغضب جدًّا وقال لي: «انظر، ليس لديك كتابة ولا خطاب، فأين على (أقل) تقدير سفينة خشب الأرز التي أعطاها إياك «سمندس»؟ وأين نواتيها السوريون؟ حقًّا إنه لم يسلمك لربان هذه السفينة لتُذبَح وتُلقَى في البحر، فمن أين إذًا أتوا؟ بالإله، وأنت أخبرني من أين أتوا بك؟» وهكذا تكلَّمَ إليَّ، وقد قلت له: «ولكنها سفينة مصرية ونواتيها مصريون يسيحون «لسمندس»، وليس لديه ملاحون سوريون.»[٣١٠] فقال لي: «ولكن يوجد في ثغري عشرون سفينة مشتركة مع«سمندس»، وفي «صيدا» التي مررتُ بها سائحًا أيضًا خمسون مركبًا مشتركة مع «بركات أيل»،[٣١١] وهي تسافر إلى بيته.»

وقد كنتُ صامتًا في تلك اللحظة الرهيبة، فأجاب قائلًا: «لأي داعٍ أتيتَ إلى هنا؟» فقلتُ له: «أتيتُ من أجل الخشب اللازم للسفينة العظيمة الشأن مِلك «آمون» ملك الآلهة، وقد كان والدك وجدك معتادين أن يفعَلَا ذلك، وأنت ستفعل كما فعَلَا أيضًا.»

وهكذا تكلَّمتُ معه، فقال لي: «حقيقة قد فعَلَا ذلك، وإذا أعطيتني شيئًا مقابل تنفيذ هذه الرغبة فعلتها. وفي الحق إن قومي قد أنجزوا هذا الأمر، ولكن الفرعون قد أرسل ستَّ مراكب هنا محمَّلة بسلع مصر، وقد أفرغوها في مخازنهم، فعليك إذًا أن تحضر لي أنت بعض الشيء أيضًا.» ثم ذهب وأحضر سجلات والده اليومية وأمر بقراءتها بصوت عالٍ في حضرتي، وقد وجد أن ما دخل في سجله يبلغ ألف دبن من كل أنواع الفضة.[٣١٢]

وقال لي: «إذا كان حاكم مصر سيد أملاكي، وكنتُ أنا خادمه أيضًا، لم يكن لزامًا عليه أن يرسل فضة ولا ذهبًا حينما يقول «نفذ أمر آمون» على أنها لم تكن هدية ملك،[٣١٣] التي أعطوها والدي، وأنا لذلك لستُ خادمك ولا خادم مَن أرسلك،[٣١٤] وإذا بعثتُ إلى لبنان، فإن السماء تفتح وتكون الأشجار ملقاة هنا على شاطئ البحر.[٣١٥] أعطني القلاع التي أحضرتها معك لتقلع بسفنك التي تعود بالخشب إلى مصر. أعطني كذلك الحبال التي أحضرتها معك لتربط بها بإحكام.[٣١٦] الـ … شجر الذي سأقطعه حتى أصنعها … لك … لأنك من غير كل هذا لا يمكنك أن تسافر بالخشب، وإذا صنعتها لك قلاعًا لسفنك فإن أطرافها ستكون ثقيلة أكثر من اللازم وتتكسر إلى قِطَع، وتهلك أنت في وسط البحر. وتأمل إن آمون يرعد في السماء ويجعل «سوتخ»[٣١٧] يثور (؟) في وقته؛ لأن آمون[٣١٨] قد أَمَدَّ كل البلاد، وقد أمدهم كما أَمَدَّ أرض مصر التي أتيت منها فقد أمدها أولًا؛ لأن الشغل الدقيق قد أتى منها إلى مقري، وكذلك التعليم أتى منها ليصل إلى مقري، فما هذه السياحات الصبيانية التي جعلوك تقوم بها!» فقلتُ له: صه. إنها ليست سياحات صبيانية مطلقًا التي أقوم بها، فليست هناك سفينة على الماء إلا وهي ملك لآمون، فإنه هو البحر، ولبنان ملكه، وهي التي تقول عنها «إنها ملكي»؛ لأنها مزرعة للسفينة «وسرحات آمون» رب كل سفينة. وفي الحق هكذا تكلَّمَ «آمون رع» ملك الآلهة قائلًا «لحارحور» سيدي: أرسلني[٣١٩] واجعلني أسافر مع هذا الإله العظيم، ولكن تأمل، لقد جعلت هذا الإله العظيم يمضي ٢٩ يومًا، وبعد ذلك إلى ثغرك وأنت تعلم تمامًا أنه كان هنا! وهو لا يزال على ما كان عليه أبديًّا، وأنت

تقف الآن وتريد أن تساوم عن لبنان مع ربها آمون. أما من جهة قولك إن الملوك السالفين أرسلوا فضة وذهبًا، فإذا كانوا قد قدموا الحياة والصحة فإنهم كانوا في غنى عن إرسال هذه الأشياء، وقد فضَّلوا أن يرسلوا إلى آبائك هذه الأشياء بدلًا من الحياة والصحة.[٣٢٠]

والآن من جهة «آمون رع» ملك الآلهة، فإنه هو رب الحياة والصحة، وقد كان رب آبائك الذين قضوا مدة حياتهم يقدِّمون القربان لآمون، وأنت كذلك خادم لآمون، والآن إذا قلت: نعم، سأفعلها ونفذت أمره، فإنك ستعيش وتفلح وتكون في صحة جيدة، وستكون محسنًا إلى كل الأرض وإلى قومك، ولكن لا تأخذ شرها لنفسك أي شيء خاص «بآمون رع» ملك الآلهة، حقًّا إن السبع يحب متاعه!

دَعْ كاتبك يحضر إليَّ حتى أرسله إلى «سمندس» و«تنتامون» قائدي الأرض، وهما اللذان قد منحهما آمون الجزء الشمالي من أرضه، وسيرسلان كل ما يحتاج إليه، وسأكتب أنا إليهما قائلًا: أرسلها (أي الأشياء) حتى أعود للجنوب وأرسل لك كل ما أنا مدين به لك.» وهكذا تحدثت له. وقد سلم خطابي إلى يد رسوله، ثم حمل خشب قعر المركب والمقدمة والمؤخرة وكذلك أربع قطع أخرى، أي إن المجموع كان سبع قطع، وأمر بإرسالها إلى مصر، وقد ذهب رسوله إلى مصر وعاد إليَّ في سوريا في أول شهر من الشتاء، وأرسل إلى «سمندس» و«تنتامون».

	عدد
أباريق وإناء كاكمنت	٤ ذهب
أباريق	٥ فضة
ملابس من الكتان الملكي	عشر قطع

	عدد
كتان جيد من الوجه القبلي	١٠ خرد
بردي جميل	٥٠٠ خرد
جلود ثيران	٥٠٠ خرد
حبال	٥٠٠ خرد
جولق عدس	٢٠ خردًا
سلة سمك	٣٠ خردًا

وكذلك أحضروا لي:[٣٢١] ملابس من كتان الوجه القبلي الجيدة: ٥ قطع، وكتانًا جديدًا من الوجه القبلي: ٥ خرد.

	عدد
عدس	١ جولق
سمك	٥ سلات

ففرح الأمير وخصَّص ثلاثمائة رجل وثلاثمائة ثور على رأسها ملاحظون لقطع الأخشاب، وقد قطعوها وبقيت ملقاة طول الشتاء، وفي الشهر الثالث من الصيف جُرَّت إلى شاطئ البحر.

وأتى الأمير ووقف عليها (أي الأشجار المقطوعة)، وأرسل إليَّ قائلًا: تعالَ. ولما أُحضرت بالقرب منه سقط ظل مروحته عليَّ، ولكن بنأمون[٣٢٢] ساقيه وضع نفسه بيني وبينه قائلًا: «إن ظل فرعون ربك قد سقط عليك.» وقد غضب (الأمير) قائلًا: «دعه وهذه.» وأُحضِرتُ بالقرب منه وأجاب قائلًا لي: «تأمل، إن الأمر الذي قد أدَّاه آبائي في الزمن الماضي قد أدَّيته أيضًا، وإن كنت أنت من ناحيتك لم تفعل لي ما فعله آباؤك لي. انظر، إن آخِر قطعة من خشبك قد وصلت الآن، وها هي قد كُوِّمت، والآن افعل كما أريد وتعالَ لشحنها؛ لأنها في الحقيقة أعطيت لك، ولكن لا تأتِ لتشاهد أهوال البحر،[٣٢٣] فإذا كنتَ ستشاهد هول البحر فشاهِدْ هولي أيضًا، وفي الحق لم أفعل معك ما فعلوه مع رسل «خاموس»[٣٢٤] حينما قضوا ١٧ سنة في هذه الأرض، وقد ماتوا حيث كانوا.

ثم قال لساقيه: «خذه وأَرِه قبورهم حيث يرقدون.» وقلت له: «لا تُرني إياها! أما عن «خاموس» فإنه أرسل لك رجالًا رسلًا وكان هو نفسه رجلًا، وأنا ليس معي أحد من رسله، ومع ذلك تقول: «اذهب وانظر إلى زملائك»![٣٢٥] ألا يحسن بك أن تفرح وتأمر بعمل لوح تذكاري لك وتنقش عليه «آمون رع» الإله أرسل إليَّ رسوله «آمون الطريق»، ومعه «ونأمون» رسوله من البشر من أجل الخشب اللازم لسفينة «آمون رع» ملك الآلهة العظيمة الفاخرة، وإني قطعتها وشحنتها وأرسلتها في سفني المجهزة بملاحي، وقد أرسلتهم إلى مصر ليلتمسوا لي حياة عشرة آلاف سنة من آمون، أكثر مما هو مقدَّر لي وسيحقِّق ذلك. وحينئذٍ عندما يأتي رسول من أرض مصر في الزمن المقبل عالم بالكتابة ويقرأ اسمك على اللوحة التذكارية، فإنه سيقرب لك ماءً في الغرب مثل الآلهة[٣٢٦] الذين هنا، فقال: «إنها لشاهدة عظمى على ما قد قصصته علي.» فقلت له: أما من جهة الأشياء العدة التي قلتها لي، فإني لو وصلت إلى مقر كهنة آمون، ونظر إلى ما وصيت[٣٢٧] به، فحينئذٍ سيجيبك إلى هذه التوصية بعض الشيء.[٣٢٨] وذهبت إلى ساحل البحر حيث كان الخشب محزومًا، ولمحت إحدى عشرة سفينة

تقترب في البحر وهي من متاع «زاكار»، وقد أتت بالأمر: خذوه سجينًا، ولا تسمحوا لسفينة له أن تذهب إلى أرض مصر. وعند ذلك قعدت وبكيت، ثم أتى كاتب خطابات الأمير إليَّ وقال لي: «ماذا يؤلمك؟» فقلت له: «لا ريب أنك ترى الطيور التي تذهب إلى مصر للمرة الثانية.[٣٢٩] انظر إليها! إنها تذهب إلى البرك الباردة، ولكن إلى أي وقت سأُترَك هنا؟ ولا شك أنك ترى هؤلاء الذين أتوا ثانيةً ليأخذوني سجينًا.» فذهب وأخبر الأمير بذلك، فأخذ الأمير يبكي بسبب الأخبار المحزنة جدًّا التي قيلت له، وأرسل إلى كاتب خطاباته، وأحضر إليَّ قدحين من النبيذ وكبشًا، وزيادة على ذلك أحضر لي «تنتنوت» وهي مغنية مصرية كانت معه قائلًا لها: «غني له ولا تجعلي قلبه تسكنه الهموم.» وأرسل إليَّ قائلًا: «كل واشرب، ولا تجعل قلبك مسكنًا للهموم، وستسمع كل ما أقوله غدًا.» وعند الصباح أمر ... ينادى ووقف في وسطهم، وقال لرجال «زاكار»: «ما معنى مجيئكم هذا؟» فقالوا له: «قد أتينا وبحثنا وراء السفن التي يجب أن تُحطَّم، وهي التي ترسلها إلى مصر مع ... زملائنا.» فقال لهم: «أنا لا يمكنني أن آخذ رسول آمون سجينًا في أرضي، دعوني أرسله بعيدًا، وعندئذٍ اقتفوا أثرَه لتأخذوه سجينًا (يظهر أن هذا كان نص القانون الدولي وقتئذٍ).

فوضعني على ظهر السفينة وأرسلني بعيدًا عنه ... إلى ثغر البحر، فساقتني الريح إلى أرض «إرسا»،[٣٣٠] وخرج أهل المدينة ليقتلوني وقد ساقوني بينهم إلى مكان سكن «حتب» ملكة المدينة، وقد وجدتها حينما كانت آتية من أحد بيوتها داخلة إلى بيت آخَر لها،[٣٣١] وقد حييتها وقلت للناس الذين وقفوا بجانبها: «يوجد من غير شك واحد من بينكم يفهم المصرية.» فقال أحدهم: «أنا أفهمها.» فقلت له: «قُلْ لسيدتي: لقد سمعتُ أنه يقال من أول طيبة حتى إلى مكان «آمون»، إن الظلم يفعل في كل مدينة، ولكن الحق يفعل في أرض «إرسا»، والآن كذلك يفعل الظلم كل يوم هنا.» فقالت لي: «ولكن ما الذي تعنيه بما تقول؟» فقلتُ لها: «إذا كان البحر قد هاج وساقتني الريح إلى الأرض التي تسكنينها، فإنك لن تسمحي لهم أن يقبضوا عليَّ ليذبحوني،

مع العلم بأني رسول «آمون»، فتدبَّرِي الأمر جيدًا، إني فرد سيجري البحث عنه باستمرار.[٣٣٢] أما من جهة «ملاحي» أمير «جبيل» الذين يبحثون عنهم ليقتلوهم، فإن سيدهم لو عثر على عشرة من ملاحيك كذلك سيقتلهم.» وعلى ذلك أمرت بإحضار الناس فأحضروا أمامها وقالت لي: «ارقد ونم.» وهنا كُسِرت ورقة البردي، ولا نعلم كيف هرب «ونأمون» من هذه الأخطار الجديدة، وهل أفلح في إحضار الخشب إلى مصر؟ وهل دفع ثمنه؟ وهل «آمون الطريق» الذي لم يستفد منه شيئًا قطُّ في السياحة رجع سالمًا ثانيةً إلى الكرنك،[٣٣٣] أو لم يرجع؟

---

[١] ما ترجمته — حسب الاستعمال — «بالأفق» كان في الحالة الأولى مسكن إله الشمس في السماء، ثم استُعْمِلَ للأمكنة التي تشرق منها الشمس وتغرب فيها، ولما كان الملك هو ممثِّل إله الشمس، فإن قصره وقبره كان كلٌّ منهما يُسمَّى «الأفق»، والمقصود هنا هو القبر.

[٢] يسبح إلى السماء، ويصير ثانية جزءًا من الشمس التي خرج منها.

[٣] عند مدخل القصر.

[٤] قوم من اللوبيين في غربي الدلتا، كانوا ينهبونها بانتظام.

[٥] قوم آخَرون من اللوبيين.

[٦] الملك الجديد «سنوسرت الأول».

[٧] أي من حزب آخَر؛ إذ كانت هناك مؤامرة لوضع ملك آخَر يناهض «سنوسرت»، وقد مَرَّ «سنوهيت» على هذه المسألة دون أن يذكرها بوضوح.

الحِكَم والتأملات

مقدمة

تدل نتيجة البحوث التي قام بها علماء الآثار في تاريخ أدب العالم القديم أن مصر كان لها قصَب السبق في الإنتاج الأدبي في باب الحكم والتأملات، فإن «بابل» و«آشور» لم تتركَا شيئًا يستحق الذكر نسبيًّا في هذا المضمار.

أما فلسطين جارة مصر فقد أنتجت فيه إنتاجًا عظيمًا، وبخاصة في باب الأمثال والتعاليم الدينية وحِكَم سليمان و«المزامير» وكتاب «أيوب»، وغيرها مما نجده في التوراة من هذا النوع من الأدب.

والفكرة السائدة التي علقت بأذهان معظم المتعلمين أن الحِكَم المصرية والتعاليم التي وصلت إلينا عن المصريين، كان الغرض الذي يرمي إليه الكاتب من تدوينها هو أن يكون موظفًا كفئًا، وأن يؤدي عمله على الوجه الأكمل، ويكون في مقدوره أن يكتب عن عمله تقريرًا ليساعده على الظهور في مجال الحياة وحسب. ولكن مَن يمعن في النظر إلى كتب الحكمة المصرية يجد أن الكاتب المصري لم يكن غرضه الوظيفة أو جمع ثروة في الحياة فقط، بل كان يرمي إلى معانٍ أسمى من ذلك، ومقاصد أنبل تخلِّد ذكره، وترفع من شأن قومه؛ لأنه كان يرمي إلى أن يفتح أمامهم أبوابًا لدرس الحياة في نواحيها المختلفة، ويرشد المرء إلى الطريقة التي يمكنه بها أن يتحدَّث مع غيره، ويجيب عما يُسأَل عنه بأجوبة سديدة قولًا وكتابةً، مما يمهِّد له سُبَل الفلاح في الحياة الدنيا، ويجعله مقبولًا في الآخرة.

ولقد كان الكاتب يشعر بأنه إذا أجاد في نشر تعاليمه القيمة خُلِّد اسمه، وعاشت حكمته على مرِّ الأيام والدهور، من أجل ذلك جرَتِ العادة أن يختار المؤلف أعزَّ الناس إليه ليضع أمامه تعاليمه وحِكَمه حتى يحفظها ويعمل بها ويتوارثها نسله، ولكنه من جهة أخرى كان ينظر إلى مؤلفاته

الأدبية نظرة مَن يريد لها البقاء، فكان يعطيها عين العناية، ويبذل في تأليفها جهد الطاقة؛ لأنها عنده أرفع مكانةً من كل أغراض الحياة، وأبقى من البروج المشيدة من «النحاس والحديد»؛ لأن كل صروح الحياة في نظره عرَضٌ زائل، أما كتاباته وتآليفه الأدبية فهي التي ستبقى بعد زوال كل شيء، وحتى بعد زوال نسله.

وقد طالعتنا الكشوف الحديثة بفقرة من كتاب على بردية من عهد الرعامسة، تضع أمامنا صورة ناطقة تغيِّر الاعتقاد القديم عن الكاتب المصري ومراميه، وفي الوقت نفسه تذكر لنا بعض أسماء الكتَّاب الذين خَلَّدت كتاباتُهم أسماءَهم؛ فمنهم مَن نعرفهم ومنهم مَن نجهلهم تمام الجهل، مما يدل على قلة ما وصل إلينا عن الأدب المصري.

وسنورد هذه الفقرة هنا بدون تعليق مفصَّل، ونترك الحكم فيها للقارئ ليرى كيف أن المصري يقدِّر الأدب للأدب، ولتكون بمثابة مقدمة لهذا الفصل، وهي:

> ولكن إذا فعلتَ هذه الأشياء فإنك تصبح كاتبًا حاذقًا، والكتَّاب المثقفون الذين يرجع عهدهم إلى عهد ورثة الآلهة، وهم الذين تنبَّئوا بالمستقبل؛ قد بقيت أسماؤهم خالدة، رغم أنهم تواروا عنَّا لانتهاء أجلهم، ورغم أن كل ذريتهم قد أصبحت نَسْيًا منسيًّا، على أنهم في ذلك لم يقيموا أهرامًا من نحاس، ولا صفائح قبور من حديد، ولم يكن في مقدورهم أن يخلقوا وَرَثَة من الأولاد الذين ينبغي لهم أن يذكروا أسماءهم، بل جعلوا لأنفسهم خلفاء من بعدهم من الكتب والتعاليم التي ألَّفوها، فقد نصبوا إضمامات البردي التي كتبوها لتكون كاهنًا مرتلًا، وألواح الكتابة لتكون ابنًا بارًّا، وكتب التعاليم لتكون أهرامهم، والقلم ابنهم، ووجه الحجر (الذي يكتب عليه) زوجتهم (؟) وقد جعلوا الناس صغيرهم وكبيرهم أطفالًا لهم؛ لأن الكاتب رئيسهم، وقد أُقِيم لهم (بوابات) ومقابر (؟)، غير أن مصيرها كان إلى الدمار، وكذلك طُمِست صفائح قبورهم بالأقذار، ونُسِيت

وانقرض كهنتها، ولكن أسماءهم كانت تذكر عن مؤلفاتهم التي وضعوها، وبقدر ما كانت عليه من الإتقان كان يكتب لذِكْر واضعها البقاء والخلود؛ فكُنْ كاتبًا، وضَعْ ذلك في قلبك، وبذلك يمكث اسمك، وإن مؤلَّفًا واحدًا لأعظم فائدةً من لوحة قبر منحوتة، ومن جدران قبر (؟) أُحكِم تأسيسها؛ لأن هذا يكون لك بمثابة مقاصير وأهرام في قلوب مَن ينطقون باسمه (الكتاب). حقًّا إنه من الخير أن يكون اسم الإنسان في فم الناس في الجبَّانة، فالرجل يموت وجثته تصير جيفة قَذِرة، وكذلك تصبح كل ذريته ترابًا، ولكن الكتب (التي يؤلِّفها) تجعله مذكورًا في فم مَن يُلقِيها. وإن كتابًا واحدًا لأكثر نفعًا من بيت مؤسس، ومن قبر في الغرب، وإنه لأجمل من قصر منيف، ومن نصب تذكاري (أقيم له) في معبد. فهل يوجد إنسان مثل «حردادف»؟ وهل يوجد آخَر مثل «أمحوتب»؟ على أنه ليس في عصرنا واحد مثل «نفري» و«خيتي»، وهو الرئيس بينهما، وإني أذكرك باسمين: «بتاح-أم-تحوتي» و«خعخبر-رع-سنب»، وهل يوجد مَن يماثِل «بتاح حتب» أو «كارس»؟ وهؤلاء هم الحكماء الذين تنبَّئوا بالمستقبل، وقد وقع فعلًا ما تفوَّهوا به، وقد وُجِد كلام مدوَّن في كتبهم، وقد منحوا أولاد غيرهم ورثة لهم، كأنهم أولادهم الحقيقيون، وقد اختفوا ولكن سحرهم قد امتد تأثيره إلى كل الناس (؟) الذين قرءوا تعاليمهم، ولقد ذهبوا ونُسِي اسمهم، ولكن الكتابة جعلت المرء يذكرهم.

ولا بد أن أول ما يلاحظ القارئ في هذه الفقرة أن كاتبها يتمدَّح بفضل المؤلفين، وقد أسعدنا الحظ هنا أن يذكر لنا ثمانيةً من عظماء الكتَّاب نعرف بعضهم بأسمائهم، وبعضهم بتآليفهم، والبعض الآخَر نجهله تمامًا. على أن معظم مَن نعرفهم يرجع عهدهم إلى الدولة القديمة، مما يدل على أنها كانت ينبوع الأدب في ذلك العهد كما ذكرنا ذلك من قبلُ، فنعرف «حردادف» الذي ذكره الكاتب أولًا، وقد عاش في عهد الملك «خوفو»، وقد جاء ذكره في قصة «خوفو»

والسَّحَرة، وكذلك جاء ذِكْره في قصيدة الضارب على العود، وكذلك نعرف «أمحوتب» الحكيم المشهور الذي عاصَرَ الملك «زوسر» أحد ملوك الأسرة الثالثة. أما «نفري» فمجهول لنا تمامًا، وأما «خيتي» فقد برهَنَ الأستاذ «جاردنر» على أنه مؤلِّف التعاليم التي نُسِبت إلى «دواوف» خطأً، وتعاليم الملك أمنمحات الأول. ومن المدهش أن يذكر لنا في هذه الفقرة اسم الشاعر الحكيم «خعخبر-رع-سنب» الذي حُفِظت لنا من تآليفه لوحة كتابة محفوظة الآن في المتحف البريطاني، وسنوردها في باب التأملات. أما «بتاح حتب» فهو الحكيم الذي سنورد حِكَمه في افتتاح هذا الفصل، والاسم الأخير الذي جاء في هذه الورقة وهو «كارس» لا نعرفه قطُّ، وربما تجود الأيام بشيء من كتاباته في كشف جديد. والواقع أن الأدب الحكيم في مصر كما وُصِف لنا في تلك الفقرة الفذَّة يمكن تقسيمه إلى فرعين: التعليمي والتأملي، ومعظم ما وصل إلينا منهما يُنسَب إلى الدولة القديمة والعهد الإقطاعي والدولة الوسطى، وقليل منه يُنسَب إلى الدولة الحديثة.

وسيرى القارئ فيما وصلنا من الحِكَم والأمثال والتعاليم أنه كان هناك نمو مطرد في أفق المؤلف من جهة مجال الموضوعات التي تحت حسه، تمشيًا مع المدنية واتساع رقعة البلاد، وما أحرزه المصريون من التقدُّم في العمران، وفي الأمور الدينية، وسيدرك ذلك القارئ عندما يوازن بين حِكَم «بتاح حتب» الذي يُنسَب إلى الدولة القديمة، وبين حِكَم «أمنموبي» وتعاليمه التي تُنسَب إلى أواخر الدولة الحديثة؛ فكلٌّ من هذه وتلك تبحث في المبادئ القويمة، ولكن شتَّان بين الدائرة الضيقة التي تنحصر فيها التعاليم الأولى، والدائرة الثانية الفسيحة الأرجاء التي تنتشر في نواحيها التعاليم الثانية، فالأولى تنحصر في البيت وما يحيط به، والوظيفة وما تتطلبها، والمعاملات مع الناس، أما الثانية فتشمل الحياةَ من كل نواحيها، وعالم الآخِرة وما يستدعيه، وما إلى ذلك مما ستراه. وسيرى القارئ أن الحكيم المصري كان يحدِّد أهدافه التي يرمي إليها في تعاليمه في بداية مؤلَّفه، ثم يذكِّر بها القارئ في نهايتها، وهو ما نشاهده في تعاليم «بتاح حتب»

وتعاليم «خيتي»، وتراها واضحة جلية في تعاليم «أمنموبي»، وكذلك تحس بها في تعاليم «آني»، وإن كانت غامضة بعض الشيء لما في المتن من الأخطاء.

وسيتناول بحثنا هنا الحِكَم والتعاليم أولًا، مرجئين فحص موضوع التأملات إلى ما بعد ذلك.

(١) الحكم والتعاليم

أهم ما وصل إلينا من هذا اللون من الأدب ثماني وثائق، وهي حسب ترتيبها التاريخي: حِكَم وأمثال «بتاح حتب»، وتعاليم «كاجمني» وهما من الدولة القديمة؛ وتعاليم «مربكارع» من العهد الإقطاعي، ووصايا أمنمحات لابنه «سنوسرت»، وتعاليم «سحتب أب-رع»، وتعاليم «خيتي» من الدولة الوسطى، وتعاليم «آني» وتعاليم «أمنموبي» من الدولة الحديثة، ويرى القارئ من ذلك أن لدينا سلسلة متصلة الحلقات من هذا اللون من الأدب تمثِّل كل عصر من عصور التاريخ المصري.

غير أنه مما يؤسف له جد الأسف أن بعض هذه التعاليم، وإن كانت تُنسَب إلى الدولة القديمة، إلا أنها لم تصل إلينا من نُسَخ أصلية من هذه الدولة، بل وصلت إلينا من نُسَخ يرجع عهد أقدمها للدولة الوسطى؛ ولذلك نجد أن هناك فروقًا في الأساليب وفي المتن بين النُّسَخ القديمة وبين نُسَخ عصر الدولة الحديثة؛ وذلك لأن الكتَّاب كانوا يحورونها أحيانًا تحويرًا كبيرًا حسبما يتفق مع ذوق العصر ولغته، بل قد نرى أحيانًا أن بعض الجمل كانت تُشرَح لغموضها على التلاميذ، كما سنشاهد ذلك في بعض المتون حتى في الدولة الحديثة، يُضَاف إلى ذلك أن معظم هذه النُّسَخ التي ترجع إلى عهد الرعامسة كانت محشوَّةً بأخطاء التلاميذ الذين كانوا يُكلَّفون نقْلَها، ومما يُؤسَف له أنها هي التي وصلت إلى أيدينا؛ فإذا اتفق أنه وصلت إلينا نسخة واحدة من هذا النوع كان من الصعب بل من المستحيل فهمها، ولكن لحسن الحظ قد وقع في أيدينا أكثر من نسخة لبعض هذه التعاليم، ولا تزال الكشوف تُخرِج لنا من آنٍ لآخَر نُسَخًا أخرى من هذه المؤلَّفات القيِّمة، فتسهل

علينا حل بعض ما استغلق علينا منها؛ من أجل ذلك سنضطر إلى استعمال النُّسَخ القديمة أو الحديثة مفضلين الأسهل منهما، وعندما نجد اختلافًا بيِّنًا في التعبير أو المعنى نعرض كليهما. ومما هو جدير بالذكر هنا أن هذه التعاليم — لكثرة استعمالها وشيوعها — كان التلاميذ يكتبونها على قِطَع من الخزف وشظيات من الحجر الجيري الملساء، والسبب في ذلك طبعًا غلاء ورق البردي، وعدم كفايته لعددٍ جمٍّ من التلاميذ، ومعظم هذا الخزف يرجع إلى عهد الرعامسة، وعُثِر منه حديثًا على كميات هائلة مكتوبة وعليها فقرات عدة من هذه الحِكَم والتعاليم.

(١-١) أمثال وحِكَم بتاح حتب[١]

كان المصري عندما يشعر بدنو أجله يكتب وصيته، فيقسِّم أملاكه، وغالبًا ما كان ينقش صورةً من هذه الوصية على جدران مقبرته. على أن الأمر لم يكن يقتصر على ذلك، بل كان أحيانًا يخلف لابنه الأكبر نصائح وتعاليم عن تجاربه في الحياة وفي وظيفته؛ لتكون عونًا له على أداء عمله الحكومي، وعلى الضرب في الحياة على أحسن حال، وسيدرك القارئ أن الحكيم كان دائمًا يشير إلى ما يرمي إليه في تعاليمه في افتتاحها وفي نهايتها.

وأقدَمُ مَن خلف لابنه نصائح من هذا النوع هو «بتاح حتب».

وقد ذكر لنا أنه كان وزيرًا للملك «إسيسي» (٢٦٧٠ق.م تقريبًا)، وتدل النقوش على أنه كان لهذا الملك وزير يحمل هذا الاسم، ولا يزال قبره معروفًا لنا في سقارة حتى الآن. وبالرغم مما يحوم من شكوك حول نسبة هذه الوثيقة إلى هذا الوزير، فإنه من المؤكد أنها قديمة جدًّا، قد وصلت إلينا منها ثلاث نُسَخ يرجع عهد اثنتين منها إلى الدولة الوسطى، والثالثة كُتِبت في الدولة الحديثة. ومن الجائز أن بعض هذه النصائح قد فَاهَ بها هذا الوزير العظيم، كما يحتمل أن بعض أمثال التوراة التي تُنسَب إلى سليمان قد فَاهَ بها حكيمنا فعلًا.

ومهما يكن من أمر هذه التعاليم، فإن الغرض منها إرشاد التلميذ وغيره إلى السير الحكيم والأخلاق الحسنة، ثم ليكون أسلوبها هدفًا مثاليًّا يحتذيه التلميذ في تعبيره؛ ليصبح ذا بصر بفنون الكلام، وليعبِّر عمَّا في نفسه بلغة مختارة جديرة بموظف محترم، وهذا هو السر في ذيوعها في عهد الدولة الوسطى، ثم في الدولة الحديثة.

ونجد في النسخة التي من عصر الدولة الحديثة السبب الذي من أجله ألَّفَ «بتاح حتب» تعاليمه هذه، فيقول لجلالة الملك «إسيسي»:

> قد حلت الشيخوخة، وبدا خرفها، وامتلأت الأعضاء آلامًا، وظهر الكبر كأنه شيء جديد، وأضحت القوة أمام الهزال، وأصبح الفم صامتًا لا يتحدث، وغارت العينان، وصُمَّتِ الأُذُنان … وأضحى القلب كثير النسيان غير ذاكر أمسه، والعظام تتألم من تقدُّم السن، والأنف كتم فلا يتنفس، وأصبح القيام والقعود كلاهما مؤلمًا، والطيب أصبح خبيثًا، وكل ذوق قد ولَّى، فتقدُّم السن يجعل حال المرء سيئًا في كل شيء.
>
> فمرني أصنع لي سندًا (عكازة)[٢] لكبر سني، ودَعِ ابني يحتل مكاني، فأعلمه أحاديث مَن يسمعون، وأفكار مَن سلفوا، وهم الذين حرموا السلف في الأزمان الخالية، ولَيْتَهم يعملون لك بالمثل؛ حتى يُتَّقَى الشجار بين الناس، وتخدمك مصر.
>
> فأجاب جلالته: «علِّمْه أولًا الحديث … وإني أرجو أن يكون مثالًا لأولاد العظماء، وليت الطاعة تكون رائِدَهُ، ويدرك كل فكرة صائبة ممَّن يتحدث إليه، فليس هناك ولد يحرز الفهم من تلقاء نفسه.

ولا أشك في أن القارئ يرى في هذا الوصف البديع للشيخوخة، وفيما يهدف الناصح إليه من وراء تعليم ابنه، صورةً مدهشةً من حيث الدقة في التعبير ونفاذ البصيرة وضعها كاتب منذ آلاف السنين.

أما النسخة القديمة فمقدمتها تختلف عن هذه؛ فقد جاء فيها:

> الكلام الحسن التعبير الذي نطق به الأمير العظيم ... الوزير «بتاح حتب» عندما كان يعلم الجاهل العلم وقواعد الكلام المنسجم، فيا فَلَاح مَن يصغي إليها، ويا شقاء مَن يحيد عنها.

ويبدو من هذا العنوان الذي كُتِب في نسخة الدولة الوسطى أن الاهتمام بصياغة الكلام والأسلوب الحَسَن من أهم ما يعنى به الكاتب في هذا العهد — كما نوَّهنا عن ذلك من قبلُ.

ولقد وافَقَ الملك وزيره «بتاح حتب» على تعليم ابنه (ابن الوزير)؛ ليعده للقيام بأعباء الواجبات الحكومية وللحياة، حتى يكون مساعدًا وخلفًا له، فأخذ الوزير المذكور يسدي النصح لابنه بألَّا يسيء استعمال الحكمة التي سيلقَّنُها، بل عليه أن ينهج سبيل التواضع، فنراه يقول:

> لا تكونن متكبرًا بسبب معرفتك، ولا تكونن منتفخ الأوداج لأنك رجل عالم، فشاوِر الجاهل والعاقل؛ لأن نهاية العلم لا يمكن الوصول إليها، وليس هناك عالم مسيطر على فنه تمامًا، وإن الكلام الحَسَن أكثر اختفاءً من الحجر الأخضر الكريم، ومع ذلك فإنه يوجد مع الإماء اللائي يعملن في إدارة أحجار «الطواحين».[٣]

ثم يعقب ذلك اثنتان وأربعون فقرة تنتظم نصائح مختلفة، ولكن المؤلف لم يبذل أي جهد في ترتيبها أو تنظيمها، بل كتب كل فقرة منها عفو الخاطر حسبما كان يجول في ذهن رجل مُسِن قد حنكته تجارب الحياة ومسئولياتها، وأراد أن يطرحها عن كاهله إلى كاهل ابنه. ونرى في حِكَمه الاهتمام القوي وحسن الذوق واستعمال الذهن الذي اعتاد أن يطلق عليه القلب.

وقد كان أبرز الصفات القيمة التي يجدر بالشاب أن يتَّصِف بها عنده هي أن يكون قادرًا على الإصغاء والطاعة، فنجده يقول:

إن الاستماع مفيد للابن الذي يصغي (يطيع)، وإن المستمع يدخل مثل إنسان قد استمع، ومَن يستمع يصبح مستمعًا، فيكون حَسَنَ الإصغاء وحسَنَ الكلام، وإنَّ مَن يستمع يكون مالكًا للفائدة؛ لأن الإصغاء مفيد للسامع. والإصغاء أحسن من أي شيء؛ لأن من نتائجه الحب الجميل.

أجمل بالابن الذي يصغي عندما يتحدث إليه والده! فإنه سيصل إلى الشيخوخة بسبب[٤] ذلك، وإن المستمع يحبه الله، ومَن لا يستمع تبغضه الآلهة، والعقل هو الذي يشكِّل صاحبه فيكون مستمعًا أو غير مستمع، وعقل الإنسان هو حياته وسعادته وصحته، أجمل بالولد الذي يرى الواجب في أن يصغي إلى والده! وما أعظم فرح الإنسان الذي يقول له الناس «إنه ابن فضيلة كفضيلة سيد يستمع!»

أما المستمع الذي يقال له ذلك، فإنه يكون فاضلًا منذ الولادة، ومحترمًا في نظر والده، وذكراه تكون في أفواه الأحياء الذين على الأرض ما داموا أحياءً. أما الغبي الذي لا يستمع فلن ينال نجاحًا؛ إذ إنه يعتبر العلم جهلًا والطيب خبيثًا، ويعرِّض نفسه كل يوم للوم؛ لما يأتيه من كل شيء مكروه، ويعيش على ما يموت الناس فيه، والقول الخبيث غذاء فمه، وأخلاقه إذن تكون معروفة للحكَّام، ويموت حيًّا كل يوم، ولن يعامله الناس مطلقًا بسبب السيئات الكثيرة التي يرتكبها كل يوم.

فمن ذلك يتضح أنه منذ القرن السابع والعشرين كان السلوك أمرًا يُقوَّم، وحكمة ذات معيار، يرثها الابن عن والده، وكان للنجاح في الحياة المكانة السامية، وكانت السُّبُل التي تحقِّق الوصول إليه عظيمةَ الأهمية، ولذلك استغرقت هذه الأمور نحو ثلث نصائح «بتاح حتب»، فبعض هذه النصائح يوحي بالتخلُّق بالحذر في حضرة العظماء، وبعضها يعرفنا آداب المائدة في حضرة الرئيس، فيقول:

إذا اتفق أنك كنتَ من بين الجالسين[٥] على مائدة أكبر منك (مقامًا)، فخذ ما يقدم لك حينما يُوضَع أمامك، ولا تنظرنَّ إلَّا إلى ما وُضِع أمامك، ولا تصوبن لحظات كثيرة إليه؛ لأن ذلك مما تشمئز منه النفس (كا)[٦] إذا أحفظها الإنسان. وانظر بمحياك إلى أسفل إلى أن يحييك، وتكلَّمْ فقط بعد أن يرحب بك، واضحك حينما يضحك، فإن ذلك سيكون سارًّا لقلبه، وما تفعله يكون مقبولًا؛ لأن الإنسان لا يعلم ما في القلب.[٧] والرجل العظيم يتوقف عزمه على أوامر نفسه، حينما يجلس أمام الطعام، والرجل العظيم يعطي مَن بجواره.

وقد خصَّصَ الناصح جزءًا كبيرًا من حِكَمه لبيان الطرق السديدة الموصلة إلى حسن سير الأعمال الرسمية، فقال:

إذا كان رئيسك فيما مضى من أصل وضيع، فعليك أن تتجاهل وضاعته السابقة، واحترمه حسبما وصل إليه؛ لأن الثمرة لا تأتي عفوًا، ولا تعيدن قطُّ كلمات حمقاء خرجت من غيرك في ساعة غضب. التزم الصمت؛ فإن هذا أحسن من أزهار (تفتف)، وتكلَّمْ فقط إذا كنتَ تعلم بأنك ستحل المعضلات، وإن الذي يتكلم في المحفل لمفتن (يعني في الكلام)، وصناعة الكلام أصعب من أي حرفة أخرى.

وعليك أن تقدِّم للأمير نصيحة تساعده؛ لأن قوتك تتوقف على مزاجه، وبطن الرجل المحبوب يُملَأ، وظهره يُكسَى تبعًا لذلك …

كُنْ عميقَ القلب نزر الكلام … وكن ثبت الجنان طالما تتكلم، فعسى أن يقول الأمير الذي يسمع كلامك: ما أسد الكلام الذي يخرج من فمه!

ولا نزاع في أن الدافع لمثل تلك النصيحة هو اتباع سياسة دنيوية مبنية على اليقظة والتفطن.

ونرى أن ذلك السياسي المحنك كان ذا نظرة ثاقبة في انتهاز الفرصة لمصلحته، مع أنه لم يُحرَم في الوقت نفسه حاسة الإدراك لما هو أثمن من ذلك؛ إذ إن عِلْمَه بتقلبات الدهر قد علَّمَه التواضعَ، ولذلك قال ينصح ابنه:

> إذا أصبحت عظيمًا بعد أن كنتَ صغيرَ القدر، وصرتَ صاحبَ ثروةٍ بعد أن كنتَ محتاجًا … فلا تنسينَّ كيف كانت حالك في الزمن الماضي، ولا تتغنَّ بثروتك التي أتت إليك منحةً من الإله (الملك)، فإنك لستَ بأحسن من أقرانك الذين حلَّ بهم ذلك (أي الفقر).

وفضلًا عما تقدَّمَ، فقد رأى أن حياة الموظف المدنية محفوفة بالمخاطر؛ ولذلك يقول ناصحًا:

> احترس من الأيام التي يمكن أن يأتي بها المستقبل.

وإذن يكون من أصالة الرأي أن يمنح غيره أموالًا كثيرة بحسن نية لما يخبئه المستقبل، كما يقول:

> أشبع أصدقاءك بما جدَّ لك بسبب نيلك الحظوة عند الإله (أي الملك)؛ إذ لا يوجد إنسان يعرف مصيره إذا فكَّرَ في الغد، وإذا اعترى حظوته لدى الملك شيء، فإن الأصدقاء هم الذين لا يفتئون يقولون مرحبًا … فعليك أن تستبقي ودَّهم لوقت السخط الذي يهدِّد الإنسان، ولكن سترى فيما بعدُ، أنه حينما تسوء حظوتك فإن فضيلتك ستكون فوق أصدقائك.

وتراه هنا ينصح الإنسان بأن يتحرَّى أخلاق أصدقائه، فيقول:

> إذا كنتَ تبحث عن أخلاق مَن تريد مصاحبته فلا تسأله، ولكن اقترب منه وكُنْ معه وامتحن قلبه بالمحادثة، فإذا أفشى شيئًا قد رآه، أو أتى أمرًا يجعلك تخجل له؛ فاحذر

عندئذٍ حتى من أن تجيبه.

ولقد كانت مسئوليات الأسرة في نظره أهم من الأصدقاء، فتراه يتحدث عنها قائلًا:

إذا كنتَ رجلًا ناجحًا، فوطِّدْ حياتك المنزلية، وأحبب زوجتك في البيت كما يجب.

وفي نسخة حديثة يقول:

إذا كنتَ رجلًا ناجحًا فأسِّسْ لنفسك بيتًا، واتخذ لنفسك زوجةً تكون سيدة قلبك.

فنرى في المتن القديم أنه يجعل الحب أساسًا لبناء عش الزوجية، ولكنه الحب العملي الذي يجب على الزوج لزوجته، ولذلك يستمر قائلًا:

أشبع جوفها، واستر ظهرها.

ومطالب المرأة كثيرة لا تقف عند حد، ولكن ما تعتزُّ به المرأة الحديثة وتشاركها فيه أختها القديمة في مصرنا من التطور، ينحصر فيما غلا من الروائح والدهان. ولم يَنْسَ حكيمنا أن يذكِّر بها ابنه، إذ قال:

إن علاج أعضائها هو الدهان.

وبذلك يرى ذلك الوزير المحنك أن الزوج الكيس هو الذي يجعل زوجته سعيدة أولًا بالمحبة التي يلزمه أن يُفسِح لها في قلبه المكانَ الأولَ، ثم يتبع ذلك بقضاء حاجتها من غذاء وملابس، ثم الكماليات كالعطور، ونراه يقول:

اجعل قلبها فَرِحًا ما دمتَ حيًّا، فهي حقل مثمر لسيدها.

وهذا التشبيه الأخير جاء في القرآن بعد مضي خمسة وثلاثين قرنًا في قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ (سورة البقرة آية ٢٢٢).

أما عن الأبوة فقد كان «لبتاح حتب» آراء خاصة فيها، إذ يقول:

> إذا كنتَ رجلًا ناجحًا وكان لك بيت، ووُلِدِ لك ابن اكتسب رضاء الإله (الملك)، فإذا عمل صالحًا ومالَ إلى طبعك، وسمع نصائحك وكانت خططه ذات نتائج حسنة في بيتك، وكان معتنيًا بمالك كما يجب، فابحث له عن كل شيء حسَنٍ، فهو ابنك الذي ولدته لك نفسك (كا)، ولا ينفرنَّ قلبك منه. ولكن إذا عمل سوءًا وأعرض عن خططك (أي أوامرك) ولم يعمل حسب نصائحك، وصارت خططه لا قيمة لها، وتحدَّى كل ما تقوله … عندئذٍ أَقْصِهِ؛ لأنه ليس ابنك ولم يُولَد لك …

ومع أن ذلك الوزير كان يفقه جيدًا الرغبة في النجاح الدنيوي، وإحراز الثروة، إلا أنه كان يرى ألَّا تطغى المادة على الروابط الأسرية، فتراه يقول:

> لا تكونن شَرِهًا في القسمة، ولا تكونن ملحًا في الحق، ولا تطمعن في مال أقاربك؛ فإن الالتماس باللين يجدي أكثر من القوة، فإن القليل الذي يُختلَس يُولد العداوة (حتى) عند صاحب الطبع اللين (يعني الحليم).

ولما كان الطمع من أهم الصفات الذميمة الداعية لتفكُّك روابط الأسرة المتماسكة، قال يحذر منه:

> إذا أردت أن يكون خلقك محمودًا، وأن تحرِّر نفسك من كل قبيح، فاحذر الشراهة فإنها مرض عضال، والصداقة معها مستحيلة؛ لأنها تجعل الصديق العذب مرًّا، وتقصي ذا الثقة عن سيده، وتجعل كلا الأبوين قبيحًا، وكذلك الأخوان، وتفرِّق بين الزوج وزوجه، وهي حزمة فيها كل أنواع الشر، وعيبة بها كل شيء مرذول، وإن الرجل الذي يتبع طريقة حقة في سلوكه، ويسير على صراط سوي يعيش طويلًا، ويكسب الغنى بذلك، ولكن الشره لا قبر له.

وقد شفع «بتاح حتب» هذا البحث الذي يدل على ما للروابط الأسرية عنده من القيمة العظيمة في بيت الإنسان، بوجوب احترام أهل بيت غيره، ولو كان من غير ذوي قُرْبَاه، فنجده يحذر الزائر تحذيرًا شديدًا من محاولة الاقتراب من النساء، بل يحتم عليه أن يتباعَدَ عنهن بقدر المستطاع، فيقول:

> إذا أردتَ أن تحافظ على الصداقة في بيت تدخله، سيدًا كنتَ أم خادمًا أم صاحبًا، فاحذر القرب من النساء، فإن المكان الذي يَكُنَّ فيه ليس بالحسن، ومن الحكمة إذن ألَّا تحشر نفسك معهن، ومن أجل ذلك يذهب ألف رجل إلى الهلاك بسبب متعة قصيرة تضيع كالحلم، ولا يجني الإنسان من معرفتهن غير الموت.

وقال في هذا المعنى أيضًا:

> وعندما يفتتن الإنسان بأعضائهن البرَّاقة (حرفيًّا: أعضاء من الزجاج)، فإنها تصير بعد ذلك مثل حجر «هرست» (أي شيئًا تافهًا مثل الحلم)، والموت يأتي في النهاية.

وتسود حكمةَ «بتاح حتب» روحُ الشفقة الكريمة، ولم يجعلها تنحصر في أسرته، بل جعلها تمتد إلى مَن حوله؛ ولذلك يأمر ابنه بأن يسلك مسلكه في ذلك، إذ يقول له:

> كُنْ طلق الوجه ما دمتَ حيًّا.

ثم يستمر في كلامه بحالة تُشعِر بأنها كانت أصلًا للمثل المشهور: لا فائدة من النحيب على لبن مهراق (وهذا يشبه المثل: العايط في الفايت نقصان من العقل).

وهذا المرح العظيم الذي نراه فيما يأتي من قول الوزير، يتفق وما ينشده من طلب الراحة والفراغ؛ إذ يقول:

> اتبع لبك ما دمتَ حيًّا، ولا تفعلن أكثر مما قيل لك، ولا تنقصن من الوقت الذي تتبع فيه قلبك؛ لأنه مكروه عند النفس (كا) أن ينتقص من وقتها، ولا تشغلن نفسك يوميًّا بخلاف ما يتطلبه بيتك، وعندما يواتيك الثراء مَتِّعْ نفسَك؛ لأن الثراء لا تتم (فائدته) إذا كان معذبًا.

ولا شك في أن مَن كانت روحه مَرِحة بهذا الوصف، ينبغي أن تكون الشفقة عنده من الأمور المألوفة. واستمع إلى قوله في ذلك:

> إذا كنتَ حاكمًا فكُنْ شفيقًا حينما تسمع كلام المتظلم، ولا تُسِئْ معاملته إلى أن يغسل[٨] بطنه، وإلى أن يقول ما جاء من أجله ... وإنها لفضيلة للقلب أن يستمع مشفقًا.

ولا نزاع في أن تكون هذه الشفقة ذات علاقة وطيدة بالمعامَلة الحسنة القائمة على الحق، ولا غرابة إذن إذا وجدنا أن الحق والعدالة قد اتَّخَذَا لهما مكانةً في حلمه تسمو على كل مكانة، فيقول:

> إذا كنتَ حاكمًا تصدر الأوامر للشعب، فابحث لنفسك عن كل سابقة حسنة حتى تستمر أوامرك ثابتة لا غبار عليها. إن الصدق جميل وقيمته خالدة، ولم يتزحزح عن مكانه منذ خُلِق؛ لأن العقاب يحل بمَن يعبث بقوانينه ... وقد تذهب المصائب بالثروة، ولكن الصدق لا يذهب بل يمكث ويبقى، والرجل المستقيم يقول عنه: (إنه متاع والدي قد ورثته عنه.)

لذلك كان لزامًا على الشاب أيضًا أن يبلغ رئيسه الحقائق، ولو كانت مرَّة على نفسه، ولا شك في أن هذه السبل كانت تتطلب قوة خلق عظيمة؛ وهذا ما كان يرجوه ذلك الحكيم من ابنه إذ يقول:

> حصِّل الأخلاق ... واعمل على نشر العدالة، وبذلك تحيا ذريتك.

وكذلك يذكِّر ابنه:

بأن الفضيلة التي يتحلَّى بها الابن لها قيمتها عند الأب، والخلق الحسن يبقى شيئًا مذكورًا.

ويقول أيضًا:

وإذا استمعتَ ووعيتَ ما ألقيتُه عليك، فإن كل صنيع لك سيكون على غرار عمل الأجداد، أما صحة هذه الأشياء فالفضل فيها يرجع إليهم (أي الأجداد)، وذكراها لن تُمحَى من أفواه الناس؛ لأن نصائحهم جديرة بالتقدير، وكل كلمة ستنقل ولن تُمحَى من هذه الأرض أبدًا، وسيكون للكلام قيمة حسبما ينطق به الأمراء ... وعندما يصيب رئيسك شهرة جديرة بالتقدير فإنها ستبقى حسنة أبدًا، وستخلد كل مزاياها، أما الرجل الحكيم فإن روحه تنعم باستمرار بقاء فضيلته على الأرض، والرجل العاقل يُعرَف بعمله، وقلبه ميزان لسانه، وشفتاه تصيبان القول عندما يتكلم، وعيناه تبصران عندما ينظر، وأذناه تسمعان ما يفيد ابنه الذي يقيم العدل ويبرأ من الكذب.

وقد يجوز أن ذلك الوزير المسن قد عبَّرَ عن روحه الخلقية بأوجز عبارة حينما حذَّرَ من الطمع فيما سلف، وأننا نجده الآن في صورة الظافر المنتصر؛ إذ يقول في غير مناسبة تربط بين قوله هذا وبين ما تقدَّمَ:

إن الرجل الذي اتَّخَذَ العدالة معيارًا له، وسار وفقًا لجادتها يكون ثابت المكانة.

وختم «بتاح حتب» نصائحه لابنه بعبارة تحبِّب إلى نفسه العدالة، إذ يقول له في منتهاها:

تأمل! إن الولد النجيب الذي يهبه الإله، يقوم بأداء أكثر مما يأمره به والده، فهو يقيم الحق، وقلبه يسير على صراطه، وبقدر ما تصل إلى ما وصل إليه الناس، سيكون

جسمك سليمًا وسيكون الملك مرتاحًا لك في كل ما يجري، وكذلك ستصل إلى السن التي وصلتُ إليها، والسنين التي عشتها على الأرض وليست بالقليلة؛ فقد بلغت العاشرة بعد المائة، وحباني الملك بمكافأة تفوق كل مكافآت الأجداد؛ لأني أقمتُ العدلَ للملك حتى ضمَّنِي القبر.

ومما سبق يتضح أن حِكَم «بتاح حتب» كانت ذات مكانة راجحة في الجهات العليا من وادي النيل، وبخاصة إذا علمنا أن أحد ألقاب الملك «وسركاف» الذي عاش في عهده هذا الوزير «مقيم العدل»، وقد أفاض وزيرنا في العدل وفضائله.

ويتناول أكثر من نصف حِكَم هذا الرجل العظيم أخلاق الإنسان وسلوكه، وما بقي يختص بالبحث في الإدارة وسلوك الإنسان الرسمي، ويلاحظ بوجه عام أن تلك الحِكَم ترشد إلى اللطف والاعتدال والحزم الذي يصحبه التثبُّت، فهي بذلك في الواقع تنمُّ عن منتهى ما كان عليه الوزير من حسن الذوق، وسلامته في تقدير الأمور ووزنها بالميزان الصحيح عندما وصَّى ابنه باتباعها والسير على نهجها، فيجب أن يعرف بأن الحياة العظيمة القيمة هي التي يحظى فيها الإنسان بقسط وافر من المتعة، وعليه أن يحافظ على ساعات الراحة والدعة حتى لا يتسرب منها شيء إلى أعباء الوظيفة أو غيرها، ذلك إلى أنه يجب على المرء أن يكون بادي البشاشة والطلاقة؛ لأنه لا فائدة من النحيب على ما فاته.

وبالجملة فإن النغمة التي تغلَّبَتْ على فلسفة نصائح ذلك الوزير السهلة التناول هي الوازع الخلقي الحقيقي، وأبرز الواجبات التي تظهر فيها ما عبَّرَ عنه بقوله:

أقِمَ العدل، وعامِلَ الجميعَ بالعدالة.

على أنه ليس من باب المصادفة أن تُذكَر مثل تلك الحقائق المقنعة في إضمامة من البردي القديم، تبعث فينا جوًّا مشبعًا بالرحمة والمحبة واحترام الوالدين والبر بهما، مما يوطد دعائم الأسرة

ويوثق العلائق بين أعضائها، وتنأى بنا في الوقت نفسه عن الشره الذي يقضي على الوئام ويفكِّك الروابط، بل إن تلك العواطف دروس قصد إليها ذلك العالم الاجتماعي، فانتقلت إلى البيئة المحيطة به وانتشرت فيها، وسعادة الأسرة وسلامة العلاقات بين أفرادها هي الثمرة الظاهرة لهذه التعاليم.

وعلى ذلك نجد في حِكَم «بتاح حتب» برهانًا قاطعًا للحقائق التي وُجِدت في نقوش المقابر والمعابد التي رسمت فوق جدرانها، والتي تدل على أن حياة الأسرة هي التي هيَّأَتْ للإنسان في بادئ الأمر الشعور بالمسئوليات الخلقية.

من أجل كل ما ذكرنا بقيت أمثال «بتاح حتب» منارة يُستضَاء بها في معايير الأخلاق وفي الأسلوب الكتابي.

ولا أدل على ذلك من أن جُمَلًا مفردة من نصائحه كانت تعيش بعد مئات السنين من وضعها، مثال ذلك أن رجلًا اسمه «أمنمحات» عاش في عهد الأسرة الثامنة عشرة يقول متحدِّثًا عن نفسه وعن رئيسه:

لم أصوب إليه لحظات عدة، بل ألقيت بوجهي إلى الأرض عندما تحدَّثَ إليَّ.

وكذلك نقرأ على أثر يمجِّد فتح الملك «سنوسرت الثالث» لبلاد النوبة:

إنه ليس ابنك، إنه لم يُولَد لك.

(أ) المصادر

أهم مَن كتَبَ عن هذه التعاليم ما يأتي:

(1) Pieper “Die Agyptische Literatur” PP. 19 ff.

(2) Peet, “A comparative Study of the Literatures of Egypt, Palestine and Mesopotamia” P.P. 100 ff.

(3) Breasted, “The Dawn of Conscience” P.P. 129 ff.

(4) Erman, “The Literature of the Ancient Egyptians” P.P. 54–65.

(5) Griffith. “The World’s Best Literature”.

(6) Petrie, “Religion and Conscience in Ancient Egypt” (translation by Griffith).

(7) Dévaud, “Les Maximes de Ptahhotep”. (Fribourg, 1916)

(8) Mever, (“The Oldest Books in the World” New york, 1900).

(١-٢) تعاليم كاجمني

لم يصلنا من هذه التعاليم إلا جزء صغير محفوظ مع تعاليم «بتاح حتب» في «ورقة باريس»، فلا بد أنها مشابهة لها، ومن المحتمل أن الجزء المفقود قد جاء فيه أن الملك «حوني» الذي ينسب حِكَمه إلى أواخر الأسرة الثالثة، قد أمر وزيره بأن يفرغ تجاريب حياته في كتاب؛ لتكون بمثابة مواعظ لأبنائه، ومن بينهم وزير يُدعَى «كاجمني»، ونحن لا نعرف وزيرًا بهذا الاسم من ذلك العصر، والوزير الذي نعرفه بهذا الاسم عاش في الأسرة السادسة، أي بعد ذلك ببضع مئات من السنين. فنرى في الفقرة الأولى التي وصلت إلينا أن الوزير يتكلَّم عن الحزم والتبصُّر في الكلام فيقول:

... والمتواضع يبقى صحيحًا، ومَن يستقِمْ في معاملته يُمدَح، وتفتح الخيمة للمتواضع، والحَذِر في كلامه يُفسح له مكان رَحْب، ولكن السكين ترهف لمَن يحيد عن الصراط

…

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الكلام عن آداب المائدة، فيحض على التعفُّف وضبط جماح النفس عند تقديم ألوان الطعام الشهي، فيقول:

إذا جلستَ مع أناس كثيرين (للأكل) فانظر إلى الطعام بعدم مبالاة، وإنْ كنتَ تشتهيه، فإن ضبط النفس لا يكلِّف الإنسان أكثر من لحظة، وإنه لَمِن العار أن يكون الإنسان شرهًا، فقدح ماء يروي الغُلَّة، وإن كان الفم مفعمًا فإن ذلك مما يقوي القلب، والشيء الطيب يحل محل الطيب (إن لونًا بسيطًا جيدًا يغنيك عما هو أحسن منه)، كما أن القليل يحل محل الكثير، وإن الرجل الشره تعس لداعي جسمه … وإذا جلست مع إنسان شره فلا تأكلنَّ إلا بعد أن يفرغ من وجبته، وإذا جلست مع سكير فلا تأخذنَّ (من الشراب) إلا بعد أن يشبع شهوته، ولا تتكالبنَّ على اللحم في حضرة … فخُذْ حينما يقدم لك ولا ترفضنها، وفكِّر في أن ذلك يريحه.

وبعد ذلك ينتقل حكيمنا إلى حض الإنسان على عدم الفخر فيقول:

لا تكونن فخورًا بقوتك بين مَن هم في سنك، واحذر من أي فرد يغالبك (؟)؛ لأن الإنسان لا يعرف ماذا يكون حظه، وما يفعله الله عندما ينزل العقاب.

(أ) الخاتمة

ونادَى الوزير أولاده بعد أن أتَمَّ مقاله عن أحوال بني الإنسان وعن أخلاقهم كما عركها بنفسه، فقال لهم:

أصغوا إلى كلِّ ما في هذا الكتاب كأني قد تكلَّمْتُه … وعندئذٍ سجدوا على بطونهم وقرءوه كما هو مكتوب، وقد كان محبَّبًا إلى قلوبهم أكثر من أي شيء آخَر في الأرض

قاطبةً، وقد قاموا وقعدوا حسبما جاء فيه (أي إنهم ساروا حسب تعاليمه)، وعلى أثر ذلك عُيِّنَ «كاجمني» مشرفًا على العاصمة ووزيرًا.

(ب) المصادر

(1) Prisse Papyrus (Paris).

(2) Erman, "The Literature of the Ancient Egyptians", P.P.66 ff.

(3) Griffith, "Notes on Egyptian Texts of the Middle Kingdom", Proceedings of the Society of Biblical Archaeology", Vol. XIII, (1980).

(١-٣) التعاليم التي لُقِّنَتْ للملك «مريكارع»

هذه الوثيقة تُنسَب لملك من الأسرة العاشرة لم يُعرَف اسمه لنا بعدُ على وجه التحقيق، وقد كتبها لابنه المسمى «مريكارع»، والظاهر أن الملك مؤلِّفها قد وضعها في آخِر لحظة من حياته. على أن هذه الوثيقة العظيمة الشأن لم تصل إلينا إلا عن نسخة كُتِبت في عهد الأسرة الثامنة عشرة، ونحن نعلم أن «مريكارع» قد عاش في عصر الثورة الاجتماعية التي قلبت نظام البلاد رأسًا على عقب في النصف الثاني من الألف الثالثة قبل الميلاد. وتدل الأحوال على أن الملك والد «مريكارع» لم يكن يقبض على زمام الأمور في كل مصر، وكانت عاصمة ملكه هيراكليوبوليس (أهناس المدينة).

وقد تغلَّبَ هذا الملكُ المُسِنُّ على مدينة طينة في العرابة المدفونة، التي كانت ضمن أملاك «أنتف العظيم» أمير طيبة (انظر تاريخ مصر: جزء١، ص٤٢٠).

ومما يُؤسَف له جد الأسف أن ناقل الوثيقة قد ارتكب أغلاطًا كثيرة مما جعل كثيرًا من أجزائها غير مفهوم، فضلًا عما بها من فجوات كبيرة، ومع ذلك فإنها تُعَدُّ من أعظم الوثائق التي وصلت

إلينا عن هذا العصر؛ لأن ذلك الرجل المُسِنَّ لم يقتصر فيها على النصائح الأدبية والاجتماعية، بل أضاف إلى ذلك تعاليم دينية منقطعة النظير، وتجارب سياسية كشفت لنا عن صفحة مجيدة في نوع الحِكَم الذي كانت تسير عليه البلاد في ذلك العهد في مدن الدلتا، ووصفت لنا الأقوام الذين كانوا يهدِّدون مصر على حدودها، والعلاج الناجع لكبح جماحهم (وقد تكلَّمْتُ عن هذا في كتاب أقسام مصر الجغرافية).

ولا نزاع في أن الصراع الهائل الذي قام بين الفوضى والنظام أيام العهد الإقطاعي في المدة التي تلت سقوط الدولة القديمة، لم يَجِدْ حتى الآن ما يُعبِّر عنه تعبيرًا تامًّا؛ إذ تنقصنا كل الوثائق التاريخية البحتة عن هذه الفترة، ولا بد أن الحياة المتحضرة في أمهات البلاد التي كانت مزدهرة في عصر الدولة القديمة مثل «منف» و«عين شمس» وغيرها من المدن التي كانت مركزًا للقوة والثقافات المدنية والخلقية، كانت لا تزال باقية على ما هي عليه، أما «أهناس المدينة» فلا نعلم عنها شيئًا إلا أنها كانت عاصمة ملكنا الحكيم الذي أهدى إلى العالم تلك التعاليم العظيمة التي كان يريد بها أن تكون نبراسًا يسير على هَدْيه ابنه «مريكارع».

وتلك الوثيقة كما قلنا مدوَّنة على بردية محفوظة الآن بمتحف «ليننجراد»، وهي تحمل بين سطورها أدلة قاطعة تثبت أنها كُتِبت في العصر الذي تُنسَب إليه، ويمكن أن نعدَّها صوتًا حقيقيًّا لملك «أهناس» والد «مريكارع»، وهذا الملك المحنك يرجع بنا بنظراته الصائبة إلى الوراء؛ لنستعيد ماضي تلك الدولة القديمة، مما يدل على عِظَم احترامه وشدة محبَّته للحكمة التي تمخَّضت عنها تلك الأزمان؛ إذ نرى ذلك السياسي المحنك يتحدث عن الرجل الحكيم فيقول:

> إن الصدق «ماعت» يأتي إليه مختمرًا حسبما كان عليه الأجداد، فعليك إذن أن تقلِّد أجدادك. وتأمَّلْ! إن كلماتهم مدوَّنة في المخطوطات، فافتحها لتقرأها وقلِّدْ معرفتهم، وبتلك الطريقة يصير صاحب الصناعة على علم.

وإذا رجعنا إلى الوراء أمكننا أن نلحظ في تلك الكلمات تأثيرَ نصائح «بتاح حتب» الذي عرَّف في نصائحه الكلامَ بأنه صناعة، والمتكلم الماهر بأنه محترف، ولا بد أنه كان ضمن تلك المخطوطات إضمامة البردي التي تحتوي على نصائح «بتاح حتب»، ولا بد أن ملك «أهناس» قد أمر بفتحها وقراءتها على سمعه؛ حتى يمكنه التبصُّر فيما تحويه من الحِكَم التي كانت قد مضى عليها وقتئذٍ ما يقرب من أربعمائة سنة؛ ولذلك يقول الملك المسن:

> كُنْ صانعًا للكلام لتكون قوي البأس؛ لأن قوة الإنسان هي اللسان، والكلام أعظم خطرًا من كل حرب، وهذا القول أشبه بقولنا «القلم أشدُّ بأسًا من السيف.»

وكذلك يتفق ذلك الملك الحكيم مع «بتاح حتب» في أن اللسان الذرب يحتاج إلى توجيه حكيم؛ إذ يضيف إلى ما سبق قوله:

> إن الرجل الفطن لا يجد مَن يفحمه، والذين يعرفون أنه أوتي الحكمة لا يعارضونه؛ وبذلك لا تحدث له مصيبة في زمانه.

ولقد كان من المستحيل بداهة أن يتجاهل ذلك الملك الصعوبات التي كانت قائمة في موقف البلاد السياسي إذ ذاك؛ ولذلك أسدى النصيحة للأمير الصغير بالمحافظة على العلاقات السليمة التي كانت قائمة بينه وبين الوجه القبلي المستقل كما ذكرنا. وقد خصَّصَ جزءًا كبيرًا للعناية بحدود البلاد المصرية المكشوفة المعروفة من جهة آسيا شرقًا ولوبيا غربًا.[٩]

أما في سياسة البلاد الداخلية فقد تجلَّتْ لنا فطنة ذلك السياسي العظيم؛ إذ نجده يعترف اعترافًا صريحًا بقوة الأسر الشريفة العظيمة التي استقلت كل واحدة في مقاطعتها؛ ولذلك فإنه سار في معاملتها على تلك السياسة التي اتَّبَعها كثيرٌ من ملوك أوروبا فيما بعدُ، وهي سياسة المهادنة والمحالفة مع فطنة عظيمة في الوقت نفسه تُشعِر بضرورة البحث عن الكفايات المغمورة في الأوساط الدنيا، وتكوين رجال جُدُد يمكن استخدامهم ضد رجال الإقطاع القدامى، ولذلك يقول:

> أَعْلِ من شأن الجيل الجديد ليحبك أهل الحاضرة ... إن مدينتك مفعمة بالشباب المدرَّب الذين هم في سن العشرين، ضاعِفَ الأجيال الجديدة من أتباعك على أن يكونوا مزوَّدين بالأملاك، وعلى ألَّا ترفع من شأن ابن العظيم على ابن الوضيع، بل اتَّخِذْ لنفسك الرجل بحسب كفايته، ومع ذلك فإنه ليس من الفطنة أن تهمل الأسر الشريفة العريقة.

وكذلك يقول:

> عظِّمْ من شأن أشرافك لينفذوا قوانينك؛ لأنهم إذا لم يكونوا أهل يسار فإنهم لا يقومون بالعدل في إداراتهم للأمور. إن الرجل الغني في بيته لا يتحيز (يعني في حكمه)؛ لأنه صاحب عقار، وليس محتاجًا، ولكن الرجل الفقير (يعني في وظيفته) لا يتكلم حسب العدالة (ماعت)؛ لأن الرجل الذي يقول: «ليت لي» لن يكون محايدًا، بل ينحاز إلى الشخص الذي يحمل في يده رشوة. فالعظيم مَن كان أصل شرفه عظيمًا، والملك الخطير مَن كانت له حاشية، والرفيع مَن كانت أشرافه أغنياء. وإذا تكلمتَ الصدقَ (ماعت) في بيتك فإن الأشراف المتسلِّطين على الأرض سيخافونك، والملك ذو العقل المحايد يفلح حاله؛ لأن داخل (القصر) هو الذي يبعث الاحترام في الخارج.

وفضلًا عن المسئولية فيما يختص بالعدالة الدنيوية، يعظ الملك ابنه بأن على الملك واجبات هامة في المعبد، وأنه محتوم عليه أن يصرف جميع عنايته لإقامة جميع الشعائر المقدسة مما يظهر بكل وضوح اعتماده التام على العطف الإلهي، وليست المظاهر هي كل شيء، بل يجب أن يكون لها سند من العمل والعقيدة القلبية، فليست الهيبة وحدها ضمانًا كافيًا لرضاء الله إذا لم تصحبها استقامة.

ولذلك نجد الوالد يحض ابنه في وصيته التي تُعَدُّ من أنبل ما جاد به التفكير الخلقي على أن يحفظ في ذهنه:

إن فضيلة الرجل المستقيم أحب (عند الله) من ثور (يُقدَّم قربانًا) من الرجل الظالم.

فلا بد لذلك الشاب عندما يتربَّع على العرش أن يحكم طبقًا للصفات الخلقية الباطنة، لذلك يقول:

أَقِم العدل؛ لتوطِّد مكانتك فوق الأرض، وواسِ الحزين، ولا تعذبنَّ الأرملة، ولا تحرمنَّ رجلًا ميراث والده، ولا تضرن الأشراف في مراكزهم، ولا تتولَّ العقاب (أي بنفسك)؛ فإن ذلك لا يرفعك، ولكن تولَّه بالجلَّادين من غير إسراف، وبذلك تستتب الأرض … والله عليم بالرجل الثائر، والله يجازي عسفه بالدم … ولا تقتلن رجلًا تعرف قدره، وتكون قد جوَّدت معه الكتابة (أي كنتَ معه تلميذًا في المدرسة).

أما التخلُّق بالوداعة التي طالما وصَّى بها «بتاح حتب»، فقد بالَغَ في الحض عليها ملكنا الحكيم؛ إذ يقول مستحلفًا ابنه:

لا تكونن فظًّا؛ لأن الشفقة محبوبة، وأسِّسْ آثارك على حب الناس، وسيحمد الناس الله على مكافأتك لهم، مقدِّمين الشكر على شفقتك، ومُصَلِّينَ لعافيتك.

وقد لاحظنا فيما سبق أن «بتاح حتب» كان كثير الاهتمام بالمستقبل في هذه الدنيا، بسبب تقلُّبات الحظ التي تغدر بالإنسان في هذا العالم وتطوح بمركزه، ولكن الملك في تلك الوثيقة ينصح ابنه «مريكارع» بأن يفكِّر في مستقبله في عالم الآخرة فيقول:

إنك تعلم أن محكمة القضاة الذين يحاسبون المذنب لا يرحمون الشقي عند مقاضاته، وتسوء العاقبة إذا كان المتهم هو الواحد العاقل (يعني «تحوت» الذي يدير المحكمة يوم القيامة). ولا تضعن ثقتك في طول العمر؛ لأنهم (يعني القضاة) ينظرون إلى مدة

الحياة كأنها ساعة واحدة، ولكن الإنسان يُبعَث ثانيةً بعد الموت وتُوضَع أعماله بجانبه كالجبال؛ لأن الخلود مثواه هناك (أي الآخرة).

والغبي مَن لا يكترث لذلك، أما الإنسان الذي يصل إلى الآخرة دون أن يرتكب خطيئة، فإنه سيثوى هناك ويمشي مرحًا مثل الأرباب الخالدين (يعني الأبرار المتوفين).

ويرى هذا الملك الصالح أن الحياة الصالحة فوق الأرض هي العماد الأعظم الذي ترتكز عليه الحياة الأخروية، فيقول:

إن الروح تذهب إلى المكان الذي تعرفه ولا تحيد في مسيرها عن طريق أمسها.

ولا شك في أنه يقصد بذلك هنا طريقَها المعتاد للخلق القيِّم الكريم، وقد كان القبر في نظره في الوقت نفسه من الأشياء الهامة، حيث يقول:

زيِّنْ مثواك (أي قبرك) الذي في الغرب، وجَمِّلْ مكانك في الجبَّانة بصفتك رجلًا مستقيمًا مقيمًا للعدالة؛ لأن ذلك هو الشيء الذي تركن إليه قلوبهم (أي أهل الاستقامة).

ولما كان أهم أمر في حياة الإنسان هو علاقته بربه في الحياة الدنيا، أو الحياة الآخرة، فإنه يقول ناصحًا لابنه أيضًا:

يمر الجيل متنقلًا إلى جيل آخَر بين الناس، والله العليم بالأخلاق قد أخفى نفسه ... وإنه الواحد الذي يبهر بما تراه الأعين، فاجعل الإله يخدم بالصورة التي سُوِّي فيها، سواء أكانت من الأحجار الكريمة أم من النحاس؛ لأنه كالماء الذي يحلُّ محله الماء؛ إذ لا يوجد مجرى يرضى لنفسه أن يبقى مختبئًا، بل يكتسح الذي (يخفيه).

وهذه الكلمات الهامة التي جاءت على لسان رجل من قادة الفكر في مصر منذ أكثر من أربعة آلاف سنة مضت، ليست إلا محاولة منه ليميِّز بين الإله وبين الصنم التقليدي الذي كان يوجد في

المعبد، ويظهر في الاحتفالات الرسمية، ويهتف له الشعب، ولكن كينونة الإله كالماء يكتسح السد أمامه، ولا يمكن أن يبقى محبوسًا في الصورة المحسوسة (أي الصنم)، بل يُبهِر الناس بما تراه العيون، وهذا الإله العليم بالأخلاق قد أخفى نفسه فلا يمكن إدراكه، كجسم من الماء يمتزج في جسم آخَر مثله من الماء. ومن الجائز أن هذا الحكيم يريد بعبارته: «كالماء الذي يحل محله الماء ... إلخ.» أن الإله الذي شُبِّهَ بالماء إذا دخل في أي جسم، سواء أكان من الأحجار الكريمة، أم من النحاس، أم من أية مادة أخرى، لا بد واجد لنفسه منفذًا يخرج منه أو يُظهِر قوته؛ ولذلك فإن تصوير الإله في أي شيء مادي ليس بالأمر الهام.

ولدينا في تلك الوثيقة سلسلة أفكار عن إله الشمس، نجد فيها الفكر المصري القديم يقترب من عقيدة التوحيد؛ إذ نرى الكاتب يعترف بوجود طائفة من الآلهة يقومون مقام القضاة في عالم الآخرة، وبذلك يبتعد بُعْدًا واضحًا عن الاعتراف بوحدانية الإله، على أنه من جهة أخرى يقترب جدًّا من الاعتراف بالتسلُّط الخلقي لإله واحد، لدرجة أن كلمة إله صارت تدل في مواضع — مع شيء من التناقض — على مدلولها الحقيقي. ويمكن أن نلاحظ صوغ هذه التأملات بصيغة التوحيد — زيادة على ما ذكرنا — في الصورة الآتية التي صوَّر فيها الحكيمُ الأهناسي الخالقَ والحاكمَ الرءوفَ في خاتمة تأملاته، إذ يقول:

> إن الله قد عني عناية حسنة برعيته؛ فقد خلق السموات والأرض وفق رغبتهم، وخفَّفَ الظمأ بالماء، وخلق الهواء لتحيا به أنوفهم، وهم الصورة التي خرجت من أعضائه، وهو يرتفع إلى السماء حسب رغبتهم، وخلق النبات والماشية والطيور والسمك غذاء، وهو كذلك يعاقِب، فذبح أعداءه وعاقَبَ أطفاله بسبب ما دبَّروه حينما عصوا أمره، ويضع النور حسب رغبتهم، وكذلك يجعلهم ينامون، ويسمعهم عندما يبكون، وجعل لهم حكَّامًا في البيضة (أي وُهِبوا الحُكْم قبل الولادة) لتحمي ظهور الضعفاء منهم.

والإشارة هنا إلى أن الإله ذبح أعداءه توجيهٌ إلى أسطورة هلاك الإنسانية التي ذكرناها في باب القصص، ونجد في تلك الأسطورة ناحية خلقية تدل على حرمان الإنسان العطف الإلهي، وكذلك نتعرف فيها سيادة إله الشمس سيادة خلقية مطلقة، وقد كان واضحًا في ذهن الملك الأهناسي المُسِنِّ محاولة الموازنة بين تصوُّره السامي للزاد الخلقي، وبين التقاليد الموروثة الخاصة بقيمة العتاد المادي؛ ولذلك يقول لابنه:

> أَقِمْ آثارًا باقية للإله؛ لأنها تجعل اسم صانعها يبقى، ودَعِ المرءَ يعمل ما فيه صلاح روحه بتأدية الطهور الشهري، وبلبس النعلين الأبيضين، وزيارة المعبد، وإماطة اللثام عن الرموز الدينية، والدخول في قدس الأقداس، وأكل الخبز في المعبد. وضاعِفَ القربان وأَكْثِرْ من عدد الرغفان، وزِدْ في القربان الدائم؛ لأن في ذلك خيرًا لفاعله، واجعَلْ آثارك ثابتة حسب ثروتك؛ لأن يومًا واحدًا (أي عمل يوم واحد) قد يبقى إلى الأبد، ورُبَّ ساعةٍ واحدة تنفع للمستقبل، والله عليم بالفرد الذي يقوم له بأية خدمة.

على أن محاولة الموازنة بين ما يحتاج إليه الإنسان من مادة، وما يحتاج إليه من أخلاق ظاهرة في الكلام القيم اقتبسناها فيما سبق عندما كان الملك المسن يقول:

> إن فضيلة الرجل المستقيم أحب (عند الله) من ثور الظالم، ومع ذلك قرِّبْ للإله ليكافئك بالمثل بقربان تُزود بها مائدة القربان، وبالنقوش لأن ذلك هو ما يخلد اسمك، والله يعلم مَن يقرِّب له القربان.

فنجد هنا اعترافًا صريحًا عن قيمة الحياة الصالحة في نظر الإله، وهو الذي لا يقبل أن تقوم الهدايا عنده مقام الأخلاق.

وأهم المصادر التي اعتمدنا عليها ما يأتي:

(1) Pieper “Die Agyptische Literatur”, PP. 30. ff.

(2) Breasted, “The Dawn of Conscience”, pp. 154 ff.

(3) Erman, “The Literature of the Ancient Egyptians”, PP. 75 ff.

(4) Gardiner, “The Journal of Egyptian Archeology”, Vol. I, P. 20 ff.

(5) Golenischeff, “Les Papyri Hieratiques Nos. 1115, 1116 A et 1116 B de l’Ermatiige imperial á St. Petersbourg”. (1913).

(٤-١) التعاليم المنسوبة إلى «أمنمحات» الأول

كتبها «خيتي» بن «دواوف» عن أقدم نسخة عُرِفت حتى الآن.

تدل الشواهد على أن تعاليم الملك «أمنمحات» لابنه «سنوسرت الأول» كانت تحتل مكانة عظيمة بين الوثائق الأدبية التي خلَّفتها لنا الدولة الوسطى.

غير أن البحوث الحديثة تكاد تُثبِت أن هذه التعاليم لم يَفُهْ بها «أمنمحات الأول»، وأنها كُتِبت بعد وفاته؛ لتكون بمثابة دعاية سياسية لابنه «سنوسرت الأول» الذي تولَّى الحكم بعده مباشرةً، وقد دلَّلَ الأثري الكبير الأستاذ «دي بك» على ذلك بأدلة قوية مقتبَسَة من صلب متن التعاليم نفسها، وكذلك من وثيقة عثر عليها بين أوراق «شستر بيتي»، فقد جاء في هذه الورقة ما نصه وأنه: «هو (أي الكاتب خيتي) الذي كتب مؤلَّفًا يُسمَّى «تعاليم الملك سحتب-أب رع» عندما ذهب ليستريح منضمًّا إلى السماء، وداخلًا بين أرباب الجبانة.»[١٠]

وقد تشكَّكَ الأستاذ «جاردنر» في أن «خيتي» هذا هو مؤلِّف هذه التعاليم، قائلًا إنها قد تُنسَب إليه بسبب جهل أحد الكتَّاب في عهد الرعامسة. راجع: Gardiner melanges maspero I. P. 491 ff.

غير أنه من جهة أخرى يرى أن هذه التعاليم قد كُتِبت في عهد «أمنمحات» الأول، وإن كان لا يجزم بالطريقة التي دُوِّنت بها، وكل ما قاله في هذا الصدد لا يخرج عن كونه مجرد حدس وتخمين.

فقال: «إنه من المحتمل عندما أشرَكَ «أمنمحات» ابنه «سنوسرت» في حُكْم البلاد فَاهَ أمام رجال بلاطِهِ بنصائح غالية تحمل في طيَّاتها ما لاقاه من المصاعب والمصائب، وما قام به من عظيم الأعمال، وما جعله يُشرِك ابنه معه في حُكْم البلاد. ولا يبعد أن رجال الحاشية الذين أُعجِبوا بهذه النصائح وتلك الحكم الثمينة التمسوا من الملك أن يدوِّنها، فكلَّفَ بدوره كاتبًا ملكيًّا بذلك.»

ثم قال الأستاذ «جاردنر» إنه يمكن أن يقاس ذلك بالخطاب الذي ألقاه الملك عند تولية الوزير، كما نجد ذلك في مقبرة «رَخمرع» وغيرها من المقابر.

أما الأستاذ «دي بك»، فيرى أن الملك «أمنمحات» قد قُتِل في مؤامرة قامت ضده في القصر، ويدلِّل على ذلك بجمل في صلب متن التعاليم وببراهين أخرى؛ إذ يقول: إنه جاء في صلب المتن الجملة التالية:

> ولو كنتُ استللتُ سلاحي بيدي، لَكنتُ جعلت هؤلاء المخنَّثين يولون الأدبار، ولكن لا شجاع في الليل، ولا أحد يحارب وحيدًا، ولا يُحرَز النصر بدون عضد.

فإذا اعترفنا أن «أمنمحات» يشير في هذه الفقرة إلى مؤامرة ناجحة ضده، وهذا على ما يظهر هو الرأي الصحيح، وأن ما جاء في ورقة «شستر بيتي» من أن «خيتي» هو مؤلِّفها، كان لا بد لنا من أن نأخذ بنظرية مَن يقول: «إن الملك كان يتكلم، أو كان مفروضًا أن يتكلم من قبره.» على أن ذكر الميت الذي يترجم حياة نفسه، خاصة لا تقتصر على المتن الذي نتحدث عنه، بل

نجدها في متون جنازية أخرى، يضاف إلى ذلك أن هذه ليست هي الظاهرة الوحيدة في تعاليم هذا الملك التي تذكِّرنا بأسلوب الكاتب الذي يترجم حياة نفسه، وأكبر دليل على ذلك ما يأتي:

> لقد أعطيت الفقير وعلَّمت اليتيم، وقد جعلت الرجل المغمور الذكر يصل إلى غرضه مثل صاحب المكانة.

وكذلك نجد في فقرة أخرى، وهي من الصنف الذي نعثر عليه في تراجم الأموات:

> أنا الذي أنشأت الغلال والذي أحبه «نبر» (إله الحبوب)، والفيضان قد حيَّاني باحترام (أي كان معتدلًا في أيامي)، ولم يَجُعْ إنسان في سِنِي حكمي، ولم يعطش خلالها أحد، وكل ما أمرت به كان في موضعه الصحيح.

ولا شك في أن أي عالم أثري يقرأ هذه الفقرة دون أن يعلم أنها من تعاليم «أمنمحات»، لا يشك في أنها كانت على لوحة مأتمية.

ولدينا فقرة أخرى يمكن أن تُعتبَر تفسيرًا للظروف التي انفجرت فيها المؤامرة، وهي في الوقت نفسه تمدنا بسبب من الأسباب التي بها نجحت في بادئ الأمر، وهي الفقرة التي يقول فيها «أمنمحات»:

> انظر إن المصيبة قد حلَّت بي عندما كنت بدونك.

والقول بأن الثورة قد بدأت و«سنوسرت» بعيد عن العاصمة، يتفق تمامًا مع بداية قصة «سنوهيت»؛ إذ تقرأ هناك أن «أمنمحات» قد مات عندما كان ابنه عائدًا من حملته إلى بلاد لوبيا، على أن السرعة التي عاد بها «سنوسرت» ليصل إلى مقر الملك مع كتمان الأمر عن جيشه، والرسالة التي بعث بها لإحضار أولاد الملك الذين كانوا يرافقون ذلك الجيش، وذعر «سنوهيت» الغريب وهربه، وسؤال الشيخ الفلسطيني «لسنوهيت» عما إذا كانت قد حدثت

كارثة في العاصمة، ثم محاولة «سنوهيت» إقناعه بعدم حدوث أي شيء شاذ، (وأن كل ما حدث هو أن «أمنمحات» قد رحل إلى الأفق ... وأن ابنه قد دخل القصر وتولَّى ميراث والده) واعترافه بأن موت «أمنمحات» لا تُعرَف نتائجه. كل هذه الحقائق توحي إلينا أن هذا الموت لم يكن طبيعيًّا مما يتفق وما جاء في سياق التعاليم.

ثم يأتي بعد ذلك في المتن (هذا إذا كان ما تُرجِم هو المتن الصحيح):

قبل أن يسمع رجال البلاط أني سأسلمك (الحكم)، وقبل أن أجلس معك.

وإني أفهم من هذه الكلمات أن «أمنمحات» قد حال بينه وبين إعلان ابنه ملكًا على البلاد بصفة رسمية موتُه المفاجئ.

وإذا كان هذا الرأي هو الصحيح عن محتويات هذه التعاليم، فما هو إذن الغرض منها، وما القصد الذي من أجله كُتِبت؟

والجواب عن ذلك أن هذه الوثيقة مقال سياسي في صورة قطعة أدبية صِيغَتْ دعاية لتعضيد حزب «سنوسرت» الأول؛ فقد رأينا أن «سنوسرت» بعد موت والده قد أسرع إلى مقر الملك، وقد وصل في الوقت المناسب ليمنع ما يخشى من الأحداث، وقد أفلح في تسلُّم مقود المملكة التي كان والده قد أَعَدَّها له.

ولكن لا بد أن يكون تيار المعارضين قويًّا؛ إذ كان المنافسون له على وشك الوصول إلى مأربهم، وربما كان لديهم من الأسباب الحقة ما يبرر موقفهم ويقوِّي جبهتهم ويُضعِف من «سنوسرت» واستحقاقه العرش.

فمن المحتمل أن يكون «سنوسرت» قد لجأ إلى قوة السلاح الأدبي؛ لتهدأ النفوس عقب الضربات القاصمة التي أَوْدَتْ بحياة الملك الكبير.

فقد كتب أديب بإيعاز من «سنوسرت» أو بوازع من نفسه هذه التعاليمَ، يُظهِر فيها الملك المتوفى بسلطانه العظيم يعضد «سنوسرت» ويخاطبه من قبره بوصفه الملك الشرعي على البلاد، ومتهمًا أولئك الأوغاد الذين أَوْدُوا بحياته. ولما كان غرضه من هذه التعاليم أن يعضِّد ابنه جاء في مستهلها بما يؤكِّدها ويثبت صدقها، فذكر الجملة التالية: «يقول لابنه في رسالة صادقة.»[١١]

وقد كان من الأمور الطبيعية في التفكير المصري أن يأتي الوالد المتوفى من عالم الأموات لمساعدة ابنه على الأرض؛ وذلك لأن موتى المصريين كانوا دائمًا حاضرين، وكان لديهم من القوة ما يؤثر على حظوظ الأحياء، فكثيرًا ما نجد الحي يطلب مساعدة المتوفى وحمايته، وقد عُثِر على كثير من الخطابات التي أرسلها الأحياء إلى الأموات، مما يوضِّح لنا تأصُّل هذه الفكرة في معتقدات المصريين.

وإذا كان من الممكن الاتصال بالموتى بالرسائل، وإذا كان في مقدور المتوفى أن يقرأ ما يَرِدُ إليه من رسائل الأحياء، فمن المعقول المنطقي — وكان المصريون منطقيين في مثل هذه الأمور — أن يكتب الأموات بأنفسهم للأحياء؛ ولهذا عثرنا على عدد قليل من الخطابات أرسلها الأموات للأحياء مقابل ما يصل إليهم من أقاربهم، ومن بين هذه الوثائق ورقة «هاريس» التي وصفها «ستروف» الأثري الروسي بأنها تزييف ولكنه قديم، وقد ذكر فيها أن الملك رعمسيس الثالث المتوفى — وقد كان كذلك فريسة لمؤامرة نسوية — قد أفرد أحد أولاده بأن يكون الوارث الشرعي للعرش، ويرجو من الآلهة والشعب أن يعاضدوه، وبذلك أفسد الغرض الذي لاقى من أجله الملك حتفه. ولا شك في أن المتن الذي بين أيدينا الآن بمثابة مثال مبتكَر من نفس هذا النوع من المقالات السياسية التي كُتِبت للدعاية.

على أن الحرب بالأسلحة الكتابية أو الأدبية لم تكن من مبتكرات الملك «أمنمحات» الأول، وإذا كان من الممكن أن يصل إليه صدى من تعاليمه في العالم السفلي الذي غُيِّب فيه، فإنه لا بد أن

يذكر بابتسامة نبوءات «نفرروهو» عنه بأنه هو المخلص المنتظر الذي سينشر في البلاد عهد سعادة ورخاء، فقد كانت تلك النبوءات دعاية له في أول عهده عندما كانت شوكة الحزب المنتمي للأسرة الحادية عشرة لا تزال قوية، وقد كان من نتائج هذه الدعاية أن ضمَّتْ إلى جانبه شعور القوم الديني، ومهَّدَتْ له السبيل إلى اعتلاء عرش البلاد.

وفي اعتقادي أن هذه التعاليم تُعَدُّ من نوع هذه الوثائق، ورغم أننا لا نرى أمامنا صورة ذلك الملك المُسِنِّ اليَقِظ الصارم الذي لم تخدعه الأوهام، فإن لدينا في مقابل ذلك مقالَ دعايةٍ سياسيةٍ ليس بأقل حيوية ولا إنسانية من شخصه.

(١-٥) التعاليم

التعاليم التي ألَّفها جلالة الملك «سحتب أب رع» ابن الإله «رع» «أمنمحات» الأول، متحدِّثًا عن رسالة صادقة لابنه رب العالمين يقول:

> أنت يا مَن ظهرت إلهًا (أصبحت ملكًا) أصغِ لما سألقيه عليك حتى تصير ملكًا على البلاد وحاكمًا على شواطئ النهر، وحتى يمكنك أن تفعل الخير (أكثر مما ينتظر)، خذ الحذر من مرءوسيك؛ لأن الناس يصغون لمَن يُرهبهم، ولا تقتربنَّ منهم على انفراد، ولا تثق بأخ، ولا تعرفنَّ لنفسك صديقًا، ولا تصطفينَّ لك خلَّانًا؛ لأن ذلك لا فائدة منه.

وبعد أن حذَّر ذلك الملك العظيم ابنه الثقة ببني الإنسان عامتهم حتى الأخ، حذَّره كذلك اتخاذ الخلَّان؛ لأن تجاربه الشخصية عرفته أن أقرب الناس إليه هم الذين اغتالوه.

وبعد ذلك ينتقل الملك إلى نصح ابنه بألَّا يتكل على أحد آخَر في أن يحافظ عليه، وذلك بعد أن رأى بعيني رأسه أن إحسانه وعطفه قد قوبلا بإنكار الجميل، قال:

وعندما تكون نائمًا كن الحارس لشخصك حرصًا على قلبك؛ لأن الرجل لا صديق له في يوم الشدة، فإني قد أعطيت الفقير وعلمت اليتيم، وجعلت مَن لا ثروة له مثل صاحب الثراء، وقد كان آكِل خبزي هو الذي جند الجنود ضدي، والرجل الذي مدَّدتُ له يد المساعدة هو الذي أحدث لي بها المتاعب، والذين يرتدون فاخر كتاني عاملوني كالذين في حاجة إليه، والناس الذين يتضمخون بعطوري قد لوَّثوا أنفسهم وهم يستعملونه (بخيانتي).

وانتقل «أمنمحات» بعد ذكر هذه الصورة التي تدل على الشك في الناس والتشاؤم منهم، إلى حث خلفه — وهم لا يزالون يذكرون تأملاته المحزنة وما آتاه من الأعمال الحربية العظيمة — أن يعوا هذه المعلومات في نفوسهم؛ وذلك لأن الخلف دائمًا ينسى ما قام به السلف، ومع ذلك فإن الإنسان لا يمكنه أن يصل إلى السعادة الحقيقية إلا بالمعرفة، اسمع إليه وهو يقول:

وأنتم يا نسلي من الأحياء ويا مَن سيخلفونني من الناس، اعملوا على أن تكون أحزاني كأنها أشياء لم يُسمَع بها، وكذلك اجعلوا ما قمت به من عظيم الأعمال الحربية لا يُرَى؛ وذلك لأن الإنسان يحارِب في ساحة الوغى وقد نسي (ما جرى) بالأمس، ومع ذلك فإن الإنسان الذي يتناسى العلم لا تتم له سعادة.

وينتقل الملك بعد ذلك إلى وصف الحالة التي كان عليها حينما هاجَمَه المتآمِرون، قال:

لقد كان ذلك بعد العشاء حينما دخل الليل، وكنت قد أخذت ساعة من الراحة واضطجعت على سريري، وكنت متعبًا، وأخذ قلبي يجد وراء النوم، ثم شعرت كأنَّ أسلحة تلوح، وكأنَّ إنسانًا يسأل عني، فانقلبت كأني ثعبان الصحراء (أي قمت منتصبًا).

وبعد هذه القطعة أخذ «أمنمحات» يصف موقفه الحرج عند الهجوم عليه، وهنا تختلف الآراء كما أوضحنا فيما مضى، فيقول «دي بك»: إن الملك اغتيل فعلًا، أما «جاردنر» فلا يعتقد ذلك؛ ولهذا نجد أن كلًّا منهما يترجم الجملة التي تشير إلى ذلك حسبما يظن:

> وقد استيقظت (على صوت الحرب) وكنت وحيدًا، ووجدت أنها حرب جنود، ولو كنت أُسعِفت بالسلاح في يدي لَكنت قد شتَّتُّ شمل المخنثين شذر مذر، ولكن لا شجاع في الليل، ولا يمكن أن يحارب الإنسان وحيدًا؛ إذ لا نصر بدون معين.

يرى بعد «أمنمحات» أنه قد أصبح طاعنًا في السن، وليس في مقدوره أن يحكم البلاد وحده، ولما لاحَظَ أنه قد أصبح غير قادر على أن يتنبَّأ ويعوق المؤامرة التي دُبِّرَتْ ضده، نزل عن الملك لابنه «سنوسرت»، وهو الذي أشركه معه في حكم البلاد، ولذلك يقول:

> تأمَّلْ لقد أريق الدم وأنت بعيد عني، وقد سلَّمت لك (الملك) قبل أن يسمع بذلك رجال البلاط، وعلى ذلك دعني، أفعل ما تريد؛ وذلك لأني لم أحتط لنفسي ضد هذه (المؤامرة)، فإني لم أفطن لها من قبلُ، هذا فضلًا عن أن قلبي لم ينتبه إلى تراخي الخدم.

ينتقل بعد ذلك «أمنمحات» إلى التنويه بأن هذه المؤامرة قد دُبِّرَتْ في الخدور، وقد وضع المؤلف هذه الحادثة في ثلاثة أسئلة قد اختُلف كثيرًا في ترجمتها، ونظن أن الأستاذ «جاردنر» قد قارَبَ الحقيقة؛ إذ يقول:

> هل حدث أن النساء اصطففن في ميدان المعركة؟ وهل مَن لا يرعى حرمة القانون قد شبَّ في القصر؟ أو هل الماء الذي كسر السد قد انطلق، وعلى ذلك خاب الفلاحون في عملهم؟

ويمكن فهم السؤالين الأولين تمامًا، أما الثالث فإنه استعارة تشبيهية من الطراز الأول؛ إذ من المحتمل أن نفهم منها أن الشعور بالولاء الذي نماه الملك قد تلاشى، فأصبح الوئام الذي كان يسود القصر مقضيًّا عليه جملة؛ ولذلك شبَّهَه بتوزيع مياه الفيضان في وقت الزرع بوساطة القنوات الصغيرة تشق الحقول وتقسمها إلى مربعات مثل رقعة الشطرنج، فإذا حدث خلل في هذه القنوات الصغيرة فإن كل المساحة تغمرها المياه، وبذلك يضيع تعب الفلاحين سدى.

على أن ما يأتي لا يثبت أن المؤامرة قد خابت، ويمكن فهم نتيجتها ضمنًا من قوله:

> وسوء الحظ لم ينتبني منذ وُلِدت، هذا فضلًا عن أنه لم يتأتَّ لإنسان قطُّ أن يقوم بمثل ما قمتُ به من الأعمال العظيمة بوصفي رجلًا شجاعًا.

ثم ينتقل «أمنمحات» إلى تعداد ما أحرزه من النجاح في ميدان الأعمال المادية فيقول:

> لقد اقتحمت طريقي إلى الفنتين (أسوان) ونفذت حتى مناقع الدلتا، ووقفت عند نهاية حدود الأرض وشاهدت وسطها، ووصلت إلى معاقل الحدود بقوة ساعدي وباهر أعمالي العظيمة.

ثم يأتي ذكر أعمال الخير التي قام بها الفرعون المسن مادحًا إياها قائلًا:

> لقد كنت مؤسِّسًا للمحاصيل الزراعية، محبوبًا من الإله «نبر» رب الغلال، وقد حيَّاني النيل في كل رقعة من الأرض المكشوفة، ولم يَجُعْ إنسان في سني حكمي، ولم يسغب أحد خلالها (السنون)، ولكن القوم جلسوا في سلام بما عملت لهم، وتحدَّثوا عني، وكل ما أمرت به كان في موضعه الحق، ولقد أذللت الأسود واصطدت التماسيح، وقهرت أهل واوات، وأسرت قوم الماتو، وجعلت الآسيويين يمشون كالكلاب، وأقمت بيتًا مزيَّنًا بالذهب وسقفته من اللازورد، ... ورقعته ... وأبوابه من النحاس، وأقفاله من البرنز،

وقد صنعتها لتبقى إلى زمن لا نهاية له، والأبدية تخشاها؛ لأنها لا يمكنها أن تقضي عليها.

ويأتي بعد ذلك عدة جمل لا يمكن فهمها؛ لأن المتن مشوَّه.

ولا نزاع في أن كاتب هذه التعاليم قد رسم لنا صورة التشاؤم والريبة التي بعثتها أحوال البلاد في ذلك العصر، رغم ما قام به «أمنمحات» من إعادة النظام القديم الذي كانت عليه البلاد بقدر ما استطاع؛ إذ كانت الأحوال قد حتمت عليه أن يتخيَّر عمَّاله وموظفيه لإدارة البلاد من بين أولئك الرجال الذين ترعرعوا وشبوا في عهد ذلك الانحطاط الذي عقب عصر الأهرام، وكانت قلوبهم قد أُشْرِبَتْ حب الفوضى والفساد اللذين هوى إلى حضيضهما الشعب المصري عدة قرون، ولم ينقذه منها في ذاك الوقت إلَّا «أمنمحات»، وإن كانت بقاياهما قد ظهرت ثانيةً في حادثة اغتياله على يد مَن أحسن إليهم؛ ولذلك بدا شعور النفوس في المجتمع المصري في ذلك العهد مملوءًا بالريبة والشكوك إلى حدِّ أن ذلك الشعور قد انعكست ظلاله على أعظم أنواع الفنون في ذلك العصر، وأعني بذلك فن نحت التماثيل البشرية، فظهر في هيئات التماثيل الخالدة التي تمثِّل لنا ملوك الدولة الوسطى سمة الرزانة والوجوم التي تُلمَح في أقوالهم ونصائحهم، والتي كانوا ينظرون بها في عصرهم إلى الحياة الدنيا. وعندما نُنْعِم النظر في تلك الوجوه التي تدل على الجرأة والبطولة أمثال «سنوسرت» الثالث و«أمنمحات» الأول والثالث، وقد ظللتها سحائب اليأس والقنوط، نرى أن نفس هذه الوجوه تعدُّ كشفًا جديدًا في ميدان الفن يميط لنا اللثام من غير شك عن روح ذلك العصر الذي يعتبر أقدم عصر معروف تخلَّصَ من الأوهام ولم ينخدع بها، وسنرى ذلك جليًّا في باب التأملات عند الكلام على موضوع شجار بين إنسان سئم الحياة وبين روحه.

(أ) المصادر

أهم المصادر التي يرجع إليها ما يأتي:

(1) Gardiner, "The Earliest Manuscripts of the Instruction of Amenemmes I", "Melanges Maspero", Vol. 1, PP. 479 ff.

(2) Peiper, "Die Agyptische Literatur", PP. 37. ff.

(3) Peet, "A Comparative Study of the Literature of Egypt, Palestine and Mesopotamia", PP. 107 ff.

(4) Breasted, "The Dawn of Conscience", PP. 205 ff.

(5) Erman, "The Literature of the Ancient Egyptians", PP. 12 ff.

(6) Maspero, "Les Ensignements d'Amenemhait 1er".

(7) Griffith, "A. Z.", Vol. XXXIV, PP. 35 ff.

(8) Battiscombe. Gunn Journal of Egyptian Archeology Vol. 27 P. 2. (Notes on Ammenemes I.)

(١-٦) تعاليم «خيتي بن دواوف» لابنه «بيبي»

لقد ظلت هذه التعاليم تُعرَف باسم تعاليم «دواوف» إلى أن برهن الأستاذ «جاردنر» على أن اسم كاتبها هو «خيتي بن دواوف»، وأن «خيتي» كتبها لابنه «بيبي».

وقد وصلت إلينا نسخ كثيرة من هذه التعاليم بعضها على أوراق بردية، وبعضها على لوحات خشبية، وفقرات على قطع الخزف، وشظيات من الحجر الجيري الأبيض الأملس، وأقدم فقرات وصلت إلينا منها هي التي اهتدى إلى حلها «بيانكوف»، ويرجع عهدها إلى أوائل الأسرة الثامنة

عشرة، وقد كُتِبت على لوح من الخشب بقي لنا بعض أجزاء منه، وهي بلا شك ترجع إلى عهد العصر الإقطاعي كغيرها من قطع الأدب، ولا غرابة فإنه هو العصر الذي ازدهر فيه الأدب بدرجة عظيمة (راجع تعاليم أمنمحات).

وهذا النوع من التعاليم الذي سنسوقه للقارئ كان محبَّبًا بصفة خاصة عند مدارس الدولة الحديثة؛ ولذلك نال مكانةً ممتازة، غير أن الطريقة التي عبث بها التلاميذ في المتون كانت معيبة لدرجة يقصر أمامها كل وصف، فلا يكاد القارئ يتم قراءة فقرات منها حتى يتساءل بيأس عمَّا كان مكتوبًا في الأصل؛[١٢] لأن ما كتبه التلاميذ كلمات لا معنى لها غالبًا، وقد يكون السبب في ذلك عدم فهمهم ما نقلوه، أو عدم إقبالهم على عملهم وإجبارهم عليه، ولكن من حسن الحظ أن القطع التي عثَرَ عليها «بيانكوف» وقرنها بما يقابلها في النسخ الأخرى قد حلَّتْ لنا بعض معضلات هذه التعاليم، وإن كان الجزء الأكبر منها لا يزال غامضًا بعض الشيء في نقط، ومغلقًا تمامًا في أخرى.

ويرجع السبب في حظوة هذه التعاليم وانتشارها في مدارس عهد الرعامسة إلى أنها كانت تتغنى بفضل المدارس والتربية المدرسية وبامتداحها لمهنة الكاتب، وهي بالضبط كالرسائل التي كانت تُتبادَل بين المدرسين في عهد الدولة الحديثة.

وعصر هذه التعاليم قد أصبح محققًا إذا كان «خيتي» هذا هو الذي كتب تعاليم الملك «أمنمحات» الأول، ويفتتح الحكيم «خيتي» هذه التعاليم كالعادة بذكر اسمه وابنه الذي من أجله كُتِبت هذه النصائح فيقول:

> تعاليم ألَّفَها مسافر في حجرة سفينة اسمه «خيتي» بن «دواوف» لابنه «ببيي»، حينما سافر مصعدًا في النهر إلى عاصمة الملك ليلحق ابنه بالمدرسة بين أولاد الحكَّام.

وهذا العنوان وحده يكشف لنا عن حقائق خطيرة من الوجهة التعليمية والتاريخية؛ فمنه نعلم أنه كان يوجد مدرسة جامعة يتعلَّم فيها أولاد علية القوم في عاصمة الملك، وأن العاصمة كانت وقتئذٍ في الوجه القبلي؛ لأنه كان على «خيتي» أن يقلع بسفينته مصعدًا في النهر، ومن الجائز أنها كانت وقتئذٍ «أهناس المدينة» أو «طيبة»، هذا إلى أن هذه المدرسة كان يُعلَّم فيها أولاد حكام المقاطعات ومَن في طبقتهم، وسنرى أن «خيتي» يقول لابنه: وستكون رئيسًا لمجلس «قنبت»، وهو ذلك المجمع الذي كان يدير حكومة البلاد في العهد الإقطاعي (انظر قصة المخاصمة بين «حور» و«ست») وكان معظمه في ذلك الوقت من حكام المقاطعات.

ونجد أن أول ما يلقي «خيتي» على ابنه من النصائح هو أن يرسم له صورة قبيحة للجاهل، ثم يغريه بأن يحب العلم أكثر من حبه لأمه، ويقول له: إنه عاجز عن تصوير جماله له، ثم يشير إليه بأن صناعة الكتابة تفوق كل الحرف، وأنه لو تعلمها فإن القوم يهنئونه على ذلك فيقول:

> لقد رأيتَ مَن ضُرِب، فعليك أن توجِّه قلبك لقراءة الكتب، ولقد شاهدت مَن أُعتِق من الأشغال الشاقة. تأمَّلْ! لا شيء يفوق الكتب.

> اقرأ في نهاية «كمت» (لعله اسم كتاب قديم؟) تجد فيه هذه: إن الكاتب عمله في كل مكان في حاضرة الملك، ولن يكون فقيرًا،[١٣] والرجل الذي يعمل على حسب عقل غيره لا ينجح. ليتني أجعلك تحب الكتب أكثر من والدتك، وليت في مقدوري أن أُظهِر جمالَها أمام وجهك، إنها أعظم من أي حرفة … وإذا أخذ (التلميذ) في سبيل النجاح وهو لم يزل طفلًا، فإن الناس تهنِّئه، ويُكلَّف تنفيذ الأوامر، ولا يعود إلى البيت ليرتدي ثوب العمل (مثل أرباب الحِرَف الأخرى).

بعد ذلك يصف الأب لابنه الفرق بين مهنة الكاتب وما ينال صاحبها من الشرف، وبين المهن الأخرى التي يكون من جرَّائها تعب الجسم واضمحلاله، وتعرُّض محترفها للأخطار، فيقول:

على أنني لم أرَ قطُّ قاطِعَ أحجار كُلِّفَ برسالة، ولا صانعًا أُرسِل في مهمة.

ثم يتناول بالشرح كل مهنة وما فيها من متاعب وحقارة بالنسبة لمهنة الكتابة، ويقدِّم لابنه درسًا في الحياة الاجتماعية، ويستعرض أمامه نواحي مصر الصناعية، ونصيب كل صانع من متاعبها، يذكر ذلك في شيء من المبالغة، ولكنه يكشف لنا في الوقت نفسه عن نوع الحِرَف التي يتخذها أبناء العصر المظلم الذي يتحدث عنه.

وإذا كان القارئ الأجنبي لا يحفل بهذا العرض كثيرًا فإن القارئ المصري يستهويه أن يراه؛ لأن فيه صفحة مضى عليها أربعة آلاف سنة، يستطيع أن يقرنها بصفحة مصر الحاضرة، فيرى أن الأخيرة تكاد تطابِق الأولى مع طول العهد بينهما، وأن هذه المطابقة تشتد وتقوى في الدساكر والقرى؛ حيث يضعف تأثير المدنية الحديثة.

فيتكلَّم أولًا عن صانع المعادن فيقول:

ولكني رأيت النحَّاس يقوم بعمله عند فوهة الأتون وأصابعه كجلد التمساح (أي إنها مجعَّدة وخشنة كجلد التمساح)، ورائحته أكثر كراهية من البيض والسمك.

ثم ينتقل إلى الخراط فيقول:

وكل صانع يقبض بمهارة على المخرطة،[١٤] (؟) فإن الإعياء يناله أكثر ممَّن يفلح الأرض، وميدانه الخشب وفأسه المخرطة (حرفيًّا: المعدن)، وفي الليل حينما يطلق سراحه يعمل فوق طاقة ساعديه، وفي الليل يشعل النور (أي يستمر في عمله فلا راحة له).

ثم ينتقل إلى الكلام على البَنَّاء وما يناله من التعب الجثماني فيقول:

والبنَّاء يبحث عن عمل له (؟) في كل أنواع الأحجار الصلبة، وعندما ينتهي منه تكون ذراعاه قد تكسَّرَتَا، ويصبح مُضنى، وعندما يجلس امرؤ كهذا عند الغبش فإن فخذيه وظهره تكون قد حُطِّمت.

بعد ذلك يتناول حرفة الحلَّاق فيُظهِر لابنه أنها مضنية، صاحبها لا بد أن يجول في الشوارع ليبحث عن عمل يسد رمقه بما يكسبه منه، فنراه يقول:

والحلَّاق يحلق متأخرًا إلى الغروب ... ويجول من شارع إلى شارع ليبحث عمَّن يحلق له، ويُنهِك ذراعيه لأجل ملء بطنه، كالنحلة التي تأكل وهي تكد.[١٥]

وكذلك يُظهِر له المتاعب التي يُلاقِيها التاجر (؟) الجوال ليحصل على ثمن سلعه، فيقول:

والتاجر (؟) يسيح إلى الدلتا ليحصل على ثمن سلعته، ويكد فوق طاقة ساعديه، والبعوض يقتله (لما يحمله من الجراثيم) ...

ويتناول بعد ذلك أحقر الحِرَف وهي صناعة اللَّبِن فيقول:

وصانع اللبن (ضرب الطوب) الصغير الذي يصنعه من غرين النيل يقضي حياته بين الماشية (؟)، وهو على أية حال مختص بالكروم والخنازير (في المصرية تورية بين كلمة كروم وخنازير، وربما كان ذلك هو السبب في ذكرها هنا)، وملابسه تكون خشنة ... وهو يشتغل بقدميه ويدق ...

والظاهر أن حرفة البناء كانت شاقة عند المصريين؛ حتى إن حكيمنا هنا قد رصد لها فقرتين غير ما ذكر، ولكن الفقرة الثانية فيها بعض الغموض، فيقول:

دعني أحدثك فضلًا عن ذلك عن البنَّاء الذي يكون غالبًا مريضًا (؟) وملابسه قذرة، وما يأكله هو خبز أصابعه، ويغسل نفسه مرة واحدة ... وهو أتعس مما يمكن أن

يتحدَّث عنه الإنسان بحق (؟)، فهو كقطعة حجر (؟) في غرفة طولها عشرة أذرع في ستة … والخبز يقدِّمه إلى بيته، وأطفاله يضربون ضربًا … (وهذه القطعة غامضة في الأصل).

ثم يصف الحكيم لابنه حالة البستاني، ويظهر أنه يقصد به زارع الخضر والفاكهة على السواء فيقول:

أما البستاني فيحضر أثقالًا وذراعه ورقبته تتألمان من تحتها، وفي الصباح يروي الكراث، وفي المساء الكروم (لأن ذلك أحسن وقت لريها عندما تكون محملة بالفاكهة) … فحرفته أسوأ من أية حرفة.

ثم ينتقل إلى وصف حالة الفلاح، وهو ذلك الوصف الذي ينطبق على حالة فلاح مصرنا؛ فالأمراض تفتك به، وصاحب الأملاك يستنفد كلَّ محصوله، فهو كالحيوان الضعيف الذي يعيش بين الأسود، فهو لا بد مأكول، فيقول الحكيم:

أما الفلاح فحسابه مستمر (أي إن صاحب الأرض يطالبه دائمًا بتأدية ما عليه من الديون) إلى الأبد، وصوته أعلى من صوت الطائر «آبو» … (دائمًا يشكو)، وهو كذلك أكثر تعبًا ممَّن يمكن التحدُّث به، وحالته كحال الذي يعيش بين الأسود، وهو في غالب الأوقات مريض (؟)، وعندما يعود إلى بيته في الغروب، فإن المشي يكون قد مزَّقه إربًا إربًا (أي إن طول الطريق يجهده إجهادًا كبيرًا فوق ما لاقى من التعب خلال اليوم).

يتناول بعد ذلك «خيتي» حكيمنا الناسج الذي يعمل وهو جالس طول اليوم، فيشبِّهه بقعيدة البيت، فهو لا يتمتع بالهواء الطلق، وهو مراقَب دائمًا، فإذا تباطَأَ عن العمل يومًا ضُرِب بالسوط، وفي

رواية أخرى انتُزِع من مكان راحته كما تُنتزَع زهرة السوسن من البركة، وإذا أراد أن يخرج من مصنعه ليستنشق الهواء، فلا يصل إلى ذلك إلا بالرشوة، فيقول:

> وحال الناسج داخل مصنعه أتعس من حال المرأة، فركبتاه تكونان في بطنه، وهو لا يمكنه أن يستنشق الهواء، وإذا أمضى يومًا دون عمل انتُزِع (من مكان راحته) مثل ما تُنتزَع زهرة السوسن (في رواية أخرى فإنه يُضرَب بسوط ذي ٥٠ شعبة) أو (فإنه يُضرَب كسائمة الضحية ٥١ سوطًا)، وهو يقدِّم لحارس الباب خبزًا ليسمح له بالخروج في ضوء النهار.

بعد ذلك يصف هذا الحكيم المحنك لابنه «حرفة» من الحِرَف التي كانت شائعة في ذلك العصر، ولكنها قد اختفَتْ في عهدنا تدريجيًّا بانتشار المدنية، وأعني بذلك صناعة «السهام» التي لم يفتأ يستعملها المصري؛ لأنها كانت من أهم أسلحة الحرب، فيصف كيف يحتم على صاحبها أن يذهب إلى الصحاري والجبال حيث الظرَّان الذي تُصنَع منه السهام، وما في ذلك من بُعْد المسافة، وما يعانيه هو وحماره، وما يستلزمه من المال لمَن يرشده إلى الطريق في وسط تلك الفيافي والقفار، وما يتطلَّبه كل ذلك من وقت ونصب، فيقول:

> وصانع السهام يكون تعسًا عندما يرحل إلى الصحراء، وإن ما يعطيه حماره لكثير، هذا فضلًا عن أنه عمل يستغرق وقتًا طويلًا، ويعطي كذلك الذين في الحقول والذين يرشدونه إلى الطريق كثيرًا أيضًا، وعندما يصل إلى بيته في المساء فإن السير يكون قد أنهكه.

ثم يتناول بعد ذلك حرفة أخرى من التي أخذت تتلاشى في مصر، وإن كانت لم تزل باقيةً في بعض الجهات المتطرفة التي لم تصلها المدنية الحديثة، وأعني بها نقل البريد برجال خصصوا بذلك، فيصف لنا كيف أن عامل البريد عند ذهابه إلى بلد أجنبي يترك وصيته خوفًا من عدم

عودته؛ لما في رحلته من المخاطر، وحتى إذا عاد إلى مصر ثانيةً فإنه لا يعود مرتاح النفس؛ لأن التعب يكون قد أضناه، فيقول:

وحامل البريد عندما يسافر إلى بلد أجنبي يوصي بأملاكه لأولاده؛ خوفًا من الأسود والآسيويين، وهو يعلم ذلك وهو في مصر، وعندما يعود إلى بيته يكون تعسًا؛ لأن المشي قد كسره، وسواء أكان بيته من النسيج أو اللَّبِن (؟) فإنه لا يعود منشرح القلب (وفي رواية أخرى: وعندما يصل إلى بيته مساءً فإن قلبه يكون فَرِحًا).[١٦]

ويعقب ذلك كلام على حرفة لم نصل إلى كُنْه معناها، والغرض من ذكرها هنا هو أن يُظهِر له بشاعة رائحة محترفها؛ ولذلك سنورد الكلمة هنا بأصلها المصري:

أما الـ «ستنوي» فإن رائحة إصبعه تكون نتنة، والرائحة التي تتصاعد منها هي رائحة جثة، وعيناه تكونان مثل ... (؟) ... بسبب المسوح ... وهو لا يُقصى عنه «ستناوي» وهو يقضي وقته في تقطيع الخرق (؟) وما يمقته هو الملابس.

ثم يشفع ذلك بالتحدُّث عن حرفة يظهر أنها تشبه السابقة في قذارتها، وأعني بها حرفة الإسكاف، فيصف الحكيم لابنه كيف أن هذا التعس يحمل أوانيه التي فيها آلاته وجلده، وكيف أن صحته تسوء، وجسمه يهزل، وقد يُجبَر على قطع الجلد بأسنانه فيقول:

والإسكاف يحمل أوانيه إلى الأبد (وفي نسخة أخرى: يحمل آلاته إلى الأبد)، وصحته تكون كصحة الجيفة، وما يعض عليه هو الجلد.

ثم يأتي بعد ذلك الكلام على حرفة الغسَّال، ومجازفة صاحبها بنفسه أمام خطر التمساح، مما يدل على كثرة هذا الحيوان في ذلك العصر في النيل، وما يلاقيه بسببها من تعب جثماني، وما يشعر به من تعس عندما يضع مئزر سيده ليؤدي فيه عمله؛ فيقول:

والغسَّال يغسل على الموردة، وإذ ذاك يكون جارًا قريبًا للتمساح (في صورة إله) وعندما يخرج الوالد (الغسال) متجهًا نحو الماء المضطرب، فإن ابنه وابنته يكونان في عمل هادئ منعزل عن كل عمل آخَر، وعندئذٍ يقول ابنه وابنته: إن هذا ليس بعمل يجد فيه الإنسان راحة، وهو منفصل عن أي عمل آخَر، وغذاؤه يكون مختلطًا بمكان حساباته، وليس فيه عضو سليم، وإذا ارتدى مئزر المرأة فإنه وقتئذٍ يكون تعسًا، وهو يبكي حينما يمضي وقته حاملًا الـ «مكاتن» ... ويقال له — «الغسيل» — أسرع إليَّ ...

ويعقب هذا بحرفة أخرى ليست من نوع الحِرَف السابقة، بل هي حرفة لهو، ولذلك يقول عنها: إنها تجعل صاحبها يهمل أعماله، وأعني بها حرفة صيد العصافير، فيقول:

وصائد العصافير تراه في منتهى التعس عندما يشاهد ما في السماء ويهمل أعماله (وفي رواية أخرى: وعندما تطير الطيور المتنقِّلة[١٧] في السماء، يقول: ليت عندي شبكة هنا، ولكن الله لا يهيئ له نجاحًا (؟).

بعد ذلك ينتقل إلى حرفة صيد السمك، ويصف الحكيم لابنه ما فيها من أخطار التمساح، فيقول:

إني مخبرك كيف أن حرفة صياد السمك أكثر تعسًا من أية حرفة أخرى، فإنه يشكو منها، أليس عمله على النهر حيث يختلط بالتماسيح (؟)، وإذا لم يقل له الإنسان يوجد تماسيح فإن خوفه يعميه.

وهنا ينتقل الكاتب الحكيم إلى إطراء حرفة الكتابة، فيقول:

إن صاحبها هو الذي يصدر الأوامر.

ثم يصفها بأنها أحسن من كل الحرف التي استعرضها أمامه فيقول:

> تأمَّلْ! فإنه لا توجد حرفة من غير رئيس لها إلا صناعة الكاتب فهو رئيس نفسه،[١٨] فإذا عرف الإنسان الكتب فإنه يقال عنه بحق: إنها مفيدة لك … وما أقوم به في سياحتي إلى الحاضرة، تأمَّلْ! إني أقوم به حبًّا فيك، ويوم في المدرسة مفيد لك، وما تعمله فيه يبقى مثل الجبال.

ويعقب هذه الكلمات الحكيمة بعض فقرات غير مفهومة وتدل مقدمتها هذه: «دعني ألقِ عليك فضلًا عمَّا سبق كلمات لأعلمك.» على أنها تبحث في موضوع جديد؛ ومن المحتمل أنها إضافات قد أُدخِلت على المتن الأصلي فيما بعدُ، فمنها فقرة تعلِّم الإنسان حُسْن السلوك في حضرة العظيم، فيقول حكيمنا:

> إذا دخلت ورب البيت في داره مشغول بآخَر قبلك، فعليك أن تجلس ويدك في فمك، ولا تسألن عن أي شيء، وفضلًا عن ذلك لا تتكلمنَّ بكلمات غامضة، ولا تنطق بلفظة وقحة … ثم إذا حضرت من المدرسة وقد أعلن وقت الظهر لك وأنت سائر تصيح فرحًا في الطرقات، فحينئذٍ … وإذا أرسلك رجل عظيم برسالة فأدِّها كما أُلقِيَتْ عليك، ولا تُنقِص منها ولا تزد …

ويلي ذلك نصيحة غالية في القناعة في المأكل والمشرب من أحسن ما قيل في هذا الباب، إذ يقول:

> كُنْ قنوعًا بطعامك، إذا كان يكفيك ثلاثة رغفان وشرب قدحين من الجعة، فإذا لم يكن بطنك قد اكتفى بعدُ فحارِبْه (؟).

ثم إن الحكيم يحض ابنه على أن يستمع لكلمات الرجل العظيم، ويتخذ لنفسه صديقًا من سنه، فيقول:

انظر، إنه لحسن أن تفض الجمهور، وتستمع منفردًا إلى كلمات العظيم ... اتخذ لنفسك رجلًا صديقًا من جيلك.

وفي النهاية نرى «خيتي» يقول لابنه إنه قد وضعه على الطريق الإلهية، وإن ربة «حصاد الكتاب» على كتفه منذ يوم ولادته، أي إنه لن يقاسي آلام الحاجة، وإنه بفنه يصل إلى أعلى وظيفة في البلاط، بأن يصبح عضوًا في المجلس الأعلى للحكام (قنبت)، بل قد يكون الرئيس فيه بما أوتيه من علم وحكمة، ثم يخبره أن هذا الطريق ممهَّد أمامه وأمام أولاد أولاده، فيقول:

انظر، إني قد وضعتك على طريق الإله، وإن «رننوت»[١٩] الكاتب (أي ربة الحصاد للكاتب) قد أصبحت على كتفه منذ يوم ولادته، وهو يصل إلى باب مجلس «القنبت» عندما يصل إلى سن الرجولة. تأمَّلْ! إنه لا يوجد كاتب قد حرم القوت الذي هو متاع بيت الملك عاش في صحة وفلاح، و«مسخنت» (إلهة الكتابة) هي سعادة الكاتب، وهي التي تضعه على رأس المجلس الأعلى (قنبت)، ويجب على الإنسان أن يشكر والده ووالدته اللذين وضعاه على طريق الأحياء، والآن تأمَّلْ، فإن هذا (أي ما نصحتك به) ما أضعه أمام وجهك ووجه أولادك. وقد انتهى هذا بسلام.

(أ) المصادر

أهم المصادر التي يمكن الرجوع إليها في دراسة هذه التعاليم ما يأتي:

(1) Papyrus Sallier II; and Papyrus Anastasi VII (British Museum, London).

(2) Pieper, “Die Agyptische Literatur”, P. 30.

(3) Peet, “A Comparative Study of the Literatures of Egypt, Palestine and Mesopotamia”, PP. 104 ff.

(4) Piankoff, “Quelques Passages des Instructions de Douaf sur une Tablette du Musee du Louvre”, “Revue d’Egyptologie”, Tome II. (1933) PP. 51–74.

(5) Erman, “The Literature of the Ancient Egyptians”, PP. 67 ff.

(6) Maspero, “Genre Epistolaire”, PP. 48 ff.

(١-٧) تعاليم «سحتب أبرع»

كان الفرعون «أمنمحات» الثالث (١٨٤٤–١٧٩٦ق.م) من أعظم ملوك الأسرة الثانية عشرة؛ فقد بلغت البلاد أوج مجدها في عهده بعد أن كانت في حالة فوضى واضطراب في عصر العهد الإقطاعي، وقد بدأ روح الوحدة يدب في جسم الدولة خلال حكمه بفضل جيل الموظفين الجديد الذي عمل ملوك هذه الأسرة على إنشائه؛ ليلتف حولهم، وليكون لهم نصيرًا وظهيرًا على تسيير أداة الحكم في البلاد، والقضاء على حكَّام المقاطعات الذين كانوا أكبر عقبة في سبيل توحيد نظام الحكومة والنهوض بها، فلا غرابة إذن أن نرى هؤلاء الموظفين حريصين على بثِّ روح الطاعة والمحبة لمليكهم في نفوس أولادهم، وقد بلغ بهم حب الفرعون درجة جعلت تعاليم بعضهم لأبنائه تدور حول حب الفرعون وخدمته والإخلاص له، لا أن ترشدهم إلى الحياة الصالحة السعيدة كما كانت التعاليم التي وصلت إلينا حتى الآن، بل إن الكاتب الذي فعل ذلك غالَى، فلم يشأ أن يكتب تعاليمه على ورق بردي، بل نقشها على صفحة حجرية، وجعلها شاهدًا لقبره حتى يضمن خلودها ويراها أولاده في كل وقت يزورون فيه قبره؛ لأن القبور كما نعلم

كانت تُحَاط بكل عنايةٍ في كل أزمان التاريخ المصري، وكان بكر أولاد المتوفى يُنصَّب عادةً كاهنًا يزورها ويقدِّم لوالده القربان كل يوم.

ولا غرابة في أن تشيع هذه العادة في ذلك العهد، ولم يصلنا بكل أسف إلا هذه اللوحة الحجرية التي تحدَّثنا عنها، وقد يكون لكاتبها صلة خاصة وثيقة بالملك أكثر من غيره، فغالَى في حبه لمولاه ونقش هذه التعاليم؛ إظهارًا لولائه للفرعون، وليسير أولاده على نهجه في حبهم وولائهم له. والواقع أن كاتب هذه النصائح كان موظَّفًا كبيرًا في المالية، ويقول: إن الملك قد مدحه أمام (الملايين)، وإنه كان صديقًا حميمًا لسيده الذي كان يُطلِعه على أسراره الخفية. وقد صاغ الكاتب عقود المدح لهذا الفرعون وأظهر عظمته، ومثَّله أمام أولاده بأنه يفوق كل إله، وأنه هو الذي يعطي مَن يشاء ويحرم مَن يشاء. ويرى القارئ أن المؤلف ينصح أولاده أن يحاربوا في جانب الملك مما يتفق وروح العصر الذي كان عصر نضال وحروب؛ لتثبيت عرش الملكية بتوحيد البلاد تحت حكم ملك واحد.

وقصارى القول أن هذه اللوحة كانت نوعًا من الدعاية للملكية في ذلك العهد، ولكنها دعاية فريدة وحاذقة في بابها، ومن الجائز أنها كانت عادية منتشرة وقتها، غير أنه لم يصلنا نحن منها إلا هذه الوثيقة وصيغتها:

(أ) المتن

إني أتحدَّث عن أمر عظيم، وأجعلكم تصغون إليه، وإني أنقل إليكم فكرة للأبدية[٢٠] وحكمة للحياة الصحيحة، ولأجل أن تمضوا مدة الحياة في نعيم، احترموا الملك «ني معات رع» بأجسامكم، وألفوا بين قلوبكم وجلالته، إنه هو الفهم الذي في القلوب، وعيناه تفحصان كل إنسان، وإنه «رع» الذي يرى الناس بأشعته، وإنه يضيء الأرضين أكثر من الشمس، ويجعل الأرضين أكثر نضارةً من نيل عالٍ، وإنه ملأ الأرضين قوةً وحياةً.

والأنوف تصير باردة حينما يجنح إلى الرعب،[٢١] وعندما يكون طلقًا يتنسَّم الناس الهواء، وهو يعطي مَن يخدمونه القوة الحيوية، ويمد بالطعام مَن يسير على نهجه، والملك قوة حيوية، وفمه الرخاء بعينه.[٢٢]

وإنه هو الذي يُطعِم مَن سيكون، وإنه الإله «خنوم»[٢٣] لكل الأجسام، والمبدع الذي يخلق كل الناس، وهو «باستت»[٢٤] التي تحمي الأرضين، ومَن يحترمه ينجُ مِن ساعِده، ولكنه الإلهة «سخمت» لمَن يتعدَّى أمره. حاربوا لاسمه، ودافعوا عن حياته حتى تنجوا من الكريهة (الغدر)، ومَن كان صاحبًا للملك فإنه سيكون محترمًا، ومَن كان عدوًّا للملك، فلا قبرَ له؛ وجسمه يُلقَى في الماء.

فافعلوا ذلك لتصحَّ أجسامكم. نعم، إن ذلك لمجد لكم إلى الأبد.

(ب) المصادر

(1) Stele, Cairo Museum, No. 20538.

(2) Erman, “The Literature of the Ancient Egyptians”, PP. 84-85.

(٨-١) نصائح «آني»

لقد كانت دراساتنا في باب الحِكَم والنصائح والتعاليم حتى الآن مستقاة مما وصل إلينا من الدولتين القديمة والوسطى على ما يظهر، وإن كان بعضها قد أُعِيد كتابته بلغة الدولة الحديثة تمشيًا مع التطورات الأدبية والاجتماعية؛ إذ قد لاحظنا في أثناء دراساتنا للوثائق الخاصة بذلك العصر أن الكتاب الواحد قد كُتِب في عصر الدولة الوسطى مثلًا، ثم أُعِيدت كتابته في الدولة الحديثة مع ظهور تغيير جوهري عن النسخة القديمة. ولا أدل على ذلك من أمثال «بتاح حتب»

التي عثرنا على نسخ منها من الدولة الوسطى، وأخرى من الدولة الحديثة. وما يدرينا! لعل الأيام تسعدنا فجأةً بنسخة من الدولة القديمة التي تُنسَب إليها تلك الأمثال والحِكَم الغالية.

أما في الدولة الحديثة فقد وصلت إلينا حتى الآن وثيقتان، واحدة تمثِّل أدب هذا العصر أو على الأقل كُتِبت بلغة هذا العصر التي تُسمَّى باللغة الحديثة، وهذه الوثيقة هي نصائح «آني» لابنه «خنسحتب». وإذا أردنا أن نحدِّد تاريخ هذه الورقة من أسماء الأعلام التي وردت فيها، فهي بلا شك كانت أعلامًا مستعملة في عهد الدولة الحديثة؛ فاسم «آني» وابنه «خنسحتب» من الأسماء المتداولة منذ الأسرة الثامنة عشرة، غير أن الكاتب «آني» نسب نفسه إلى بيت الملك «نفر كارع تاري» الذي يُنسَب إلى الأسرة الثامنة، رغم أنه سمَّى نفسه وابنه باسمين من أعلام الدولة الحديثة، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى ما كان للأدب القديم وبخاصة أدب الأمثال والحكم من منزلة، فكل ما كان قديمًا له في نظر القوم روعته واحترامه، وهذا ما نشاهِده في الأدب العربي، فكم من قصيدة كُتِبت في العصر العباسي أو العصر الأموي ثم نُسِبت إلى شعراء الجاهلية لتكون أوقع في النفوس، وأبهج للعين، وأحلى للأذن، ومع ذلك فقد كان من السهل كشف الحقيقة في كلٍّ من الأدب العربي والأدب المصري، وذلك من التعابير والاصطلاحات اللغوية التي كان يتميَّز بها كل عصر من عصور الأدب.

واللغة التي كُتِبت بها هذه النصائح يرجع تاريخها إلى بداية العصر الذي استُعمِلَتْ فيه اللغة المصرية الجديدة، وهو نهاية عصر «الهكسوس»، ولا أدل على ذلك من أن النسخة التي وصلت إلينا قد نقلها تلميذ من تلاميذ الأسرة الثانية والعشرين حسب رأي الأستاذ «إرمان»، وقد وجدنا بها أغلاطًا كثيرة جدًّا لدرجة أصبح من المستحيل معها تقريبًا فهم فقرات بأكملها، ومن المحتمل جدًّا أن هذا التلميذ لم يفهم كثيرًا من محتويات الكتاب؛ لأن اللغة الحديثة التي كتب بها لم تكن لغة العصر الذي عاش فيه، بل كانت لغة القوم الذين عاشوا قبل زمنه بنحو ٣٠٠ أو ٤٠٠ سنة، ولدينا دليل مادي على ذلك؛ إذ وجدنا في متحف «برلين» أدوات كتابة لتلميذ عاش

في خلال الأسرة الثانية والعشرين، ومن بينها لوحة كتابة مكتوب عليها الكلمات الافتتاحية لنصائح «آني»، غير أننا لاحظنا أن التلميذ لم يفهم هذه الجمل الافتتاحية، ولذلك وجدنا معها شرحها باللغة التي كانت مألوفة له، فنقرأ:

> أول التعليم الوعظي (= فاتحة التعاليم الوعظية) لمؤلفه الكاتب «آني» (= التي ألَّفَها الكاتب آني) التابع لبيت «نفر كارع تاري».

وهذا طبعًا ما نجده بالضبط عندما نقرأ مؤلَّفًا قديمًا لم يكن في مقدور القارئ فهمه؛ فيسهل أمر فهمه بالشرح والتعليق عليه.

وهذه النصائح كما قلنا من قبلُ تقليدٌ حديث لكتب الحكمة القديمة، والواقع أنها تشبهها من ناحية أنها تعليم والد لابنه، إلا أن المجال هنا على ما يظهر أوسع أفقًا، ويشتمل على حيوية وتجارب أكثر مما نجده في تعاليم «بتاح حتب» وغيره ممَّنْ كتبوا في هذا الموضوع، غير أنه مما يُؤسَف له جد الأسف أنه قد وصل إلينا في نسخة واحدة — كما قلنا — مشوَّهة لحد بعيد؛ ولذلك فإن قيمة هذه الوثيقة الحقيقية لا يمكن أن نقدِّرها قدرها الذي يليق بها في الأدب المصري إلا إذا عُثِر على نسخ منها خالية من تلك الأغلاط الفاحشة. ومع كلٍّ فهي على حالتها تعدُّ من أحسن ما وصل إلينا من الأدب المصري في النصائح والحِكَم والتجارب والمعاملات الإنسانية، من حيث الأخلاق والدين والسلوك في الحياة الدنيا.

وسنتناول هنا الموضوعات التي عالَجَها «آني» بقدر ما يسمح به فهمنا للمتن، تاركين ما غمض منها للوقت الذي تجود به تربة مصر علينا بنسخة أخرى من هذا المؤلَّف العظيم، وعندئذٍ تلقي علينا ضوءًا جديدًا لفهمها.

يفتتح هذا الحكيم كتابه معدِّدًا لابنه ما تحمله نصائحه من فوائد، وما سيعود عليه منها لو اتبعها؛ فيقول:

> إني مخبرك بكل فاضل، وبما يجب أن تعيه في لبك، فاعمل به، وبذلك تكون محمودًا، ويبتعد عنك كل شر ... وسيقال عنك (إذا اتبعت ما أقول) إنه على خلق عظيم، ولن يقال: «إنه قد أتلف وإنه بليد.» وإذا تقبَّلْتَ كلماتي فإن كل شر سيبتعد عنك.

ثم يتلو هذه النصيحة الأولى عدة نصائح أخرى في الحذق في الكلام وقلته وعدم التفاخر بالقوة، غير أنها كلها قد استعصى علينا فهمها، إلى أن نصل إلى نصح حكيمنا لابنه في أن يتخذ لنفسه زوجة وهو لا يزال في ريعان الشباب؛ ليكون له خلف صالح يسعد بهم ويربيهم في حياته، فيقول:

> اتَّخِذْ لنفسك زوجة وأنت لا تزال شابًّا؛ لتنجِب لك ولدًا، ويجب أن تنتجه لك وأنت لا تزال صغير السن، ويجب أن تعيش لتراه قد صار رجلًا (؟)، فما أسعد الرجل الكثير النسل! فهو يُحترَم بسبب أولاده.

وبعد أن تكلَّمَ لابنه عن تأسيس الأسرة، أراد أن يذكِّره بجانب ذلك بتقوى الله وأداء ما عليه من الواجبات نحوه فيقول:

> احتفِلْ بعيد إلهك ... وإن الله يغضب على مَن يستخفُّ به، واجعل شهودًا يقفون عند قربانك (التي تقربها لله) فإنه لأحسن شيء لمَن يؤديه (؟)، وإن الغناء والرقص والبخور لَمتعلقة بخدمته (؟)، أما تقبله الاحترام فمن حقوقه فقدمها للإله حتى تعظِّم اسمه.

> (وجاء في القرآن الكريم: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.)

ينتقل بنا بعد ذلك «آني» إلى تعليم ابنه المعاملات الاجتماعية، فيعلِّمه أولًا أدب الزيارة، فلا يدخل بيتًا إلا بعد الاستئذان، وعندما يدخل يغض طرفه عن كل عيب، ولا يتكلَّم عن شيء رآه

معيبًا في زيارته، فيقول:

> لا تدخلن بيت غيرك ... ولا تمعنن في النظر إلى الشيء المنتقد في بيته؛ إذ يمكن لعينك أن تراه، ولكن الزم الصمت، ولا تتحدثنَّ عنه لآخَر في الخارج؛ حتى لا تصبح جريمة كبرى تستحق الإعدام عندما تُسمَع (؟).[٢٥]

وبهذه المناسبة يحذره الزنا ويذكره بأن المرأة لغز ملتوٍ؛ فلا ينخدع بإغرائها، وبأن ارتكاب الفاحشة يُعاقَب عليه بالقتل أمام القانون، فيقول:

> خذ حذرك من المرأة الأجنبية تلك التي ليست معروفة في بلدتها، ولا تغمزنَّ لها بعينك ... ولا تبغ معها (؟)، فهي ماء عميق لا يعرف الرجال التواءاته (تياراته)، والمرأة البعيدة عن زوجها تقول لك كل يوم: «إني جميلة.» ولذلك عندما تكون بعيدة عن أعين الرقباء، تقف أمامك لتوقعك في حبائلها ... وإن ذلك (الزنا) لجرم عظيم يستحق الإعدام عندما يرتكبه الإنسان، ثم يعلم بذلك الملأ؛ لأن الإنسان يسهل عليه بعدَ ارتكابِ تلك الخطيئة أن يرتكب كل ذنب.

يتحدث بعد هذا «آني» في فقرة صغيرة عن سمعة الرجل أمام القضاء، بعد أن تكلَّمَ عن سمعته أمام الناس بالنسبة للمرأة؛ فيقول:

> لا تدخلن وتخرجن في قاعة العدل (المحكمة) حتى لا يفوح اسمك (من كثرة القضايا)، ولا تتكلمنَّ كثيرًا، وكُنْ صامتًا لتكون سعيدًا، ولا تكن ثرثارًا.

ويطالعنا بعد ذلك بتعليم ابنه معنى التقوى الحقيقية نحو الله، ثم نحو أبويه فيقول:

> إن بيت الله يمقت الهرج، فصلِّ بقلب محب ولا تجهر بصلاتك، وبذلك ستُقضَى كل حوائجك، وسيسمع (الله) ما تقول ويتقبَّل قربانك.

هذا عن الإله، أما عن الأبوين فيقول:

> قرِّبِ الماءَ لأبيك وأمك اللذين يسكنان في وادي الصحراء (الجبَّانة) ... ولا تنسَ أن تؤدي هذا حتى يعمل لك ابنك بالمثل.

ثم نرى «آني» يحض ابنه على الابتعاد عن المسكرات، شارحًا له في صورة حية ناطقة ما يبدو على السكير من سوء الحال فيقول:

> لا تُلزِمنَّ نفسك (من باب الفخر) بأنك تستطيع أن تشرب إبريقًا من الجعة، فإنك (بعد ذلك) تتكلم ويخرج من فيك قول لا معنى له، وإذا سقطت وكُسِرت ساقك فلن تجد أحدًا يمد يده إليك (ليساعدك)، أما إخوانك في الشراب فيقفون قائلين: «أبعدوا هذا الأحمق»، وإذا حضر إنسان ليبحث عنك ليستجوبك فستكون طريح الثرى، ومثلك (في هذا) كالطفل الصغير.

ثم يذكِّره بعد هذا بألا يتردد على البيوتات المريبة فيقول:

> لا تخرج من بيتك إلى بيت لا تعرفه (؟)، واجعل كل بيت تحبه معروفًا (حتى لا يرتاب أحد في سلوكك).

وبعد أن تكلَّمَ عن كل هذه الأشياء الفاضلة التي يجب على ابنه أن يرعاها في الحياة، انتقل إلى تذكيره بالموت وأنه يجب عليه أن يَعُدَّ لنفسه قبرًا ليُثوى فيه، وهذا أمر كان يهتم به كل مصري قديم طوال حياته؛ إذ كان إعداد القبر في المنزلة الأولى، فيقول:

> أعِدَّ لنفسك مأوًى جميلًا في وادي الصحراء، وهي الحفرة التي ستواري جثمانك، فاصنعه أمام عينيك في مشاغلك ... مثل السلف العِظَام الراقدين في مدافنهم (؟)، وإن الذي يبني القبر لنفسه لن يقابل باللوم (على ذلك)، وإنه لجميل أن تعدَّ لنفسك كذلك على

هذا النحو (قبرًا)، وسيأتي إليك الرسول (الموت) وسينصب نفسه أمامك، فلا تقولن: «إني لا زلت صغيرًا جدًّا لتختطفني.» لأنك لا تعرف حتفك، والموت يأتي ويختطف الطفل الذي لا يزال يرضع ثدي أمه، كما يختطف الرجل عندما يصبح مُسِنًّا.

يأتي بعد هذه الفقرة فقرة طويلة بعض الشيء ينصح فيها «آني» ابنه بأن يكون يقظًا في المعاملات الاجتماعية، غير أن معظمها غير مفهوم لنا تمامًا:

تأمَّلْ! إني أقص عليك أشياء أخرى طريفة، يجب عليك أن تعيها في لبك، فأدِّها وستكون بذلك سعيدًا، وسيبتعد عنك كل سوء ...

ثم يشير على ابنه بعد هذه المقدمة بأن يتخيَّرَ صديقه بعد التجربة، على ألَّا يتنزَّل إلى طبقة العبيد ويأخذ منهم صديقًا؛ فيقول:

ابتعد عن الرجل المعادي ولا تتخذنه خدنًا لك، بل اصطفِ لنفسك صديقًا مستقيمًا عادلًا، وعندما ترى ما فعله (؟) ... ولا تتخذن لنفسك صديقًا كان عبدًا لآخَر سيئ السمعة ... فإذا اقتفي أثره إنسان ليقبض عليه وليأخذ مَن كان في بيته (أي العبد)، فإنك ستكون تعسًا وتقول: «ما العمل؟» ...

وينصح بعد ذلك «آني» ابنه بأن لا يغترَّ بالمال، وأنه ليس مصدر سعادة، وألا يعتمد على مال غيره، ولا يبني قصورًا على ما سيرثه من مال جده؛ فيقول:

يبني الإنسان بيتًا لنفسه، (وهَبْ) أن قطعة أرض صارت ملكًا لك وقد حُوِّطت بسياج من النبات المزهر أمام حقلك الخصب، وغرست فيها شجرة الجميز ... وأنك قد ملأت يدك بكل الأزهار التي تتصورها العين، ولكن مع كل هذه (الأشياء) قد يكون الإنسان شقيًّا ... لا تتكلنَّ على مال إنسان آخَر، واحذر أن تفعل هذا، ولا تعتمدنَّ على متاع

الآخَر ... ولا تقولن: «إن والد أمي له بيت.» ... لأنه إذا جاءت القسمة مع إخوتك فإن نصيبك لا يكون (إلا) مخزنًا، وإذا أراد الله أن يولد لك طفل ...

ثم يحض حكيمنا ابنه على احترام غيره فيقول:

لا تقعدن إذا كان غيرك أكبر سنًّا واقفًا، أو آخَر يشتغل في مهنة (معك) زمنًا أقدم منك.

وينتقل بنا «آني» إلى موضوع المعرفة ومكانتها في المجتمع، والكاتب وسمو حرفته؛ فيقول:

إذا كنتَ ماهرًا في الكتابة، فإن الناس أجمع يفعلون كل ما تقوله، إذن خصِّصْ نفسك للكتب وضَعْها في لبك، وبذلك يكون كل ما تقوله ممتازًا. كل وظيفة يعين فيها الكاتب فإنه (لا بد) يستشير فيها الكتب (وبذلك يلازمه النجاح)، فليس هناك ولد لملاحظ الخزانة ولا وارث لملاحظة الحصن ... الوظائف لا أولاد لها ... (وفي هذه الحالة يحصل عليها الأكفاء الذين تعلموا كثيرًا).

ثم يعود «آني» إلى تحذير ابنه ليكون محترسًا في كلامه؛ خوفًا من الخطل في القول، ويعلمه أن جوفه يتسع لحفظ كل ما يريد أن ينطلق به لسانه، فيقول:

لا تفضين بما في قلبك إلى ... رجل ... فإن كلمة خاطئة خرجت من فيك إذا أعادها مَن سَمِعَها تجعل لك أعداء، وإن الإنسان ينزل به الخراب من جرَّاء لسانه، وإن بطن الإنسان أوسع من مخزن الغلال، فهو مفعم بكل أنواع الأجوبة، وعليك أن تنتخب خير الكلام وتتحدث به، واجعل القبيح سجينًا في بطنك، وفي الحق ستكون دائمًا معي، وستجاوِب مَن يضرني بقول الكذب، ومع ذلك فإن الله يحكم في صالح المحق، وعندئذٍ سيأتي عقابه ويلحق به (يظهر أن المؤلف يشير إلى عدوٍّ قد ألحق به ضررًا قد ذُكِر في الجزء المفقود من نصائحه في أول الكتاب).

وبعد ذلك يعود مرة ثانية إلى العلاقة التي يجب أن تكون بينه وبين ربه، فيحثه على تقديم القربان، وعلى ألَّا يغتال حقوقه، ولا يسأل عن صورة ربه، ولا يمشي الخيلاء في موكبه مما يذكرنا بقوله عز وجل في القرآن: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾، وأن الله هو الذي يجعل مَن يشاء عظيمًا، ثم يشير من طرف خفي إلى أن الله واحد ممثل في الشمس، وأما الآلهة الذين على الأرض فهم صور مختلفة له، فيقول:

> قدِّمْ قربانًا لآلهتك، واحفظ نفسك من التعدي (على حقوقه)، ولا تسأل عن صورته، ولا تمشِ الخيلاء حينما يخرج في موكبه (أي الإله)، ولا تتزاحم على حمله (في الموكب) ... ودَعْ عينك تعرف قيمته، واحترم اسمه لأنه هو الذي يعطي القوة (ملايين) المخلوقات، وستقصر العظمة على مَن يجعله هو عظيمًا، إن إله هذه الأرض هو الشمس التي في الأفق، و(لكن) صورته على الأرض، فليقرب إليها البخور كل يوم.

وبعد أن عرَّفَ حكيمنا ابنه كيف يعامِل ربه، انتقل به إلى معاملة الوالدة وما لها من فضل عليه في حمله وتربيته، مما يذكرنا بقول الله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، فيقول:

> ضاعِف مقدار الخبز الذي تعطيه والدتك، واحملها كما حملتك، ولقد كان عبؤها ثقيلًا في حملك ولم تتركه لي قطُّ أبدًا، وحينما ولدت حملتك كذلك ثانية بعد شهور حملك حول رقبتها، وقد أعطتك ثديها ثلاث سنوات، ولم تشمئز من برازك، ولم تكن متبرمة، ولم تقل: «ماذا أفعل أنا؟» ولقد ألحقتك بالمدرسة عندما تعلَّمْتَ الكتابة، وقد وقفت هناك يوميًّا (خارج المدرسة) ... بالخبز والجعة من بيتها، وحينما تصبح شابًّا، وتتخذ لنفسك زوجة، وتستقر في بيتك، اجعل نصب عينيك كيف وضعتك أمك، وكيف ربَّتْك بكل الوسائل. فليتها لا تضرك بألا ترفع أكُفَّ الضراعة إلى الله، وليته لا يسمع عويلها.

ثم عرج بعد ذلك الحكيم ناصحًا لابنه أن يكون شفيقًا على الناس كذلك، وألا يثق بالثروة؛ لأنها كمجرى الماء لا يبقى على حال، فمَن يكون غنيًّا اليوم قد يصبح فقيرًا في الغد، فيقول:

> لا تأكلن الخبز إذا كان هناك آخَر يتألم من عدمه دون أن تمد يدك إليه بالخبز، فواحد غني وواحد فقير … ومَن كان غنيًّا في السنين الخوالي قد أصبح هذا العام سائسًا، ولا تكن شَرِهًا فيما يختص بملء بطنك، وإن مجرى الماء الذي كان يجري فيه الماء في السنة الماضية قد يتحوَّل هذا العام إلى مكان آخَر، وقد أصبحت البحار العظيمة أماكن جافة وأصبحت الشواطئ هوات (أي بحارًا) …

ثم يعود ثانية «آني» إلى التحدث عن الزيارة وآدابها؛ فيقول لابنه:

> لا تذهبن إلى بيت إنسان بحرية، بل ادخله فقط عندما يُؤْذَن[٢٧] لك، وحينما يقول هو لك (أي رب البيت): «أهلًا بك.» بفمه … (وتأتي بعد ذلك جملة مبهمة) أعطه الإله وأعطه يومًا ثانيًا للإله والغد مثل اليوم، وسترى ما يفعله الإله إذا لُطِّخَ اسم الذي لطخك.

ويحتمل أن هذا الكلام يشير إلى إنسان قد ارتكب خطيئة، وسيتولى الله عقابه عليها.

وينصح بعد ذلك «آني» ابنه بأن يتجنَّبَ الشغب؛ فيقول:

> لا تدخلن في زحام إذا رأيت أنهم مستعدون للضرب … حتى لا تُلَام في المحكمة أمام القضاة بعد تأدية الشهادة (؟) ابتعد عن أهل الشر …

ثم ينصح ابنه بعد أن أصبح رب بيت أن يكون حكيمًا في سلوكه مع زوجه، حتى يبتعد عن كل شجار أو خلاف، فيقول:

لا تمثِّل دور الرئيس مع زوجك في بيتها إذا كنتَ تعرف أنها ماهرة في عملها، ولا تقولن لها: أين هي؟ أحضريها لنا، إذا كانت قد وضعتها في مكانها الملائم، واجعل عينك تلاحظ في صمت حتى يمكنك أن تعرف أعمالها الحسنة، (وإنها) لسعيدة إذا كانت يدك معها ... وبذلك يتجنَّب الرجل تحريك الشجار في بيته.

ثم يُذكِّر «آني» في الوقت نفسه ابنه بأن يحذر النساء الأجانب، فيقول:

لا تذهبن وراء امرأة؛ حتى لا تتمكَّن من سلب لبِّكَ.

ولم يَفُتْ «آني» أن يضع لابنه الخطط في معاملة الرئيس؛ حتى يكون سعيدًا معه فيقول:

لا تجيبن رئيسًا في حالة غضبه، بل ابتعد من أمامه، واذكر حلو الكلام حينما ينطق بمره لأي إنسان، واعمل على تهدئة قلبه، فإن الأجوبة الشديدة تحمل غضبًا (تؤدي إلى ضربك) وبذلك تنهار قواك، وإن الغضب يصوب نفسه نحو أعمالك فلا تنغصن نفسك، على أن الرئيس سيلتفت ويُثنِي عليك بسرعة بعد فوات ساعته المخيفة (ساعة غضبه)، وإذا كانت كلماتك مهدِّئة للقلب فإن القلب يميل لاستيعابها. وجدَّ في أن تكون صامتًا، واخضع لما يفعل.

وبعد أن رسم له الطريقة الرشيدة في معاملة رئيسه، لم يفته أن يلفت نظره إلى أن يكون على وفاق مع رجال الشرطة، فيقول:

اتَّخِذْ من شرطة شارعك صديقًا، ولا تجعلنه يثور عليك، وأعطه من طرائف بيتك حينما يكون منها في بيتك (في أيام العيد)، ولا تتغاضَ عنه وقت صلاته، بل قُلْ له: «المديح[٢٨] لك».

يتلو ذلك قطعة غير مفهومة، ثم محادثة هي خاتمة الكتاب. وبعد أن فرغ «آني» من إلقاء نصائحه على ابنه، أجابه الأخير بأنه يتمنى أن يكون مثله، ولكن شتان ما بينه وبين والده الذي كان صاحب همة عالية ومطامح سامية، وإنه ربما يتعذَّر عليه أن يصل إلى ما وصل إليه «آني» فيقول:

> آه يا ليتني مثلك … حتى أعمل حسب تعاليمك، وحتى يرقى الابن إلى مرتبة والده … إنك رجل صاحب مطامح عالية، فكل كلماتك مختارة، وإن الولد الذي يتصوَّر خبثًا في نفسه يقول … في الكتب. إن كلماتك مريحة لقلبي، ولبي يميل إلى استيعابها، وإن قلبي لفرح، ولكن لا تجعلن فواقك يتجاوز الحد في غزارته … إن الولد لا يعمل حسب التعاليم التي تثقف حتى لو كانت كل الكتب على لسانه.[٢٩]

غير أن الوالد لما سمع هذا الجواب من ابنه، أخذ القلق يساوره وأخذ يضرب له الأمثلة الطريفة في الطاعة ويحثه على اتباع ما ألقاه عليه من النصائح، فيقول «آني» مجاوبًا ابنه «خنسحتب»:

> لا تثقن في هذه الأشياء (؟) الخطرة، وتجنَّب أن تعود إلى الشكوى، فإن قلبي لا يصغى إليها، فإن الثور المحارب الذي قتل ما في الحظيرة من ثيران، لا يمكنه أن يغادر الحلقة (إذ يجب عليه) أن يأخذ أوامره من سائقه، وكذلك الأسد المفترس يخفِّف من ثورته ويمر بكآبة على الحمار، والجواد يخضع لنيره … والكلب يصغي للكلام ويتبع سيده، والحيوان «كيري» يحمل … إناء الذي لم تتحمله والدته، والإوزة تحط على البركة الباردة حينما تصاد، وبذلك تنتفض في الشرك (حزنًا)، والعبيد قد تعلموا الكلام المصري، وكذلك السوريون وكل الأجانب، وقد تكلَّمت كذلك عن كل الحِرَف التي يمكن أن تسمع عنها وأعرف ما يجب أن يفعل.

أما الجواب الذي أجاب به «خنسحتب» أباه فمُبْهَم، ومن المحتمل أنه يشير إلى الحقيقة القائلة «بأن كل الناس لا قيمة لهم»، فيقول:

> إن هناك جمًّا غفيرًا من الأدنياء، وليس هناك فرد يعرف تعليمه، وإذا وجدت إنسانًا حازمًا فإن الأكثرية أغبياء.

ومن المحتمل إذن أنه يعاهد والده على الطاعة، فيقول:

> كل كلماتك ممتازة ... وإني أعطيك المواثيق بأن أضعها على طريقتك (التي رسمتها).

وعلى ذلك يجيب الكاتب «آني» على ما قاله ابنه ببعض أمثال حكيمة لا تزال تأخذ بالألباب وتستهوي النفوس؛ لأنها تنفذ إلى الأعماق، فيقول:

> وَلِّ ظهرك لتلك الكلمات الكثيرة التي ينبو عنها السمع، فإن العصا المعوجة الملقاة في الحقل والمعرضة للضِّح والفيء، يحضرها الصانع ويجعلها مستقيمة ويصنع منها سوطًا للشريف، ولكن قطعة الخشب المستقيمة هي التي يصنع منها لوحًا (للكتابة).[٣٠]

> آه أيها القلب الذي لا يمكنه أن يتبصر في العواقب، هل كانت آراؤك في أن تعطي المواثيق أو أنك تفشل.

> ومن الجائز أن «آني» يعبر في الجزء الباقي عن أمله في أن يكون ابنه الذي يعرف القوة التي في يده (أي يشعر بقوة نفسه)، عاقلًا كالطفل الذي في حضن أمه، فإنه عندما يبلغ سن التمييز لا يريد الاستمرار في الرضاعة، بل يجد فمه (أي يتكلم) ليقول: أعطني خبزًا.

(أ) المصادر

هذه التعاليم لا تزال غامضة، وتحتاج إلى درس جديد، وأهم المصادر التي يمكن الرجوع إليها حتى الآن هي:

(1) Breasted, “The Dawn of Conscience”, P.P. 319 f.f.

(2) Erman, “The Literature of the Ancient Egyptians”, P.P. 234 f.f.

(3) Speigel, “Die Praambel des Amenemope und die Ziellsetzung der Agyptischen Weisheitsliteratur”, P. 15.

(١-٩) تعاليم «أمنموبي»

مقدمة

لا بد أن القارئ قد لاحظ في نصائح «آني» نموًّا وتطورًا كبيرين في الوعي الإنساني يرجعان في أصلهما إلى المؤثرات الاجتماعية، ثم إلى التفكير العميق في هذا العصر؛ إذ نجد أن المتعبدين يعترفون بالوعي الإنساني ويذكرون من غير تحفُّظ أنه أمر الله نفسه. على أن تلك الفكرة كانت قد ظهرت قبل بداية عهد الإمبراطورية المصرية بنحو خمسمائة سنة، ولكن في العصر الذي نحن بصدده الآن، أي العصر الذي يُعَدُّ عصر الورع الشخصي، صار «الضمير» هو الإيحاء الإلهي الحق، وذلك ما لم يحدث من قبلُ أبدًا، وفي تلك الأحوال لم يكن هناك بالطبع إخفاء للخطيئة أو إنكار لها بعد وقوعها من المخطئ، إذ كان المتعبد في ذلك الوقت يشعر بأن أمره كان معلومًا عند ربه؛ لأنه كان يضع نفسه بدون تحفُّظ في يد الله المرشد والمهيمن على كل حياته وحظه، ومع أن إرضاء المجتمع كان لا يزال الأمر الهام، وأن الإحساس بضغط المؤثرات الاجتماعية كان لا يزال موجودًا، فإن المسئولية أمام الإله العليم بكل شيء كانت مع ذلك فوق كل شيء. وهذا الموقف الجديد الذي شاهدنا بوادره في التعاليم الماضية قد كُشِف لنا

غطاؤه في مقال ممتع، وأعني به تعاليم «أمنموبي». وقبل أن نتكلم عن محتوياتها، والرسالة التي أدتها إلى العالم، يجدر بنا أن نتكلم ببعض الإيجاز عن تاريخها فنقول: وجدت هذه التعاليم مكتوبةً على ورقة بردية محفوظة الآن في المتحف البريطاني، وقد حصل عليها السير «ولس بدج» عام ١٨٨٨ ومعها ورقة أخرى تشتمل على جزء من كتاب الموتى، وقد بقيت تعاليم «أمنموبي» في زوايا النسيان إلى أن نشر الأستاذ «بدج» بعض قطع منها في عيد شمبليون:

(1) Recueil d'Etudes Egyptologiques dediees à la Memoire de Jean François Champollion, (Paris, 1922). PP. 341–346, ("The Precepts of Life by Amen-em-apt", described by E. A. Wallis Budge).

وفي العام التالي طبع الأستاذ «بدج» متن كل التعاليم بالهيراطقية، ثم كتبه بالهيرغليفية، وترجمه وعلَّق عليه في:

(2) Wallis Budge, "Facsimiles of Egyptian Hieratic Papyri in the British Museum", with Description and Summary of Content (Second Series, London, 1923) pls. 1–14.

وبعد ذلك قام بدرسها الأستاذ «لنجا» الأثري الدنماركي، وخطا خطوات واسعة في إعطاء معناها الحقيقي، وأعقب ذلك درس الأستاذ «إرمان» لهذه الوثيقة:

(3) "Das Weisheitbuch des Amen-em-Ope", Orientalische Literatur–zeitung (1924), PP. 241–252.

وفي يناير سنة ١٩٢٤ طبع «بدج» هذه النصائح مرة ثانية، وأضاف على الترجمة بعض إصلاحات:

(4) “The Teaching of Amen-em-apt”, (London, 1924).

وبعد ذلك طالعنا الأستاذ «إرمان» بمقال عن هذه النصائح والتعاليم، برهن فيه على أن هذه الوثيقة كانت مصدرًا أُخِذت منه حِكَم سليمان — عليه السلام:

(5) Erman, “Eine Agyptische Quelle der Sprüche Salomos”, Sitzungsberichte der Preussischen Akademie der Wissenschaften, philosophisch–historische klasse (1924), PP. 86–93.

ثم تناوَلَ هذا الموضوع ثانيةً الأستاذُ «لنجا» في كتابه:

(6) “Das Weisheitbuch des Amen-em-ope”.

وقد طبعه في عام ١٩٢٥.

وقام بترجمة هذه الوثيقة الأستاذ «جرفث» في «مجلة الآثار المصرية»، ووازَنَ بينها وبين أمثال سليمان:

(7) Griffith, “The Journal of Egyptian Archaeology”, Vol. XII, PP. 191 ff.

ويجد القارئ في الترجمة الأخيرة بعض تحسينات جديدة في قراءة الأصل الهيراطيقي.

وأخيرًا نجد الأستاذ برستد قد تناوَلَ هذه الوثيقة ببحث ممتع في كتابه «فجر الضمير»:

(8) Breasted, “The Dawn of Conscience”, PP. 320–330, 331, 364–366, 371, 372–382.

(أ) العصر الذي كُتِبت فيه التعاليم

وقد اختلف علماء الآثار في تحديد تاريخ هذه الوثيقة، غير أن الرأي الأخير يجعل عصرها ينحصر ما بين الأسرة الحادية والعشرين والثانية والعشرين، وهذا هو رأى كلٍّ من الأستاذ «إرمان» والأستاذ «لنجا».

وقد كان رأى الأستاذ «إرمان» يرتكز على أن هذه التعاليم تشبه تعاليم «آني» السالفة من حيث المادة واللغة، ومن حيث الشيوع في الاستعمال؛ إذ الواقع أن تعاليم «أمنموبي» كان لها شهرة عظيمة لدرجة أنها كانت تُستعمَل بمثابة كتاب مطالعة[٣١] وتمرين في المدارس في عهد الدولة الحديثة؛ فقد عُثِر على لوحة في متحف «تورين» من الخشب عليها طبقة من الجص، مكتوب على كلٍّ من وجهيها فقرات من هذه التعاليم، وهذا ما لاحظناه سابقًا في ورقة «آني».

(ب) المتن

المقدمة

١ بداية درس الحياة

٢ والإرشاد إلى الخير

٣ وكل قواعد الاندماج بين كبار الموظفين

٤ وعادات معاملة رجال القصر

٥ ليعرف كيف يجيب (شفويًّا) عن سؤالٍ يُلقَى عليه[٣٢]

٦ وأن يرد (كتابةً) على مسألة لمَن يستفسر عنها[٣٣]

٧ ليرشده إلى سُبُل الحياة (أي مواقف الحياة المختلفة)

٨ وليجعله يفلح على الأرض[٣٤]

٩ ويجعل قلبه يدخل في محرابه[٣٥]

١٠ وبذلك يبعده من الشر[٣٦]

١١ ولينجيه من فم[٣٧] الناس

١٢ وبذلك يكون ممدوحًا في أفواه القوم.

المؤلف[٣٨]

١٣ ألَّفه ملاحظ الأراضي الحاذق في عمله

١٤ وهو نتاج[٣٩] كاتب مصري.

١٥ ملاحظ الغلال ومدير المكاييل[٤٠]

١٦ وهو الذي يدير محصولات الغلال لسيده

١٧ والذي يقيد الجُزر والأراضي الجديدة[٤١]

١٨ بالاسم العظيم لصاحب الجلالة (أي باسم الملك)

١٩ ويضع العلامات عند حدود الأرض المنزرعة

٢: ١ وهو الذي حفظ ذكرى الملك بنقوشه[٤٢]

٢ ومسح الأرض السوداء.

٣ الكاتب الذي يقرِّر الأوقاف الإلهية الخاصة بالآلهة كلها

٤ والذي يمنح الإيجار مَن يشاء

٥ ملاحظ الغلال والقابض على زمام الأطعمة

٦ والذي ينقل مخازن الغلال

٧ الثاوي حقًّا في «تاور» بطينة

٨ والمغفور له في «آبي»[٤٣]

٩ وصاحب القبر الهرمي الشكل في غربي «سنوت»[٤٤]

١٠ وصاحب الضريح في «العرابة»

١١ «أمنموبي بن كانخت»

١٢ المبرأ في «تاور».

الابن الموجهة إليه هذه التعاليم[٤٥]

١٣ لابنه أصغر أولاده

١٤ وهو صغير إذا قيس بأقاربه

١٥ المشرف على أسرار «مين» ثور أمه

١٦ صاحب سقاية الإله «وننفر»[٤٦]

١٧ المنصب «حور» على عرش والده

١٨ وحارسه في محرابه المعظم

١٩ غاسل (؟) ملابس «إزيس» العظيمة

٣: ١ وحارس (؟) أم الإله

٢ ومفتش البقرات السود التابعة لمعبد الإله «مين»

٣ والمحافظ على (صورة) «مين» في محرابه

٤ واسمه الحقيقي «حار-مع-خر»[٤٧]

٥ وهو ابن نبيل من «آبي»

٦ وابن لاعبة الصنج للإلهين «شو» «وتفنوت»

٧ ورئيس خدر «حور» المسمى «تَوسري» (أو رئيس ضارب الصنج للإله حور المسمى «توسري»).

الفصل الأول:[٤٨] واجب التلميذ

٨ يقول الفصل الأول:

٩ أسلم أذنيك واستمع إلى (الكلمات) التي تقال

١٠ واشحذ فكرك لتفسِّرها (أي تفهمها)

١١ وإنه لمن الخير أن تضعها في لبك[٤٩]

١٢ ولكن الويل لمَن يهملها.

١٣ دعها (أي التعاليم) تستقر في صندوق بطنك[٥٠]

١٤ حتى تُكوِّن بها قفلًا لقلبك

١٥ فإذا جاءت عاصفة من الكلام

١٦ فإنها (التعاليم) ستكون بمثابة (وتد) (رادع) للسانك

١٧ وإذا أمضيت مدة حياتك، وهذه الأمور في قلبك

١٨ فإنك ستلقى بها نجاحًا

٤: ١ وستجد في كلماتي ذخيرة الحياة

٢ وسيفلح جسمك على الأرض.[٥١]

٣ الفصل الثاني:[٥٢] الإنسانية ونصائح منوعة

٤ احذر أن تسلب فقيرًا بائسًا

٥ وأن تكون شجاعًا أمام رجل مهيض الجناح

٦ ولا تمدنَّ يدك لتمس رجلًا مسنًّا (بسوء)

٧ ولا تسخرن من كلمة رجل هَرِم

٨ ولا تجعلن نفسك رسولًا في مهمة ضارة (أي رسول سوء)

٩ ولا ترغبن في مصاحبة مَن قد أذاها

١٠ ولا تصخبن مع مَن قد آذيت

١١ ولا تردن عليه بجواب لتجعل الحق في جانبك.

١٢ ومَن فعل فاحشة فإن المرفأ يفلت منه[٥٣]

١٣ وأرضه المبللة تحمله بعيدًا[٥٤]

١٤ وكذلك إعصار الشمال يهب ليقضي على حياته

١٥ ويتحد مع العاصفة

١٦ أما الرعد فقاصف، والتماسيح فخبيثة.

١٧ وأنت أيها الرجل الأحمق، ما حالك؟

١٨ إنه يصيح وصوته (يصل) إلى (عنان) السماء.

١٩ وأنت أيها القمر (تحوت) الذي ثبَّت جريمته

٥: ١ حرك الدفة حتى يمكن الرجل الخبيث أن يعبر إلينا (؟)

٢ لأننا لا نرتكب ما ارتكبه.[٥٥]

٣ ارفعه ومدَّ يدك إليه

٤ وأسلمه إلى ذراعي الإله

٥ واملأ جوفه بخبزك

٦ حتى يشبع ويعي (؟).

٧ وهناك شيء آخَر محبَّب إلى قلب الإله

٨ هو التأني قبل الكلام.

٩ الفصل الثالث:[٥٦] الحزم في المناقشة

١٠ لا تشتبكن في جدال مع أحمق

١١ ولا تخزَّنَّه بالألفاظ.[٥٧]

١٢ تأنَّ أمام متطفل، وأعرض عمَّن يهاجم

١٣ ونَمْ ليلة قبل التكلم[٥٨]

١٤ لأن العاصفة تهب مثل النار في الهشيم.

١٥ والرجل الأحمق في ساعة غضبه

١٦ يجب أن تنسحب من أمامه واتركه لمكايده (أو سامحه فيها)

١٧ والله يعلم كيف يجيبه (يجزيه).

١٨ وإذا أمضيت حياتك واعيًا هذه الأشياء في قلبك

١٩ فإن أولادك سيبصرونها.

٥: ٢٠ الفصل الرابع:[٥٩] الرجل الأحمق والرجل الحليم

٦: ١ أما الرجل الأحمق الذي يخدم في المعبد

٢ فمثله كشجرة نبتت في الغابة (؟)

٣ ففي لحظة تفقد خضرتها

٤ ويكون مصيرها في مرفأ الأخشاب

٥ أو (؟) تنقل بعيدًا عن مكانها

٦ والنار كفنها (مثواها).

٧ أما الرجل الحليم حقًّا، فهو الذي يضع نفسه جانبًا (حيث يجب)

٨ فمثله كشجرة باسقة في حديقة

٩ تنمو يانعة وتضاعف ثمرتها

١٠ فتقف أمام سيدها

١١ وثمرتها حلوة وظلها ظليل

١٢ وينتهي مصيرها في الحديقة.[٦٠]

١٣ الفصل الخامس:[٦١] الأمانة والرزانة في المعبد

١٤ لا تسيئن استعمال أنصبة المعبد

١٥ ولا تكونن جشعًا (حتى) تجد الخير العميم (أكثر مما كنت تنتظر)

١٦ ولا تعزلن خادم إله

١٧ لكي تؤدي خدمة لآخَر

١٨ ولا تقولن: إن «اليوم مثل الغد»

١٩ فكيف تكون نهاية هذه الأشياء؟

٧: ١ فإن الغد يأتي واليوم رائح

٢ وقد تصبح اللجة العظيمة حافة من الأمواج[٦٢]

٣ وتتكشف التماسيح ويصير جاموس البحر على اليابس

٤ والسمك يلقف الهواء

٥ وبنات آوي تصير بطانًا، والطيور المفترسة تصبح في عيد

٦ والشباك تصبح خاوية.

٧ أما من حيث الحلماء كلهم في المعبد

٨ فإنهم يقولون إن الشيء العظيم رضا رع رضًا طيبًا.[٦٣]

٩ احرص تمامًا على الرجل الحليم، وبذلك تجد الحياة

١٠ وسينعم جسمك على الأرض.

١١ الفصل السادس:[٦٤] **التعدي على أرض الغير**

١٢ لا تزحزحن الحد الفاصل (بين الحقول)

١٣ ولا تحولن موقع خيط المقياس

١٤ ولا تطمعن في ذراع أرض

١٥ ولا تقذفَنَّ بحدود الأرملة (أي لا تتعدَّ عليها)

١٦ وإن المسلك الذي عبَّده الزمن[٦٥]

١٧ مَن يغتصبه ظلمًا في الحقل

١٨ بأن يتصيَّدَه بالأيمان الكاذبة

١٩ فإن بطش القمر يوقعه في حبائله.

٨: ١ وراقِبْ جيدًا مَن ارتكَبَ ذلك على الأرض

٢ لأنه يكون ظالمًا للضعيف

٣ وهو عدو يعمل لخرابك (للإضرار بك)

٤ والغدر بفقدان الحياة في عينه

٥ وبيته عدو للمدينة

٦ ولكن أجرانه تخرب

٧ وأمتعته تُنتزَع من يد أطفاله

٨ وأملاكه تُعطَى غيره.

٩ احترس من أن ترمي (تغير) حدود الأرض المنزرعة

١٠ خوف أن يحملك الفزع (يستولي عليك الفزع).

١١ والإنسان يستعطف الإله بقوة ربه

١٢ عندما يُعَيِّن حدود الحقل.

١٣ ارغب حينئذٍ في أن تجعل نفسك سعيدًا

١٤ واحذر رب العالمين

١٥ ولا تتعدين على حرث آخَر

١٦ وخير لك أن تكون مستقيمًا بالنسبة له (الحرث).

١٧ ازرع الحقول حتى يمكنك أن تجد ما تحتاج إليه

١٨ وتجني خبزك من حرثك

٢٠،١٩ وإن المكيال الذي يعطيكه الله خير لك من خمسة آلاف تكسبها بالبغي

٩: ١ فإنها لا تمكث يومًا واحدًا في المخزن ولا في الجرين

٢ ولا يعمل منها طعام في وعاء الجعة

٣ ولا تمكث إلا لحظة في المخزن

٤ فعندما يأتي عليها الصباح تغيض.

٥ والفقر على يد الله

٦ خير من الغنى في المخازن

٧ وأرغفة (تكسبها) بقلبٍ فَرِحٍ خير لك

٨ من ثروة مع شقاء.

٩ الفصل السابع:[٦٦] البحث وراء الثروة

١٠ لا تندفعن بقلبك وراء الثروة

١١ إذ لا يمكن تجاهُل «شاي» و«رننت» (إلهَيِ الحظ)

١٢ ولا تضعن أفكارك في أمور في الخارج

١٣ فكل إنسان مقدَّر له ساعته (ساعة الحظ).[٦٧]

١٤ ولا تجهدن نفسك في طلب المزيد

١٥ عندما تكون قد حصلت (بالفعل) على حاجتك

١٦ لأن الثروة لو أتت لك من طريق السرقة

١٧ فإنها لا تمكث معك (سواد) الليل

١٨ إذ عند مطلع الفجر لا تكون في بيتك بعدُ

١٩ وسترى مكانها، ولكنها لن تكون (هناك)

٢٠ (فربما) قد فغرت الأرض فاها فتأخذها وتبتلعها

١٠: ١ وتغوص بها في (تاي) في العالم السفلي

٢ أو أنها تعمل لنفسها كهفًا كبيرًا بقدر حجمها

٣ ثم تغيض بنفسها في مخزن الغلال

٤ أو أنها تعمل لنفسها أجنحة مثل الإوز

٥ وتصعد إلى السماء.

٦ لا تفرحن من أجل ثروة أتت من طريق السرقة

٧ ولا تئننَّ من الفقر

٨ فإن مفوق السهام (النابل) الذي يكون في المقدمة ويندفع إلى الأمام

٩ تهجره جنوده في الخطر

١٠ وكذلك قارب الشره يترك ويعوقه الطين

١١ وقارب الرجل الرزين يقلع (مع النسيم).

١٢ ويجب عليك أن تتعبد إلى «آتون» حينما يشرق

١٣ وقل: «امنحني السلامة والصحة.»

١٤ وسيمنحك ما تحتاج إليه طول الحياة

١٥ وتأمن الخوف.

١٦ الفصل الثامن:[٦٨] **لا تقل شرًّا**

١٧ ضع طيبتك في جوف الناس (في أعماق نفوسهم)

١٨ حتى يحبيك كل إنسان

١٩ لأن الإنسان يرحب بالصل (الثعبان الذي على جبين الملك)

٢٠ ويبصق على الثعبان «أبوبي».

٢١ احفظ لسانك سليمًا من الألفاظ الشائنة

١١: ١ وبذلك ستصبح المفضل عند الآخرين

٢ وستجد مكانك في المعبد

٣ وطعامك من خبز قربان ربك

٤ وستُحترَم في شيخوختك وتُوارَى في كفنك

٥ وستكون في مأمن من بطش الإله.

٦ لا تصيحن: جريمة في وجه إنسان[٦٩]

٧ عندما يكون سبب فراره خفيًّا (وأخف حالة هرب الهارب).

٨ وإذا كنت مستمعًا لتحكم في شيء سواء أكان خيرًا أم شرًّا

٩ فافعل ذلك في الخارج حيث لا تسمع[٧٠]

١٠ وضع تقريرًا حسنًا على لسانك[٧١]

١١ أما ما قبح فأخفِه في بطنك.

١٢ الفصل التاسع:[٧٢] تجنب الرجل الأحمق وسبله

١٣ لا تخالطن الرجل الأحمق

١٤ ولا تَدْنُ منه لتحادثه.

١٥ واحفظ لسانك سليمًا من مجاوبة رئيسك

١٦ واحذر من أن تذمه

١٧ ولا تجعله يرمي بكلامه ليحبلك (ليوقعك في أحبولة)

١٨ ولا ترخِ العنان لجوابك.

١٩ ويجب أن تناقش الجواب مع رجل على شاكلتك

٢٠ واحذر الاندفاع في النطق به

١٢: ١ فإن الكلام يكون سريعًا عندما يؤذي القلب

٢ أكثر من الريح أمام الماء (؟) كالزوبعة التي تسبق المطر

٣ فالإنسان يبني ويهدم بلسانه

٤ ومع ذلك فإنه يقول قولًا مقذعًا

٥ ويجيب بجواب يستحق الضرب

٦ (لأن) حمولته الشر

٧ ويقوم بسياحة مثل كل العالم (ويخلق الشجار بين الناس)

٨ غير أنها مثقلة بالألفاظ الكاذبة

٩ ومثله كمثل النوتي[٧٣] في نسج (؟) الكلام

١٠ يروح ويغدو بالمشاحنة

١١ وعندما يأكل ويشرب في الداخل

١٢ يسمع جوابه في الخارج

١٣ والواقع أن يوم إظهار جريمته

١٤ يكون بؤسًا على أطفاله.

١٥ ليت الإله «خنوم» يحضر حقًّا حقًّا (؟)

١٦ عجلة صانع الفخار لصاحب الفم الناري

١٧ حتى يشكل ويصهر القلوب (مثل الأواني) (ويصلح من سبله) (وأنه مثل …)

١٨ وهو كابن الذئب في ساحة المزرعة

١٩ يحول إحدى عينيه معاكسة للأخرى

١٣: ١ ويثير الشجار بين الإخوة

٢ ويسير كالسحاب أمام كل نسيم

٣ وينقص من لون الشمس

٤ ويخضب (؟) ذيله مثل التمساح الصغير

٥ وينكمش في نفسه جالسًا

٦ وشفتاه حلوتان ولسانه بارد؟ (أي مر)

٧ ولكن اللهيب يتقد في جوفه

٨ فلا تقفزن لتنضم إلى هذا (الزميل)

٩ وإلا يذهب بك الفزع.

١٠ **الفصل العاشر: الإخلاص**

١١ لا تصافحن قرنك الأحمق على الرغم منك

١٢ ولا تحزنن قلبك من أجل ذلك

١٣ ولا تقولن له: «السلام عليكم» رياءً.

١٤ عندما يكون في باطنك حقد (تدابير فظيعة)

١٥ لا تتكلمن مع إنسان كذبًا

١٦ فذلك ما يمقته الله

١٧ ولا تفصلن قلبك عن لسانك

١٨ حتى تكون كل طرقك ناجحة.

١٩ وكن ثابتًا أمام غيرك من الناس

١٤: ١ لأن الإنسان في مأمن في يد الله.

٢ وإن الممقوت من الله مَن يزوِّر في كلام

٣ لأن أكبر شيء يكرهه هو النفاق (؟).

٤ الفصل الحادي عشر:[٧٤] التابع

٥ لا تطمعن في متاع تابع

٦ ولا تتطلعن (جوعًا) لخبزه

٧ والواقع أن متاع التابع شجًّا للحلق

٨ ومقيئ للزور

٩ وعندما يحصل عليه بالأيمان الكاذبة

١٠ تنعكس رغبته ببطنه.[٧٥]

١١ والنجاح (؟) يخطئ (؟) الإنسان الخائن

١٢ ويخيب كل من الحسن والقبيح

١٣ وعندما تخيب أمام رئيسك

١٤ وتكون ركيكًا في كلامك

١٥ فإن تضرعاتك تجاب باللعنات

١٦ وخضوعك بالضرب

١٧ ولقمتك الضخمة من الخبز تلتهمها وتقيئها

١٨ فأنت إذن قد جُرِّدْتَ من متاعك.

١٩ دقِّق جيدًا في امتحان التابع

١٥: ١ حينما تصله العِصي (أي يضرب)

٢ وعندما يكون كل أهله في الأغلال

٣ فأين المنفذ؟[٧٦] (أو ومَن منهم يستحق القتل)؟

٤ وحتى عندما يصفح عنك أمام رئيسك

٥ فإنك تكون محقرًا أمام مرءوسيك

٦ ويجب أن تتباعد عن التابع على الطريق

٧ وستراه، وأبعد نفسك من متاعه.

٨ الفصل الثاني عشر: الدافع الشريف

٩ لا تطمعن في متاع شريف

١٠ ولا تعطين مقدارًا عظيمًا من غذاء الخبز تبذيرًا

١١ وإذا نصبك على إدارة أعماله

١٢ فابتعد عما يخصه حتى يثمر ما تمتلكه.

١٣ ولا تشاركن رجلًا أحمق

١٤ ولا تخالطن رجلًا خائنًا

١٥ وإذا أرسلت لنقل التبن

١٦ فابتعد عن مكيال الغلال (لأنك لم ترسل لتقوم بذلك).

١٧ وهتك ستر الرجل في أمر حقير

١٨ يعوق استخدامه كرة أخرى أيضًا.

١٩ الفصل الثالث عشر: كاتب الحسابات الطيب

٢٠ لا تضرن رجلًا بجرة قلم على بردية[٧٧]

٢١ لأن ذلك يمقته الله.

١٦: ١ ولا تؤدِّين شهادة كذبًا

٢ ولا تزحزحنَّ إنسانًا آخَر بلسانك

٣ ولا تفرضن ضريبة على شخص لا يملك شيئًا

٤ ولا تستعملن قلمك في الباطل

٥ وإذا وجدت فقيرًا عليه دين كبير

٦ فقسِّمه ثلاثة أقسام

٧ وسامِحه في اثنين وأبقِ واحدًا

٨ وستجد ذلك سبيلًا للحياة

٩ وستضطجع بالليل وتنام نومًا عميقًا (وستهدأ)

١٠ وفي اليوم التالي ستجد أنها (ما فعلَتْها) أخبار سارة (على الألسنة).

١١ وخير للإنسان مدح الناس وحبهم له

١٢ من الثراء في المخازن

١٣ وخير للإنسان (أكل) الخبز مع قلب سعيد

١٤ من الثراء مع الكدر.

١٥ الفصل الرابع عشر: الكرامة

١٦ لا تحترمن شخصًا (لا تفرض على نفسك الذلة لشخص)

١٧ ولا تجهدن نفسك لتبحث عن يده (أي مساعدته)

١٨ إذا قال لك: «خذ رشوة.»

١٩ إذ ليس بالرجل المعدم مَن يقبلها (؟) (أو أن ذلك ليس بالأمر الهين).

٢٠ ولا تكن خجلًا (أمامه) وتحني نفسك (له)

٢١ ولا تلقين بنظرك إلى أسفل

٢٢ وسلِّم عليه بفمك وقُلْ له: «سلام عليك.»

١٧: ١ وعندما يقلع عن ذلك فإن موهبتك ستظهر

٢ ومع ذلك يجب ألا تقصيه عندما يقترب منك أول مرة

٣ فإن أمرًا آخَر (فرصة أخرى) سيقصيه بعيدًا (عنك).

٤ الفصل الخامس عشر: الإله «تحوت» والكاتب

٥ اعمل خيرًا حتى تعرف مَن (؟) أنا

٦ ولا تغمسن قلمًا في المداد لتفعل ضررًا

٧ فإن منقار «أيبيس» هو أصبع الكاتب

٨ واحذر إزعاجه

٩ فالقرد يسكن في بيت «الأشمونين»

١٠ غير أن عينيه تطوفان حول الأرضين

١١ فإذا رأى مَن يَضرُّ بأصبعه

١٢ فإنه يرمي بطعامه إلى اللجة العميقة.

١٣ أما الكاتب الذي يضر بأصبعه

١٤ فإن ابنه لن يحفظ في السجل.

١٥ فإذا أمضيت حياتك واعيًا هذه الأمور في قلبك

١٦ فإن أطفالك سيرونها.

١٧ الفصل السادس عشر: الموازين المغشوشة والمزيفة

١٨ لا تتلاعبن بكفتَيِ الميزان ولا تطفِّفن الموازين

١٩ ولا تنقصنَّ من أجزاء مكاييل الغلال.

٢٠ لا ترغبنَّ في مكاييل الحقول (أي الضريبة)

٢١ ثم تهمل مكاييل الخزانة[٧٨]

٢٢ فإن القرد يجلس بجوار الميزان (الإله تحوت)

١٨: ١ وقلبه اللسان (الميزان)

٢ وأين يوجد إله عظيم مثل «تحوت»

٣ الكاشف لهذه الأشياء ليصنعها؟

٤ لا تصنعنَّ لنفسك موازين منقوصة

٥ فإنها تزخر بالجيوش (؟) بقوة الإله

٦ وإذا رأيت إنسانًا يغش

٧ وجب عليك أن تمر به مبتعدًا.

٨ ولا تغتالن النحاس

٩ واجتنب الكتان الجميل

١٠ وما فائدة عباءة من نسيج «مك»[٧٩]

١١ إذا كانت ضلالًا أمام الله

١٢ وإذا كانت قشرة الذهب توضع فوق السبيكة لتظهرها ذهبًا خالصًا

١٣ فإنها في الفجر تكون من قصدير.

١٤ الفصل السابع عشر: كيل الغلال

١٥ احذر إساءة استعمال مكاييل عين حور (وازيت)

١٦ أو الغش في أجزائها.

١٧ ولا تكونن ظالمًا مثل «وبن ناخت»[٨٠]

١٨ ولا تجعلها خالية في بطنها (أي تجعل لها قعرًا مغشوشًا)

١٩ وأوفِ مكيالها حسب حجمها بالدقة (؟)

٢٠ ويدك تكيل بالحق.

٢١ ولا تتخذن لنفسك مكيالًا ذا حجمين (سعتين)

٢٢ لأنك إذن ستعمل فقط للجة العميقة

٢٣ لأن المكيال هو عين رع

١٩: ١ وما يمقته هو الرجل المدلس

٢ وكيال الغلال الذي يضاعف الغش

٣ تبث عينه التهمة ضده.

٤ لا تتسلمن جزية الفلاح على حصاده

٥ ثم تعقد وثيقة ضده ليُضار.

٦ ولا تتآمرن مع كيال الغلال

٧ ولا تلعبن لعبة «ترتيب الداخل».[٨١] (؟)

٨ وإن أرض درس الشعير لها قوة (قوة خارقة للعادة) إغراء أكبر

٩ من الحلف بالعرش العظيم[٨٢] (أو في المكان العظيم).

١٠ الفصل الثامن عشر: تفاقم الهم

١١ لا ترقد في الليل متخوفًا من الغد

١٢ وعندما يطلع النهار فما شكل الغد؟

١٣ إذ لا يعلم الإنسان ما سيكون عليه الغد (إن حوادث الغد في يد الله).

١٤ والله دائمًا في فلاحه (تدبيره المحكم)

١٥ والإنسان دائمًا في خيبته (ظنونه الطائشة)

١٦ والكلمات التي يقولها الناس شيء

١٧ والأشياء التي يفعلها الله شيء آخَر (أنت تريد وأنا أريد، والله يفعل ما يريد).

١٨ ولا تقولن: «ليس لي جريمة.» (ليس ذلك بخطأ مني).

١٩ ولا تجهدن نفسك للبحث عن الشجار

٢٠ فإن الجريمة من عند الله

٢١ وهو الذي يختمه بأصبعه

٢٢ وليس هناك فلاح مع الله

٢٣ ولا خيبة أمامه

٢٠: ١ فإذا وجهه إلى الحصول على الفلاح

٢ فإن الإنسان يفسد ذلك في لحظة.

٣ كن حازمًا في قلبك، وثابتًا في عقلك

٤ ولا تتحرك (؟) مع لسانك

٥ لأن لسان الإنسان كسكان القارب

٦ ورب العالمين هو القائد.

٧ الفصل التاسع عشر: الكلام في المحكمة

٨ لا تدخلن قاعة المحكمة قبل نبيل

٩ ثم تزيف كلماتك

١٠ ولا تتذبذبنَّ في جوابك

١١ عندما يكون أشهادك قد وقفوا

١٢ ولا تخترعن في إيمانك بربك

١٣ بكلام في مكان التحقيق (عبارة عن احتجاج بالبراءة وبعد ذلك اعتراف بالجريمة).

١٤ قل الصدق أمام الشريف (القاضي)

١٥ وألا يكون له سلطان على جسمك

١٦ فإذا حضرت أمامه في اليوم التالي

١٧ فإنه يقبل كل ما تقوله

١٨ وسيذكر قولك في الداخل[٨٣] أمام مجلس الثلاثين

١٩ وستكون مفيدة (؟) كرة أخرى أيضًا.

٢٠ الفصل العشرون: الأمانة في الوظيفة

٢١ لا تفسدن رجلًا في قاعة المحكمة

٢٢ ولا تزعجن الرجل المحق (؟)

٢١: ١ ولا توجهن كل التفاتك إلى فرد قد لبس (؟) ملابس بيضاء ناصعة

٢ بل اقبله في خرقه البالية.

٣ ولا تقبلن هدية رجل قوي

٤ ولا تظلمن الضعيف من أجله

٥ لأن العدل هبة عظيمة من الله

٦ وسيعطيها مَن يشاء.

٧ وحقًّا فإن قوة مَن يماثله (أي الإله)

٨ تنجي الفقير البائس من ضربه.

٩ لا تؤلفن لنفسك وثائق مزيفة

١٠ لأن ذلك خيانة عظمى (تستحق) الإعدام

١١ لأنها أيمان عظيمة ...

١٢ وتكون موضع تحقيق من المبلغ (عنها).

١٣ لا تزيفن في الدخل على دفاترك

١٤ وبذلك تفسد تدبير الإله.

١٥ لا تجلبن على نفسك غضب الإله

١٦ بدون قرار «شاي» «ورننت»

١٧ وسلم الأمتعة لأربابها

١٨ وابغ الحياة لنفسك

١٩ ولا تدع قلبك يبني في بيتهم (لا تغتصب متاعهم)

٢٠ وإلا كانت عظامك لخشبة الإعدام.

٢١ الفصل الحادي والعشرون: الصمت

٢٢: ١ لا تقولن: «أوجد لي رئيسًا قويًّا

٢ لأن رجلًا في مدينتك قد أضر بي.»

٣ ولا تقولن: «أوجد لي مخلصًا

٤ لأن رجلًا يكرهني قد أضر بي.»

٥ وفي الحق إنك لا تعرف تدابير الله

٦ ولا يمكنك أن تعرف الغد

٧ فاجلس بين يدي الله

٨ وحلمك سيتغلب عليهم.

٩ والواقع أن التمساح الصامت

١٠ يكون الفزع منه شديدًا.

١١ لا تفضين بقرارة نفسك لكل إنسان

١٢ ولا تتلفن بذلك نفوذك

١٣ ولا تنشرن أقوالك لآخرين

١٤ ولا تصاحبن إنسانًا يكشف عما في قلبه.

١٥ والرجل الذي يخفي أخباره في نفسه

١٦ خير من الذي يفشي شيئًا لضرره.

١٧ والإنسان لا يجري ليصل إلى الكمال

١٨ ولا يرمي (؟) ليضر بنفسه (؟).

١٩ الفصل الثاني والعشرون: المحاورة

٢٠ لا تتآمَر ضد قرنك في المحاورة

٢١ ولا تجعلنه يخبر حديث القلوب

٢٢ ولا تبرزن لتذهب لمقابلته

٢٣: ١ وأنت لم تَرَ ماذا يفعل

٢ وستفهم أولًا من جوابه.

٣ وكن هادئًا وعندئذٍ تأتي معرفتك

٤ ودعه لنفسه حتى يُفرغ ما في قرارة جوفه

٥ واعرف كيف تنام وسيفهم.

٦ اقبض على قدميه ولا تحقرنه (وفي الكلام العامي: جر رجله)

٧ وخَفْه ولا تهمله

٨ والواقع أنك لا تعرف تدابير الله

٩ ولا يمكنك أن تحقق ما في الغد.

١٠ اجلس بين يدي الله

١١ فإن حلمك سيتغلب عليهم.[٨٤]

١٢ الفصل الثالث والعشرون: تجنب أكل السحت

١٣ لا تأكلن الخبز في حضرة شريف

١٤ ولا تكن أول مَن يلوك بفمه

١٥ وإذا كنت مرتاحًا للمضع الكاذب (أي مضغ الخبز الذي أتى عن طريق الغبن)

١٦ فإن ذلك يكون مجرد تسلية لريقك.[٨٥]

١٧ انظر إلى الوعاء الذي أمامك

١٨ واجعله يكفي حاجتك.

١٩ وكما أن الشريف عظيم في مقر وظيفته

٢٠ فإن مثله كمثل البئر تغزر بمتح (الماء) منها.

٢١ الفصل الرابع والعشرون: الأمين

٢٢ لا تصغين إلى أجوبة شريف في بيت

٢٤: ١ ثم تنشره إلى آخَر في الخارج

٢ ولا تجعلن كلامك يذاع في الخارج

٣ حتى لا يتألَّمَ قلبك.

٤ وقلب الرجل (ضميره) هو منقار الإله «تحوت»

٥ فاحذر أن تهمله.

٦ والرجل الذي يقف بجوار الشريف

٧ يجب ألا يعرف اسمه حقًّا.

٨ الفصل الخامس والعشرون: احترام العاهة

٩ لا تسخرن[٨٦] من أعمى ولا تهزأن من قزم

١٠ ولا تفسدن قصد رجل أعرج

١١ ولا تحفظن رجلًا في يد الله (ما يُعبَّر عنه الآن بالمجذوب)

١٢ ولا تكونن عابس الوجه حينما يكون قد تعدَّى الحدود[٨٧]

١٣ إذ الواقع أن الإنسان من طين وقش (وهما المادتان اللتان يُصنَع منهما اللبن)

١٤ والله هو مسويه

١٥ وهو يهدم ويبني كل يوم

١٦ وهو يصنع ألف تابع حسب إرادته

١٧ أو ينصب ألف رجل مشرفين (؟)

١٨ عندما يكون في ساعة حياته (؟).

١٩ ما أسعد الذي قد وصل إلى الغرب (مات)

٢٠ وهو آمِن في يد الله.

٢١ الفصل السادس والعشرون: معاملة مَن هم أكبر مقامًا في المجتمع

٢٢ لا تجلس في الحانة (بيت الجعة)

٢٥: ١ وتخالِط مَن هو أكبر منك مقامًا (وظيفة)

٢ مهما كان صغيرًا في السن فإنه عظيم في الرتبة

٣ أو أكبر في السن.

٤ واصطحب مَن في مرتبتك

٥ فإن الإله «رع» مساعد من بعد.[٨٨]

٦ ولكن إذا رأيت رجلًا أعظم منك في الخارج

٧ وله أتباع وراءه فقدِّم له الاحترام.

٨ مدَّ يد المساعدة لرجل مُسِنٍّ إذا كان قد ثمل بالجعة

٩ واحترمه كما يحترمه أولاده

١٠ لأن الذراع القوي لا يرتخي (؟) عندما يكشف

١١ والظهر لا يكسر عندما ينحني

١٢ والفقر لا يأتي للرجل عندما يقول الشيء السار

١٣ ولا يأتي له الغنى عندما يكون قوله من القش.[٨٩]

١٤ والنوتي الذي يرى من بُعْدٍ

١٥ قاربه لا يغرق.

١٦ الفصل السابع والعشرون: الخضوع للمسن

١٧ لا تلعنن أكبر منك سنًّا

١٨ لأنه شاهد «رع» قبلك

١٩ ولا تجعله يتهمك إلى قرص الشمس عند شروقه

٢٠ قائلًا: «شاب آخَر قد سبَّ مُسِنًّا.»

٢١ فإنه مؤلم جدًّا أمام «رع»

٢٦: ١ أن يسب شاب رجلًا مسنًّا.

٢ دعه يضربك بيده في صدرك

٣ دعه يسبك وأنت ملازم السكون

٤ فإذا حضرت أمامه في اليوم التالي

٥ فإنه سيعطيك خبزًا لا حصر له.

٦ وإن طعام كلب الصيد (من شأن) سيده

٧ إذ إنه ينبح على مَن يقدِّمه له (الطعام).

٨ الفصل الثامن والعشرون: كرم الأخلاق

٩ لا تسألن عن شخصية أرملة عندما تقبض عليها في الحقل

١٠ ولا يفوتنك أن تتذرع بالصبر لإجابتها.

١١ ولا تمُرَّنَّ على غريب بإناء زيتك

١٢ بل اجعله يتضاعف أمام إخوانك

١٣ وإن الله يحب سعادة المتواضع[٩٠]

١٤ أكثر من احترام الشريف.

١٥ الفصل التاسع والعشرون: عبور النهر (التعدية)

١٦ لا تمنعن أناسًا من عبور النهر

١٧ عندما يكون في قاربك مكان.

١٨ وإذا أحضر لك محرك سكان في وسط اللجة العميقة

١٩ فإنك ستحني يديك لتأخذه

٢٠ ولن ينالك غضب من الله

٢٧: ١ إذا لم يرحب بك نوتي.

٢ ولا تصنعن لنفسك معبرًا على النهر

٣ ثم تجاهد بعد ذلك لتجمع أجره.

٤ خِذ الأجر من الرجل صاحب الثروة

٥ ورحِّبْ بمَن لا يملك شيئًا.

٦ الفصل الثلاثون: الختام

٧ تأمل لنفسك هذه الفصول الثلاثين

٨ فإنها تمتع وتعلم

٩ وهي تفوق كل الكتب

١٠ فهي تعلِّم الجاهل

١١ فإذا قُرِئت أمام الجاهل

١٢ أصبح طاهرًا بها (من الخبائث)

١٣ فاملأ نفسك بها وضعها في قلبك

١٤ لتكون رجلًا يعرف تفسيرها (عندما تعرفها تمامًا)

١٥ وتكون مفسِّرًا لها كمعلم.

١٦ أما من حيث الكاتب المدرب في وظيفته

١٧ فإنه سيجد نفسه أهلًا لأن يكون من رجال البلاط

١٨ وهذه نهايته.

٢٨: ١ كتبه «سنو» ابن (الكاهن) «بمو».

(جـ) تعليق على تعاليم «أمنموبي»

من مقدمة هذه التعاليم نعلم أن «أمنموبي» هو ابن «كانخت»، وتزوج «أمنموبي» من «توزيري» وأعقب «حور ماخر»، وهو الذي كتب له أبوه هذه التعاليم كعادة مؤلفي التعاليم عند قدماء المصريين.

ويحمل «حور ماخر» ألقابًا دينية كثيرة تربطه بمعبد «بانو بوليس» (إخميم)، غير أن هذه الألقاب نادرة الوجود في الوثائق المصرية الأخرى.

أما ألقاب والدته فعادية شائعة، غير أنها لا تدلنا على المكان الذي أتت منه.

وكان الولد يحمل ألقابًا دينية من صغره، وقد كان المجال فسيحًا أمامه أن يتحلَّى بالصلاح والرزانة اللتين كانتا من صفات والده، ولا ندري أأثمرت تعاليم والده فخطا نحو مرتبة عُلْيًا في الحكومة — لأن الغرض من هذه التعاليم كما جاء فيها يرمي إلى العروج في مراقي الوظائف — أم لم تثمر فبقي حيث كان.

وتقسيم متن هذا الكتاب إلى أبيات من الشعر ليس بالأمر العادي، وعندنا مثل واحد معروف من هذا النوع من الأسرة الثانية عشرة، وأعني بذلك قصيدة «سنوسرت الثالث» المكتوبة في ورقة «اللاهون»، وكذلك عثرنا على مثلين في الديموطيقي: (الأول) حوالي القرن الثاني قبل الميلاد، وهي قصيدة هجائية. (والثاني) يرجع تاريخه إلى القرن الأول بعد الميلاد، وهو مكتوب في ورقة «ليدن» الخلقية.

(د) التعاليم كُتِبت شعرًا

وتقسيم التعاليم إلى فصول مرقومة شيء فريد في المتون الهيراطيقية، غير أنه كُرِّر في ورقة «ليدن» نفسها الآنفة الذكر، وتحتوي على خمسة وعشرين فصلًا في الحِكَم الخلقية، أما من ناحية صياغة الشعر فليس هناك قافية ولا وزن معين، والتأثير الشعري نلحظه فقط من المقابلة في الأبيات.

وسطور هذه التعاليم مركَّبة من مقطوعات، كل مقطوعة مركبة من سطرين، وما شذَّ عن ذلك أتى من حذف سطر، أو إدماج سطرين في سطر واحد، أو كتابة سطر واحد في سطرين، وكذلك نجد مقطوعات مكوَّنة من أربعة أسطر.

ولحسن الحظ وصلت إلينا كل هذه التعاليم كاملةً من أولها إلى آخِرها، فكان ذلك مساعدًا لنا على قدر المستطاع أن نصل إلى كنهها وغايتها.

(ﻫ) أمنموبي يحمل رسالة خاصة للعالم

الواقع أن «أمنموبي» كانت له رسالة يحملها إلى العالم؛ إذ إنه ترك النصائح العادية ظهريًّا، وأول ما يلفت نظر القارئ في تعاليمه التي تتألَّف من ثلاثين فصلًا شيئان: هما تديُّن هذا المؤلف الشاعر، واعتداله. والواقع أنه لم يصلنا إلى الآن من الكتب المعروفة في الأخلاق والتعليم عند المصريين القدامى ما يُظهِر لنا مثل هذه الروح؛ ولذلك يجب علينا أن نعتبر تعاليم «أمنموبي» من أمتع الكتب وأعظمها قيمة. ولقد كان مؤلِّفنا حريصًا على أن يضع في أول تعاليمه الغرض الأساسي من تأليفها في الفصل الأول من كتابه، وبخاصة في السطرين الخامس والسادس، وقد كان أول مَن لفت النظر إلى ذلك هو الأستاذ «سبيجل»؛ إذ إنه كان أول مَن فهم المعنى الحقيقي لهذين السطرين، فيقول: إن هذا الكتاب يحتوي على بداية درس الحياة والإرشاد للخير، وكل قواعد الانخراط بين كبار الموظفين وآداب معاملة رجال القصر، ثم يذكر لنا بعد ذلك في

السطرين الخامس والسادس، وهما يعبران عن هدفه، وليعرف كيف يجيب (شفويًّا) عن سؤال يلقى عليه، وأن يرد (كتابة) على مسألة لمَن يستفسر عنها.

أما من الوجهة الدينية، فنجد المؤلف قد ذكر في تعاليمه عدة آلهة مختلفة، وبالرغم من ذلك يرى القارئ الذي ينظر بعين فاحصة، ويحس أن هناك قوة أخرى عظيمة خفية وراء تلك الأسماء الرمزية، وهي الله العلي العظيم الذي لا إله غيره؛ إذ الواقع أننا نجد — خلافًا لأسماء الآلهة التي جاء ذكرها في التعاليم من مثل «تحوت» و«خنوم» و«رننوت» وغيرها — أن «أمنموبي» يذكر لنا بصفة خاصة اسم الله أو الإله، وهذا يطابِق تمامًا ما جاء في الدين الإسلامي، مما يدل على أن «أمنموبي» كان لا يؤمن إلا بإله واحد، وعلى ذلك كان لكل فرد أن يصوِّر هذا الإله في أية صورة شاء (انظر فيما يلي الكلام على لفظة الإله). ولقد لاحظنا في التعاليم السابقة التي فاه بها مَن سبقه من الحكماء ورجال الفكر أن الصلاح كان فضيلة، وأن التفكير في الموت والأبدية كان حافزًا يدفع الإنسان إلى أن يسلك الصراط السوي في الحياة الدنيا مخافةَ الله؛ إذ إن الله هو الذي يسعد ويغني، ولكن كان التدين في نظر «أمنموبي» يقوم بدور أعظم من ذلك؛ إذ كانت فكرة وجود الله في نظره هي المستوى الذي وضعه أمامه لفهم الحياة، فالله هو الذي يجب أن يكون مديرًا لسكان سفينة الحياة، وهو رب الأرزاق؛ لذلك يجب على الإنسان ألا يخاف غيره، وأن الكمال لله وحده، وأن الإنسان هو المخطئ، والحساب ينتظر المخطئ، وأن محاولة الإنسان الوصول إلى الكمال ضرب من المحال. ومجمل القول أن الله هو القوي القهار، وأن الإنسان خُلِق ضعيفًا، ومع ذلك فإن الله كذلك عادل، فيمكن للإنسان أن يتكل عليه، والله يبارك العمل، ويحب الخير وكرم الضيافة، ولكنه يمقت الملق والغش، وبعد الموت يكون الإنسان في يدي الله (ما أسعد الذي قد وصل إلى الغرب (مات)، وهو آمن مطمئن في يدي الله).

ولقد كان المثل الأعلى بين الناس في نظر «أمنموبي» هو الرجل الرزين أي الرجل المتواضع المعتدل في حياته، ولعمري هل يستخلص الإنسان من هذا التواضع الذي أظهره لنا المؤلف — وهو على طرفي نقيض، من حكماء العصور الماضية إذا قسناه بهم — أنه يصوِّر لنا العقلية المصرية في العصر الذي أخذت فيه البلاد تنحدر؛ طبقًا للضرورات السياسية التي فُرِضت عليها في ذلك العهد؟

ونقيض الرجل الرزين أو الحليم في نظر «أمنموبي» هو الرجل الأحمق، أي الحاد الطبع، المندفع، المتوحش، الغضوب. ويجد القارئ أن المؤلف جعل مدح الرجل الرزين، وذم الرجل المندفع، من أهم النقط التي تناوَلَها في تعاليمه، فنرى هذا الحكيم الذي شاب في تأدية عمله يذكِّر ابنه دائمًا بأن المثل الأعلى في الحياة هو الرزانة (الصمت).

وقد كان «أمنموبي» يسير على نهج غيره من الحكماء الذين سبقوه مثل «بتاح حتب» و«آني»، من جهة أنه كان يحث على الناحية الإنسانية العملية في الحياة، فتراه يشير إلى واجبات الموظف؛ فلا بد أن يكون عادلًا مستقيمًا رحيمًا، ويطلب إليه أن يكون أمينًا، وأن يكون متسامحًا مع الفقير، ويحذره الغش في الدفاتر، وألَّا يسيء استعمال فن الكتابة السامي.

وكذلك نجد حكيمنا يضع قواعد لسلوك الإنسان مع أخيه الإنسان خارج أعماله الرسمية، ويحض على ألَّا يختلط الإنسان إلا بمَن هو على شاكلته، وأن يتجنَّب محادثة العظماء (فصل ٢٦)، وكذلك يجب على الإنسان ألَّا يتملق الأشراف، بل يجب أن يكون مستقلًّا بنفسه عنهم، ومع ذلك يكون مؤدبًا نحوهم (فصل ١٤)، وكذلك يجب عليه ألَّا يكون عالةً على الأشراف العظام (فصل ٢٣)، ولكن يجب عليه في الوقت نفسه أن يعامِلهم كما يعامِل الإنسان مَن هو أسن منه بالاحترام والأدب (فصل ٢، ٤، ٦، ٧)، ويجب على الإنسان أن يكون طلقًا، فإن البشاشة لا تكلفه شيئًا (فصل ٢٦). ويحض «أمنموبي» على أن يكون الإنسان لين الجانب مع المرأة الفقيرة التي

تجمع الحبوب من حقول الغلال، وأن يكون حسن الضيافة للغريب، (فصل ٢٨)، وأن يكون رحيمًا بالأعمى والمقعد والأقزام (فصل ٢٧)، وأن يهيئ أسباب الراحة لمَن يريد أن يعبر النهر من ضفة إلى ضفة، وألا يأخذ الإنسان أجرًا من عابر فقير (فصل ٢٩).

وفضلًا عن ذلك يجب على المرء ألا يتطاول على شريف، وألا يعارض عظيمًا وإن أساء معاملته، وحتى إذا لطمه فليضع يده على صدره، فإن العظيم سيصبح فيما بعدُ مهادنًا له؛ لأن خضوعه سيسكن من حدته فيعطيه خبزًا (فصل ٢٧)، وليعمل على احترام الناس له باعتقال لسانه عن قول السوء (فصل ٨)، وليكن بصيرًا وحذرًا، وليكن حريصًا مع مَن يحبون المتاعب، وليرغب عن مخالطتهم (فصل ٢)، وهذا شيء يسير مما جاء في تعاليم «أمنموبي»، ومنها يرى القارئ الفرق الشاسع بين ما كتبه وبين ما كان يكتبه حكماء العصور التي سبقته، فلا غرابة إذن أن تُعَدَّ هذه التعاليم بحق مصدرًا عظيمًا للأمم المجاورة، وبخاصة فلسطين التي كانت تعتبر مصر الأم التي ترضعها لبان العلم والعرفان.

(و) الآلهة التي ذُكِرت في التعاليم

لقد جاء ذكر آلهة عدة من الآلهة المصريين في سياق هذه التعاليم، والإشارة إليها لها فائدتها للمشتغل بالديانة المصرية القديمة.

وبعض هذه الآلهة له علاقة بصناعة الكاتب، والبعض الآخَر له مساس بالموضوعات العامة.

(١) **إله الشمس:** «رع» أي الشمس، وهو الذي يتجه الناس إلى قرصه «أتون» بصلواتهم في الصباح، ويعتبر الإله المسيطر الذي يعمل كل الصالحين لكسب رضاه.

المقطوعة ١٠: ١٢–١٥ (بدلًا من البحث وراء الثروة)

يجب أن تصلي إلى «أتون» حينما يشرق

قائلًا: «امنحني الفلاح والصحة.»
وسيعطيك ما تحتاج إليه في الحياة
وستكون آمنًا من الخوف.

المقطوعة ٢٥: ١٧–٢١، ٢٦: ١

لا تسبن مَن هو أكبر منك سنًّا
لأنه شاهد «رع» قبلك
ولا تجعله يتهمك إلى قرص الشمس عند شروقه
قائلًا: «شاب آخَر قد سبَّ مُسِنًّا.
فإنه مؤلم أمام «رع»
أن يسب شابٌّ رجلًا مسنًّا.

المقطوعة ٧: ٨ (الرزين)

فإنهم يقولون: «إن أهم شيء هو رضاء «رع».»

ومن المحتمل أن مثلًا حكيمًا يظهر فيه.

المقطوعة ٢٥: ٥

«إن «رع» يساعد من بعيد». ويقصد: ولكنه خطر لمَن يقترب منه.

والصِّل المنتقم الذي يوضع على جبهة «رع»، وكذلك الثعبان «أبوبي» الضخم عدو «رع» كلاهما مخيف، قد ورد ذكرهما ليوضحا الفائدة التي تعود على الإنسان من اكتساب سمعة حسنة.

مقطوعة ١٠: ١٩ـ٢٠

فالإنسان يرحب بالصل
ويبصق على الثعبان «أبوبي».

ومكيال الغلال الذي لعب دورًا هامًّا في حياة الكاتب المصري هو عين إله الشمس، ويطلق عليه اسم «وزيت» أي عين «حور»، أو عين «رع».

وهذا المبدأ القديم لتشجيع الأمانة كان شائعًا من قبل تعاليم «أمنموبي» هذا بزمن بعيد، وقد شرح أحد العلماء الألمان «جورج ملر» أن الإشارات الدالة على تقسيم مكيال الغلال إلى ـ = ◁، ـ = ○، ـ = ⌒، ــ = ⊳، ــ = ℓ، ــ = 𓏤 تتفق مع الأجزاء الستة التي تتركب منها صورة العين.

(٢) **الحظ:** كان «شاي» «المرتب»، و«رننت» «المربية» إله الحظ وإلهته، وكذلك إلهة الحصاد، وقد ظهرت «رننت» في مناظر الحصاد وعصير الخمر في قبور الدولة الحديثة على شكل ثعبان cobra. ونشاهد «شاي» «ورننت» يمثِّلان الحظ في منظر وزن الروح في كتاب الموتى فصل ١٢٥، في ورقة «آني» وورقة «أنهاي»: ففي الأولى نجد أنهما مثِّلَا بشكل آدمي، وفي الثانية في شكل قالبين من اللبن للولادة برأس آدمي؛ ليدلا على حظ الإنسان. ويقول «أمنموبي» في:

مقطوعة ٩: ١٠ــ١٣

لا تندفعن بقلبك وراء الثروة
إذ لا يمكن تجاهُل «شاي» و«رننت»
ولا توجهن أفكارك إلى أشياء في الخارج
فكل إنسان مقدَّر له ساعته (خيره موكل بحظه).

مقطوعة ٢١: ١٣–١٦

لا تزيفن في الدخل على دفاترك

وبذلك تفسد تدبير الإله

لا تجلبن على نفسك غضب الإله

بدون قرار «شاي» و«رننت» (إله وإلهة).

(٣) **الإله خنوم:** وظيفة هذا الإله تشكيل الإنسان على عجلة صانع الفخار، وهذه فكرة سائدة، ونجدها ممثلة في معبد «الدير البحري» وفي معابد العصر الإغريقي الروماني، وكان يُعَدُّ الإله الرئيس في بلدة «شطب»؛ حيث نجد أن «شاي» إله الحظ كان إلهًا ثانويًّا مرافقًا له، حسبما جاء في قطعة من النقوش يرجع عهدها إلى أواخر الدولة الحديثة.

مقطوعة ١٢: ١٥–١٧ (أما من جهة الرجل الأحمق)

ليت الإله «خنوم» يحضر حقًّا حقًّا

عجلة صانع الفخار لصاحب الفم الناري

حتى يشكل ويصهر القلوب مثل الأواني (ويصلح سبله)

(وإنه مثل …)

(٤) **الإله الكاتب:** يعتبر «تحوت» إله الاختراع والعلم، وإله كل صناعات الكاتب، وكان القرد الذي يمثِّله يُرسَم في كل مصلحة حكومية؛ لينظم أعمال الكتَّاب؛ الكبير منهم والصغير. ونجد له مكانةً بارزة في تعاليم «أمنموبي»، وقد ظهر اسمه مرة في الفصل السادس عشر ١٨: ٢ والقرد ذُكِر في نفس المتن، وكذلك في مقطوعة ١٧: ٩ «تحوت» مخترعًا وحارسًا.

مقطوعة ١٧: ٢٢، ١٨: ٣ (لا تغشن الموازين والمكاييل)

فإن القرد يجلس بجوار الميزان

وقلبه اللسان (الميزان)

وأين يوجد إله عظيم مثل «تحوت»

الكاشف لهذه الأشياء ليصنعها؟

لا تصنعن لنفسك موازين منقوصة

فإنها تصير جيوشًا عدة بقوة الإله

ومن مظاهر «تحوت» الطائر «إيبيس» (أبو قردان)؟

مقطوعة ١٧: ٧ــ١٢

فإن منقار «إيبيس» هو أصبع الكاتب

واحذر من إزعاجه

فالقرد يسكن في بيت «الأشمونين»

غير أن عينيه تطوفان حول الأرضين

فإذا رأى مَن يضر بإصبعه

فإنه يرمي بطعامه إلى اللجة العميقة.

ويحتمل هنا أن عين القرد يقصد بها القمر، وعلى أية حال فإن «تحوت» يمثِّل إله القمر، ونجد في تعاليم «أمنموبي» أن القمر في الليل يكشف عن الخيانة، وعندما يكون الرجل الأحمق المرتكب للخطأ على شفا الموت، فإن «تحوت» ينادي (عند محاكمة «أوزير») بإدانته.

مقطوعة ٤: ١٩

وأنت أيها القمر (تحوت) أظهر جريمته.

ومقطوعة ٧: ١٨-١٩

(مَن يتعدَّ على أرض الآخَر)
فإنه إذا تصيده بالأيمان الكاذبة
فإن بطش القمر يوقعه في حبائله.

(٥) **الله:** قد جاء في التعاليم ذِكْر «الله» فقط بدون ذكر اسم إله معين، وكذلك جاء ذكر لفظة «الإله» وليس هناك فرق بينهما في الغرض.

اليد: جاء ذكر يد الله دائمًا في مقطوعة ٩: ٥؛ ١٤: ١؛ ١٩: ٢٢؛ ٢٤: ١١، ٢٠؛ ٢٦: ٢٠.

و«يدي الله» في مقطوعة ٢٢: ٧؛ ٣٣: ١٠.

ولكننا نجد «أنف الإله» (منقار إيبيس) في مقطوعة ٢٤: ٤.

و«قوة الإله» في مقطوعة ١١: ٥؛ ١٨: ٥؛ ٢١: ١٥.

و«تدبير الإله» في مقطوعة ٢١: ١٤؛ ٢٢: ٥.

و«لعنة الإله» في مقطوعة ١٣: ١٦؛ ١٥: ٢١.

و«كره الإله» في مقطوعة ١٤: ٢.

و«حب الإله» في مقطوعة ٢٦: ١٣.

وقد رأى حكماء مصر بثاقِب فكرهم ما وراء معتقدات العامة والمعبودات المحلية الخاصة ببلادهم من الأثر، ولم يُكشف من بين كتبهم إلى الآن كتاب أظهر أمامنا هذه الفكرة عن تلك المعتقدات وأبرزها بشيء كثير من الوضوح مثل كتاب «أمنموبي» هذا، فضلًا عن أن تعاليمه ملأى بالتقوى، ولا غرابة إذا قلنا إن ديانة «أمنموبي» في أصلها ديانة توحيد، وإن كان هذا الحكيم قد استعمل خرافات عامية ليؤكد أفكاره.

وقد يكون من العبث في كثير من الحالات أن نبحث عن آلهة فردية معينة، في حين أنه يسمي ربه بلفظة الله أو الإله فحسب.

(ز) سِفْر الأمثال: نقل عن ترجمة لا عن أصل مصري

ويرى شيخ علماء المصريات «إرمان» أنه في وقت ما قد تُرجِمت هذه التعاليم إلى العبرية أو إلى الآرامية، وأن الذي جمع «سِفْر الأمثال» في التوراة قد استعمل الترجمة، غير أنه أفسد المعنى عند الاستعارة. أما الدكتور «جرسمان» فله رأي آخَر؛ إذ يقول: إن الاستعارة لم تأتِ من طريق نقل الألفاظ مباشَرةً، بل نُقِلت الأفكار وظهرت في ثوب جديد حسبما تقتضيه الحاجة.

ويعزِّز رأي «إرمان» مثل ظاهر، وهو كلمة «ثلاثون»، فإنها تكون كلمة لا فائدة منها، ولا معنى لها في ثوبها الجديد، أي في سِفْر الأمثال، ولكنه فسَّرَها كما يأتي:

قُسِّمَتْ تعاليم «أمنموبي» إلى ثلاثين فصلًا، ومن ثَمَّ أخذها المؤلف العبري في القسم الثالث من سِفْر الأمثال قاعدة لمجموعته التي أخذ يؤلِّفها من ثلاثين حكمة، ولذلك أشار إليها بحق في جملة تشابِه الجملة التي أشار بها إلى هذا العدد «أمنموبي» في مؤلَّفه.

ويقول الأستاذ «جرسمان» إنه عندما أخذ العبرانيون بأسباب المدنية في حكم «سليمان» وخلفائه، كانوا يتطلعون بخاصة إلى مصر وبابل لتعلُّم فنون الحياة، ولا غرابة إذا كان الكاتب الملكي — مثل «حزقيا شبنا» — عبدًا أجنبيًّا ذا تربية عالية، وكان في قدرته أن ينصح الملك من كتبه وتجاربه فيما يتعلق بشئون العالم العظيم، وكان في وسعه كذلك أن يتكلم ويقرأ ويكتب لغة السياسة التي كانت في هذا العصر «اللغة الآرامية»، والواقع أنه كان وزير الخارجية.

على أن ذِكْر «رجال حزقيا» الذين نقلوا القسم الخامس من الأمثال (من فصل ٢٥-٢٦) يدلنا على العصر الذي كان فيه إنشاء محتويات «سِفْر الأمثال» قائمًا على قدم وساق.

ونشاهد أن الدول الراقية قد لحظت ضرورة التفاهم فيما بينها، ويدلنا على ذلك مراسلات «تل العمارنة»، ومراسلات «بوغاز كوي»، والألفاظ الأجنبية الكثيرة التي نجدها في اللغة المصرية في عهد الدولة الحديثة.

ويظن الدكتور «جرسمان» أن كلمة «ماهر» التي في ورقة «انسطاسي رقم ١»، وفي متون أخرى من متون الأسرة التاسعة عشرة، تدل على جندي، ترجمان، كاتب، كانت وظيفته أن يتعلَّم اللغات الأجنبية وعلم الجغرافيا، وهو يشبه في ذلك الضباط الحاليين.

(ح) كتاب «سِفْر الأمثال» وتعاليم «أمنموبي»

ظهر عدد عظيم من الأقوال المأثورة أمثالًا في «سِفْر الأمثال» العبري، وقد وُجِد ما يشابهها في تعاليم «أمنموبي» مشابَهَةً قوية في الأفكار وفي الأساليب، مما أثار موضوعًا طريفًا للبحث ذا أهمية عظمى لعلماء كتاب «العهد القديم»، ولا يخفى أن بعض المقابلات في هذه الأمثال مما يوجد في كتابات الحكماء في كل البلاد وكل العصور، على أن هناك أمثالًا أخرى ليست بالقليلة تلفت النظر بشبهها العظيم في كلا الكتابين، مما أوجد النظرية القائلة بأنها ترجع إلى أصل واحد، فتكون هذه الأمثال العبرانية قد نقلت عن تعاليم «أمنموبي»، أو أن كلًّا من «العهد القديم» و«أمنموبي» أخذها من كتابات قديمة.

وقد لفت ما وُجِد متشابهًا في كتاب «أمنموبي» وفي كتاب «سِفْر الأمثال» علماء الألمان من المشتغلين بدرس كتاب العهد القديم، وخلق لهم موضوعًا جديدًا، وهو البحث عن الصلة بين الآداب العبرية ومدنيَّتِها، ومصر القديمة.

وأول مَن بحث في هذا هو «أدولف إرمان» و«زيته» و«هيوبرت جريم»، وقد ألقى كلٌّ منهم بعض الضوء على علاقة الكتابين بعضهما ببعض، ولكن البحث المستفيض في هذا الموضوع يرجع الفضل فيه إلى «هوجو جرسمان» في مقالته المشهورة: “Die neugefundene

Lehre des Amen-emope und die vorexilische Spruchdichtung Israels .in Zeitscher. f. d. Altest Wiss 1924, 272–296”

وفي كتابه الصغير: “Israels Spruchweisheit im Zusammenhang der .Weltliteratur”

وفي هذين الكتابين شرح آراءه بالنسبة إلى العلاقة بين بعض أجزاء كتاب سِفْر الأمثال وتعاليم «أمنموبي».

وفيما يلي ما جاء في كتاب سِفْر الأمثال، رصدناه حذاء ما جاء في تعاليم «أمنموبي» جنبًا لجنب؛ حتى يرى القارئ القرابة بين الاثنين.

والواقع أن كتاب سِفْر الأمثال قد استعار أمثاله هذه من كتاب «أمنموبي». والرأي القائل بأن «أمنموبي» قد أخذ من غيره، ثم استعير منه سِفْر الأمثال لا يستند على حجة قوية إلى الآن، وهاك المقارنة:

«سفر الأمثال»	تعاليم «أمنموبي»
	مقطوعة ٣: ١١–١٣
فصل ٦: ٢١	وإنه لمن الخير أن تضعها في لبك
اربطها على قلبك دائمًا، قلِّدْ بها عنقك.	ولكن الويل لمن يهملها
	ثم دعها تستقر في صندوق بطنك.

«سفر الأمثال»	تعاليم «أمنموبي»
فصل ١٢: ٢٢ شفتا الزور رجس عند الرب والعاملون بالصدق مرضاته.	**مقطوعة ١٣: ١٥-١٦** لا تتكلمن مع إنسان كذبًا فذلك ما يمقته الله. (ثم يقول تأكيدًا لهذا): **مقطوعة ١٤: ٢-٣** إنه لممقوت من الله مَن يزور في كلام لأن أكبر شيء يكرهه هو النفاق.
فصل ١٢: ٢٣ الرجل الذكي يستر المعرفة وقلب الجاهل ينادي بالحمق.	**مقطوعة ٢٢: ١٥-١٦** والرجل الذي يخفي أخباره في نفسه خير من الذي يفشي شيئًا لضرره.
فصل ١٥: ١٦، ١٧ القليل مع مخافة الرب خير من كنز عظيم مع الاضطراب. أكلة من البقول مع المحبة خير من ثور معلوف مع البغضة.	**مقطوعة ٩: ٥ــ٨** والفقر على يد الله خير من الغنى في المخازن وأرغفة (تكسبها) بقلب فرح خير لك من ثروة مع شقاء.
فصل ١٦: ٨ القليل مع العدل خير من الغلال الكثيرة بغير حق.	**مقطوعة ١٦: ١١ــ١٤** وخير للإنسان مدح الناس وحبهم له من الثراء في المخازن وخير للإنسان أكل الخبز مع قلب سعيد من الثراء مع الكدر.

فصل ١٦: ٩

قلب الإنسان يفكر في طريقه والرب يهدي خطواته.

فصل ١٦: ١١

للرب قبان القسط وميزانه. كل معايير الكيس عمله.

فصل ١٧: ٥

المستهزئ بالمعوز يعيِّر صانعه والشامت للعطب لا يتزكى.

فصل ١٨: ٦

شفتا الجاهل تدخلان في الخصام وفمه يدعو إلى التضارب.

مقطوعة ١٩: ١٦

والكلمات التي يقولها الناس شيء والأشياء التي يفعلها الله شيء آخَر.

مقطوعة ١٧: ٢٢–١٨، ١–٥

فإن القرد يجلس بجوار الميزان

وقلبه اللسان (الميزان)

وأين يوجد إله عظيم مثل «تحوت»

الكاشف لهذه الأشياء ليصنعها؟

لا تصنعن لنفسك موازين منقوصة

فإنها تزخر بجيوش عدة بقوة الإله.

مقطوعة ٢٤: ٩–١٢

لا تسخرن من أعمى ولا تهزأن من

قزم ولا تفسدن مقاصد رجل أعرج

ولا تحفظن رجلًا في يد الله

ولا تكونن عابس الوجه حينما

يكون قد تعدى الحدود.

مقطوعة ١٢: ٥

ويجيب بجواب يستحق الضرب.

«سفر الأمثال»	تعاليم «أمنموبي»
فصل ١٩: ٢١ في قلب الإنسان أفكار كثيرة لكن مشورة الرب هي تثبت.	**مقطوعة ١٩: ١٥-١٦** والله دائمًا في فلاحه والإنسان دائمًا في خيبته.
فصل ٢٠: ٩ مَن يقول إني زكيت قلبي تطهَّرت من خطيئتي.	**مقطوعة ١٩: ١٨** ولا تقولن: «ليس لي جريمة.»
فصل ٢٠: ١٩ الساعي بالنميمة يفشي الأسرار فلا تخالط فاغر الشفتين.	**مقطوعة ٢٢: ١٣-١٤** ولا تنشرن أقوالك لآخَر ولا تصاحبن إنسانًا يكشف عما في قلبه.
فصل ٢٠: ٢٢ لا تقل أجزي على الشر بل انتظر الرب فيخلصك.	**مقطوعة ٢٢: ٣–٦، ٧-٨** ولا تقولن أوجد لي مخلصًا لأن رجلًا يكرهني قد أضر بي. وحقًّا إنك لا تعرف تدابير الله ولا يمكنك أن تعرف الغد فاجلس بين يدي الله ورزانتك ستتغلب عليهم.
فصل ٢٠: ٢٣ معيار ومعيار رجس عند الرب، وميزان الغش ليس بصالح.	**مقطوعة ١٧: ١٨-١٩** لا تتلاعبن في كفتي الميزان ولا تغشَّ الموازين ولا تنقصن من أجزاء مكاييل الغلال.

وإذا كنا لم نلاحظ تشابهًا دقيقًا في الأمثلة السابقة وما يقابلها في تعاليم «أمنموبي»، فإن الموازنة فيما سنذكره بعدُ ستسفر لنا عن شبه قوي دقيق يدعو إلى الدهشة، بل سنرى فصولًا بأكملها في كتاب سِفْر الأمثال قد أخذت عن تعاليم «أمنموبي» بنفس الترتيب الذي كُتِبت به.

«سفر الأمثال»	تعاليم «أمنموبي»
فصل ٢٢	**مقطوعة ٣**
(١٧) أمل أذنك واسمع كلام الحكماء	(٩) أسلم أذنيك واسمع (الكلمات)
ووجه قلبك إلى علمي.	التي تقال واشحذ فكرك لتفسرها.
(١٨) فإنه يلذ إذا حفظته في باطنك.	(١١) وإنه لمن الخير أن تضعها في قلبك.
	(١٢–١٥) (ليس لها ما يقابلها في سفر الأمثال.)
ويفيض أيضًا على شفتيك.[*]	(١٦) فإنها ستكون بمثابة وخز للسانك
(١٩) إني ليكون اتكالك على الرب علمتك اليوم.	**مقطوعة ١: ٧**
[†]	ليرشده إلى سبيل الحياة.
	مقطوعة ٢٧: ٧-٨
(٢٠) ها إني كتبت لك حكمًا جليلة من المشورة	تأمل لنفسك هذه الفصول الثلاثين
والعلم.[‡]	فإنها تمتع وتعلم.
	مقطوعة ١: ٥-٦
(٢١) لأعلمك حقيقة أقوال الحق لترد جواب	ليعرف الإجابة (شفويًّا) عن سؤال يلقى عليه
الحق للذين أرسلوك.	والرد على مسألة لمن يستفسر عنها.

«سفر الأمثال»	تعاليم «أمنموبي»
(٢٢) لا تسلب الفقير لكونه فقيرًا ولا تسحق البائس عند الباب.	**مقطوعة ٤: ٤-٥** احذر أن تسلب فقيرًا معدمًا وأن تكون شجاعًا أمام رجل مهيض الجناح.
(٢٣) (لا يقابلها شيء في أمنموبي.)	
(٢٤) لا تصاحب الرجل الغضوب ولا تساير الإنسان الحنق.	**مقطوعة ١١: ١٣-١٤** لا تخالطن الرجل الأحمق ولا تدنُ منه للمحادثة.
(٢٥) لئلا تتعلم سبله وتأخذ لنفسك وهنًا.	**مقطوعة ١٣: ٨-٩** فلا تقفزن لتنضم إلى هذا الرجل وإلا يذهب بك الفزع.
(٢٦، ٢٧) (لا يقابلها شيء في التعاليم.)	
(٢٨) لا تزح الحدود القديمة التي وضعها آباؤك.	**مقطوعة ٧: ١٢-١٣** لا تزحزحنَّ الحد الفاصل بين الحقول ولا تحولن موقع خيط المقياس.
(سيأتي ذكر هذا مرة ثانية تحت الفصل ٢٣: ١٠.)	
(٢٩) أرأيت الإنسان الذي يجدُّ في عمله! إنه يقف أمام الملوك ولا يقف أمام الخاملين.	**مقطوعة ٢٧: ١٦-١٧** أما من جهة الكاتب المدرب في وظيفته فإنه سيجد نفسه أهلًا لأن يكون من رجال البلاط.

«سفر الأمثال»	تعاليم «أمنموبي»
	مقطوعة ٢٣: ١٣–١٨
فصل ٢٣	لا تأكلن الخبز في حضرة الشريف
(١) إذا جلست تأكل مع ذي سلطة فتأمل أشد التأمل فيما أمامك.	ولا تكن أول مَن يلوك فمه
	وإذا كنت مرتاحًا للمضغ الكاذب
(٢) وضع سكينًا لحنجرتك إن كنت ذا شره.	فإن ذلك يكون مجرد تسلية.
(٣) لاتشتهِ أطايبها فإنها طعام غرور.	انظر إلى الوعاء الذي أمامك
	واجعله يكفي حاجتك.
	مقطوعة ٩: ١٤–٢٠
	لا تجهدن نفسك في طلب المزيد
	عندما تكون قد حصلت (بالفعل) على حاجتك لأن الثروة لو أتت لك
(٤) لا تتعب لتستغني	عن طريق السرقة فإنها لا تمكث معك سواد الليل.
عد عن فطنتك هذه.[§]	إذ عند مطلع الفجر لا تكون في
	بيتك وسترى مكانها ولكنها تختفي
	فربما فغرت الأرض فاها فتأخذها
	وتبتلعها.
	مقطوعة ١٠: ١–٣
	وتغوص بها في «تاي» العالم السفلي
(٥-أ) أتطمح عيناك إلى ما لا يكون.[‖]	أو أنها تعمل لنفسها كهفًا كبيرًا بقدر حجمها
	ثم تغيض بنفسها في مخزن الغلال.

«سفر الأمثال»	تعاليم «أمنموبي»
(٥-ب) إن الغني قد صنع لنفسه جناحين وطار كالنسر إلى السماء.	**مقطوعة ١٠: ٤ــ٥** أو أنها تعمل لنفسها أجنحة كالإوز وتصعد في السماء.
(٦) لا تأكل خبز شرير العين ولا تشتهِ أطايبه.	**مقطوعة ١٤: ٥-٦** لا تقتنصنَّ متاع تابع ولا تتطلعن لخبزه.
(٧ــأ) فإنه كما نوى في نفسه كذلك يكون.	**مقطوعة ١٤: ٧-٨** والواقع أن متاع التابع شجًّا للحلق ومقيئ للزور.
(٧ــب) يقول لك: كل واشرب وقلبه ليس معك.	**مقطوعة ١٤: ٩-١٠** وعندما يحصل عليها بالأيمان الكاذبة تنعكس رغبته ببطنه.
	مقطوعة ١٤: ١١ــ١٦ (ليس لها ما يقابلها في كتاب سفر الأمثال.)
(٨) لقمتك التي أكلتها تقيئها وتضيع كلماتك العذبة.	**مقطوعة ١٤: ١٧-١٨** ولقمتك الضخمة من الخبز تلتهمها وتقيئها وأنت إذن قد جردت من متاعك.
(٩) لا تتكلم في مسمع الجاهل فإنه يستهين بما في أقوالك من التعقل.	**مقطوعة ٢٢: ١١-١٢** لا تفضين بقرارة نفسك إلى كل إنسان ولا تتلفن بذلك نفوذك.

«سفر الأمثال»	تعاليم «أمنموبي»
	مقطوعة ٧: ١٢–١٥، ٨: ٩
	لا تزحزحن الحد الفاصل بين الحقول
(١٠) لا تزح الحدود القديمة ولا تدخل حقول	ولا تحولن موقع خيط المقياس
الأيتام.	ولا تطمعن في ذراع واحد من الأرض
	ولا تقذفن بحدود الأرملة (أي لا تعتدِ عليها).
	احترس من أن تغير حدود الأرض المنزرعة.
(١١) فإن وليهم مقتدر وهو يخاصم لخصومتهم	**مقطوعة ٨: ١٠**
معك.	وإلا يذهب بك الفزع.
فصل ٢٤: ١١	**مقطوعة ١١: ٦-٧**
أنقذ المسوقين إلى الموت	لا تصيحن «جريمة» في وجه إنسان
ولا تخذل المقودين إلى القتل.	عندما يكون سبب فراره خفيًّا.
	مقطوعة ٥: ٢
(٣٩) لا تقل كما صنع بي هكذا أصنع به.	لأننا لا نرتكب ما ارتكبه.

* بحسب «جرسمان» و«سلن» هي — أي الكلمات — إذا وعيتها كانت بمثابة وتد لشفتيك.

† ويرى «سلن» و«جرسمان» أن يضاف إلى هذا «سبيل الحياة».

‡ واستنادًا إلى «سمبسن» تقرأ هذه الحكمة: «ألم أكتب لك ثلاثين فصلًا من المشورة والعلم؟»

§ يدلنا الوزن على أن هناك كلمة محذوفة، إلا أننا نلاحظ أن «سمبسن» ذكر هذه الحكمة مختلفة اختلافًا تامًّا؛ إذ يقول: «قف عن الاستعداد للقوة.» وهو يرى أن الحكمة المشار إليها في وضعها الحالي تؤدي معنى الأسطر ١٦، ١٧، ١٨ من تعاليم أمنموبي على وجه موجز.

ذكرها «سمبسن» بالشكل الآتي: «ألم يعمل مجهودك لنفسه أجنحة ثم أصبح كأن لم يكن.»

قد تكون الموازنة فيما سنذكره بعدُ غير واضحة، لكنني أرى أن الأمثال وما يقابلها من تعاليم «أمنموبي» كانت نواة العهد الجديد، وهي التي نسج عليها الحكماء العبرانيون والمصريون مثلهم العليا.

«سفر الأمثال»	تعاليم «أمنموبي»
فصل ٢٥: ٢١	**مقطوعة ٥: ١–٦**
إن جاع مبغضك فأطعمه خبزًا	حرك الدفة حتى يمكن الرجل الخبيث
وإن عطش فاسقه ماءً.	أن يعبر إلينا (؟)
	لأننا لا نرتكب ما ارتكبه.
	ارفعه ومد يدك له
	وأسلمه إلى ذراعي الإله
	واملأ جوفه بخبزك
	حتى يشبع ويعي.
فصل ٢٧: ١	**مقطوعة ٢٢: ٥-٦**
لا تفتخر بيوم الغد	وحقًّا إنك لا تعرف تدابير الله
فإنك لا تعلم ماذا يلد ذلك اليوم.	ولا يمكنك أن تعرف الغد.

«سفر الأمثال»	تعاليم «أمنموبي»
	مقطوعة ١٣: ١١–١٤
	لا تصافحن قرنك الأحمق على
فصل ٢٧: ١٤	الرغم منك
من بارك صديقه بصوت جهير في الصباح مبكرًا تحسب بركته لعنة.	ولا تحزنن قلبك من أجل ذلك
	ولا تقولن له: «السلام عليكم» رياءً
	عندما يكون في باطنك حقد.

وأما الفصول الباقية من كتاب سفر الأمثال فهي بعيدة عن موضوع بحثنا؛ إذ إن التشابه بينها وبين تعاليم «أمنموبي» معدوم، وقد عالجها العالم «جرسمان» تأييدًا لنظريته القائلة بأن المدنية والأدب القديم كانا إرثًا مشاعًا بين الدول المختلفة.

(٢) التأملات

إن هذه التسمية وإن كانت تشير إلى موضوعنا إلا أنها لا تنتظم كل نواحيه، فليس موضوع القطع التي سنعرضها قاصرًا على التأمل والتفكير، بل إنه يرمي فوق ذلك إلى غرض اجتماعي عظيم هو إصلاح الحال، وتدبير أمور الناس، وضبط ما اختلَّ من أصول المجتمع الذي يضم شتيتهم ويسير بسفينتهم.

وقد أخذ هذا النوع من الأدب يظهر في البلاد على إثر سقوط الدولة القديمة مباشَرةً؛ فقد كانت هذه الفترة مليئة بالاضطرابات، تتفزع فيها البلاد من وقت لآخَر بغزو الأجانب وشرور الثائرين، فلم يأمن الأحياء في بيوتهم أن يُسرقَوا أو يقتلوا، ولم يأمن الموتى في أهرامهم أن يُسلَبوا ويُنهَبوا؛ حتى عمَّت البلاد موجة من الذعر والهلع، وتطلع الناس إلى يد رحيمة تضمد

جراحهم وتسكب عليهم فيضًا من الأمن والاطمئنان، بهذه الحال تأثرت القلوب فانطلقت الأقلام تصف الكارثة، وتلتمس في عماية الفوضى مسلكًا نيرًا يصل بالبلاد إلى مأمنها، ويغلب عليها الأمل حينًا فتتنبَّأ بمستقبلٍ باسمٍ، وتبشِّر نفسها بعهد سعيد مزهر دائم.

وإذا كانت العصور الحديثة قد علمتنا أن للأدب وحيًا، وأن هذا الوحي تتشربه النفوس ويصل إلى موضع الإحساس من القلوب، فيدفع بالإنسان إلى الغاية التي رسمها القلم وهدف إليها الكاتب أو الأديب، فإننا نجد كذلك أن رجال العهد القديم قد أدركوا أن للأدب أثرًا فعَّالًا، فاتخذوه وسيلتهم إلى التقويم والإصلاح.

وكما أن شارلز ريد في عصرنا هذا وصل إلى غايته من إصلاح السجون في إنجلترا بقصته Charles Rede, It is Never Too late To mend، وكما أن قصة كوخ العم «توم» للكاتبة الأمريكية (= Hariette Beecher, “Uncle Tom’s Cabin”.) حقَّقت هدفها في نصرة زنوج أمريكا، والسيد عبد الله النديم نجح في تنبيه المصريين إلى حقوقهم المسلوبة من طريق الكتابة والرواية وسحر القلم، فكذلك كان كتَّابنا القدامى يلجئون إلى الكتابة كعلاج يسكنون به ما حاق بالأمة من أمراض وأوجاع، ويلتمسون من نقيعها البرء والشفاء لجسم الأمة المريض المنكوب. ولقد وصل الكتَّاب المصريون القدامى إلى هدفهم أيضًا، فبدأ صلاح الحال على يد الملك العظيم «أمنمحات» مؤسس الأسرة الثانية عشرة.

وسنعرض هذه التأملات تباعًا، مراعين في سردها الترتيب الزمني لكلٍّ منها على قدر ما وصل إليه استنتاجنا.

(٢-١) تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد: شجار بين إنسان سئم الحياة وبين روحه

مقدمة

لقد كان من نتائج تدهور البلاد وتمزيق أوصالها في العهد الإقطاعي أن عمَّتِ الفوضى، وساءت الأخلاق، وفسدت العقائد الدينية إلى درجة يقصر عنها الوصف؛ حتى إن الجم الغفير من الناس وخاصةً المتعلمين منهم قد اعتنقوا مذهب التشكك، فألقوا بتعاليم آبائهم ظهريًّا، ورأوا الحياة مسرحًا لإشباع الشهوات النفسية، ودارًا لترك حسن الأحدوثة بعد الموت، وقد أعقبت هذه الأفكار عند بعض الناس حالة من سوء الظن لا يُرجَى معها خير، وساءت الأخلاق، ووقع الناس في الإثم إلى الأذقان، ولم يهتموا بحسن الأحدوثة التي كانوا من قبلُ شديدي الاحتفال بها، كما نشاهد ذلك في أغنية الضارب على العود التي سنوردها في فصل الغناء.

وهذا الموقف الغريب الغامض الذي نشاهده في حالة مصر قد مثل لنا في ورقة هامة محفوظة الآن في متحف برلين، وهي الوثيقة التي سميتها «شجار بين إنسان سئم الحياة وبين روحه»، ولا يفوتنا أن نذكِّر القارئ هنا بأن العنوان الأصلي قد فُقِد بسبب تهشُّم الورقة، وقد كان الاعتقاد عند المصريين أن الروح كائن حي مستقل عن جسد الإنسان، ويمكنه أن ينضم إليه عند الموت، ويمكنه كذلك أن يقف بجانبه موقف إخلاص.

وموضوع هذه المحاورة العام هو التشاؤم المخيِّم الذي نتج من الحالة السالفة الذكر، واليأس الذي أفضى إلى الموت، والموت هو المخلص الوحيد من حياة عابثة شقية، ولا يحفز المصري القديم إلى اختيار مثل هذا الموضوع في عهود التاريخ الأولى، إلا إذا كانت الحالة قد وصلت إلى حد الحرج والألم، فهذا الموضوع يدل على الحالة العقلية والتجارب الباطنة التي جرَّبَتْها شخصية معذَّبة كانت تتألم مما حاق بها من الظلم وسوء الطالع؛ وبذلك يعد هذا الموضوع أقدم قطعة أدبية لبابها تجربة روحية وشعور شخص نحو الحياة في تلك العصور البائدة، وهي في نظرنا تُعَدُّ أقدم كتاب يمثِّل لنا صورة من قصة نبي الله «أيوب» المبتلى — عليه السلام — وقد كتب هذا المقال طبعًا قبل أن تظهر قصته بنحو ألف وخمسمائة سنة.

ومما يؤسفنا أن المقدمة التي تقص علينا أسباب ذلك الاضطراب الروحي قد فُقِدت مع العنوان الذي سُمِّيَت به القصة، غير أن بعض الحقائق التي كان يجب أن تحتويها تلك المقدمة، والتي كانت تضع أمامنا أسباب تلك المحاورات، يمكن استنباطها من المحاورات ذاتها.

والمتشائم الذي نحن بصدده (لأننا لم نعرف له اسمًا) كان رجلًا لطيف الروح، ولكنه قد دهمه الحظ العاثر، ولازَمَه المرض فابتعد عنه أصدقاؤه؛ حتى إخوته الذين فُرِض عليهم مواساته في مرضه، ولم يجد في دنياه خِلًّا وفيًّا.

وفي وسط هذه الغمرة التي طوته بين لججها، سرق جيرانه متاعه ونسوا ما عمله معهم من صالح بالأمس.

وبالرغم من أنه عُرِف بالحكمة فقد حيل بينه وبين الدفاع عن حقه، وقد حُكِم عليه ظلمًا؛ فلُوِّثَ اسمه وهو الجدير بالاحترام، وبدت سيرته خبيثة الرائحة تزكم الأنوف، وإن كانت في حقيقتها نقية طاهرة.

وفي ذلك الوقت العصيب عندما كان يسبح في ظلمات اليأس، بدت له بارقة من الراحة في الانتحار، فنراه على حافة القبر وروحه تفر فزعة من الظلمة، وتأبى عليه أن تطاوعه في فعلته تلك، ثم ندرك من محاورة طويلة أن ذلك المنكود الطالع كان يتكلم مع نفسه، ويناجي شخصًا جرَّده من روحه كأنه يتحدَّث مع ذات أخرى.

وقد كان أول الأسباب التي جعلت روحه تعصيه وتمتنع عن متابعته إلى الحياة الآخرة، خوفها ألا تجد طعامًا في القبر بعد الموت.

وقد يظهر ذلك غريبًا جدًّا لأول وهلة من رجل يشك كثيرًا في مثل تلك المعدات التي كانت تُعمَل للمتوفى عند تشييعه إلى آخرته، ولكن غرابتنا تزول إذا أدركنا أن هذا التعليل الذي التمسته

الروح ليس إلا حيلة أدبية، أراد الكاتب أن يتخذ منها فرصة للتنديد بتلك المعدات الجنازية التي كان يهتم بها كل مصري ما عاش في دنياه.

والظاهر أن روحه نفسها قد اقترحت عليه الانتحار حرقًا، ولكنها فرَّتْ بنفسها من تلك النهاية الفظيعة.

ولما لم يكن من بين الأحياء صديق أو قريب حميم لتلك النفس يقف بجانب نعش صاحبها ويحتفل بجنازته، أخذ يستحلف روحه أن تقوم له بكل ذلك، ولكن الروح أبت عليه الانتحار بأي شكل كان، ثم أخذت تصف له فظائع القبر: «ثم فتحَتْ روحي فمها وأجابت عما قلتُه: إذا تذكرت الدفن فإنه حزن، وذكراه تثير الدمع وتفعم القلب أسى، فهو ينتزع الرجل من بيته ويلقي به على الجبل (أي الجبَّانة)، ولن تخرج قط ثانية لترى الشمس. على أن هؤلاء الذين بنوا بالجرانيت الأحمر الجميل وصاروا مثل الآلهة، ترى هناك موائد قربانهم خاوية كموائد أولئك المتعبين الذين يموتون فوق الجسر من غير خلف لهم، فيبتلع الفيضان ناحية من أجسامهم، وتلفحهم حرارة الشمس أيضًا، ويلتهمهم سمك شاطئ النهر ويعيث بهم. أصغِ إليَّ، وإنه لجدير بالناس أن يصغوا، تمتع بيوم السرور وانس الهموم.»

كان ذلك جواب الروح عندما تمثَّلَ أمامها منظر الموت المألوف، وقد أكد ذلك قول المتشائم: «مَن كان في هرمه ومَن وقف أحد الأحياء بجوار سرير موته كان سعيدًا، وقد سعى أن تقوم روحه بدفنه وبتقديم القرابين له، وتقف عند القبر يوم الدفن لتجهز السرير في الجبانة.»

ولكن كان مثله مثل ضارب العود في أنشودته؛ إذ تذكَّرَتْ روحه قبور العظماء التي خربت، وموائد قربانهم التي خوت وصارت مثل موائد العبيد التعساء الذين ماتوا كالذباب في وسط الأعمال العامة على جسور الري، وقد صارت أجسامهم عرضة للحر اللافح والسمك الملتهم في انتظار الدفن، فلم يكن هنالك إلا حل واحد للتخلُّص من كل ذلك وهو: «أن يعيش الإنسان ناسيًا

حزنه، منغمسًا إلى آذانه في السرور.» ويُلاحَظ أنه إلى هنا لم تختلف هذه المحاورة التي تنحصر كل فلسفتها في أن يأكل الإنسان ويشرب، وفي أن يكون مرحًا في يومه لأنه سيموت في غده، عمَّا جاء في أغنية الضارب على العود، ولكنَّا بعد ذلك نجدها تأخذ في الخروج والافتراق عن زميلتها بنتيجة خطيرة تمتاز بها عن تلك الأنشودة؛ إذ صارت تستدلُّ على أن الحياة فوق أنها لم تكن فرصة للسرور والملاذ الدائمة، فإنها عبء ثقيل أثقل من الموت لا يمكن احتمالها، وقد وضح ذلك في أربع مقطوعات شعرية خاطَبَ بها ذلك التعسُ روحَه؛ وتلك المقطوعات هي التي تؤلِّف الجزء الثاني من تلك الوثيقة، ولحسن الحظ نجدها مفهومة بدرجة عظيمة أكثر من الجزء الأول منها. والمقطوعة الأولى تصف لنا مقت العالم بغير حق لاسم ذلك التعس، وتكوِّن كل ثلاثة أبيات منها مقطوعة تبتدئ بالمقطع التالي: «إن اسمي ممقوت.» ثم يرى الكاتب بعد ذلك أن يقوي ذلك المقطع بذكر شيء ممقوت مما يوجد في حياة الشعب المصري اليومية، ويسمه بسمته المبغضة له، وخاصة رائحة السمك النتنة والقاذورات التي كثيرًا ما نشاهدها في حياة سكان وادي النيل. وهاك المقطوعة الأولى:

مقت اسمه ظلمًا

انظر، إن اسمي ممقوت أكثر من رائحة اللحم النتن في أيام الصيف، عندما تكون السماء حارة.
انظر، إن اسمي ممقوت أكثر من مقت صيد السمك في يوم صيد تكون السماء فيه حارة.
انظر، إن اسمي ممقوت أكثر من رائحة الطيور، وأكثر من تل الصفصاف المملوء بالإوز.
انظر، إن اسمي ممقوت أكثر من رائحة السمك وأكثر من شواطئ المستنقعات عندما يصاد عليها.
انظر، إن اسمي ممقوت أكثر من رائحة التماسيح
وأكثر من الجلوس ... حيث التماسيح.
انظر، إن اسمي ممقوت

أكثر من زوجة عندما يقال عنها الأكاذيب لزوجها.
انظر، إن اسمي ممقوت
أكثر من صبي شديد قد قيل عنه إنه ... لمن يكرهه.[٩١]
انظر، إن اسمي ممقوت
أكثر من ... مدينة
وأكثر من ثائر ولّى الأدبار.

ومع أن ترديد ذلك الشعر يدل على أن اسم ذلك الرجل قد صار نتنًا في أنوف أصدقائه، إلا أننا نجده في الشعر الثاني يترك ذكر نفسه ليهتم بأولئك الذين كانوا سببًا في تعاسته، فنراه يلقي نظرة على مجتمع أهل عصره، فلا يجد فيه فاشيًا إلا الرشوة والخيانة والظلم وعدم الإخلاص، حتى بين أسرته هو.

وهذا الشعر أيضًا هو شكوى مرة كان يستهل كل مقطوعة منه دائمًا بجملة استفهامية خرج فيها الاستفهام عن معناه إلى التوبيخ أو التحقير، وهي: «لمَن أتكلم اليوم؟» وربما كان يقصد بذلك: أي صنف من الناس هؤلاء الذين أخاطبهم؟ وقد كان الجواب الذي يعقب كل استفهام برهانًا جديدًا لمقاصده. وهاك ما قال في ذلك:

الشعر الثاني

لمَن أتكلم اليوم؟ الإخوة شر، وأصدقاء اليوم ليسوا جديرين بالحب.
لمَن أتكلم اليوم؟ الناس شرهون، وكل إنسان يغتال متاع جاره.
لمَن أتكلم اليوم؟ فالرجل المهذب مات، والصفيق الوجه يذهب في كل مكان.[٩٢]
لمَن أتكلم اليوم؟ فإن مَن كان ذا وجه طلق أصبح خبيثًا، وأصبح الخير ممقوتًا في كل مكان.
لمَن أتكلم اليوم؟ فإن الذي يستفز غضب الرجل الطيب بأعماله الشريرة يجعل كل الناس يضحكون[٩٣] حينما تكون خطيئته شنيعة.

لمَن أتكلم اليوم؟ الناس يسرقون وكل إنسان يغتصب متاع جاره.

لمَن أتكلم اليوم؟ فقد أصبح الرجل المريض هو الصاحب الذي يُوثَق به، أما الأخ الذي يعيش معه فقد صار العدو.[٩٤]

لمَن أتكلم اليوم؟ لا يذكر أحد الماضي، ولن يفعل أحد الخير لمَن يسديه إليه.

لمَن أتكلم اليوم؟ الإخوة شر، والإنسان صار يُعامَل كالعدو رغم صدق ميوله.

لمَن أتكلم اليوم؟ إذ لا ترى الوجوه، وأصبح كل إنسان يلقي بوجهه في الأرض إعراضًا عن إخوانه.[٩٥]

لمَن أتكلم اليوم؟ والقلوب شرهة، والرجل الذي يعتمد عليه القوم لا قلب له.

لمَن أتكلم اليوم؟ فالصديق الذي يُعتمَد عليه أمسى معدومًا، وأصبح يعامل الإنسان كأنه رجل مجهول، رغم أنه قد جعل نفسه معروفًا.

لمَن أتكلم اليوم؟ إذ لا يوجد إنسان في سلام، والذي ذهب معه لا وجود له (؟).

لمَن أتكلم اليوم؟ فإني مثقل بالشقاء وينقصني خِلٌّ وَفِيٌّ.

لمَن أتكلم اليوم؟ فالخطيئة التي تصيب الأرض لا حدَّ لها.

لقد تنحت روح ذلك المتألم عن الموت، ثم أخذت تقترح عليه أن يعيش عيشة اللهو والملاذ مثل الذي جاء في أنشودة الضارب على العود، ولما أحس من أعماق قلبه فظاعة الموت وأخذ يفهم عدم فائدة العناد المادي المحض لدفع غائلة الموت عنه، نكص على عقبيه مدة قصيرة، ثم عاد يتأمل في الحياة. والنظمان اللذان دونهما هنا يصوران لنا ماذا رأى عندما رجع لبحث الحياة، أما ما يلي فهو وثبة منطقية تدل على أنه ليس هناك أي بصيص من الأمل في الحياة، مع الاقتناع التام بأن الموت هو الخلاص الوحيد من ذلك البؤس الذي صار مغمورًا به.

والنظم الثالث أنشودة قصيرة في مدح الموت، غير أنها ليست بحثًا ساميًا في فوائد الموت مثل الذي نطق به أفلاطون بعد ألف وخمسمائة سنة من ذلك العهد في قصة موت سقراط، كما أنه لا يمكن قياسه بعقيدة التشاؤم الفلسفية التي جاء ذكرها في سِفْر ابتلاء «أيوب» النبي — صلوات

الله عليه — ولكنها تُعَدُّ أقدم صيغة ذُكِرت عبَّرَ بها الإنسان الذي عُذِّبَ ظلمًا عن الموت، وأول صرخة من متألم بريء وصل إلينا صداها من عهود ذلك العالم القديم، وهي بحق تُعَدُّ ذات فائدة فريدة، قد لا تخلو من جمال بما احتوته من حرارة نفسية خلَّابة.

ومما يلفت النظر أنها لا تحتوي على أية فكرة عن الإله، بل هي تبحث عن التخلُّص السار من آلام الماضي التي لا تحتمل دون أن تتطلع إلى المستقبل، وقد كان من خصائص العصر والجو الذي نشأ فيه ذلك النظم، ظهورُ ذلك التخلص السار في شكل صور محسوسة مأخوذة من الحياة اليومية لسكان وادي النيل الأقدمين. وهاك ما قاله في ذلك:

الموت خلاص سار. «إن الموت أمامي اليوم كالمريض الذي يُقدِم على الشفاء، وكالذهاب إلى حديقة بعد المرض.
إن الموت أمامي اليوم كرائحة بخور المر، وكإنسان يقعد تحت الشراع في يوم شديد الريح.
إن الموت أمامي اليوم كرائحة زهرة السوسن، وكما يقعد الإنسان على شاطئ السكر.
إن الموت أمامي اليوم مثل مجرى النهر الصغير، ومثل عودة الرجل من سفينة حربية إلى داره.
إن الموت أمامي اليوم كسماء صافية، ومثل رجل يصطاد طيورًا لا يعرفها.
إن الموت أمامي كمثل رجل يتوق لرؤية منزله بعد أن مضى سنين عدة في الأسر.»

وبالرغم من أن تلك الصور مأخوذة من الحياة الدنيا المتوغلة في القِدَم، فإن معظمها غير مألوف لنا، إلا أنها لم تفقد كل تأثيرها في أنفسنا؛ إذ نجد فيها الحياة مُشبَّهَة بمرض طويل يشفى بالموت مثلما يدخل الناقه حديقة جميلة، والموت مثل عبير المر تحمله ريح النيل العذب، ومثل المسافر يجلس تحت الشراع الذي تزجيه الريح، وأوبة المحارب المنهوك القوى الذي كان يسير في المياه البعيدة ثم يقترب من وطنه، أو مثل السرور الذي يحدث في نفس الأسير العائد من المنفى النائي إلى الوطن السعيد؛ فتلك الصور لها تأثيرها الكبير في نفس كل إنسان في أي عصر وفي أي جو.

وموضوع النظم الرابع هو النظرة العاجلة إلى المستقبل النهائي الذي لم تتعرض لذكره الأنشودة السابقة، ونجد كلًّا من مقاطعه الثلاثة يبتدئ بقوله: «إن الذي هنالك» وهي جملة عادية، وبخاصة لأنها قد وردت بصيغة الجمع: «إن الذين هنالك» ويقصد بهم الأموات، وهم الذين رأيناهم مذكورين في النصيحة المُوجَّهَة إلى «مريكارع»، و«إن الذي هنالك» سيكون نفسه إلهًا، «ويوقع عقاب الشر على مرتكبه» لا على البريء كما هو الحال في حياة ذلك التعس الذي نحن الآن بصدده، «وإن الذي هنالك ينزل في السفينة السماوية مع إله الشمس، وسيرى أن أحسن القربان تقدم لمعابد الآلهة، ولا تُصرَف (عبثًا) في الرشوة أو يسلبها السارق من الموظفين.»

و«إن الذي هنالك» هو حكيم محترم لا يطرد عندما يشكو إلى الموظفين الفاسدين، بل يوجِّه شكايته إلى إله الشمس (رع) ويهيِّئ له تلك الفرصة بوجوده يوميًّا مع الإله.

وقد أعلن ذلك التعس في بداية شجاره مع روحه أنه مقتنع ببراءته في عالم الآخرة، ثم هو يعود مرة ثانية إلى ذكر ذلك الاقتناع في النظم الرابع الذي هو خاتمة تلك الوثيقة المهمة، وبذلك تكون مختتمة بحل يوافِق الحلول التي كان أدركها نبي الله «أيوب» — عليه السلام — وهي الالتجاء إلى العدالة في الحياة الأخروية — ولو أن «أيوب» عليه السلام لم يتخذ من مرضه مبررًا لطلب الموت — وهو بذلك قد جعل الموت طريقًا إلى الدخول في قاعة المحاكمة الإلهية، ولذلك كان سعيه إلى بلوغ تلك النهاية سعيًا سريعًا لا هوادة فيه، فيقول:

الميزات السامية للقاطنين هنالك (يعني في الآخرة)

إن الذي هنالك سيقبض على المجرم كأنه إله، ويوقع عقاب الإجرام على مَن اقترفه.
إن الذي هنالك سيقف في سفينة الشمس ويجعل أحسن القرابين هنالك تُقدَّم للمعابد.
إن الذي هنالك سيكون رجلًا عاقلًا غير منبوذ مصليًا (لرع) حينما يتكلم.

ولما كان هذا التعس يتوق للخلاص السار الذي يهيئه له الموت، وكان يظهر عليه أنه قد استعاد بعض الثقة بما كان سينعم به من الميزات السامية في عالم الآخِرة، فإن روحه تستسلم له في النهاية، فيدخل في ظلال الموت ويسير في طريقه ليكون مع أولئك الذين هنالك.

على أننا نحن بدورنا نرقب بشيء من الإحساس المرهف هذا الرجلَ المجهولَ الاسم الذي يُعَدُّ أقدم روح بشرية معروفة لنا تذهب إلى تلك الحجرات الداخلية في عالم الآخرة.

وقبل أن نختم كلامنا عن هذه الوثيقة نقول إن بعض مَن كتَبَ عنها يرى أن فيها ما يمثِّل رجلين: أحدهما يرى أن الموت هو الخلاص الوحيد للإنسان؛ إذ يعيش بعده في عالم سلام وأمان، والثاني رجل شهوة يرى أنه من الواجب على الإنسان أن ينسى كل أحزان الحياة وآلامها، وأن يجعل السرور وحده يسيطر على حياته.

(أ) المصادر

المصادر الهامة التي يُعتمَد عليها في درس هذا المقال ما يأتي:

(1) Pieper "Die Agyptische Literatur" PP. 26 ff.

(2) Peet, "A Comparative Study of the Literatures of Egypt, Palestine and Mesopotamia" PP. 114 ff.

(3) Breasted, "The Dawn of Conscience", PP. 168 ff.

(4) Erman, "The Literature of the Ancient Egyptians", PP. 86 ff.

(5) A. Mekhitarian, "Chants de Détresse et d'Amour", PP. 4 ff.

وقد طبع الأصل المصري القديم الأستاذ إرمان في:

Erman, “Abh. der Berliner Akademie in 1896”.

(٢-٢) شكوى «خعخبر رع سنب»

هذه الوثيقة الأدبية واحدة من سلسلة المقالات التي كتَبَها مؤلفوها يشكون فيها الحالة التي وصلت إليها البلاد من التدهور الأخلاقي، والانحطاط الأدبي، والفوضى الشاملة في العهد الإقطاعي. والظاهر أن كاتِبها عاش في عهد الملك «سنوسرت» الثاني كما يُستدَل على ذلك من اسمه؛ لأن لفظة «خعخبر رع» هي اللقب الرسمي الذي كان يحمله «سنوسرت» الثاني، وكلمة «سنب» معناها الصحة، فيكون معنى اسم كاتبها «خعخبر رع في صحة»، وهذه طريقة في التسمية للأعلام نجدها منذ الدولة القديمة، فيقال مثلًا «خفرع عنخ» أي خفرع عائش، وهكذا.

وهذه الوثيقة رغم أنها تُنسَب إلى الدولة الوسطى، فإنها كغيرها وصلت إلينا مكتوبة على لوحة تلميذ من عهد الأسرة الثامنة عشرة، وكان أول مَن عني بحل رموزها الأستاذ «جاردنر»، والورقة محفوظة الآن بالمتحف البريطاني، على أن مجرد وجود هذه الوثيقة مكتوبة على لوحة تلميذ بعد تأليفها بعدة قرون؛ لَأَكْبَرُ دليلٍ على أنها كانت من القِطَع الأدبية المختارة التي كانت تُعتبَر نماذج للأسلوب الراقي وطلاوة العبارة، ولا غرابة في ذلك، فإن مؤلفها كان يبحث وراء الأسلوب الجميل والكلمات الحكيمة ليعبِّر عن مقصده؛ ولذلك جعل عنوان مقاله: «جمع الكلمات، وقطف الحكم، والبحث وراء التعابير، ومناجاة القلب التي ألفها كاهن عين شمس … «خعخبر رع سنب» الذي يُسمَّى «عنخو» أيضًا». ومن غريب الاتفاق أن اسم هذا المؤلف قد جاء ذكره بين أسماء أعلام الكتاب الذين كانت لهم شهرة عظيمة في الأدب المصري، وممَّن كان يُضرَب بهم المثل في عهد الرعامسة عند التحدث على المؤلفين الذين بقيت كتاباتهم خالدة.

على أن مقال هذا الكاتب العظيم له أهمية خاصة؛ إذ يدلُّنا ما جاء في أوله على أمثال أولئك المؤلفين الذين كانوا يعيشون في العهد الإقطاعي، شاعرين في قرارة أنفسهم بحاجتهم إلى

الوثوب، مفكِّرين في توجيه جديد لحالتهم، وأنهم قد أقلعوا عن التلطف التقليدي الذي كانت تتميَّز به نصائح آبائهم. ويفتتح كاهن عين شمس هذا مقاله القصير بما يأتي:

ليتني كنت أعرف صيغًا للكلام لا يعلمها أحد، وأمثالًا غير معروفة أو أحاديث جديدة لم تُذكَر (يعني من قبلُ) خالية من التكرار، لا الكلام الذي تُحدِّث به من زمن بعيد مضى، وهو ما تكلَّمَ به الأجداد … لقد تحدَّثت بحسب ما رأيت، مبتدئًا بأقدم الناس إلى أولئك الذين سيأتون بعدُ …

إن العدالة قد نُبِذت في حين أن الظلم قد أخذ مكانه في وسط قاعة المجلس … وخُطَط الآلهة قد انتُهِكت حرمتها، وأُهمِلت نظمها، والبلاد صارت في همٍّ، والحزن عمَّ كل مكان، وصارت المدن والأقاليم في عويل، وكل الناس صاروا على السواء يرزحون تحت عبء الظلم …

أما الاحترام فإن أجله قد انتهى …

وعندما أريد أن أتحدَّث عن كل ذلك تنوء أعضاء جسمي بحمله، وإني من أجل قلبي لمحزون، وإنه لألم أن أُهدِّئ روعي من جهته؛ إذ لو كان قلب آخَر لانثنى (ولكن) القلب الشجاع في الملمات يكون رفيقًا لسيده، ليت لي قلبًا يتحمل الألم، فعندئذٍ كنت أطمئن إليه …

تعالَ إذن لأتكلم إليك يا قلبي؛ لتجيبني عن كلامي، ولتفسِّر لي ما هو كائن في الأرض … لأني أفكر فيما قد حدث.

إن المصائب تقع اليوم، ومصائب الغد لم تأتِ بعدُ، فكل الناس لاهون عن الغد مع أن كل البلاد في اضطراب عظيم، وليس إنسان خاليًا من الضر، فإنه يصيب جميع الناس على السواء، والقلوب بالحزن مفعمة، فالآمر والمأمور صارَا سواسيةً، وقلب كل منهما

راضٍ، والناس عليه (يعني الضر) يستيقظون في صباح كل يوم، ولكن القلوب لا تنبذه، ولا تزال اليوم على ما فعلته بالأمس، ولا يوجد إنسان عاقل يدرك، ولا إنسان غاضب يتكلم، والناس تستيقظ في الصباح كل يوم لتتألم، وإن مرضي لثقيل وطويل، والرجل الفقير ليس له حول لنفسه ولا قوة؛ ليتخلَّص ممَّن هو أشد منه بأسًا.

وإنه لمؤلم أن يستمر الإنسان صامتًا عن الأشياء التي يسمعها، وإنه لمؤلم أيضًا أن يجيب الإنسانُ الرجلَ الجاهِلَ.

ففي ذلك المقال نجد إنسانًا قد تحرَّكت نفسه من أعماقها؛ لأنها أُثِيرت بما شاهدته من الفساد، فهو يتأمل في هذا المجتمع وينظر إليه نظرته إلى أسرة مرتبطة متساندة، ويؤلمه ما يراه من قيود تكبِّل هذا المجتمع، وتنحو به نحو الشقاء، كما يؤلمه قصور المجتمع عن إدراك شقائه، وعجزه عن إصلاح حاله إنْ أدرك شيئًا من هذا الشقاء.

ولقد تحدَّث عن نفسه في كل ما ذهب إليه، وإن كان يعنى بما قال مجتمعه الذي يعيش فيه.

على أن كثيرًا من تلك الأفكار يمكن أن نجد لها مكانتها الآن عند بعض الناقدين الاجتماعيين في عصرنا هذا، ممَّن امتازوا بحاستهم الخلقية المرهفة، وصدور مثلها في هذا الزمن القديم يدل على الوقت الذي استيقظ فيه القوم لأول مرة في تاريخ البشر، وشعروا فيه شعورًا عميقًا بما أصاب المجتمع البشري من الانحطاط الخلقي.

ويعود سبب هذه الحالة الجديدة التي وصل إليها أولئك المفكِّرون الاجتماعيون إلى وجود إدراك خلقي حسَّاس آخِذٍ في النمو، وإلى بعض العوامل التي ساعدت على عدم انخداعهم بالظواهر.

فهؤلاء المفكِّرون كانوا قد تأثَّروا تأثُّرًا عميقًا بتدبُّرهم الحياة البشرية الاجتماعية فوق الأرض، والمصير الإنساني فيما بعد الموت؛ فانكشفت لهم تلك الحقيقة المحزنة، وهي عدم فائدة العوامل المادية المحضة التي كانوا يعولون عليها لضمان سعادة الروح في الدار الآخرة، فهذه الأمور

المادية التي كانت تُؤدَّى تقليدًا للأجداد، ويرجع تاريخها إلى أزمان غابرة، قد انهدمت، وبانهيارها ذهب معها كل ما كان مُعتبَرًا لضمان حياة الإنسان في عالم الآخرة فيما بعد الموت.

ومن المحتمل أن ثقتهم التقليدية المتينة في فطنة أجدادهم كانت قد انهارت من أساسها انهيارًا عنيفًا، وإذا كانت تلك حالهم في تجاربهم التقليدية الموروثة فيما يختص بالحياة في عالم الآخرة، فإن حالتهم في تجاربهم عن الحياة الدنيوية كانت أسوأ مآلًا، فقد قام في فترة ألف سنة (أي منذ عهد مينا) نظام قومي ثابت الأركان في البلاد المصرية القديمة، كان يمثِّله ويحافظ عليه الفرعون بصفته نائبًا عن الله في الأرض، وكان اسم ذلك النظام «ماعت» أي (الصدق – الحق – العدالة).

ولكن هذا النظام كذلك قد أخذ بدوره ينهار؛ فقد وُجِد في النصيحة الموجَّهَة إلى «مريكارع» بالفعل أن الأمة قد انقسمت قسمين: مملكة في الشمال، وأخرى في الجنوب، وأن الملك كان همه منصرفًا إلى تحصين مملكة الشمال من خطر الغزاة الأجانب؛ إذ قد انحَلَّتْ تدريجًا قوة الأمة النظامية التي دامت عليها موحدة مدة طويلة، حتى كشف الغزاة الأجانب عن مواطن الضعف في البلاد التي كانت في يومٍ ما مؤلفة من أمة عظيمة ذات نظام ثابت الأساس، فتدفَّقَ الغزاة الأجانب إلى الدلتا من جهة آسية شرقًا، ومن جهة لوبيا، وهكذا سادت الفوضى في البلاد تمامًا، ولا بد أن تلك النكبة هي التي وصفها لنا كاهن عين شمس «خعخبر رع سنب».

(أ) المصادر

أهم مصادر هذا المقال ما يأتي:

(1) Writing-board, British Museum, No. 5645.

(2) Pieper, “Die Agyptische Literatur”, P. 49.

(3) Peet, “A comparative study of the Literatiures of Egypt, Palestine and Mesopotamia”, P. 120.

(4) Gardiner, “The Admonitions of an Egyptian Sage”, P.P. 95. f.f.

(5) Breasted, “The Dawn of Conscience”, P.P. 178 f.f.

(6) Erman, “The Literature of the Ancient Egyptians”, P.P. 108 f.f.

(٢-٣) تحذيرات متنبئ يُدعَى «إبور»

هذه الوثيقة محفوظة الآن ضمن كنوز متحف «ليدن» الأثري بالقسم المصري، وتُعرَف باسم ورقة «ليدن» رقم ٣٤٤، وقد ضاع أولها، وهُشِّم آخِرها، وبها فجوات كثيرة في وسطها، ولذلك كان من الصعب الاهتداء في أول الأمر إلى موضوعها الحقيقي، وكان المفهوم منها جملةً أنها ورقة تعليمية، وقد بقيت الحال كذلك إلى أن طالع العالَمَ الأستاذُ «لنجة» الأثري الدانيماركي بمقال كشف فيه عن مضمونها الحقيقي؛ إذ قال إنها تنبؤات حكيم مصري، وذلك في عام سنة ١٩٠٣.

وقد سهَّلَ ذلك الحل الطريقَ إلى علماء الآثار لدرس هذه الوثيقة، ولم تمضِ بضع سنين حتى قام الأستاذ «جاردنر» بدرسها دراسة وافية، علَّق عليها بشروح علمية ولغوية بقدر ما سمحت به حالة الوثيقة المهلهلة، وما بها من الأخطاء التي لا بد قد ارتكبها ناسخها. ويدل ما جاء في هذه الوثيقة من الوصف والإشارات البعيدة التاريخية على أنها تصوِّر لنا عهدًا خاصًّا كانت فيه البلاد في حالة فوضى وارتباك، يقصر عنه كل وصف من الوجهتين السياسية والاجتماعية،[٩٦] على أننا إذا طبَّقنا ما جاء فيها من وصف الحوادث والمحن على التاريخ المصري، فلا نجد لها شبيهًا إلا عهد العصر الإقطاعي؛ حينما تمزَّقَتْ أوصال البلاد شر ممزق. ولأجل أن يفهم القارئ

مضمون هذه الوثيقة ويطبقها على هذا العصر، سنتبع في دراستها طريقة خاصة؛ وذلك بأن نصف له حالة البلاد بعد سقوط الدولة القديمة وهو العصر الإقطاعي، ثم نتناول بعد ذلك تحليل ما جاء في هذه الوثيقة مستشهدين بمقتطفات منها في وصف الحالة العامة للبلاد، وما أصابها من خراب ودمار في جميع مرافقها السياسية والاجتماعية، بحيث يمكن للقارئ أن يرى أمامه صورة واضحة منطقية لذلك العصر؛ وذلك لأن حكيمنا قد أفزعته الحالة التي وصلت إليها البلاد من الانحطاط، فكان ينتقل من وصف موضوع إلى آخَر دون أن يكون هناك أية رابطة بين ما وصفه أولًا، وما انتقل إليه ثانيًا، مما يدل على أن كل شيء أمامه في البلاد كان قد هوى إلى الحضيض، وبعد ذلك سنضع أمام القارئ نصَّ الوثيقة كما وُجِدت في الأصل؛ فيستطيع القارئ الأديب أن يفهم بنفسه نفسية هذا الفيلسوف عندما كان يضع تلك الصورة البشعة عن حالة مصر بعد سقوط الدولة القديمة.

(أ) سقوط الدولة القديمة والثورة الاجتماعية

لقد كانت سلطة الفراعنة في الأسرة السادسة آخِذة في التدهور شيئًا فشيئًا، وبخاصة في عهد «بيبي الثاني» الذي حكم البلاد أكثر من ثلاثة أجيال، وقد انتهى الأمر بعده بانحلال البلاد وتفشِّي الثورة فيها؛ مما قلَبَ الأمور رأسًا على عقب كما سيأتي شرحه. ويرجع السبب في ذلك إلى أمرين هامين، الأول: إغارة الأجانب من البدو على البلاد من جهة، والحروب الداخلية من جهة أخرى. وتفصيل ذلك أن البدو رغم الهزيمة المنكرة التي لحقت بهم في عهد «بيبي الأول» [٩٧] لم يفقدوا الأمل في غزو البلاد المصرية، التي كانت في تلك الفترة تزخر بالثراء والغنى، وقد سنحت لهم الفرصة في عهد الملك بيبي الثاني[٩٨] لنيل مأربهم؛ إذ كانت الأحوال مهيَّأة لهم؛ فقد كان كل حاكم من حكَّام المقاطعات الوراثيين منهمكًا في المحافظة على مقاطعته التي كانت تُعَدُّ بمثابة مملكة صغيرة مستقلة.

أما في الوجه البحري الذي كان فيه مقر الملك، فيحتمل أن القوم كانوا ملتفين حول الملك بعض الشيء، ودافعوا عن بلادهم، غير أنه ليس لدينا وثائق تاريخية تحدِّد لنا الموقف بالضبط. وعلى أية حال كان موقف الحكومة المصرية في هذا العهد يُرثَى له، حتى إن الشعب انتهز هذه الفرصة وقام بثورة اجتماعية طاحنة تشبه الثورة التي قام بها البلاشفة، امتدَّ لهيبها أكثر من قرنين من الزمان، كانت البلاد ترزح فيهما تحت عبء ثقيل من الفوضى والخراب؛ إذ كان سلطان «فرعون» قد زال وأملاكه قد اختفت، ولا أدل على ذلك مما ذكره لنا «مانيتون»[٩٩] من أنه قد حكَمَ البلادَ في عهد الأسرة السابعةِ سبعون ملكًا في مدة سبعين يومًا. أما الحقوق المدنية والدينية، فقد تولَّاها كلُّ مَن كان في قدرته أن يبسط يده عليها، وأخذ كل شخص يُغِير على ما يستطيع أن يصل إليه، ضاربًا بكل نظام وقانون عرض الحائط، وقد كان من جرَّاء امتداد هذه الفوضى أن ساد البلاد الخوف، وانتشر القحط، وعمَّ الانحلال الخلقي وعدم المبالاة بالتقاليد الدينية والمعتقدات الموروثة. وليست لدينا وثائق تاريخية تنير لنا الطريق خلال هذا العصر المظلم، اللهم إلا معلومات ضئيلة جدًّا، ولكن من جهة أخرى قد أسعفتنا الوثائق الأدبية الشعبية بشيء مما نريد؛ إذ الواقع أن أزمة هذا العصر طال أمدها فأثَّرَتْ على أذهان القوم، وبخاصة على أفكار الحكماء وأهل الفكر، وعلى خيال القاصين؛ فنراهم يصوِّرون ما حاق بالبلاد من ضنك وشدة، وما قاست من ويلات وخراب، بعبارات مؤثِّرة جدًّا خارجة من الأعماق.

وقد كان هناك في ذلك العصر مفكِّرون اجتماعيون قد أحسوا الحاجة إلى وجود حاكم عادل، فكان من بين الحكماء الذين يتطَّلَعون إلى وجود مثل هذا الملك العادل الحكيم «إبور»، وهو أحد المتنبئين الاجتماعيين الذين كانوا يعيشون في ذلك العصر، وقد ألَّفَ مقالًا في شكل تمثيلي مؤثِّر، ولم يقتصر على اتهام أهل تلك الأزمان بحرارة فحسب، بل وصَّى في مقاله ذاك بالإصلاح وتطَّلَع من وراء القيام بذلك إلى إيجاد نهضة جديدة يقوم بها المجتمع، كما كان ينتظر أيضًا وجود عصر ذهبي يخلقه هذا الإصلاح المنشود. وتلك الوثيقة المذكورة تُعَدُّ من أهم الوثائق التي

تُلفِت النظر من بين كل تلك المقالات الاجتماعية والخلقية التي كُتِبت في ذلك العهد الإقطاعي، ويصح لنا أن نسميها «تحذيرات المتنبئ إبور». ومما يدعو إلى الأسف أيضًا أن بداية هذه البردية قد فُقِدت، وهي الجانب الذي كان يحتوي على الأحوال التي دعت ذلك الحكيم على الإدلاء بتحذيراته المذكورة في هذه الوثيقة، وإن كانت تلك الأحوال في ظواهرها الرئيسية واضحة. ويمكن تلخيص تلك الوثيقة فيما يأتي: يقوم الحكيم «إبور» بإلقاء اتهام طويل مفعم بالغضب على حالة عصره أمام حضرة ملك (لم يُعرَف اسمه بالتحقيق للآن)، وشهده بعض الناس الذين يحتمل أنهم كانوا حاشية ذلك الملك مجتمعين عنده في ذاك الوقت، ثم ينتهي بإسداء النصح لقومه فيحذِّرهم الإهمال ويدعوهم إلى الإصلاح، ثم يلي ذلك رد قصير من جانب الملك، ثم ينتهي المقال بتعقيب للحكيم المذكور على الرد الملكي. وقد سلخ الخطاب الرئيسي الذي ألقاه ذلك الحكيم نحو ثلثي ذلك الاتهام الطويل.

فهذا الخطاب يتألَّف منه معظم المقال المذكور؛ لأنه يقع في نحو عشر صفحات من الأربع عشرة صفحة التي يحتويها المقال، على أنه لا يظهر في ذلك الاتهام أي ترتيب منطقي في عناصره بالرغم من ظهور الجهد في ترتيب أقوال ذلك الحكيم؛ لأنها موضوعة على هيئة مقاطع مُقفَّاة، وكل مقطوعة منها تبتدئ بنفس العبارة السابقة لها، وهذا يطابق شعر الرجل التعس وروحه.

وسنحاول في الفقرات التالية أن نلخِّص أهم محتويات ذلك الاتهام في شكل مواضيع مقتبَسَة باختصار، يبدو منها نوع الكلام الذي أفضى به ذلك الحكيم.

ولما كانت هذه البردية ممزَّقة كما أسلفنا، ولغتها عويصة صعبة، كانت ترجمتها ترجمة متصلة من الأمور المستحيلة، حتى ولو توفَّرَتِ الشروح التي تكفل إزالة هذه الصعوبة.

ونرى فيها ذلك الحكيم يحلق بنظرة ثاقبة مشرفًا على الحياة المنظمة لأهالي وادي النيل في ذلك الوقت، فيجد أن كل شيء قد آلَ إلى الفوضى؛ فالحكومة قد وقفت بالفعل حركتها، وقوانين قاعة العدل قد أُلقِي بها ظهريًّا، فصارت تدوسها الناس بالأقدام في المحال العامة، والفقراء يفضونها على قارعة الطريق.[١٠٠]

ويرجع السبب في سوء النظام هذا إلى حالة الهياج والحروب الدائرة في داخل البلاد.

فالرجل يذبح أخاه من أمه فما العمل في ذلك؟ ...

انظر! إن الرجل يُذبَح بجوار أخيه فيتركه وحيدًا لينجِّي نفسه.

والرجل ينظر لابنه نظره لعدوه ... يذهب الرجل إلى الحرث والزرع وهو مسلَّح بدرعه ...

ويضاف إلى سوء النظام أيضًا، وإلى الثورة الداخلية، أهوالُ الغزوات الأجنبية المعتدية على البلاد؛ فإن أملاك مصر بعد أن صارت فريسة لسوء النظام، والفتنة الضاربة أطنابها بالبلاد، قد صار رجالها أيضًا غير قادرين على صد غزوات الآسيويين عن حدود شرق الدلتا للبلاد المصرية؛ وبذلك وقف سير الحركة الاقتصادية.

انظر! لا صانع يعمل والعدو يحرم البلاد حِرَفها ...

انظر! إن مَن حصد المحصول لا يعرف عنه شيئًا، ومَن لا يحرث لنفسه يملأ مخزنه ... وإن الحصاد يحدث، ولكن لم يُذكَر عنه شيء، والكاتب يجلس في مكتبه ولكنْ يداه لا تعملان شيئًا ...!

انظر! إن الماشية قد تُرِكت ضالة سبيلها، ولا إنسان يجمعها ويلم شعثها، فكل إنسان يذهب ويأخذ لنفسه منها ويسمها باسمه (أي يعلمها) ... والحروب الداخلية لا تدفع

> ضريبة ... فما فائدة بيت مال بدون دخل؟!
>
> والتجارة الخارجية تنحط وتختفي في مثل تلك الأحوال التي كانت عليها داخلية البلاد؛ فأصبح الناس لا يسيحون إلى «جبيل» اليوم، وإذن ماذا نصنع[١٠١] للحصول على خشب الأرز اللازم لمومياتنا؟ فالكهنة يدفنون بمستخرجاتها، والأمراء حتى بلاد كفتيو (كريت) يحنطون بزيتها؛ فهي لا ترد بعدُ قط (الأخشاب)، ووقوع مثل تلك الأحوال كان محتملًا؛ لأن الأمن العام والتجارة قد اختفى أثرهما. وبالرغم من أن الطرق كانت محروسة فإن الناس كانوا يرصدون في الأحراج حتى يمر السائح الذي دهمه الليل، فيسلبوه ما يحمل ويجردوه مما معه، ويُضرَب بالعصي ويُذبَح ذبحًا شنيعًا. وفي الحق لقد أصبحت الأرض تدور كعجلة صانع الفخار، ونظام البلاد قد قُلِب رأسًا على عقب، فمَن كان لصًّا صار رب ثروة، والغني صار إذ ذاك إنسانًا منهوبًا.

وهكذا انقلبت أوضاع كل الأشياء طبقًا لما يدل عليه مفهوم تشبيهها بعجلة صانع الفخار، فالشئون الاجتماعية انقلبت انقلابًا تامًّا.

وإننا نجد في أطول مجموعة من فقرات تلك الوثيقة — التي أُنشِئت على وتيرة واحدة — أن ذلك الحكيم يضع أمامنا تغيُّر تلك الأحوال بالنسبة لأفراد طبقات الشعب، فهو في فقرة واحدة يضاهي بين ما كان عليه الماضي، وبين ما يجري في ذاك الوقت؛ إذ نراه يقول:

> انظر! إن الذي لم يكن يملك زوجًا من الثيران أصبح يملك أزواجًا، ومَن لم يكن في مقدوره أن يحصل على ثيران للحرث أصبح يملك قطعانًا.
>
> انظر! إن الذي لم يكن يملك حبة أصبح الآن يملك أجرانًا، ومَن كان يبحث لنفسه عن صدقات من القمح أصبح الآن يخرج من مخازنه ويجعلها تُوزَّع.

ونجد في ذلك الخراب الشامل الذي حاق بالبلاد، فالانحطاط الخلقي قد أخذ مأخذه، غير أنه لم يكن ظاهرًا ظهور ذلك البؤس العام الذي يصفه؛ فيقول:

> والمتحلي بالفضائل يسير وهو محزون، ويقول الرجل الأحمق: إذا عرفت أين يوجد الإله فإني أقدِّم له قربانًا، وفي الحق كانت (العدالة موجودة في الأرض باسمها فقط، وما يعمله الناس حينما يلتجئون إليها هو العسف).

فلا عجب إذن من وجود ذلك البؤس الشامل:

> وفي الحق قد مات السرور ولم يَعُدْ يُحتفَل به بعدُ، ولا يوجد في الأرض إلا الأنين الممزوج بالعويل.

حقًّا فقد أصبح كلٌّ من العظيم والحقير يقول:

> ليتني كنت ميتًا؟ والأطفال الصغار يقولون كان يجب عليه ألا يجعلني على قيد الحياة.
>
> حقًّا، فإن قلوب كل الماشية صارت تبكي، والقطعان تندب حالة البلاد.

على أنه لم يكن في مقدور ذلك الحكيم أن يشاهد كل ذلك دون أن تثور عواطفه؛ إذ كان بدوره متأثِّرًا تأثُّرًا عميقًا لتلك الكارثة العامة.

فنراه يطلب من الله أن يجعل لتلك الحالة نهاية! إذ يقول:

> ليت آخِر الناس يكون قد حلَّ فلا حمل ولا ولادة، ليت العالم يتخلص من الغوغاء وتنفضُّ المشاحنات.

على أن ذلك الحكيم كان يقرِّع نفسه؛ لأنه لم يسعَ من جهته لإنقاذ ذلك الموقف من قبلُ، فيقول أيضًا:

ليتني رفعت صوتي في ذلك الوقت؛ حتى كنت أنقذ نفسي من الألم الذي أنا فيه الآن،
فالويل لي؛ لأن البؤس عمَّ في هذا الزمان.

فتلك هي الصورة المظلمة التي رسم لنا ألوانها ذلك الحكيم المصري القديم، ويجب أن نعتبر تلك الشكاية التي سبق ذكرها، والتي تشغل نحو ثلثي الوثيقة كما حُفِظت لنا، أنها قد وصفت لنا الحالة عند قدماء المصريين في عهد معين، هذا إلى أن العلاقة المتينة بين ذلك المقال والمقالات الأخرى التي من ذلك العهد الإقطاعي من حيث اللغة والفكر ووجهة النظر، لا تدع للشك مجالًا في تحديد تاريخ عهدها بالضبط.

وحالة مصر السيئة التي صوَّرَها لنا ذلك الحكيم، هي ظواهر الحالة التي أعقبت انهيار نظام الحكومة، والاعتداء على البلاد الذي جاء على أثر سقوط الدولة القديمة، أي في نهاية عصر الأهرام وانحلال اتحاد البلاد كما ذكرنا، على أن «إبور» لم يشأ أن يترك أهل الجيل الذي عاش فيه في تلك الحال الموئسة التي صوَّرها لنا، بل رأى هناك أسبابًا تدعوه إلى أن يأمل ويطمئن إلى حسن المستقبل.

ثم بعد ذلك تصادفنا فجوة كبيرة في تلك البردية، يعقبها في النهاية أهم فقرة في مقال ذلك الحكيم، وهي تعتبر أروع ما دُوِّنَ في كل الأدب الفرعوني؛ إذ في هذه الفقرة العظيمة يتطَّلَع ذلك الحكيم إلى المستقبل متوقِّعًا إعادة الإصلاح في البلاد، على أن يكون ذلك بلا نزاع نتيجة طبيعية للنصائح الإصلاحية التي كان قد فرغ من غرسها في قلوب مواطنيه.

فهو يرى الحاكم الأمثل والملك الأمثل اللذين يتوق إلى ظهورهما، يجتمعان في الحكم الذي كانت عليه مصر في يوم من الأيام في صورة «إله الشمس».

ولما كان ذلك الحكيم يرى في عهد سلطان إله الشمس العصر الذهبي، فإنه يوازنه من جهة أخرى بالحكم الغاشم الذي ترزح تحت عبئه البلاد في عصره؛ إذ نراه يقول:

فهو يجلب البرودة إلى اللهيب (الحريق الاجتماعي) ويقال عنه إنه راعي الإنسانية، ولا يحمل في قلبه شرًّا، وحينما تكون قطعانه قليلة العدد فإنه يصرف يومه في جمع بعضها إلى بعض وقلوبها محمومة (من الحزن)، وليته عرف أخلاقها في الجيل الأول، فعندئذٍ كان في مقدوره أن يضرب الشر، وكان في قدرته أن يمد ذراعه ضده (يعني الشر)، وكان في مقدوره أن يقضي على بذرتهم هناك وعلى وراثتهم، فأين هو اليوم؟ هل هو بطريق المصادفة ينام؟ انظر! إن بأسه لا يُرَى.

فنجد في ذلك صورة الملك الأمثل، وهو الحاكم العادل الذي لا يحمل في قلبه شرًّا، وهو الذي يجول بين رعيته كالراعي يجمع شتات قطيعه المتناقص الظمآن، وذلك الحكم العادل الذي كان كحكم نبي الله «داود» — عليه السلام — قد حدث ويمكن أن يحدث ثانيةً.

على أن عنصر الأمل بظهور الملك الصالح المنتظر، كان أقرب إليه من حبل الوريد؛ إذ كان محققًا عنده كما تدل الكلمات الختامية التي وردت بالفقرة السابقة عند قوله:

أين هو اليوم؟ هل هو بطريق المصادفة ينام؟ انظر إن بأسه لا يُرَى.

على أن الأهمية الخاصة التي نستنتجها من تلك الصورة تنحصر في أن المُثُل العليا كانت على أقل تقدير في الاجتماعيات، إن لم تكن تحتوي بالفعل في المنهج الاجتماعي على الحاكم الأمثل الذي يتَّصِف بطهارة الأخلاق وبالمقاصد الخيرية، والذي يعز عشيرته ويحميها ويسحق الأشرار. وسواء نَبَّأ بظهور هذا الحاكم أم لا، فإن رؤية أخلاقه وأعماله قد كشف لنا النقاب عنها ذلك الحكيم القديم، وقد كشف النقاب عنها في حضرة الملك الموجود إذ ذاك، وفي حضرة أولئك الذين اجتمعوا حوله حتى يقتبسوا شيئًا من بهائه، وذلك بطبيعة الحال هو عين التبشير بالمسيحية قبل أن تظهر بين العبرانيين بما يقرب من ١٥٠٠ سنة.

وقد أدَّتْ تلك الموازنة المخيفة التي كانت تجول في ذهن ذلك الحكيم المصري القديم، بين الحاكم الذي يمثِّل الملك الأمثل وبين الفرعون الحاكم الذي يقف بحضرته ذلك الحكيم؛ إلى أن ينطق الحكيم بأقسى الاتهامات ضد مليكه، فكان مثله في ذلك مثل البلاشفة حينما قضوا على نير حكم الملكية الظالم، فلقد وضع الحكيم المسئولية فوق عاتق الملك؛ إذ يقول لمليكه:

> إن الأمر الملكي والمعرفة والعدالة (يعني ماعت) في قبضة يدك، ولكن ما تصنعه في البلاد هو النزاع وصوت القلاقل … ولقد فعلت هكذا لتشتد علينا هذه الأمور، لقد نطقت زورًا وبهتانًا.

وعندما انتهى ذلك الحكيم من خطابه الطويل، أجابه الملك بنفسه على أقواله، غير أنه ليس في وسعنا أن نصل إلى ما قاله الملك في إجابته على الحكيم، مما بقي لنا من تلك النتف المفتتة من الصفحة الممزَّقة التي دُوِّنَتْ عليها تلك الإجابة، وسنظل كذلك في شوق إلى ذلك الجواب إلى أن يُكشَف لنا عن نسخة تامة من هذه الوثيقة.

وقد وصلت تقريعات ذلك الرجل الحكيم إلى قمتها في قوة التعبيرات اللفظية الموجَّهَة إلى أخلاق ذلك الفرعون التقليدية فهدمتها، وهي التي كانت تشمل الأمر الملكي والمعرفة والعدالة (يعني ماعت)، أي النظام الإداري والخلقي القديم الذي سار عليه ملوك الاتحاد الثاني مدة ألف سنة، وهو الذي قد حلت الآن محله الفوضى.

فواضح الآن تمامًا من ذلك أن حالة سوء النظام الشاملة التي وصفها في أقواله (إبور)، قد ظهرت في فترة من العهد الذي جاء بعد سقوط تلك الدولة القديمة، ويستحيل علينا الآن أن ندرك موقف ملوك «أهناس» الذين أنتجوا مثل تلك المقالات المثالية المدهشة، أو نحدِّد علاقتهم بالنسبة إلى انهيار نظام الحكم. فهل كان احتذاؤهم المثل الأعلى في مثل ذلك العصر، سببًا من أسباب ضعفهم السياسي؟ فقد لاحظنا أنه في وسط ذلك الخراب القومي الذي صُوِّرَ لنا بتلك الطريقة من

غير تحفُّظٍ، أن الحكيم «إبور» كان ولا يزال يحمل في نفسه بعض الأمل؛ طمعًا في التخلُّص من ذلك الخراب.

فهل كان يبقى في ذهنه شيء عن بعض الرجال المعروفين بقوة الشكيمة ممَّنْ أبقى عليهم الدهر من أُسَر الأمراء القدامى؟ على أنه من الجائز أن آمالَه كانت موجَّهَة إلى قائد كان بأسه لا يُرَى، وسنرى ذلك في تنبؤات «نفر روهو».

(ب) نص المتن

يشمل فقرات نثرية وست قصائد شعرية، وهذه تكون نواته الحقيقية، ويبتدئ كما وصلَنا بأن نرى الحكيم قد أخذ فعلًا في تصوير مصيبة البلاد: فيقول حرَّاس الأبواب: «فلنذهب لننهب.» والغسال يتنحى عن حمل حمله، وصائدو الطيور قد جهَّزوا أنفسهم للواقعة، وآخَرون من الدلتا يحملون الدروع، وقد ثار القوم حتى أصحاب أهدأ الحِرَف كبائعي الحلوى وصانعي الجعة، وأصبح الرجل ينظر لابنه نظرته إلى عدو …

والرجل الفاضل يذهب بملابس الحزن بسبب ما حاق بالأرض …

وأصبح الأجانب مصريين[١٠٢] في كل مكان.

الشعر الأول

يعنى بصفة خاصة بالبؤس العام؛ السرقة، والقتل، والتخريب، والقحط، وقد طُرِد الموظفون ودُمِّرت الإدارة، والتجارة الخارجية قد قُضِي عليها، وانتشر الأجانب في البلاد، واحتلَّ عامة القوم مراتب عليتهم.

وكل بيت من هذه القصيدة يبتدئ بكلمتين يمكن ترجمتهما إلى العربية هكذا: «حقًّا لقد» أو «وفي الحق» التي تدل على إثبات شيء لا يمكن تفنيده.

حقًّا لقد شحب الوجه ... والأجداد قد تنبَّئُوا ...

وبعد كسر طويل بعض الشيء نقرأ:

حقًّا فإن ... (والبلاد) ملأى بالعصابات، ويذهب الرجل ليحرث ومعه درعه.
حقًّا فإن الخجول يقول: ... (مهشم).
حقًّا فإن الوجه قد شحب، وحامل القوس أصبح مستعدًّا، والمجرمون في كل مكان، ولا يوجد رجل من رجال الأمس.[١٠٣]
حقًّا إن الناهبين في كل مكان ...
حقًّا إن النيل في وقت الفيضان، ومع ذلك لا يحرث أحد من أجله، وكل إنسان يقول: «لا نعرف ما حدث في أنحاء البلاد.»[١٠٤]
حقًّا لقد صارت النساء عاقرات، وانقطع الحمل، وأصبح الإله «خنوم» لا يسوي الناس بعدُ، بسبب حالة الأرض[١٠٥] المضطربة.
حقًّا لقد أصبح المعوزون الآن يمتلكون أشياء جميلة، ومَن كان يخصف نعليه فيما مضى أصبح صاحب ثروة.
حقًّا إن أرقاء الرجال أضحت قلوبهم في حزن[١٠٦] وأصبح العظماء لا يشاطرون أهليهم أفراحهم (؟).
حقًّا إن القلب لثائر، والوباء قد انبثَّ في كل الأرض، والدم صار في كل مكان ... ولفائف الموميات تتكلم، وإن لم يقترب الإنسان منها.
حقًّا لقد دُفِن رجال عديدون في النهر، فأصبح النهر قبرًا، وصار المكان الطاهر[١٠٧] مجرى.
حقًّا لقد أصبح الحزن يملأ (قلوب) أصحاب الأصل الرفيع، أما الفقراء فقد امتلئوا سرورًا، وأضحت كل بلدة تقول: فَلْنُقْصِ القويَّ من بيننا.
حقًّا لقد أصبح منظر الناس كمنظر طير «جم»،[١٠٨] والقاذورات منتشرة في كل البلاد، ولا يوجد امرؤ بملابس بيضاء في هذا الوقت.

حقًّا لقد أصبحت الأرض تدور كعجلة صانع الفخار، وصار اللص صاحب ثروة (ثم يأتي بيت ممزق).
حقًّا لقد تحوَّلَ النهر دمًا، فهل يشرب الإنسان منه؟ إنه يعافه بوصفه آدميًّا؛ (لأن) الإنسان يظمأ للماء.
حقًّا إن (البوابات) والعمد والجدران قد التهمتها النيران، (ومع ذلك) فإن حجرة (؟) قصر الملك لا تزال باقية، وواقفة ثابتة.
حقًّا لقد أصبحت سفينة الجنوب[١٠٩] شاردة (؟)، ودُمِّرَتِ البلاد، وصار الوجه القبلي صحراء خاوية (؟).
حقًّا لقد أصبحت التماسيح في تخمة بما قد سلبت؛ إذ يذهب الناس إليها عن طيب خاطر، وحالة البلاد أصبحت سيئة ... ويقول القوم: لا تدوسوا هنا، ولكنهم يدوسون هناك كأنما هناك سمك؛ لأن الرجل الجبان ينقلب غايةً في الغباوة من الرعب.
حقًّا لقد أصبح الناس قليلين، على أن مَن يدفن أخاه في الأرض يرى في كل مكان،[١١٠] وبعد أن يتكلم المرتل يهرب على الفور.
حقًّا لقد أصبح ابن سلالة المجد لا يعرف (؟)، وأصبح ابن زوجته ابن خادمته[١١١] (؟).
حقًّا لقد أصبحت الأرض الحمراء[١١٢] منتشرة في كل البلاد، وخربت المنازل، ونزل قوم أغراب من الخارج إلى مصر.[١١٣] «البيت التالي ينتهي»: «ولا رجال في أي مكان.»[١١٤]
حقًّا إن الذهب واللازورد والفضة والياقوت والكرنيليان والبرنز والمرمر و... تحلي جِيد الجواري، والسيدات النبيلات (؟) يمشين في طول البلاد، وربات الخدور يقلن: ليت عندنا بعض الشيء لنأكل.[١١٥]
حقًّا فإن ... أعضاء السيدات في حالة يُرثَى لها؛ إذ يرتدين الخرق البالية، وقلوبهن تنفطر حينما يُحيِّين.[١١٦]
حقًّا فإن صناديق الأبانوس تُكسر، وخشب «سسنم» الثمين يُقطع قطعًا للأسرة (؟).
حقًّا لقد أصبح بنَّاءو الأهرام عمَّالًا في الحقول، والذين كانوا في سفينة الإله أصبحوا تحت نير واحد،[١١٧] ولا يسيح الناس إلى «جبيل» اليوم،[١١٨] وإذا ماذا نصنع للحصول على خشب الأرز

اللازم للموميات؟

فالكهنة يدفنون بمستخرجاتها، والأمراء حتى بلاد كفتيو (كريت)[١١٩] يُحنِّطون بزيها، فهي لا ترد بعد قط، والذهب قلَّ والـ ... الذي كان يُستعمَل في كل الحِرَف قد انتهى ... وكم يظهر للإنسان عظيمًا عندما يأتي إليه أهل الواحات حاملين محصولاتهم من نبات وطيور.[١٢٠]

حقًّا فإن «إلفنتين» و«طينة» (؟) وهما من ممتلكات الوجه القبلي، أصبحتا لا تؤديان الضرائب بسبب الحروب الداخلية، وهناك حاجة إلى الفاكهة والفحم وكل أنواع التجارة، وكل ما ينتجه الصنَّاع ... فما فائدة وجود بيت مال بدون دخل؟

ولا شك في أن قلب الملك يسر عندما يقف على الحقيقة،[١٢١] فقد دخلت (البلاد) كل مملكة أجنبية، وهذا ماؤنا، وهذه سعادتنا ... ولكن ما العمل وكل شيء ينحدر إلى الدمار؟!

حقًّا لقد قُضِي على الفرح، ولم يَعُدْ يقام، بل الحزن هو الذي يتمشى في طول البلاد ممزوجًا بالأسى.

حقًّا فإن الأموات أصبحوا مثل الأحياء (؟) ومَن كانوا مصريين أصبحوا أجانب (؟).

حقًّا لقد سقط شعر كل إنسان؟ وأصبح لا يميز بين ابن الرفيع، وبين ابن مَن لا والد له ... والجلبة لم تكن غير متوفرة في سني الجلبة، ولا نهاية للضوضاء.

حقًّا فقد أصبح كل من العظيم والحقير يقول: «ليتني كنتُ ميتًا!» والأطفال الصغار يقولون: «كان يجب عليه ألا يجعلنا على قيد الحياة.»

حقًّا فقد أصبح أولاد الأمراء يضرب الناس بهم عرض الحائط، وأطفال الشهوة يلقون على قارعة الطريق،[١٢٢] وأصبح الإله «خنوم» يَئِنُّ تعبًا.

حقًّا فإن الذين كانوا في «المكان الطاهر» قد ألقوا على قارعة الطريق، وأصبح سر المحنطين جهرًا.[١٢٣]

حقًّا فإن ما كان لا يزال يرى حتى الأمس قد دُمِّر، وهُجِرت الأرض لآلامها كما يقتلع الإنسانُ الكتانَ[١٢٤] (من أصوله).

حقًّا فإن الدلتا بأجمعها أصبحت غير محمية (كما كانت)، والاعتماد على أرض الشمال أصبح (الآن) طريقًا معبدًا.[١٢٥] وماذا يفعل الإنسان؟ ... وسيقول الناس حقًّا: لعن المكان الوعر! ولكن انظر فقد أصبح الآن ملكًا على السواء لمَن يجهلونه ومَن يعرفونه، وأصبح الأجانب مَهَرَة في صناعات الدلتا.

حقًّا فإن المواطنين قد أُلقِي بهم على أحجار الطواحين، وهؤلاء الذين كانوا يرتدون الكتان الجميل أصبحوا يضربون ... واللائي لم يشاهدن نور النهار قد خرجن ...[١٢٦] واللائي كُنَّ على أسِرَّة أزواجهن، أصبحن ينمن على مضاجع مقضة ... وأصبحت السيدات يتألمن مثل الإماء، ومغنيات الخدور أصبحت أغانيهن لإلهة الغناء أنشودة حزن، والقاصون ... يجلسون على أحجار الطواحين.[١٢٧]

حقًّا فقد أصبحت الخادمات من الإماء يوجهن ألسنتهن حيث شئن،[١٢٨] وعندما تتكلم سيداتهن فإن ذلك يكون مملًّا لإمائهن.

حقًّا ... وسيقول الناس حينما يسمعونها: «لقد أتلف الفطير لمعظم (؟) الأطفال، وليس هناك طعام لأجل ... فما طعم هذا اليوم؟»

حقًّا فقد أصبح الحكام جياعًا وفي بؤس ...

حقًّا فإن الرجل الأحمق يقول: «إذا عرفت أين يوجد الإله، فإني أقدِّم له قربانًا.» (لقد أصبح الصدق كذبًا في الأرض، والحصاد قد اغتصب كل متاعه.)

حقًّا فإن كل قلوب الماشية تبكي، والقطعان تندب حالة البلاد.

حقًّا لقد أصبح أبناء الأمراء يضرب بهم القوم عرض الحائط، والأطفال الذين كانوا محبوبين قد ألقي بهم على قارعة الطريق، والإله «خنوم» يشكو بسبب إعيائه.[١٢٩]

بيت مبهم:

حقًّا لقد ... عمت الوقاحة (في كل البلاد) عند كل الناس،[١٣٠] والرجل يقتل أخاه من أمه، فما العمل في ذلك؟ ...

حقًّا لقد أصبحت الطرق ... والشوارع تحرس[١٣١] والناس يختبئون في الأعشاب؛ حتى يأتي المسافر في ظلام الليل ليسلبوا منه حمله، وما عليه يُسرَق، ويُضرَب بالعصا حتى ينقطع نفسه، ثم يُذبَح ظلمًا.

وفي الحق لقد دُمِّر ما كان مرئيًّا بالأمس، وقد تُرِكت الأرض لمتاعبها، كما يقتلع الإنسان منها الكتان،[١٣٢] والفقير ... في شجى ... ليت آخِر الناس يكون قد حلَّ، فلا حمل ولا ولادة! ليت العالم يتخلَّص من الغوغاء وتنفضُّ المشاحنات!

وفي الحق لقد أصبح القوم يعيشون على الحشائش ويشربون الماء، وقد أصبحت الطيور ولا فاكهة ولا أعشاب تأكل منها، وقد أصبحت القاذورات تُختطَف من أفواه الخنازير دون أن يقال (كما كان يقال في الزمن السالف): «هذا أحسن لك مما هو لي.» لأن القوم صاروا جياعًا.[١٣٣]

وفي الحق قد انعدمت الغلال في كل مكان، وجُرِّد القوم من الملابس والعطر والزيت، وصار كل إنسان يقول: «لم يبقَ شيء.» وصار المخزن خلوًّا، وحارسه قد أصبح ملقى على الأرض، وإن ذلك ليس بالأمر السار لقلبي، وليت في مقدوري أن أرفع صوتي في هذه الآونة؛ حتى كان يخلصني من الألم الذي أنا فيه الآن![١٣٤]

وفي الحق لقد سُلِبت كتابات قاعة المحاكمة الفاخرة، وأصبح المكان السري مكشوفًا ...

وفي الحق لقد أذيع سر التعاويذ السحرية، وصارت لا أثر لها (؟) لأن القوم قد حفظوها في أذهانهم.[١٣٥]

وفي الحق لقد فُتِحت الإدارات العامة، ونُهِبت قوائمها، وصار العبيد أصحاب عبيد.[١٣٦]

وفي الحق لقد ذُبِح الموظفون وسُلِبتْ قوائمهم، فتعسًا لي بسبب البؤس في مثل هذا الزمن!

وفي الحق لقد دُمِّرت دفاتر كتَّاب الحقيبة، وأصبحت غلال مصر ملكًا مشاعًا.[١٣٧]

وفي الحق لقد وُضِعت قوانين قاعة المحاكمة في البهو، وصار القوم يطئونها في الطرقات، ويمزِّقها الفقراء في الأزِقَّة.

وفي الحق لقد وصل الفقير إلى مرتبة الآلهة التسعة، وإجراءات بيت الثلاثين قد أُفشِيت.[١٣٨]

وفي الحق لقد أصبحت قاعة العدل العظمى مكتظة،[١٣٩] والفقراء يروحون ويجيئون في البيوت العظيمة.[١٤٠]

وفي الحق لقد أصبح أولاد الحكّام يلقون في الشوارع، ومَن كان صاحب معرفة يقول: نعم، والجاهل يقول: لا، فالذي لا علم له يظهر ذلك عنده حسنًا.[١٤١]
وفي الحق أصبح أولئك الذين كانوا في «المكان الطاهر» يلقون على قارعة الطريق، وصار سر المحنطين مكشوفًا.[١٤٢]

الشعر الثاني

إن المصائب التي يتحدَّث عنها هذا الشعر تفوّق بمراحل، تلك التي كان يُشتكَى منها فيما سبق؛ إذ دُمِّرت الملكية، وأصبح الشعب هو القابض على زمام الأمور تمامًا، وقد نوَّهَ مرارًا بأن سَفَلَة القوم أصبحوا من أهل اليسار، على حين أن علية القوم قد انحطوا إلى حضيض البؤس.

وكما أن الشعر الأول يبتدئ كل بيت فيه بـ «حقًّا فقد»، أو «وفي الحق»؛ ليصور لنا حقيقة معلومة قد وقعت، فإن الشعر الثاني يبتدئ بتكرار كلمة «انظر»؛ ليضع أمامنا بجلاء حوادث قد حدثت في الحال، أو لا يزال جاريًا وقوعها.

انظر! إن النار قد اشتعل لهيبها عاليًا، ويندلع شررها ضد أعداء البلاد.
انظر! لقد حدثت أمور لم تحدث منذ زمن بعيد مضى؛ إذ اختطف الفقراء الملك.[١٤٣]
انظر! إن الذي دُفِن كصقر[١٤٤] أصبح يرقد على نعش، وما خبَّأه الأهرام[١٤٥] قد أصبح خلوًّا.
انظر! لقد تجاسر بعض الخوارج فحرموا البلاد الملكية.
انظر! لقد آلَ الأمر إلى أن يُظهِر الناس العداءَ للصل[١٤٦] (حامي؟) رع الذي جعل الأرضين في سلام.
انظر! إن سر الأرض الذي لا يعرف أحد حدوده[١٤٧] قد أفشي، وأصبح مقر الملك رأسًا على عقب في لحظة.
انظر! إن مصر قد أصبحت تصب الماء، ومَن كان يصب الماء على الأرض … وقد قبض على الرجل القوي، وهو في بؤس (صبُّ الماء كان يقوم به الفقراءُ من الناس).

انظر! إن الحية «كرحت»[١٤٨] قد أخذت من وكرها، وبذلك أفشي سر ملوك الوجه القبلي والبحري.

انظر! إن مقر الملك خائف لاحتياجه، وال … وسيحدث الاضطراب، وليست هناك مقاومة.

انظر! إن الأرض ملأى بالعصابات، والرجل القوي يغتصب التعساءُ متاعَه.[١٤٩]

انظر! إن الحية «كرحت» … المتعبين،[١٥٠] ومَن لم يكن في مقدوره أن يصنع لنفسه تابوتًا أصبح يملك قبرًا.[١٥١]

انظر! إن أرباب المقابر[١٥٢] (المكان الطاهر) قد أُلقِيَ بهم على قارعة الطريق، وذلك الذي لم يكن في مقدوره أن يصنع لنفسه كفنًا أصبح الآن صاحب ثروة (؟).

انظر! لقد حدث هذا بين الناس؛ فمَن لم يكن في قدرته أن يقيم حجرة أصبح الآن يملك فناءً مسوَّرًا.

انظر! إن قضاة البلاد قد طُرِدوا في طول الأرض … طُرِدوا من بيوت الملوك.

انظر! إن العقيلات الشريفات يرقدن على الفراش الخشن، والأمراء ينامون في المخزن، ومن لم يكن ميسورًا له أن ينام على الجدران أصبح صاحب سرير.

انظر! إن الرجل الغني أصبح يمضي الليل وهو ظمآن، ومَن كان يستجدي منه الحثالة أصبح يملك الجعة القوية.[١٥٣]

انظر! إن أولئك الذين كانوا يملكون الملابس أصبحوا في خرق بالية، ومَن كان لا ينسج لنفسه أصبح الآن يملك الكتان الجميل.

انظر! إن الذي لم يبنِ قطُّ لنفسه قاربًا أصبح الآن يملك سفنًا، وأصبح صاحبها ينظر إليها، ولكنها لم تَعُدْ ملكه بعدُ.

انظر! إن الذي لم يكن يملك ما يظله من حرارة الشمس أصبح يملك ظلًّا، وهؤلاء الذين كانوا يملكون ما يأويهم أصبحوا الآن عرضةً لزعازع العاصفة.[١٥٤]

انظر! إن مَن كان يجهل الضرب على العود أصبح يملك عودًا، ومَن كان لا يغني له أحد أصبح الآن يثني على إلهة الغناء.

انظر! إن الذين كانوا يملكون موائد شراب من النحاس أصبح لا يُحلّى إناء[١٥٥] واحد لفرد منهم (؟).

انظر! إن مَن قد نام أعزب بسبب الحاجة أصبح الآن يجد السيدات (؟) ...

انظر! إن مَن كان لا يملك شيئًا أصبح ذا ثروة، وأصبح الرجل العظيم[١٥٦] يمدحه.

انظر! إن فقراء الأرض أصبحوا أغنياء، ومَن كان يملك متاعًا أصبح لا شيء عنده.

انظر! إن الذين ... أصبح لهم طائفة من الخدم، ومَن كان رسولًا أصبح يرسل غيره.

انظر! إن مَن كان لا يملك الخبز أصبح يملك جرينًا، وما يملأ به مخزنه هو متاع غيره.

انظر! إن الأصلع الذي كان لا يستعمل الزيت أصبح يملك أواني العطور الزكية.

انظر! إن مَن كانت لا تملك صندوقًا أصبحت تملك صوانًا، وتلك التي كانت تشاهد وجهها في الماء أصبحت تملك مرآة.

(بيت تُرِك ناقصًا.)

انظر! إن الرجل يصبح سعيدًا حينما يأكل طعامه. أنفِقْ مالك في سرور دون أن تغل يدك! فإنه خير للرجل أن يأكل طعامه، فإن الله يمنحه مَن يمدحه.[١٥٧]

انظر! إن مَن كان يجهل إلهه أصبح يُقدِّم له قربانًا من بخور آخَر ...

انظر! إن السيدات النبيلات والسيدات العظيمات اللائي كُنَّ يملكن متاعًا حسنًا أصبحن يقدمن أولادهن إلى الأسِرَّة.[١٥٨]

انظر! إن مَن اتخذ سيدة زوجة أصبح والدها يحميه ...

انظر! إن أولاد رجال البلاط أصبحوا في خرق بالية ... وماشيتهم صارت متاع الناهبين.

انظر! إن القصابين يذبحون الماشية للفقراء ...

انظر! إن مَن لم يذبح لنفسه قطُّ أصبح الآن يذبح ثيرانًا ...

انظر! إن القصابين يذبحون الإوز الذي يُقدَّم للإله بدلًا من الثيران.[١٥٩]

انظر! إن الجواري ... يقدِّمن الإوز ... السيدات ...

انظر! إن السيدات الشريفات يهربن ... وأطفالهن، ويلقى بأطفالهن خوفًا من الموت.

انظر! إن رؤساء البلاد يهرولون دون أن يكون لهم أي عمل بسبب الحاجة ...

انظر! إن الذين كانوا يملكون الأسِرَّة أصبحوا يرقدون على الأرض، وذلك الذي كان ينام في الأوساخ أصبح يملك الآن سريرًا.

انظر! إن السيدات الشريفات قد أصبحن جائعات؛ ولكن القصابين أصبحوا في كِظَّة متخمين من الشبع بما يعملونه.[١٦٠]

انظر! فإن الوظائف ليست في موضعها الصحيح مثل القطيع المذعور الذي لا راعي له.

انظر! إن الماشية قد تُرِكت تضل سبيلها، ولا إنسان يجمعها ويلم شعثها، فكل إنسان يذهب ويأخذ لنفسه منها ويسمها باسمه (أي يُعلِّمها).

انظر! إن الرجل يذبح بجوار أخيه فيتركه وحيدًا لينجِّي نفسه.

انظر! إن مَن كان يملك زوج ثيران أصبح يملك أزواجًا، ومَن لم يكن في مقدوره أن يحصل على ثيران للحرث أصبح يملك قطعانًا.

انظر! إن الذي لم يكن يملك حبة أصبح الآن يملك أجرانًا، ومَن كان يبحث لنفسه عن صدقات من القمح أصبح الآن يخرج من مخازنه ويجعلها تُوَزَّع.

انظر! إن مَن كان لا يملك أتباعًا أصبح رب عبيد، ومَن كان من علية القوم أصبح الآن ينفذ أوامر غيره.

انظر! إن عظماء الأرض أصبحوا ولا أحد يخبرهم عن حالة عامة الشعب، وكل شيء آيل للخراب!

انظر! لا صانع يعمل، والعدو يحرم البلاد حِرَفها.

انظر! إن مَن حصد المحصول لا يعرف عنه شيئًا، ومَن لا يحرث لنفسه يملأ مخزنه ... وإن الحصاد يحرث، ولكن لم يُذكر عنه شيء، والكاتب يجلس في مكتبه، ولكن يديه لا تعملان شيئًا!

...

الشعر الثالث والرابع

(بعض أبيات ناقصة وممزَّقة، كل منها يبتدئ بكلمة «مدمر»، وفي الفقرة التي قبل الآخر يمكن أن تفهم ما يأتي)، الرجل الفقير يستيقظ عندما ينبثق نور النهار عليه دون أن يخافه، وإنها لخيام قد صنعوها مثل المتوحشين.

(والبيت الأخير): لقد أتلف تنفيذ ما أرسل من أجله الخدم بأمر من أسيادهم، فإنهم أصبحوا غير وجلين.

انظر! إنهم كانوا خمسة رجال،[١٦١] وهم يقولون: اذهبوا أنتم على الطريق الذي تعرفونه، أما نحن فقد وصلنا (إلى موطننا).

(وتتبع ذلك فقرة منفردة.)

إن الدلتا تبكي ومخزن الملك أصبح ملكًا مشاعًا لكل فرد، ولا ضرائب تجبى للقصر كله، ومع ذلك فإن له قانونًا شعيرًا وقمحًا ودجاجًا وسمكًا، يملك المنسوج الأبيض، والتيل الجميل، والنحاس، والزيت، ويملك الحصير والبُسُط … ومحفة وكل المحاصيل الجميلة … فإذا لم يعلن ذلك إلى الآن في القصر فحينئذٍ …

أما الشعر الرابع الذي لم يبقَ منه إلا نتف فإن ستة الأبيات التي يحتويها يبتدئ كل منها بـ: دَمِّرْ أعداء المقر الملكي العظيم. (ومن ذلك يستنتج أنه يحتوي بلا شك على الأمر بمقاومتهم.)

وقد نعت هنا مقر الملك بصفات مثل صاحب الموظفين المتفوقين، وصاحب القوانين العدة، وصاحب الوظائف العدة، وفي البيت الأول يمكن قراءة الكلمات الآتية: المشرف على العاصمة، يخرج بدون شرطة.

الشعر الخامس

نجد فيه ثمانية أبيات أو أكثر تبتدئ بكلمة «تذكَّرْ»، وهي خاصة بعبادة الآلهة، وكيف كانت تُعبَد فيما مضى، وما سيئول إليه أمرها في المستقبل.

وكل ما يمكن أن يقال عن البيت الأول أنه يذكر فردًا في ألم، ويذكر كذلك إلهه.

تذكَّرْ … كيف يُضمَخ بالبخور، والماء يُقدَّم من إبريق في فلق الصبح.
تذكَّرْ كيف تُجلَب الإوز سمينة، ويُقَرَّبُ الإوز والبط والقرابين الإلهية إلى الآلهة.
تذكَّرْ كيف كان يُمضَغ النطرون[١٦٢] ويُجهَّز الخبز الأبيض في اليوم الذي يبلل فيه الرأس.[١٦٣]
تذكَّرْ كيف كانت تُنصب الأعلام،[١٦٤] وتُنقَش ألواح القربان، وكيف كان الكهنة يطهرون المعابد، ويبيض بيت الله كاللبن، وكيف كان يُعطر الأفق[١٦٥] ويخلد القربان من الخبز.
تذكَّرْ كيف كانت تُرعَى الأنظمة، وتُوزَّع أيام الشهر، ويُعزَل الكهنة الأشرار (؟).
تذكَّرْ كيف كانت الثيران تُذبَح …

(وفي الأبيات الختامية الممزَّقة نقرأ من بين ما جاء فيها): وُضِعت الإوز على النار (طبعًا ضحية).

يتلو ذلك فقرة طويلة فيها يخاطب الحكيم نفسه أولًا ثم أشخاصًا كثيرين، ولم يُفهَم مما حُفِظ إلا:

انظر! أين يبحث هو ليسوي البشر؟ دون أن يُميز الرجل الخجول من الرجل الأحمق، وهو يجلب البرودة إلى اللهيب، ويقال عنه إنه راعي الإنسانية ولا يحمل في قلبه شرًّا، وحينما تكون قطعانه قليلة العدد فإنه يصرف يومه في جمع بعضها إلى بعض، وقلوبها محمومة (من الحزن).
وليته عرف أخلاقها في الجيل الأول، فعندئذٍ كان في مقدوره أن يضرب[١٦٦] الشر، وكان في قدرته أن يمدَّ ذراعه (يعني الشر)، وكان في مقدوره أن يقضي على بذرتهم هناك وعلى وراثتهم، فأين هو اليوم؟ هل هو بطريق الصدفة ينام؟»[١٦٧]
انظر! إن بأسه لا يُرَى

إذ عندما نلقى في الحزن فإني لم أجدك، ولم أُنادِ ...

(وبعد عدة فجوات طويلة يصير المتن ثانيًا مفهومًا.)

إن القيادة والفطنة والصدق معك،[١٦٨] غير أن ما تبثه في طول البلاد هو الفوضى وغوغاء الذين يتخاصمون. انظر! إن الفرد يرمي الآخَر ... وإذا سافر ثلاثة رجال على طريق واحد فلا يوجد منهم إلا اثنان؛ إذ إن العدد الأكبر يذبح العدد الأصغر، أيوجد راعٍ يحب الموت؟»[١٦٩]

ولكنك ستأمر أن تجاب ... فالأكاذيب تُتلَى عليك، والبلاد قش ملتهب،[١٧٠] والناس لا يعتمدون على الشجار، وكل هذه الأعوام ارتباك، فالرجل يُقتَل على سطح بيته حينما يكون مراقبًا في حدود منزله، ولكن إذا كان قويًّا فإنه ينجِّي نفسه ويبقى حيًّا، (والناس يرسلون خادمًا لرجل فقير فيمشي على الطريق إلى أن يرى الفيضان (؟)، (ثم يسرق هناك؟) فيقف مبتئسًا (؟) ويسرق ما عليه، ثم يضرب بالعصا إلى أن ينقطع منه النفس ويُذبَح ظلمًا.[١٧١]

ليتك تذوق بعض هذا البؤس بنفسك، وعندئذٍ يمكنك أن تقول ...

الشعر السادس

(وصف للوقت السعيد الذي يحفظه المستقبل.)

على أنه من الخير عندما تسير المراكب جنوبًا ...

(بيت مهشم.)

على أنه من الخير أن تنصب الشباك وتمسك الطيور ...[١٧٢]

(بيت يحتمل أنه خاص بالطرق.)

على أنه من الخير أن تشيد أيدي الناس الأهرام، وتحفر البرك، وتنشئ للآلهة مزارع فيها أشجار.

على أنه من الخير أن يكون الناس سكارى، وأن يشربوا ...[١٧٣] فرحي القلب.

على أنه من الخير أن يكون السرور في أفواه القوم، وحكَّام المراكز يقفون وينظرون إلى الأفراح في بيوتهم (؟) وهم مرتدون جميل الملابس …

على أنه من الخير أن تكون الأسرة وثيرة، ووسادات[١٧٤] العظماء محمية بالتعاويذ، ورغبة كل إنسان تُحقَّق بسرير مظلل خلف باب مغلق، (فلا يحتاج؟) إلى النوم في الأعشاب.

على أنه من الخير عندما ينشر الكتان الجميل في يوم رأس السنة (؟) …

(وبعد سلسلة فجوات في ورقة البردي تأتي فقرة لا بد أنها كانت تحتوي على جواب الملك الذي يجيب عليه الحكيم بعد ذلك، وفيما حُفِظ من هذه الفقرة يظهر أن ذكر «المقترعين» قد جاء، وأن الشباب قد ثار وهاجم مصر كالأجانب، ثم أراد أهل الجنوب أن يأخذوا بناصر مصر التي هي بمثابة الأخ والأخت.)

… ولا يوجد أحد يقف لحمايتها … وإذا كان أي إنسان يحارب من أجل أخته فإنه يحمي نفسه.[١٧٥]

والسود يقولون: «سنكون حامين لكم، دَعِ القتال يعظم لِيُقْهَرَ «شعب القوس»، وإذا كان فيهم «تمحو» فعندئذٍ نعيد الكرة.»

وقوم «المتاو» المصادقون لمصر (يقولون؟): كيف يمكن أن يكون هناك رجل يريد أن يقتل أخاه؟!

والجنود الذين نجندهم لنا أصبحوا من شعب القوس الذين أرادوا أن يدمِّروا المكان الذي نبعوا منه، وهم يظهرون للبدو حالة البلاد، غير أن كل البلاد الأجنبية خائفة منهم …

(وبعد فجوة طويلة):

يقول المقترعون …

(الباقي كله مهشم.)

وهذا ما قاله «إبور» عندما أجاب جلالة رب العالمين ... على أن تكون جاهلًا به،[١٧٦] فإن ذلك أمر يسرُّ القلب، ولقد عملت ما هو صالح في قلوبهم، وقد جعلت الشعب يحيا بينهم،[١٧٧] غير أنهم لا يزالون يسترون وجوههم خوفًا من الغد.

واتفق أن وقف مرة رجل مسنٌّ أمام الموت، وكان ابنه لا يزال طفلًا لا إدراك له ... ولم يفتح بعدُ فاه ليتكلم إليك، وقد اختطفته بموت محتوم ...[١٧٨]

(وهناك كلمات مفردة لا تزال موجودة تدل على أن الموضوع الذي تحت البحث كان مستمرًّا في سرد حال البلاد: البكاء، واقتحام مقاصير القبور، وإحراق التماثيل.)

(ج) المصادر

المصادر التي اعتمدنا عليها في درس هذا المقال ما يأتي:

(1) Leyden Papyrus, No. 344.

(2) Pieper, “Die Agyptische Literatur”, P.P. 23 f.f.

(3) Peet, “A Comparative study of the Literatures of Egypt, Palestine and Mesopotamia”, P.P. 118-119.

(4) Breasted, “The Dawn of Conscience”, P.P. 194 f.f.

(5) Erman, “The Literature of the Ancient Egyptians”, P.P. 92 f.f.

(6) Gardiner, “The Admonitions of an Egyptian Sage”.

(٢-٤) نبوءة «نفر روهو»

عثر الأستاذ «جولتيشف» على بردية موجودة الآن بمتحف «لننجراد»، وهي تحتوي على نبوءات كاهن مرتل اسمه (نفر روهو)، وهو يدَّعِي أنها أُلقِيت في حضرة الملك «سنفرو» الذي ينتسب إلى أوائل الأسرة الرابعة، أي قبل العصر الإقطاعي الذي نحن بصدده بما يقرب من ألف سنة.

والواقع أن ذلك هو مجرد وضع تمثيلي ليسبغ على كلمات «نفر روهو» الهامة قوة التأثير، ومن حسن الحظ أن كاتبًا آخَر من عهد الدولة الحديثة ممَّن عاشوا في القرن الخامس عشر قبل الميلاد قد ظهرت له أهمية ذلك المقال، حتى إنه لما لم يجد لديه برديًّا أبيض ينقله فيه، أخذ بعض أوراق أخرى مستعملة في تدوين حسابه هو، ونقل تلك النبوءات على ظهرها، وبذلك بقيت نبوءات «نفر روهو» في تلك الصورة التي وصلتنا عفوًا، بما تحتويه من غموض بسبب أغلاطها الكثيرة التي حدثت عند نقلها بطريق المصادفة كما ذكرنا.

والوثيقة تبتدئ بمنظر مألوف في كل عصور التاريخ المصري حتى في النقوش الرسمية، ويصوِّر مقدمة للموضوع، فيجلس الملك مع حاشيته يتشاور في أمر، أو تقص عليه الحاشية حكاية، أو كما نجد في غير هذا المكان أن الملك لحب استطلاعه إلى أمور الغيب تتوق نفسه لسماع شيء لم يكن يعرفه.

فيقول: «والآن اتفق في عهد جلالة الملك «سنفرو»، وهو الملك المحسن في كل هذه الأرض، أن موظفي الحاضرة دخلوا يومًا القصر ليقدموا للملك تحياتهم،[١٧٩] ثم جاءوا ثانيةً ليقدِّموا تحياتهم كرة أخرى كما كانت عادتهم اليومية، وعندئذٍ قال الملك لمستشاره الذي كان بجانبه: «اذهب وأحضر إليَّ موظفي مقر الملك الذين خرجوا من هنا اليوم ليقدِّموا تحياتهم.» فدخلوا عليه وسجدوا وانبطحوا على بطونهم أمام جلالته كرة أخرى.

وقال لهم جلالته: «يا إخواني، لقد أمرت بطلبكم لتبحثوا لي عن ابنٍ من أبنائكم يجيد الفهم، أو أخ من إخوتكم بارع، أو صديق من أصدقائكم قد أنجز بعض عمل شريف، أي فرد يتحدث إليَّ بكلمات جميلة وألفاظ مختارة عندما تسمعها جلالتي تجد فيها تسلية.»

وعندئذٍ سجدوا منبطحين على بطونهم في حضرة جلالته مرة أخرى.

وقالوا في حضرة جلالته: «يوجد مرتل عظيم للإلهة «باست»[١٨٠] يأيها الملك يا مولانا، واسمه «نفر روهو»، وهو شعبي قوي الساعد وكاتب حاذق الأنامل، وهو شخص مسود أغنى أقرانه، ليته يشاهد جلالتك!»

فقال جلالته: «اذهبوا وأتوني به.» وأُدخِل عليه في الحال[١٨١] وسجد على بطنه في حضرة جلالته، وقال جلالته: تعالَ الآن يا «نفر روهو» يا صاحبي وحدثني ببعض كلمات جميلة، كلمات مختارة حينما أسمعها ربما أجد فيها تسلية. فقال المرتل «نفر روهو»: هل ستكون الكلمات من الأمور التي حدثت أو مما سيحدث يأيها الملك يا مولاي؟ فقال جلالته: لا، مما سيحدث؛ إذ إن الحاضر قد دخل في الوجود، ويمر الإنسان به.

ثم مدَّ يده إلى صندوق مواد الكتابة وأخذ قرطاسًا وقلمًا ومدادًا ودوَّن «كتابة ما تحدَّثَ به الكاهن المرتل» «نفر روهو» حكيم الشرق التابع للإلهة «باست» … ابن مقاطعة «عين شمس»، حينما كان يفكِّر فيما سيحدث في الأرض، ويفكِّر في حالة الشرق حينما يأتي الآسيويون بقوتهم، وحينما يعذبون قلوب الحاصدين ويغتصبون ماشيتهم وقت الحرث.»

إن الإشارة للملك «سنفرو» في هذه المقدمة لتنبؤات «نفر روهو» بعبارات تلفت نظر المؤرخ المحقِّق والأديب الفطن، قد أبرزت لنا شخصية هذا الملك وميزته عن فراعنة مصر؛ إذ الواقع أن الأوصاف المعاصرة التي خلفها لنا التاريخ عن هؤلاء الملوك لا تفيد المؤرخ الباحث أو الأديب الناقد في كشف النقاب عن شخصية أي «فرعون» في صورة واضحة جلية، وإنَّا لنرى

في هذه الأوصاف والنعوت عقود مدح رسمية متشابهة متوارثة محفوظة عن ظهر قلب، وقد غالى في نظمها وتدبيجها الحاشية الملتفة حول الفرعون، وهي تلك التي نقرؤها في أول كل وثيقة ملكية منقوشة على الأحجار أو مدونة على البردي، وقد تدرجت تلك النعوت في الغلو والصعود بصفات الفرعون حتى جعلوه مؤلَّهًا، وجعلوا صفاته تخرج عن دائرة بني البشر عامةً. على أن هذه المغالاة في الأوصاف لم تقتصر في مصر على عهد الفراعنة، بل تجدها في كل عصور تاريخها، فالحاكم فيها ولو كان خصيًّا أو معتوهًا أو جاهلًا، كان يُوضَع في مرتبة أعلى من مرتبة البشر الذين حوله، وتلك حالة نلحظها متأصلة في كل بلاد الشرق عامةً؛ فلا غرابة إذًا إذا وجدنا في مصر أن اسم الملك كان يطغى على كلِّ مَن حوله من الشخصيات العظيمة فيجعلها مغمورة الذكر، وربما كان لبعضها الفضل في نهوض البلاد وإصلاحها اجتماعيًّا، أو كان لبعض قوَّادها الفضل الأكبر في إحراز النصر على الأعداء.

وقد بقيت الحال كذلك طوال عهد التاريخ المصري القديم من البداية إلى النهاية، على أن هذه الحال كانت نتيجتها في نظر المؤرخ عكسية بالنسبة للملوك؛ إذ ليس في مقدوره أن يصل إلى حقيقة ما قام به كلٌّ منهم فعلًا؛ وذلك لتشابه أعمالهم وصفاتهم التي كانت شبه وراثة.

من أجل ذلك استرعى نظرنا ما قرأناه في وثيقتنا عن «سنفرو» عندما يقول المتن إنه كان ملكًا محسنًا، ثم عندما يخاطب أحد رجال رعيته بقوله: «يا صاحبي»، وحينما يوجِّه الكلام إلى رجال حاشيته مخاطبًا إياهم بقوله: «يا إخواني»، وعندما نراه ينزل عن عليائه الإلهية ويقوم بعمل كاتب، فبدلًا من أن يأمر كاتبه بإحضار الدواة والقلم ليكتب ما يُملَى عليه، يقوم هو بنفسه ويأخذ القلم والقرطاس والدواة ويكتب هو ما يمليه عليه أحد صغار رعيته، كل هذه المشاهد لم نرها تحدث في بلاط فرعون من فراعنة مصر، وإن ملكًا يتصف بهذه الصفات ويتحدَّث إلى رجال شعبه بهذه الوداعة والألفة، لَخليقٌ بأن يُعَدَّ أول ملك شعبي في العالم، ولا غرابة إذًا في أن نرى الشعب المصري قد قابَلَ هذه الروح الديمقراطية بطاعة وإخلاص، فبادَلَ «سنفرو» الحب

بالحب والاعتراف بالجميل، وأصبح هذا الحب لذلك الفرعون العظيم ينتقل من جيل إلى جيل طوال التاريخ المصري، ولا أدلَّ على ذلك من أننا لا نجد فرعونًا من فراعنة الدولة القديمة الذين ألَّهَهم الشعب وقدَّسهم، قد استمرت عبادته باقية منتشرة أكثر من الفرعون «سنفرو» الذي استمرت عبادته في أكثر من مدينة مصرية حتى عهد البطالسة؛ هذا إلى أننا نجد اسمه قد رُكِّبَ في اسم كثير من المدن المصرية تركيبًا مزجيًّا، وما ذلك إلا لعِظَم تقديسه واحترامه.

على أنه لا يمكننا أن نَعُدَّ الأحداث التي وصلت إلينا عن طريق التقاليد القومية الموروثة معيارًا صحيحًا نحكم به على أخلاق الفرعون «سنفرو»، ولكن من جهة أخرى قد يكون من الصعب علينا أن نعتبر تلك الميزات التي أبرزت لنا شخصية «سنفرو» — وهي في ذاتها خارجة عن حد المألوف في أخلاق فراعنة مصر — على غير أساس من الصحة. وعلى أية حال فإن التقاليد الشعبية الموروثة إذا لم تصل إلى منزلة الحقائق التاريخية، فإنها تحتل بغير شك المنزلة التي تليها، ولعمري هل كان يقصد حكيمنا «نفر روهو» هنا أن يصف لنا «سنفرو» بهذه الصورة المحببة لقلوب الشعب، ليضرب مثلًا للحاكم الذي كانت تتطلع إليه البلاد وقتئذٍ — كما سيجيء بعدُ في وثيقتنا — ليحذو الملك حذوه في معاملة الشعب بالرحمة والرأفة والحب، ويكون ديمقراطيًّا في معاملتهم بعد ما رأى من احتجاب الفرعون في قصره، في حين كان الخراب والدمار يعم أرجاء البلاد.[١٨٢]

ثم يصف لنا بعد هذه المقدمة التاريخية التي تنسب لذلك المقال كما أوضحنا، الخراب والفوضى اللذين كان يحيطان به، ومثله في ذلك خعخبر رع سنب.

إذ يتكلم مع قلبه فنراه يقول: «أنصت يا قلبي وانعَ تلك الأرض التي منها نشأتَ …

(أ) المتن

لقد أصبحت تلك البلاد خرابًا فلا مَن يهتم بها، ولا مَن يتكلم عنها، ولا مَن يذرف الدمع، فأية حال تلك التي عليها البلاد؟ لقد حُجِبت الشمس فلا تضيء حتى يبصر الناس.

وقد كان من نتيجة تعطيل أعمال الري العظيمة العامة أن أصبح نيل مصر جافًّا، فيمكن للإنسان أن يخوضه بالقدم، وصار الإنسان عندما يريد أن يبحث عن ماء (يعني النهر) لتجري عليه السفن، وجد طريقه قد صار شاطئًا، والشاطئ صار ماءً، وكل طيب قد اختفى، وصارت البلاد طريحة الشقاء بسبب طعام البدو والذين يغزون البلاد، وظهر الأعداء في مصر فانحدر الآسيويون إلى مصر ... وسأريك البلاد وهي مغزوة تتألم. وقد حدث في البلاد ما لم يحدث قطُّ من قبلُ ... فالرجل يجلس في عقر داره موليًا ظهره عندما يكون الآخَر يُذبَح بجواره ... وسأريك الابن صار مثل العدو، والأخ صار خصمًا، والرجل يذبح والده، وكل فم ملؤه أحببنى (صياح المتكفف؟) وكل الأشياء الطيبة قد ذهبت، والبلاد تحتضر ... وأملاك الرجل تُغتصَب منه وُتعطَى الأجنبي ... وسأريك أن المالك صار في حاجة، والأجنبي في غنى ... وأن الأرض قد نقصت، وقد تضاعف حكَّامها، وصارت الحياة شحيحة مع أن المكيال صار كبيرًا، وتكال الحبوب (أي بجابي الضرائب) حتى يطفح الكيل. سأريك البلاد، وقد صارت مغزوة تتألم، وإن منطقة «عين شمس» لن تصير بعدُ مكان ولادة كل إله.

وبعد ذلك يتحول «نفر روهو» من غير تردُّد أو شك عن تلك الصورة التي يصف فيها القحط الذي وقعت فيه البلاد، مناديًا بالكلمات التالية الهامة، داعيًا لظهور الملك الذي سيخلِّص مصر مما حاق بها؛ إذ يقول:

سيأتي ملك من الجنوب اسمه «أميني»، وهو ابن امرأة نوبية الأصل، وقد وُلِد في الوجه القبلي، وسيتسلَّم التاج الأبيض، وسيلبس التاج الأحمر، فيوحِّد البلاد بذلك التاج المزدوج، وسينشر السلام في الأرضين (يعني مصر) فيحبه أهلها ... وسيفرح أهل زمانه، وسيجعل ابن الإنسان يبقى أبد الآبدين، أما الذين كانوا قد تآمروا على الشر ودبَّروا الفتنة، فقد أخرسوا أفواههم خوفًا منه، والآسيويون سيُقتَلون بسيفه، واللوبيون سيُحرَقون بلهيبه، والثوار سيستسلمون لنصائحه، والعصاة إلى بطشه، وسيخضع المتمردون للصلِّ الذي على جبينه ... وسيقيمون (سور الحاكم) حتى لا يتمكَّن الآسيويون من أن يغزوا مصر، وسيستجدون الماء حسب طريقتهم التقليدية لأجل أن تردها أنعامهم، والعدالة ستعود إلى مكانها، والظلم يُنفَى من الأرض. فليبتهج مَن سيراها ومَن سيكون من نصيبه خدمة ذلك الملك.

فظهور الملك المخلص للبلاد بالفعل، ومجيئه كان هو الأمل الذي ينشده الحكيم «إبور»، ثم عرَّف ذلك الملك «نفر روهو» بالاسم ورسم كتابة الاسم «أميني» الذي استعمله «نفر روهو»، وهو اختصار مشهور للاسم الكامل «أمنمحات»، وهو بالبداهة المؤسس العظيم للأسرة الثانية عشرة، والمصلح الذي أعاد توطيد سلطان مصر في العهد الإقطاعي حوالي ٢٠٠٠ سنة ق.م، وقد ذكر عنه في نقش تاريخي بعد ذلك العصر بثلاثة أجيال بشكل بارز: «أنه قد محا الظلم؛ لأنه أحب العدل كثيرًا (يعني «ماعت»)»،[١٨٣] وقد كان عرافنا هنا واثقًا من أن بطله «أمنمحات» سيستولي على التاجين اللذين يرمزان لحكومة البلاد المتحدة مصر السفلى ومصر العليا، وأنه سيفتح عصرًا جديدًا، غير أنه يرجئ الإصلاح العظيم على وجه عام إلى المستقبل، وذلك يضع أمامنا سؤالًا جديدًا وهو: هل هذا التأكيد القوي مجرد نبوءة، عن حادثة قبل وقوعها؟ وهل كان ذلك إعلانًا ينمُّ عن الظفر يلقاه بطل منتصر قد نجح نجاحًا عظيمًا في إصلاح مصر العليا؛ حتى إن انتصاره النهائي وإصلاحه لكل مصر كان متوقَّعًا حدوثه؟ أو هل كان «نفر روهو» مرسلًا

من قِبَل «أمنمحات» إلى مصر السفلى ليعلن قدومه إليها؟ أو هل كان كأي شخص من أنصار «أمنمحات» قد عظَّم إصلاحاته فصوَّره بصورة تبرزها إذا قاسها بما صارت إليه البلاد من الدمار والخراب قبل مجيئه؟

وإنه لمن المستحيل أن يعطى الإنسان جوابًا شافيًا عن تلك الأسئلة، ولكن يظهر أنه يوجد سبب قوي يدعونا إلى الاعتقاد بأن «نفر روهو» كان حقيقة محاطًا في زمنه بالخراب الذي صوَّره لنا بصورة حقيقية، وأن تاريخ حياة «أمنمحات» الذي كان رائده النجاح في مصر العليا قد جعل الأمل بنجاحه في إعادة وحدة البلاد إلى ما كانت عليه، وإرجاع مجدها القديم متوقَّعًا. ومن المدهش حقًّا أن «نفر روهو» يذكر لنا هنا صراحةً أن الفرعون الجديد ليس من سلالة البيت المالك القديم، ولا شك في أنه كان هناك مطالبون بالعرش في البلاد، أو مدَّعون له كثيرون، فظهور مُطالِب آخَر مثل «أمنمحات» ليس بالأمر الغريب. على أن تسمية «أمنمحات» (بابن الإنسان)[١٨٤] كما ذكر ذلك فيما سلف على لسان ذلك المتنبئ، يلفت نظرنا، كما يوحي إلينا في الحال بوجود علاقات بين هذه التسمية، والتسمية التي تُطلَق على المسيح — عليه السلام — إذ إن ذلك التعبير قد استُعمِلَ في النصيحة الموجَّهَة إلى «مريكارع»؛ ليدل على «ابن رجل ذي أهمية»، وقد جرى في بلاد بابل القديمة استعمال تعبير مشابه لذلك التعبير. وذلك الإعلان الذي أعلنه ذلك المتنبئ يشمل القيام بعملين يتعهَّد بإنجازهما مليكه، وهما من الأهمية للشعب البائس في مصر الطريحة بمكان، وهذان العملان هما:

أولًا: القضاء على المغيرين، وأَخْذ العدة لدفع الغارات المقبلة.

ثانيًا: إصلاح النظام الداخلي.

(فسور الحاكم) الذي سبق ذكره كان قلعة قديمة لحماية الدلتا الشرقية، وكان واقعًا على التخوم الآسيوية، وقد بُنِي لحراسة الطريق من آسيا إلى مصر في عهد بناة الأهرام، وقد أعلن «نفر

روهو» أن الملك سيُعِيده كما كان من قبلُ.

والصور التي رسمها لنا ذلك المتنبئ عن الحالة التي نتجت عن دخول الآسيويين، تذكِّرنا بما ورد في الرواية العبرانية الخاصة برحلة دخول أجدادهم إلى مصر.

أما إعلان الإصلاح الذي حدث في النظام الداخلي، فإنه يسترعي الأنظار لقصره وبساطته؛ إذ يقول: «إن العدالة ستعود إلى مكانها، والظلم سينبذ بعيدًا.» فكانت إذن «ماعت» القديمة هي التي سيعيدها الملك الجديد في شكل نظام ثابت يكون رقيبًا ومهيمنًا على حياة الشعب المصري الاجتماعية.

وقد رجع إلى «ماعت» — وهي ذلك النظام القديم الذي مكث ألف سنة مرشدًا ومهيمنًا على الحاكم وحكومته — سلطانها مرة أخرى من جديد.

ومن المحتمل أن الابتهاج الذي يُظهِره ذلك المتنبئ العتيق كان يعني المثُل العليا القديمة للأخلاق الفاضلة والسعادة القويمة، غير أن تلك الحالة كانت — مع الأسف — بعيدة عن الحقيقة الواقعة؛ فإن «أمنمحات» — وهو من كبار الإداريين في العالم القديم، وكان قد وهبه الله فطنة عظيمة حتى أعاد بلا نزاع ذلك النظام القديم بقدر ما سمحت له الأحوال — قد حتمت عليه الظروف أن يتخيَّر عمَّاله وموظَّفيه لإدارة شئون البلاد من بين أولئك الرجال الذين ترعرعوا ونشئوا في عهد ذلك الانحطاط الذي جاء عقب عصر الأهرام، وأُشرِبت قلوبهم حب الفوضى والفساد، مما أدى إلى قتله ونصحه لابنه بعد موته بألا يعتمد على أحد كما فصلنا من قبلُ.

(ب) المصادر

أهم المصادر التي يُرجَع إليها في دراسة هذا المقال ما يأتي:

(1) Papyrus Petersburg No. 1116 B (recto).

(2) Pieper, “Die Agyptische Literatur”, P. 15.

(3) Peet, “A Comparative Study of the Literatures of Egypt, Palestine and Mesoptamia”, P.P. 120 f.f.

(4) Breasted, “The Dawn of Conscience”, P.P. 200 f.f.

(5) Erman, “The Literature of the Ancient Egyptians”, P.P. 110 f.f.

(6) Gardiner, “The journal of Egyptain Archeology”, Vol. I P.P. 100 f.f.

(7) Gunn, “The Journal of Egyptian Archaeology”, Vol. XII (1926), P.P. 250 f.f.

---

[١] وازَنَ العالم «ديفو» بين كل النسخ التي عثر عليها من هذه التعاليم في كتاب خاص E. Devaud Les maximes de Ptah-hotebs, Fseiburg 1916.

[٢] يقصد ابنه.

[٣] يعني أفقر الفقراء.

[٤] يطول عمره؛ أي يُبارَك له فيه لكثرة ما أفاد.

[٥] كان المصريون يجلسون عند الأكل على موائد منخفضة، ونظن أن المضيف الممجد كان يجلس على مائدة في الوسط، والضيوف حوله على موائدهم.

المدارس واللغة

إن مَن ينظر بإمعان إلى نظام الكتابة المصرية القديمة منذ نشأتها، وإلى التطورات التي مرت بها، يجد أنها كانت في بادئ الأمر بسيطة سهلة التناول، ثم أخذت تتعقد بمضي الزمن، وازداد تعقُّدها حتى أصبح هجاء الكلمات من أصعب الأمور، ولا أدل على ذلك من أننا لم نجد في عهد الدولة القديمة ولا في عهد الدولة الوسطى، ما يشير إلى اهتمام التلاميذ بهجاء الكلمات بالدرجة التي وجدناهم عليها في عهد الدولة الحديثة، حينما كان كل من التلميذ والمعلم يصرف معظم همه في تعلم هجاء الكلمات الصعبة؛ فقد عُثِر على كومات من قطع الخزف وشظيات الحجر الجيري الملساء (ويُطلَق عليهما لفظة استراكا)، وعلى أوراق البردي التي كتب عليها التلاميذ تمارينهم؛ تطبيقًا على دروس الهجاء وحفظ قطع الأدب المختارة. ولا غرابة في ذلك؛ فقد أصبح نظام الكتابة معقَّدًا في ذلك العهد كما عرفت، وزاد على ذلك أن دخَلَ اللغةَ ألفاظٌ أجنبيةٌ كثيرةٌ كان يجهل كتابتها التلاميذ والكتَّاب أنفسهم، من أجل ذلك كان الاهتمام عظيمًا بتقوية التلاميذ في الإملاء وفي حفظ قطع الأدب؛ ولهذا فإنا مدينون بخالص شكرنا لنشاط هؤلاء الصبية القهري؛ ذلك النشاط الذي وضَعَ أمامنا مجموعة عظيمة من الكتابات التي أنتجتها مدارس الدولة الحديثة، ولا إخال القارئ إلا متشوقًا ليعلم شيئًا عن نظام التعليم الذي خلَّفَ لنا كل هذا الإرث.

ومما يُؤسَف له أنه لم تصل إلينا معلومات معينة عن المدرسة ونظامها في الدولة القديمة ولا في الدولة الوسطى، غير أننا نجد من وقت لآخَر إشاراتٍ بعيدةً تدل على وجود هذه المدارس؛ وبخاصة في الألقاب العدة التي تركتها لنا الدولة القديمة، ففي مقبرة من مقابر تلك الدولة وجدنا لقب «معلم أولاد الملك»، ويرجح أن مدارس تلك الدولة كانت ضمن مباني المعبد،[1] أو في عاصمة الملك. أما في عهد الدولة الوسطى فقد أخبرنا «خيتي» صراحةً أن المدرسة كانت في مقر الملك.[2]

والظاهر أن المدارس في عهد الدولة الحديثة كانت على درجتين: فالأولى وهي التي تعادل بوجه عام ما نسميه نحن (المدرسة) ويسميها المصريون (بيت الحياة)، وفيها كان يُعلَّم الأولاد الكتابة والأدب القديم، وقد استعملوا لكتابة تمارينهم كما ذكرنا قطعًا من الخزف وشظيات الحجر الجيري التي كانت لا تكلف شيئًا، بدلًا من صحائف البردي الباهظة الثمن، وقد أسعدنا الحظ ببعض معلومات عن واحدة من هذه المدارس، وقد كانت تابعة للمعبد الذي بناه «رعمسيس الثاني» للإله «آمون» في الجهة الغربية من «طيبة»، وهو الذي يُطلَق عليه الآن اسم «الرمسيوم»، وقد كانت ضمن المباني العظيمة الخاصة بالإدارات المحيطة بالمعبد من جهاته الثلاث، وقد عُثِر في هذا المكان على عدد عظيم من (الاستراكا) يسترعي النظر، وبخاصة ما وُجِد منها على كومة صغيرة من الأوساخ. وتدل ظواهر الأمور على أن مدرسة المعبد كانت قائمة في هذا المكان، ويبدو أن التلاميذ عندما كانوا ينتهون من كتابة بعض هذه (الاستراكا) كانوا يلقون بها في هذه البقعة، وبدرس هذه القطع التي كان ينسخها التلاميذ، وجدنا أنها فوق احتوائها على بعض الموضوعات الإنشائية التي تنتمى لعصر الدولة الحديثة، تتألف من ثلاثة كُتُبٍ عُثِر منها على مقتطفات عدة مكررة، وهي تعاليم الملك «أمنمحات»، وتعاليم «خيتي» بن «دواوف»، وأنشودة النيل، وكلها تنتسب إلى عهد الدولة الوسطى. ومما يسترعي النظر أن هذه القطع الأدبية الثلاث عُثِر عليها جميعًا على ورقتين من البردي، تدل الظواهر على أنهما ترجعان إلى أصل «منفي»، ولا شك في أنهما كانتا تؤلِّفان الموضوع الرئيسي المعتاد لمنهاج المدرسة، وقد وُجِدت مدونة بأكملها على هاتين الورقتين. أما ما وُجِد على قِطَع (الاستراكا) فكان يشتمل على مختارات قصيرة من هذه الموضوعات، ومن كتابات أخرى لعظماء الكتَّاب، ومما يلفت النظر أننا نجد باستمرار في معظم الأحيان نفس المختارات معادة، ولا يبعد أنها كانت القِطَع المنتخبة المقرَّرة التي كان لزامًا على كل فرد متعلم أن يحفظها، وحينما كان يتخطى التلميذ هذا الدور الابتدائي من التعليم، كان يُقيَّد كاتبًا في إدارة ما، ثم يستمر في تحصيل

العلم هناك على يد موظفين كبار، ويجوز أنهم كانوا رؤساءه المباشرين. وفي الدولة القديمة نجد أن الأب هو الذي كان يستمر في تلقين ابنه العلم إذا كان من كبار الموظفين، ولا أدل على ذلك من «بتاح حتب» حينما طلب إلى «الفرعون» أن يسمح له بأن يعلم ابنه ليخلفه في وظيفته، وكان على الطالب أثناء تلقيه هذا التعليم العالي أن يستمر في كتابة نماذج إنشائية لا تقف عند نقل بعض سطور، كما كان يفعل من قبلُ، بل تشمل قطعًا كبيرة، وقد وجدنا أن طالبًا قد كتب ثلاث صحائف في يوم واحد، وقد لوحظ أن خطأ التلميذ يصحِّحه معلمه على هامش البردية، ولكن لسوء حظنا لم يكن يعنى المعلم كثيرًا بما كتبه الطالب من الألفاظ التي تفسد المعنى، بل جعل معظم عنايته لشكل الحروف، فكان درسه أقرب إلى تجويد الخط منه إلى دراسة اللغة وتحقيقها.

وتدل معظم النسخ الخطية المدرسية بوضوح على الأغراض الحقيقية من التعليم عندهم، فكان الغرض منه أولًا التربية، وثانيًا التمرين على الأعمال التجارية وحسن الخط، والواقع أن موضوع الإملاء لم يكن بالأمر الهين كما ذكرنا؛ إذ إن نظام الكتابة الهيروغليفية أكثر استعدادًا لقبول الأغلاط، ولا يعدله في ذلك نظام آخَر في العالم؛ لذلك كانت العناية بهذا الموضوع عظيمة جدًّا، ولدينا كتاب يدلنا على عناية القوم وحرصهم على كتابة الكلمات الفردية كتابةً صحيحةً، ولا بد أن هذا الكتاب كان شائع الاستعمال في المدارس، وقد وضعه كاتب كتاب الإله في بيت الحياة «أمنموبي» بن «أمنموبي»، وقد عُثِر منه على ثلاث نسخ.

وقد اتخذ كاتب هذه الوثيقة لنفسه دور الكاتب الذي أراد أن يعلِّم التلاميذ العلوم كافةً، لذلك يحمل كتابه عنوانًا مطولًا؛ إذ يقول: «التعاليم التي تجعل الفرد أريبًا، وتعلم الجاهل علم كل كائن، وكل ما صنعه «بتاح» وما سجله «تحوت»، والسماء ونجومها، والأرض وما عليها، وما تخرجه الجبال، وما تجود به البحار، وما له علاقة بكل الأشياء التي تضيئها الشمس، وكل ما ينمو على الأرض.» ولا جدال في أن هذا العنوان له رنة عظيمة في الآذان؛ إذ يجعل المستمع ينتظر

معلومات ضخمة تكشف له الغطاء عن علوم هؤلاء القوم، غير أن الأمر أهون من ذلك؛ فالكتاب في حد ذاته لا يخرج عن مجموعة كبيرة من أسماء وألقاب بعضها متداول معروف، وبعضها نادر غير مألوف، وقد وُضِعت بنظام مرتب ترتيبًا منطقيًّا لا بأس به، فيذكر لنا أولًا السماء وما فيها: السماء، والشمس، والقمر، والنجوم، والجوزاء، والدب الأكبر، والقرد، والمارد، والخنزيرة، والسحاب، والعاصفة، والفجر، والظلام، والضحى، والفيء ... وأشعة الشمس، ثم يتلو ذلك أشكال المياه الموجودة في الطبيعة، فيذكر النهر والبحر والبركة وخزان المياه، ثم ينتقل إلى موضوع الصور الأرضية والنباتات والتربة، ثم يذكر في ست مجاميع الألفاظ التي تدل على الكائنات الحية، فيذكر العلوية منها أولًا، وهي الآلهة والإلهات والأرواح؛ الذكور منها والإناث، ثم يعدِّد لنا المخلوقات البشرية مرتبة حسب مراكزهم في المجتمع، فنجد أولًا الملك، ثم الملكة، ثم يذكر لنا بعد ذلك كبار الموظفين، فرؤساء رجال الدين والعلماء، ويلي ذلك السواد الأعظم من صغار الموظفين وأصحاب الحِرَف، وبعد ذلك يضع أمامنا التعابير التي يعبِّر بها عن بني البشر والجنود، وأسماء الشعوب الأجنبية والأماكن المختلفة، ثم ينتقل إلى ذكر أسماء ست وتسعين مدينة مصرية، واثنين وأربعين اصطلاحًا للمباني وأجزائها، ومسميات للأراضي والحقول، ثم يعدِّد لنا كلَّ ما كان يأكله الإنسان أو يشربه، ويدخل في ذلك ثمانية وأربعون نوعًا من اللحم المطبوخ، وأربعة وعشرون نوعًا من الشراب، وثلاثة وثلاثون نوعًا من اللحم النيئ. وفي الجزء الختامي الذي وُجِد محطَّمًا، كان قد كتب عليه مسميات عن مختلف الطيور، وعدد عظيم من أسماء الماشية، وغير ذلك من الأسماء التي جمعها «أمنموبي» بعناية؛ ليضع أمام العالم صورة عن كل كائن، شاكرًا للإلهين «بتاح» و«تحوت». ولا شك في أن غرضه من جمع تلك المسميات وترتيبها، تعليمُ تلاميذه كتابة المفردات كتابة صحيحة، وكما أسلفنا كانت كتابة الكلمات الأجنبية الكثيرة والأسماء الغريبة التي اندمجت بوفرة في اللغة المصرية الجديدة عقبة كئودًا حتى للطلبة المتقدمين؛ ولذلك كانت تبذل عناية خاصة لتعليمها، فمن ذلك أن تلميذًا من

الأسرة الثامنة عشرة يضع كل همه في أن يكتب على لوحة أسماء في «كفتيو» (كريت)، وسنرى فيما بعدُ أن نماذج الخطابات التي أوردناها في هذا الكتاب هي من هذا النوع، فتشتمل على كلمات وأسماء ليتعلَّمَ منها التلميذ كتابة الكلمات الأجنبية كما كان يتعلَّم من وثيقة «أمنموبي».

والواقع أن قائمة «أمنموبي» هذه لا يمكن أن تُعَدَّ فهرسًا لسرد أسماء وحسب، وإن كان هذا هو مدلولها العملي كما يظهر لنا من ترتيبها وتنسيقها، ولكن إذا أمعن الإنسان في النظر إلى كنهها بعين فاحصة، وجد أنها الخطوة الأولى نحو فكرة تأليف قاموس؛ إذ نجد أن الترتيب الذي وُضِعت به ينم عن ترتيب منطقي مميز في داخل كل مجموعة، كما نلاحظ علاقة ظاهرة بين كل لفظة وما سبقتها؛ وأعني بذلك أن الكاتب رغم أنه لم يعطنا إيضاحًا عن تلك الألفاظ أكثر مما كنَّا نعرف، إلا أنه مكَّنَنَا من أن نفهم علاقة الكلمة بسابقتها من مركزها في القائمة، فأهمية هذه الوثيقة لفهم اللغة المصرية عظيمة جدًّا لنا، ويظهر مقدار ذلك جليًّا إذا علمنا أن الفهارس بمعناها الحقيقي معدومة كلية في اللغة المصرية. حقًّا إن لدينا بعض قوائم لأنواع الكلمات على «الاستراكا»، كما توجد في متون مشهورة؛ مثل أسماء البلاد السورية التي ذكرها كاتب ورقة أنستاسي الأولى، أو قوائم أسماء المدن التي استولى عليها فراعنة مصر في عهد الدولة الحديثة،[٣] والتي نقشوها على جدران معبد الكرنك وغيره، وكذلك القوائم التي ذكر فيها أسماء الأمم والأخشاب (والأشياء التي صُنِعت منها) وعلى الاستراكا، على أن كل هذه القوائم وحتى وثيقة «جلنشيف» التي نحن بصددها الآن، لا يمكن أن تقاس بالفهارس الحقيقية البابلية.

وليس من الصعب أن يعرف الإنسان السبب في وجود هذه الفهارس في بابل وخلُوِّ مصر منها؛ وذلك أن المصري قد اخترع الكتابة بنفسه لنفسه؛ ليعبِّر عن لغته، وقد نميَا سويًّا في موطن واحد بعيدين عن التأثير الخارجي، ولكن في بلاد النهرين أي (بابل) كان للسومريين كتابة خاصة بهم، غير أن قومًا من الساميين الذين لا يعرفون الكتابة غزوا هذه البلاد، ولما أقاموا فيها

رأوا الفوائد التي تعود عليهم لو اقتبسوا منها نظام الكتابة، فأخذوه عنها، واستعملوه في التعبير عن لغتهم، فنقلوا أولًا الكتابة السومرية الأصلية كما شاهدوها، ولكنهم قرءوها بما يقابلها في لغتهم «الأكادية»، وتعلموا بعد وقت أن يضعوا للكلمات السومرية ما يقابلها في لغتهم؛ ومن ذلك ألَّفوا لأنفسهم فهرسًا باللغتين، وقد دفعهم إلى هذا حاجتهم الملحة للتفاهم بينهم وبين القوم الذين غزوهم، ولكن مصر لم تكن في يوم في حاجة إلى ذلك، وكذلك نجد أن اللغة الإغريقية التي تُعَدُّ من أعرق اللغات لم تأخذ في وضع قاموس للغتها إلا بعد انقضاء العصر «الكلاسيكي» فيها.

ومما سبق نعلم أن المصري كان يضع مثل هذه القوائم لإعداد التلميذ لإتقان فن الإملاء، ولإعطائه نظرة عامة بكل ما يحيط به، وكان أعظم من كل ذلك عناية الأستاذ بتعليم تلميذه الأسلوب الصحيح والتعابير المختارة لكتابة الرسائل.

من أجل ذلك كان التلميذ مُلزَمًا بنقل نماذج رسائل من كل نوع، حقيقية كانت أو إنشائية، ونقل النصائح والتحذيرات التي كانت تصلح لهذا النوع من التعليم؛ إذ كان يكتبها في شكل رسائل، ولذلك كان يُطلَق على ما يسطِّره التلميذ على ورق البردي اسم (تحرير الرسائل)، وفي غالب الأحيان كان يضع التلميذ اسمه في الخطابات الشخصية واسم معلمه كأنما هما يتراسلان، فنجد التلميذ يكتب لنفسه أنه كسلان وفاسق وعاهر، وأنه يستحق مائة جلدة. ويدل ما لدينا من الوثائق على أن بعض الموظفين من مختلف الطبقات كانوا يستقلون بتعليم تلاميذ لهم، فنجد كاتب خزانة فرعون ورئيس سجلات الخزانة وكاتب مصنع فرعون وغيرهم لهم تلاميذ يتعلمون عليهم، وسيرى القارئ في المنافسة الأدبية (ورقة أنستاسي الأولى) أن الموظف، وإن كان في الإصطبل الملكي، كان في قدرته أن يكون معلمًا ماهرًا.

ولقد كانت مهنة التدريس متغلغلة في نفوس الموظفين الذين يحسنون الكتابة، لدرجة أنهم كانوا يباشرونها في وسط أعمالهم؛ إذ نجد أن أحد الموظفين الذين كانوا يشرفون على نحت قبر

«رعمسيس التاسع» في صحراء وادي «أبواب الملوك»، لم يطق صبرًا على ترك مهنة التعليم حتى في ذلك المكان المنعزل القفر، فكان يكتب مساعده أو تلميذه أشياء مختلفة بمثابة تمارين على شظيات كبيرة من الحجر الجيري المتخلفة من النحت، وقد عثرنا منها على نموذج خطاب وقصيدة قديمة «لرعمسيس الثاني»، وصلوات جميلة لشخص اضطهد ظلمًا،[٤] ونرى يد المعلم قد تناولتها بتصحيح بعض الأخطاء.

ولما كانت معظم كتابات هذا العصر قد تحوَّلت إلى صور رسائل إنشائية وحقيقية، وجدنا أنه من الضروري أن نفرد فصلًا خاصًّا للرسائل وتاريخها منذ نشأتها، والتطورات التي مرت بها، ثم نورد بعد ذلك بعض الأمثلة من كل نوع؛ ليقيسها القارئ برسائلنا، وليعلم مقدار ما وصلت إليه مصر في هذا النوع من الأدب، وسنضطر أن نقصر أمثلتنا على الدولة الحديثة؛ لأنه لم يصلنا حتى الآن رسائل أدبية أو تعليمية من الدولتين القديمة والوسطى[٥] إلا النزر اليسير.

المصادر

(1) Erman. “The Literature of the Ancient Egyptians”, PP. 185 ff.

(2) Pap. Hood, Maspero. “Etudes Egyptiennes”, II, 1. ff.

(3) Glanville, “Journal of Egyptian Archaeology”, Vol. XII, PP. 171 ff.

---

[١] وقد ذكرت جملة في تعاليم «آني» تُشعِر بأن المدن كان فيها مدارس.

[٢] انظر تعاليم «خيتي» لابنه.

الرسائل

إن أقدم ما وصل إلينا من الرسائل التي كان يتبادلها أفراد الشعب المصري القديم، وتصدرها أو تتلقاها المصالح الحكومية في داخل البلاد وخارجها، يرجع تاريخها إلى الدولة القديمة، غير أنه لم يصل إلى أيدينا إلا عدد يسير جدًّا من هذه الدولة، أما الدولتان الوسطى والحديثة، فقد عُثِر على مقدار لا بأس به من الأولى، وعدد عظيم من الثانية.

وإذا تتبعنا هذه الرسائل من أول ظهورها حتى أواخر الدولة الحديثة، وجدنا أن لكل عصر أسلوبًا منفردًا وذوقًا خاصًّا، هذا إلى أن رسائل كل عصر كانت تتأثر بسابقتها، ويظهر ذلك جليًّا في رسائل الدولة الحديثة التي ورثت كثيرًا من خصائص رسائل الدولة الوسطى، وبخاصة ما نشاهده من الأثر الذي تركته رسائل أبو غراب في رسائل الأسرة التاسعة عشرة (راجع K. P., Vol. I, P. 91).

(١) طبقات الرسائل

وصل إلينا ثلاثة أنواع رئيسية من الرسائل المكتوبة على البردي أو على قطع الخزف، وهي:

(١) رسائل شخصية حقيقية.

(٢) مراسلات تعليمية أو موضوعات إنشائية أدبية يرجع أصلها إلى خطابات حقيقية أو إنشائية كان المقصود منها أن تستعمل نماذج للتعليم.

(٣) خطابات نموذجية كان التلميذ يتمرَّن عليها أو مسودات لرسائل حقيقية، وكان النوع الأخير يُكتَب عادةً على قطع الخزف.

والرسالة الحقيقية كانت تتألف من العناصر التالية: (١) الصيغة الافتتاحية وتشمل اسم المرسل، ثم اسم المرسل إليه. (٢) الديباجة، ومن الجائز أن تكون مطولة مملة لدرجة يضيع معها

الغرض الأصلي من الرسالة. (٣) موضوع الخطاب. (٤) الصيغة الختامية. (٥) عنوان الرسالة.[١]

وهذه العناصر للرسالة المحبوكة الأطراف لا نجدها مجتمعة إلا في عهد الدولة الحديثة على وجه عام.

أما رسائل الدولة القديمة فإنها حسبما رأيناه في العدد الضئيل الذي وصل إلينا كانت بسيطة في تركيبها؛ إذ كانت تتألف من صيغة افتتاحية، ثم ينتقل بعدها الكاتب إلى موضوع الرسالة مباشَرةً، ثم العنوان. انظر Smithers, an Old Kingdom Letter J. E. A. Vol. 28 P. 16 ff.

ولكن في حالات أخرى كان يبتدئ الخطاب بالتاريخ، ثم الصيغة الافتتاحية، ويعقبها مباشَرةً موضوع الرسالة. راجع Gardiner, J. E. A., Vol. XIII, P. 75.

وهذه الرسالة الأخيرة تلفت النظر؛ لأنها لا تحمل في سطورها اسم المرسل أو اسم المرسل إليه، وقد عُرِّف الأول بلقبه. راجع كذلك رسالة «بيبي الثاني» «لحرخوف» Breasted Ancient Records Vol. 1. P. 159.

وقد كانت عناصر الرسالة في الدولة الوسطى تماثِل الدولة الحديثة التي سنبحثها فيما يلي: إن عناصر الرسالة الخمسة التي ذكرناها آنفًا لا توجد دائمًا مجتمعة في رسالة واحدة، ووجودها مجتمعة أو إغفال بعضها كان يتوقَّف على مكانة المتخاطبين، وعلى نوع الرسالة، وعلى مقدار المادة التي يريد الكاتب أن يضمنها رسالته؛ فنجد أن الرسائل الحقيقية التي كُتِبت على البردي قد كُتِب عنوانها على ظهر البردية التي كانت تُطوَى على هيئة حزمة صغيرة، ثم تُربَط بخيط وتُختَم.[٢]

أما الرسائل الحقيقية المكتوبة على قطع الخزف، فليس لها عنوان مستقل، بل كان ضمن الصيغة الافتتاحية، ويمكن رؤيته؛ لأن الكتاب مفتوح، بخلاف البردية المطوية التي كان لا بد من تسجيل عنوان على ظاهرها.

(٢) مسميات الرسائل الحقيقية

لقد كان المصري دقيقًا غاية الدقة في تحديد مسميات الرسائل الشخصية التي يتبادلها أفراد الشعب، والرسائل الرسمية التي كانت تجري بين كبار موظفي الدولة، أو التي كان يأمر بكتابتها الفرعون وبخاصة في عهد الدولة الحديثة، ففي الدولة القديمة كان المصري يستعمل كلمة «مجات» للدلالة على كلمة «رسالة»، غير أن هذه التسمية قد فقدت معناها الأصلي، وأصبحت تدل على «بردية» أو كتاب أو «وثيقة» على وجه عام في عهد الدولة الحديثة، ومنذ الدولة الوسطى حتى باكورة الأسرة التاسعة عشرة كان المصري يستعمل كلمة «سش» للدلالة على معنى كلمة «رسالة» (انظر Cairo No. 58053).

هذا إلى أن المعنى العام لهذه الكلمة «وثيقة مكتوبة».

أما في عهد الدولة الحديث فقد كانت كلمة «شعت» (راجع & Cairo 58058, 1-2 Amarna 2, 15) تعنى «رسالة» شخصية، وأقدم مثال لها بهذا المعنى وجد في ورقة إبرس (Pap. Ebers, 4901).

أما الرسالة التي كانت تصدر عن الفرعون أو ولي عهده أو أحد كبار موظفي الدولة فكانت تسمى «وخا» () والعبارة التالية توضح لنا استعمال الكلمتين: «عندما يصل إليك «وخا» الملك (أي رسالة الملك) يجب عليك أن تكتب «شعت» (رسالة شخصية) إلى كاتبك.» راجع .(Gardiner, L. E. M. P. 46, 15-16) والظاهر أن كلمة «وخا» حسب قاموس برلين، لم تُستعمَل قبل الأسرة التاسعة عشرة، وهناك كلمة أخرى كان يُعبَّر بها عن الرسالة

الرسمية وهي «وستن» (hieroglyphs) غير أنها كانت تُستعمَل في رسائل أخرى. (راجع De Morgan. Cat. Des Mon. III, 119.)

(٣) تدوين الرسائل

كانت العادة المتبعة أن تكتب على ورق البردي الرسائل الرسمية، أو التي كانت تتبادل بين مرءوس ورئيسه، وكانت الرسالة تُدوَّن على وجه الورقة — أي البردية — الذي تكون فيه الألياف أفقية ومكوِّنة زوايا قائمة مع اتصالات أجزاء البردية. على أن معظم الرسائل التي حُفِظت لنا نجد فيها أن القلم كان يجري على الألياف العمودية، وسبب ذلك أن الكاتب حينما يأخذ في تسطير رسالة، كان يقبض على الورقة عموديًّا ويكتب عليها عرضًا، بدلًا من أن يمسكها أفقيًّا كما كان يفعل عندما يدوِّن كتابًا.

ونجد أحيانًا أن بعض الرسائل قد كُتِب على بردي قد مُحِيت كتابته الأصلية بغسلها ثم استعمالها ثانيةً؛ لغلاء البردي، أما عرض[٣] الورقة التي كانت تُدوَّن عليها الرسالة فيختلف بين أحد عشر سنتيمترًا واثنين وأربعين سنتيمترًا، والخط الذي كان يُستعمَل هو الخط الهيراطيقي — الذي يقابل عندنا خط الرقعة — مسطورًا بمداد أسود، وكان الكاتب يخط بقلم من اليراع أو بفرجون، وعند استعمال القلم فإنه كان يُقطُّ بميل ثم يُفلَق.

وقد استُعمِلَ المداد الأحمر[٤] في الرسائل النموذجية، وقد تكلَّمَ كلٌّ من العالم «شوبارت» و«لوكاس» عن مواد الكتابة بإسهاب؛ فمَن أراد المزيد فليراجع ما كتباه.[٥]

وكان الكاتب عند فراغه من تدوين الرسالة يطويها بحيث تكون الكتابة في الداخل،[٦] وبعد ذلك كان يُثْنَى الخطاب نصفين، ثم يُربَط بخيطٍ، ثم يُختَم بقطعة من الطين يُطبَع عليها خاتم المرسل. وقد كان يُكتَب اسم المرسل إليه وعنوانه على ظاهر الرسالة، وأحيانًا كان بدون اسم كاتب الرسالة والرسول، وذلك بعد إتمام حزم الرسالة، وأحيانًا قبل الطية الأخيرة.

ولم يصلنا بطبيعة الحال إلا عدد يسير من الرسائل بأختامها سليمة، وما وصلتنا على هذه الحالة هي سلسلة موجودة في ليدن (Leyden, 360, 363, 364, 365, 366, 367)، وقد نشرها العالم «ليمان» بأختامها، ثم سلسلة في برلين (Berlin 10487–9) وقد نشرها الأستاذ «إرمان» (“Ein Fall abgekurzter Justiz”, P. 15). ففي رسائل «ليدن» نجد أن الكاتب الذي كتب الرسائل رقم ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧ كان اسمه «مري اتف»، وأن الخاتم الذي وُجِد على ثلاث منها كان واحدًا أيضًا، وكان عليه طابع يمثِّل (خرطوش) «تحتمس الثالث» بين جناحي جُعَل منتشرين (انظر أمثلة لهذا الطابع في Hall, “Cat. Of Egyptian Scarabs”, Vol. I, Nos. 767, 779).

وكان هذا يقوم مقام خاتمه، ورغم أن هذا الخاتم يحمل اسم الفرعون «تحتمس الثالث» الذي عاش في عهد الأسرة الثامنة عشرة، فإن الرسالة التي نحن بصددها يرجع تاريخها للأسرة التاسعة عشرة، ولم يكن من الأمور النادرة أن نجد جعارين من هذا العصر ومن عصور متأخرة تحمل (خرطوش) «تحتمس الثالث»؛ وذلك لأن اسم هذا الملك كان يُعتبَر بمثابة تعويذة قوية الأثر؛ لما كان له من بطش وقوة خلَّفهما بعده في نفوس القوم.

أما الخاتمان ٣٦٠، ٣٦٣ من مجموعة ليدن فيشبهان أختام عهد الهكسوس في رسومها، غير أنهما قد استُعمِلَا هنا (راجع J. E. A., Vol. II P. 221) بعد عصرهما بما يقرب من ٤٠٠ سنة بدلًا من خاتم المرسل.

(٤) المكاتبات على الاستراكا

الظاهر أن الحسابات والتمارين المدرسية ومسودات الرسائل الهامة، والرسائل النموذجية والمكاتبات الحقيقية التي كان يتبادلها أفراد من مرتبة واحدة، أو من درجات مختلفة كانت في

العادة تُكتَب على قِطَع من الخزف، ويستعملها الأشخاص الذين يعجزهم غلاء ثمن البردي خاصة.

وكانت «الاستراكا» كما أسلفنا من قبلُ على نوعين: شظيات من الحجر الجيري الأبيض ملساء، والحصول عليها ميسور من أي بقعة يقام فيها بناء؛ وقطع من الخزف المتخلفة من الفخار المهشم، وكانت أقل استعمالًا من سابقتها لأن لونها كان في معظم الأحيان قاتمًا من الاستعمال، ووجهها الخارجي الأملس هو الذي كان يُستعمَل في الكتابة، ولما كانت شظيات الحجر الجيري تُستعمَل عادة في الكتابات القليلة الأهمية، فإنه كان من الجائز أن تُدوَّن عليها الرسائل الرسمية التي كانت تُتبادَل محليًّا. على أن استعمالها لم يقتصر على أفراد الطبقة الدنيا (راجع Inst. Français. Cat. Ostr 129)؛ حيث نجد رسالة من حامل المروحة «خعي» إلى رئيس العمل «نب نفر»، وهي مدوَّنة على شظية من الحجر الجيري الأبيض.

والدليل على أن الاستراكا كانت تُعتبَر أقل قيمة من البردي، ما نجده من الاعتذارات المتعددة في الرسائل القبطية التي كانت تُكتَب على هذه المادة، مثال ذلك ما كتبه المرسل قائلًا: معذرة لأني لم أجد برديًّا في تلك اللحظة ليتناسب مع مقام قداستكم. راجع (Crum. "Epiphanius", I. P. 187)، وقد كانت طريقة الكتابة على الاستراكا هي نفس الطريقة التي كان ينتهجها الكاتب على البردي، عدا العنوان الذي كان يُكتَب على ظاهر البردية فقد أغفل على الاستراكا، يضاف إلى ذلك أن الصيغة التقليدية التي كان يُعَنْوَنُ بها المكتوب كانت تُختصَر أو تُغفَل؛ لصِغَر رقعة الاستراكا، كما كانت تُحذَف أحيانًا عندما تكون الكلفة مرفوعة بين المتراسلين.

(٥) البريد

الواقع أن وجود عنوان على الرسائل المصرية يُعَدُّ في ذاته برهانًا على قيام شخص معين بتوزيعها، يقابل في عصرنا ساعي البريد، ولو كان الأمر مقصورًا على حمل رسالة واحدة لما

احتاج الأمر إلى كتابة عنوان؛ إذ كان في قدرة حاملها أن يحفظه عن ظهر قلب.

وأول وثيقة عرفنا منها لفظ «ساعي بريد» رسمي يرجع تاريخها للأسرة السادسة، وكان ذلك في رسالة شكوى جاءت فيها لفظة «ساعي بريد» مرتين. راجع Gardiner, J. E. A. Vol. XIII P. 75. والكلمة الدالة على ساعي البريد هي (أرى مجات) في عهد الدولة القديمة، وبذلك تكون أقدم مظهر للبريد في العالم.[٧]

أما في الدولة الحديثة فنعرف أن حامل البريد الرسمي كان يسمى «حامل الرسالة الرسمية» (فاي وخا) (راجع Gardiner, L. E. M., P. 62, 12; 126. 5)، ونعرف مما جاء في ورقة «أبوت» أن رجال الشرطة[٨] كانوا يكلفون توزيع وثائق رسمية، أما ما يختص بالرسائل الشخصية فالظاهر أنه لم يكن لها بريد منظم كما نفهمه الآن، بل كانت الرسائل تُعهد إلى أشخاص مسئولين يكونون مسافرين إلى الجهة التي يقطن فيها المرسل إليه، ويمكن استنباط ذلك من الملتمسات التي كانت تُكتَب في الرسائل ويُطلَب فيها من المكتوب إليه إرسال أخباره «وأن تُعطَى الرسالة أي شخص يكون حاضرًا من عنده.» (راجع Gardiner, J. E. M., P. 5, 10)، وكذلك كانت الرسائل الخاصة تُرسَل مع خادم المرسل الخاص (راجع Leyden 364; 7 etc) أو على يد أي إنسان معروف للمتراسلين (راجع Cairo 58059. etc) أو يحملها أحد رجال الشرطة مع الرسائل الرسمية (راجع Cerny. L. R. L, 33, 4-5 ; 48, 2–4 ; 64, 6–8; 70, 3-4).

وكان من الجائز أن يحمل حامل البريد الرسمي رسائل شخصية إذا اتفق أنه ذاهب إلى مكان المكتوب إليه (Cerny L. R. L. 62, 12-13)، وقد عُثِر على رسالة شخصية عُهد بها إلى رئيس رامي النبال ليسلِّمها إلى المكتوب إليه (راجع Cerny, L. R. L., P. 125, 15-16).

ولدينا وثيقة تبرهن على وجود مصلحة خاصة لنقل البريد الرسمي في عهد الدولة الحديثة (راجع Smithers, J. E. A. Vol. 25, P. 103 & Gardiner, L. E. M. P. 31, 32)، أما في عهد الدولة الوسطى فكان يذكر اسم الرسول الذي فُرض أنه سيوصل الرسالة على ظاهر الخطاب، ويُكتَب ذلك في العادة على الجانب الذي يوجد فيه اسم المرسل، فيكتب: «أحضره فلان.»

أما في عهد الدولة الحديثة فكان يندر كتابة اسم الرسول في العنوان، غير أنه كان من الجائز ذكره في صلب الرسالة أو في نهايتها، وعندما كان المرسل يريد ذكر اسم الرسول فإنه كان يكتب في عهد الدولة الوسطى جملًا كالآتية: «سأرسل إليك لأعلمك على يد فلان»، أو «إني عهدت بهذا الخطاب لعناية فلان … لأخبرك …» (Cerny, L. R. L, 33, 4-5, 48, 2– 4)، أو «إن خطابي يصلك على يد فلان.» راجع Gardiner, L. E. M, 68, 11-12 أو «تأمَّلْ لقد أرسلت «خطابًا» ليكون دليلًا لديك على يد فلان.» راجع (Cerny, L. R. L., 70, 3-4) ففي كل حالة من هذه الأحوال قد كُتِب اسم الرسول.

(٦) العنوان

إن المفروض في عنوان الرسالة أن يكون اسم المرسل إليه هو المهم، ونجد في الرسائل المكتوبة على البردي أن اسم المرسل إليه وعنوانه كانا يُكتَبان على ظاهر الرسالة المطوية المختومة، وأحيانًا نجد كذلك اسم المرسل واسم الرسول، وفي خلال الدولة القديمة نعرف مما وصلنا حتى الآن أن اسم المكتوب إليه هو الذي كان يُكتَب في العنوان فقط. راجع (J. E. A., Vol. 28, P. 16, 17). وفي حالة أخرى وجدنا أن الرسالة لا تحمل عنوانًا رغم أن الوثيقة كانت بلا نزاع رسالة حقيقية. راجع (J. E. A. Vol. 13 P. 75-6).

أما في عهد الدولة الوسطى فنجد في العنوان اسم المرسل والمرسل إليه، ونجد أحيانًا مع ذلك: التاريخَ واسم الرسول. راجع (Griffith, K. P. Vol. I, P.P. 72. Pap. I. 7 & P. 74, Pap. VI. 4).

وفي عهد الدولة الحديثة كنَّا نجد أحيانًا أن اسم المرسل إليه الذي في العنوان لا يتفق مع الاسم الذي ذُكِر في صيغة الخطاب الافتتاحية (Cerny. L. R. L. No. 35. P. 54)، وفي هذه الحالة يجب أن نفرض أنه كان لزامًا على المرسل إليه أن يسلم الرسالة إلى الشخص الذي ذُكِر في الصيغة الافتتاحية.

وقد جرت العادة أن يكون العنوان مختصرًا بقدر المستطاع؛ لذلك كانت ألقاب المرسل إليه تُحذَف أحيانًا على أنها كانت تُذكَر كاملةً في الصيغة الافتتاحية. راجع (ibid, L. R. L., P. 44).

أما في الرسائل المكتوبة على الاستراكا، فإن الصيغة الافتتاحية كانت تقوم مقام العنوان، وعندما يُذكَر اسم المرسل والمرسل إليه في العنوان كان يُفصَل بينهما إما بكتابة العنوان قبل الطية الأخيرة من الخطاب، بصورة تجعل اسم المرسل على جهة من ظاهر الخطاب واسم المرسل إليه على الجهة الأخرى مع العنوان (وهذا ما كان يحدث في عهد الأسرة الثامنة عشرة وبداية الأسرة التاسعة عشرة)، أو كان يُفصَل بين اسم كلٍّ من المرسل والمرسل إليه هكذا —— وإذا حُذِف اسم المرسل فإن العنوان يُسبَق بخط أفقي كالسابق، يأتي بعده اسم المرسل إليه. راجع (Leyden No. 365, 367)، وهذا الخط الأفقي يعادِل كلمة إلى، أو كان العنوان يسبق بكلمة: «هو (أي الخطاب) يُرسَل إلى …» ويأتي بعد ذلك اسم المرسل إليه. راجع (Cerny, L. R. L. 7, 15, 29; Berlin 8523).

(٧) الصيغة الافتتاحية

إن الصيغة التي تُفتتَح بها الرسالة تختلف في تركيبها باختلاف رُتَب المتراسلين ومادة الرسالة التي يكتبون فيها، وبهذه المناسبة يجب أن نذكر هنا أن اسم المرسل كان يسبق اسم المرسل إليه إلا في حالات قليلة، وعلى مرِّ الأيام وجدنا أن بعض الصِّيَغ كان شائعَ الاستعمال، ولكن الصيغة التي كانت سائدة هي: «فلان يكتب إلى فلان.» وأهم الصيغ الافتتاحية التي عُثِر عليها حتى الآن ما يأتي:

أولًا: في خلال الدولة القديمة كانت الصيغة الافتتاحية — على ما يظهر — غايةً في البساطة، فكان يكتب: «المرسل فلان يقول …» راجع Gardiner, J. E. A., Vol. 13, P. 75-6; & Smithers J. E. A., Vol. 28 P. 16, 17.

ونجد في الرسالتين الملكيتين إلى «سنزم إب» — الأسرة الخامسة — وإلى «حرخوف» — الأسرة السادسة — أن الصيغة الافتتاحية في الأولى هي: «أمر ملكي إلى …» راجع Breasted, “Ancient Records” Vol. 1, P. 122.

وفي الثانية: «مرسوم ملكي إلى …» راجع (ibid, P. 160).

أما في الدولة الوسطى فكان يكتب: «المرسل فلان يقول إلى المرسل إليه (داعيًا له) بالسعادة والصحة.» راجع (Griffith, K. P. PP. 67 ff).

أما في عهد الدولة الحديثة فكانت تُكتَب الصيغ الآتية: «المرسل فلان يكتب إلى فلان المرسل إليه.» راجع (Gardiner L. E. M. 8, 10 ff) أو «المرسل فلان يسأل عن حالة فلان (المرسل إليه).» راجع (Brit. Mus 10107, & Gardiner, ibid, 67, 11 ff) أو «المرسل فلان يقول حينما يسأل عن حالة فلان المرسل إليه …» راجع (Ins Français Ostracon No. 322, 19 Dyn) أو «فلان يقول لفلان …» راجع (Cairo, 58053 etc، وأخيرًا كان يكتب باختصار: «فلان إلى فلان.»

وأحيانًا كان يضاف إلى ذلك عبارات منمقة، مثل: «لأجعل القلب سعيدًا»، أو «لتكون مسرورًا». على أن مثل هذه الصيغة عندما توضع تمهيدًا للدخول في موضوع الخطاب، كانت تُشعِر بأن ما يأتي بعدها يريد به الكاتب خبرًا سارًّا، ولكنها أصبحت فيما بعد عبارة ثابتة في الخطابات حتى أُسِيء استعمالها، فنرى الخبر الذي يأتي بعدها أحيانًا يكون سيئًا، مما يدل على أنها فقدت معناها الأصلي. راجع (Urk IV, 138, 12). والصيغة: «لأجعل قلب سيدي سعيدًا أو مسرورًا» تُستعمَل في الكتابة إلى رئيس، وبذلك لا تجدها في الرسائل الحقيقية التي كُتِبت على الاستراكا لغير الرؤساء، اللهم إلا إذا كان ما يُكتَب مذكرات قصيرة محلية، وإذا لم تظهر هذه الصيغة على «الاستراكا»، فإن ذلك يدل على أحد أمرين: أن يكون الخطاب نموذجًا، أو مسودة لخطاب حقيقي.

والصيغة: «فلان يسأل عن حالة فلان، أو عما يحتاج إليه فلان» تُشعِر باهتمام المرسل، وكذلك يلحظ فيها ألفة وود بين المتراسلين؛ لذلك تجدها في رسائل متبادلة بين أعضاء الأسرة الواحدة. راجع (The two Amarna Letters, Bologna 1086, Cairo 58056) أو بين أصدقاء أو أشخاص في منزلة اجتماعية واحدة. راجع (Brit, Mus. 10103, Gardiner L. E. M. 5, 13 ff). وكذلك تجدها في رسائل من سيدات. راجع (Gardiner L. E. M., 6, 15 ff; 9, 3 ff; 88, 17 ff). على أننا لا نجدها في الكتابة إلى مرءوسين، ولا توجد إلا نادرًا على الاستراكا، وقد أخذت هذه الصيغة تختفي تدريجًا حتى أغفلت كتابتها بحلول الأسرة العشرين.

أما الصيغة: «فلان يقول لفلان ...» فكانت تُستعمَل في الرسائل الرسمية ومكاتبات المعاملات، وفي الخطابات التي كان قد حُذِف منها قصدًا عبارات التهنئة المنمقة.

وقد عُثِر على خطاب مكتوب على الاستراكا من ابنٍ لوالده، وقد استُعمِلَتْ فيه هذه الصيغة، ولكن وجودها بهذه الصورة قد يعزى إلى صِغَر رقعة الرسالة التي تحت تصرُّف الكاتب. راجع (Inst Français, 328. 19 Dyn).

وقد ذكرنا فيما سبق أن الصيغة الافتتاحية قد اختُصِرت حتى أصبحت في صورتها تشبه العنوان «فلان إلى فلان»، وقد ظهرت هذه الصيغة كثيرًا على أوراق البردي. راجع (Cerny L. R. L. etc). غير أننا نجدها قد اختُصِرَتْ في الاستراكا حتى أصبحت «إلى فلان» أي بحذف اسم المرسل. راجع (Berlin Ostraca Nos 10627-8). وهذه الصورة لم تُستعمَل قط في الرسائل المكتوبة على البردي.

وفي عهد الأسرة العشرين عثرنا على أمثلة قد قُلِبت فيها هذه الصيغة، فنقرأ «المرسل إليه المرسل» بدون أي علامة فاصلة، وقد استعملت في مخاطبة الرؤساء. (راجع Cairo Ostraca No 25744). وفي مثل هذه الحالة يمكن معرفة شخصية المرسل إليه ببعض فقرات في صلب الخطاب (راجع Cerny L. R. L. pp. XXII, XXIII.) وهذه الصيغة نجدها في الرسائل النموذجية المكتوبة على البردي في عهد الأسرة التاسعة عشرة، ولكنا لا نجد الصيغتين: «فلان إلى فلان»، أو «إلى فلان» قبل الأسرة التاسعة عشرة.

(٨) الديباجة

إن ديباجة الرسالة كانت تُوضَع بعد الصيغة الافتتاحية وقبل موضوع الخطاب، ولكنا نجد في الرسائل التي وصلتنا من الدولة القديمة أن الديباجة لا وجود لها، وكان موضوع الخطاب يأتي مباشَرةً بعد الصيغة الافتتاحية.

أما في رسائل الدولتين الوسطى والحديثة، فقد وجدنا أن الديباجة تنقسم قسمين: أولهما عبارة يذكر فيها أسماء الآلهة الذين يتضرع إليهم ليرعوا المرسل إليه، وثانيهما يذكر فيه الإحسان

الذي يلتمس منهم. وهذان يتألف منهما ديباجة كاملة، غير أنه يندر وجودها على الاستراكا؛ وذلك لضيق رقعتها من جهة، ولأن الموضوع الذي كانت تحتويه مختصَر؛ فلا يحتاج إلى ديباجة من جهة أخرى.

والآلهة التي كان يُتضرَّع إليها في عهد الدولة الوسطى تتوقف على المكان الذي أُرسِلت منه الرسالة؛ إذ جرت العادة أن التضرعات تُوجَّه إلى الآلهة المحلية، ولا أدل على ذلك من أننا وجدنا في رسالات ورق اللاهون أن الآلهة التي كان يتضرع إليها الكاتب هي الآلهة المحلية لهذه الجهة، فمثلًا نجد أن الإله «سبك» (التمساح) قد ذُكِر سبع مرات بنعوت مختلفة، ولا غرابة إذا وجدناه يُذكَر هنا بكثرة في رسائل اللاهون، فإنها تقع في المقاطعة التي كان يُعتبَر فيها هذا الإله من أعظم الآلهة عبادةً (الفيوم)، ونجد كذلك ذكر الإله «حور» والإلهة «حتحور».

ونجد في خطابات اللاهون كذلك أن الآلهة الآتية كان يتضرع إليها لرعاية المرسل إليه، وهي: الإله «منتو» (سيد طيبة)، والإله «آمون» (رب عرشي الأرضين)، وكل الآلهة. (راجع Griffith, K. P.P. 80).

أما في الدولة الحديثة، فكانت الآلهة التي يتضرع إليها هي صور الإله «آمون» المختلفة، وثالوثه؛ أي (آمون)، والإلهة (موت) وهي الأم، والإله «خنس» وهو الابن. وكذلك كان يتضرع للإله «بتاح» والإله «آتون» (رب الأرضين في عين شمس) والإلهة «حتحور» (سيدة الغرب) وغير أولئك من الآلهة.

وفي خلال الدولة الحديثة نلاحظ أن البركات والنعم التي كان يلتمسها المرسل من الإله للمكتوب إليه في الديباجة، كان يُعبَّر عنها بصيغ مختلفة؛ ففي عهد الأسرة التاسعة عشرة كان المرسل يتمنى لمَن يرسل إليه: (١) «أن يكون في خير». (٢) أو «أن يعيش». (٣) أو «أن يسعد». (٤) أو «أن يعود إليه الشباب». (٥) أو «أن يكون في حظوة الإله»؛ فمثلًا يكتب: «أتمنى أن

تكون بخير، وأتمنى أن تعيش، وأتمنى أن تكون سعيدًا، وأن تكون في حظوة الإله ...» راجع (Leyden 360, 5-6).

وفي الديباجات المطولة تُذكَر تمنيات من جانب المرسل يتمنى تحقيقها للمرسل إليه. فيقول مثلًا: «أتمنى أن أراك بخير، وأن أضمك إلى صدري.» راجع (Leyden 361, 3). غير أن هذه الصيغة الأخيرة لا تجدها في خطابات قبل الأسرة الثامنة عشرة، وأسلوب التضرعات الذي يبتدئ بتمني الصحة من خصائص الأسرة التاسعة عشرة.

أما الذي يبتدئ بالصيغة الفعلية فنجده في الأسرتين العشرين والحادية والعشرين، مسبوقًا بلفظة التمني؛ فيكتب: أرجو لك (١) الحياة. (٢) السعادة. (٣) الصحة. (٤) حظوة الإله ... أو الرئيس ... (٥) أو حياة طويلة. (٦) أو عمرًا طويلًا مباركًا. كل هذه التعبيرات نجدها في صور مختلفة؛ إذ نجد أن الكاتب قد اختار بعضها ووضعها في رسالة واحدة، أو صاغها في تراكيب مختلفة.

وفي الرسائل النموذجية من عهد الدولة الوسطى نجد في الديباجة التعبير التالي:

أرجو أن تنال حظوة الملك ... وكل الآلهة كما يتمنى لك الخادم هناك (أنا).[٩]

راجع (Griffith. K. P. Vol. I. PP. 67. Letter I. P. 69, Letter 5) أو «أتمنى أن تكون في حظوة الملك ... المغفور له، كما يحب لك الخادم هناك.» راجع (Ibid 169, Letter 4). أو «أن تكون في حظوة الإله ... كما يحب لك الخادم هناك.» راجع ibid P. 68, Letter 2; P. 69.

ونجد في بعض الحالات أن هذه الصيغ يأتي بعدها: «إنها رسالة إلى السيد (داعيًا له) بالحياة والسعادة والصحة.» ثم يعقبها مباشرة موضوع الرسالة. راجع P. 67 .ibid, Letter I; P. 6. 8, Letters 2; 69 4, 5, 6, 7; P. 70 letters 9.

وفي حالات أخرى نجد أن هذه الجملة الأخيرة تكون بمفردها بمثابة ديباجة للرسالة حقيقية أو إنشائية، فتأتي مباشرة بعد الصيغة الافتتاحية. راجع (Ibid., P. 69. Letter 3; P. 80, Pap. VI 9; Pap V, I).

وهذه الصيغة قد ظهرت أكثر من مرة في صلب الرسالة، إلا أنها كانت تُستعمَل في هذه الحالة بداية لفقرة جديدة تبدأ موضوعًا جديدًا في الرسالة نفسها. راجع ibid,. P. 69 Letter 3; P. 71, Pap I, 7 ete. وأكثر الصيغ استعمالًا في هذا العصر الصيغة التالية: «إنها رسالة إلى السيد في حياة وسعادة وصحة، مخبرًا إياه أن كل أحوال السيد (فلان)، «داعيًا له» بالحياة والسعادة، والصحة سليمة ونامية في كل أماكنها، وذلك برعاية الآلهة (...)، وكل الآلهة المحليين الذين يحبونك؛ لما تفعله كل يوم، أيْ من يوم ولادتك إلى يومنا هذا، أو برعاية كل الآلهة كما يتمنى لك الخادم هناك (أنا).» راجع (K. P. Pap 17; P71). وأكبر دليل على أن هذه الصيغة كانت تقليدية، وقد فقدت مدلولها الأصلي، ما نجده في رسالة امرأة قد استعملتها في الكتابة إلى رجلٍ، ذاكرة له أخبارًا سيئة (راجع K. P. S. 75)، وقد ورد في الدولة الحديثة ما يشابه ذلك من إساءة استعمال مثل هذه الصيغ؛ حيث يقول الكاتب: «موضوع آخَر يسر سيدي ... إلخ.» ثم يذكر بعد ذلك أن ثلاثة من عبيده قد هربوا.

أما في عهد الدولة الحديثة، فكان أكثر الصيغ شيوعًا في الديباجة ما يأتي: «أتمنى أن تمنح الحياة والسعادة وطول الأمد والعمر الطويل المبارك، وأتمنى أن تمنح الحظوة في كنف الإله أو في كنف سيدك.» راجع Cerny L. R. L. P. 13, 4; L. R. L. 5. 7; L. R. L. 29, 8-9.

أما في عهد الأسرة الثامنة عشرة، فكانت التبركات يُعبَّر عنها بما يأتي: «أتمنى أن يمنحك هو أو هم الحظوة.»

الديباجة في الصيغ الحربية

نجد في بعض الرسائل النموذجية ومسودات الرسائل الحقيقية في عهد الأسرتين التاسعة عشرة، والعشرين، أن الديباجة كان يُعبَّر عنها كالآتي: «أتمنى أن يحفظ الفرعون سيدنا ...» راجع (Gardiner; L. E. M. 66, 11 ff etc). غير أنه قد لُوحِظ أن المتراسلين في مثل هذه الرسائل كانوا من رجال الجيش الذين هم في درجة واحدة، أو كان المرسل أقل درجة من المرسل إليه، غير أن هذه لم تكن قاعدة متبعة. راجع (Cerny. L. R. L. 41, 11 ff).

(٩) الصيغة الختامية

لم نجد فيما وصل إلينا من خطابات الدولة القديمة ما يدل على وجود صيغة ختامية للرسائل، ولكنَّا من جهة أخرى نجد معظم الخطابات الحقيقية، وبعضًا من الخطابات النموذجية التي تعزى إلى الدولة الوسطى لها صيغة ختامية تختلف في تركيبها حسب مراتب المتراسلين، وحسب موضوع الخطاب. وأقدم هذه الصيغ الختامية: «أتمنى أن يكون ما تسمعه حسنًا.» (راجع (Scharff. A. Z. 59, 20–51, Griffith, K. P. Vol. I. PP. 67 ff.

ولدينا ورقة مفيدة في بابها عُثِر عليها في اللاهون (راجع K. P.P. 76)، وهي تحتوي على خطاب والجواب عليه، وكلاهما طريف في أسلوبه؛ لأنه هجاء لا مدح، وقد يكون المقصود منهما هجاءً حقيقيًّا، أو مداعبة من صديقين؛ فالخطاب قد كُتِب بالمداد الأسود وجاء فيه: «رسالة يخبر فيها العبد الفقير السيد في حياة وسعادة وفلاح (؟)، ليأتي إلى بلدة «عنخ سونسرت» في اليوم العاشر من الشهر الرابع من فصل الحصاد، أنت يأيها الخبيث المضاعف «أتمنى أن تأتي في حياة وخير». وقد رد المرسل إليه على تلك الصيغة الختامية الفذة في بابها بالمداد الأحمر: «أرجو أن يكون كل كلامك خبيثًا برعاية الإله «سبك» (رب رهنت) وكل من يرمي بك إلى

الدمار برعاية روحه، وعلى ذلك فإن روح الكاهن «حكاك ببي» قد أرسلتك إلى جهنم أبد الآبدين، «أرجو أن يكون ما تسمعه ضارًّا وطاعونًا».»

فنرى من تلك الخاتمة أنه بدلًا من استعمال: «أتمنى أن يكون ما تسمعه حسنًا» استعمل: «أتمنى أن يكون ما تسمعه ضارًّا وطاعونًا»، ويلاحظ هنا أن الرد كان بالمداد الأحمر، وذلك علامة على الشر؛ لأن اللون الأحمر يمثِّل الإله «ست». ومما يبرهن على ذلك ما جاء في كتاب تفسير الأحلام، فإن تفسير الأحلام الدالة على الشر قد كُتِبت بالمداد الأحمر. راجع (Gardiner, "Hieratic Papyri in the British Museum", Vol. I. P. 9.) على أننا نجد في ورقة اللاهون رقم ٣ (راجع K. P. III, 4) أن الصيغة الختامية هي صيغة مختصرة من ديباجة الرسالة، وهي: «هذه رسالة إلى السيد له الحياة والسعادة والصحة؛ لأخبره أن كل أشغال السيد له الحياة والسعادة والصحة (نامية).» راجع (Griffith. K. P.P. 677). وقد عُثِر على الصيغة الختامية: «أتمنى أن يكون ما تسمعه حسنًا» في عهد الأسرة التاسعة عشرة، غير أن هذا الاستعمال يُعتبَر قديمًا. (راجع Leyden Letter. No. 361)، وفي هذه الحالة نجده مستعملًا بين أشخاص من درجة واحدة، أما الاستعمال الذي قد حلَّ محله في الدولة الحديثة فهو: «أتمنى أن تكون في صحة جيدة»، وكان يُستعمَل حينما يكون الكاتب والمكتوب إليه من درجة واحدة، أو يكون المرسل إليه أعلى درجة.

وهذه الصيغة نجدها في الرسائل التي تشتمل على ديباجة كاملة، بقطع النظر عن صورة الصيغة الافتتاحية التي تحتويها الرسالة على وجه عام، ولدينا رسالة نموذجية من أوراق «شستر بيتي» (راجع Chester Beatty V. verso 2, 1–6) تحتوي على ديباجة كاملة، وقد كان المنتظر أن نجد الخاتمة المعتادة، وهي: «أتمنى أن تكون في صحة جيدة»، ولكن لما كانت الرسالة من رئيس إلى مرءوس، فقد وجدنا أن الخاتمة قد عُبِّرَ عنها بعبارة: «خذ علمًا بها». وفي رسالة أخرى خاصة بمعاملات محضة نجد أن الكاتب قد اعتبر صيغة: «أتمنى لك

صحة جيدة» عبارة تقليدية تُوضَع قبل خاتمة الرسالة الحقيقية التي يُعبَّر عنها بعبارة: «خذ علمًا بها». (راجع Chester Beatty V. verso 1, 9–2, 5).

على أن هذه الصيغة قد نجدها في وسط الرسالة، ولكن في هذه الحالة تكون نهاية الفقرة، والخطاب يستمر بعدها، وفي هذه الحالة (راجع Cerny L. R. L. 15, 13, 38, 8, 21, 24) يلاحظ أن كل فقرة من الرسالة تعتبر كأنها وحدة منفصلة، وتكون لها أجزاؤها الخاصة المكونة لها، أي تكون لها صيغة افتتاحية مبتدئة بعبارة: «كلام آخَر» بدلًا من اسم المرسل وديباجة وموضوع وخاتمة.

ونجد أحيانًا أن صيغة: «أتمنى لك صحة طيبة» يتبعها «في بيت آمون» ملك الآلهة، (راجع Gardiner L. E. M, 10, 12) أو «في حضرة آمون» (راجع Berlin Ostraca No. 10628, 10630).

ونجد على وجه عام أن الرسائل المكتوبة على «الاستراكا» قد حُذِف منها الصيغة الختامية؛ وذلك طبعًا لضيق رقعتها كما أسلفنا، أو لأنها تُعتبَر بطاقات صغيرة تتبادل داخليًّا، وقد شذَّ من ذلك رسالتان كُتِبَتَا على الاستراكا. (راجع Berlin Ostraca No. 10628, 10630).

وأحيانًا نجد أن الخاتمة: «أتمنى لك صحة جيدة» تعقب الجملة: «إني مرسل إليك لأعلمك …» أو «إني مرسل إليك لأعلمك بمكاتبة الملك على يد حامل البريد الرسمي فلان.» راجع (Cerny, L. R. L., 49, 7 & Gardiner, L. E. M., 126, 5-6).

ويقابل هذه الصيغة صيغة أخرى كانت تُستعمَل بوجه خاص في عهد الأسرة التاسعة عشرة، وهي بلا شك صيغة ختامية ترجع جزئيًّا إلى الدولة الوسطى، وتنمُّ عن أدب في التعبير، وهي: «إنها رسالة لأحيط سيدي علمًا …» ويُلاحَظ هنا أنها كانت تستعمل في مخاطبة مَن هو أعلى مكانةً، وقد ذُكِر التاريخ مع هذه الصيغة الختامية في رسالتين. راجع (1) Anastasi IX,

Vs. 3 & L. E. M. 56. 1. أما في الدولة الوسطى فنجد الصيغة الختامية: «إنها رسالة لذلك السبب (الذي وضح في الخطاب).» (K. P. L V1, 1 V. s & V1. 9. Griffith K. P. PP. 82, 80).

غير أنها لم تكن تختم بها الرسالة عادةً في هذا العهد، بل إنها تستعمل أحيانًا بمثابة خاتمة لفقرة من الرسالة (راجع ibid Pap V1. 4, K. P. P 74). وفي نفس أوراق اللاهون (Pap. VI. 5 Griffith K. P.P. 81) نقرأ: «إنها رسالة لذلك» ويعقبها: «أرجو أن يكون سيدي في حياة وسعادة وصحة، حسن الاستماع.»

وفي رسائل المعاملات نجد أن الصيغة الختامية كانت: «خُذْ علمًا بذلك (أي محتويات الرسالة).»

وفي خلال الأسرة الثامنة عشرة نلاحظ أن الرسائل لم يكن لها خاتمة معينة كما كانت الحال في عهد الدولة القديمة.

وقد لوحظ أنه توجد مساحة بيضاء قبل الصيغة الختامية، سواء أكانت: «أتمنى لك صحة جيدة» أم «خذ علمًا بذلك»، وذلك في رسائل الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، غير أن هذا الفراغ لم يُرَ قطُّ في الرسائل النموذجية. وخلاصة القول أن الصيغتين: «أتمنى لك صحة جيدة»، «وخذ علمًا بذلك» كانتا الصيغتين الأساسيتين لختام المراسلات في عهد الدولة الحديثة، أما الصيغة: «إنها رسالة لأعلم سيدي ...» فإنها كانت خاصة بالأسرة التاسعة عشرة.

(١٠) تأريخ الرسائل

كان تاريخ الرسالة كما ذكرنا آنفًا يُوضَع في أول الرسالة في خلال الدولة القديمة، أما في عهد الدولة الوسطى فكان يُوضَع على ظاهر الرسالة عند نهاية العنوان، غير أنه كان يسبق اسم

الرسول (Griffith, K, P. P72, 74, 77). أما في عهد الدولة الحديثة فكان يُوضَع عادةً في نهاية الرسالة (Ghurab, ibid. P, 91; Gardiner L. E. M. 84, 4).

(١١) أسلوب تحرير الرسائل

لا شك في أن موضوع الرسالة كان يُصَبُّ في عبارات ومصطلحات تُنتخَب وفق قواعد وعوامل لا بد من مراعاتها، تتفق والعصر الذي كُتِبت فيه الرسالة، ومرتبة كلٍّ من المرسل والمرسل إليه، والعلاقة التي تربطهما، ثم الموضوع الذي كان يتناوله الكاتب. وهذه النقط قد تكلمنا عنها فيما سبق، وبخاصة فيما يتعلق بالصيغة الافتتاحية، والديباجة، والصيغة الختامية، وكذلك أساليب موضوع الرسالة ومحتوياتها.

بعض أساليب خاصة بالرسائل

هناك أساليب خاصة نجدها مكرَّرة في الرسائل كما ذكرنا، غير أنها تختلف باختلاف الموضوع الذي يتناوله الكاتب.

الأجوبة: لقد وصلنا جواب من عهد الملك «اسيسي» أمر بتحريره إلى أحد أشراف حاشيته «سنزم اب» ردًّا على رسالة له، وقد ابتدأه بما يأتي: «إن جلالتي قد شاهدت رسالتك هذه التي أرسلتها لي لتخبرني …» وكذلك الجواب الخاص بالجريمة المنسوبة إلى النبيل «سابني» من عهد الدولة القديمة، فإنها كانت جوابًا على رسالة سابقة، وقد قال فيها بعد الصيغة الافتتاحية: «إني أنا أخوك قد وجَّهتُ عنايتى الخاصة للموضوع الذي أرسلت لي عنه.» (راجع Smithers, J. E. A, Vol. 28, P. 16). ومما يؤسف له أن قلة الوثائق في هذا العهد لا تمكننا من معرفة الطريقة التي كان يفتتح بها موضوع الرسالة في ذلك العهد، على أن الجواب الذي أرسله «بيبي الثاني» إلى «حرخوف» يبتدئ بأسلوب مشابه للجواب الملكي السابق؛ إذ يقول: «لقد علمت موضوع خطابك هذا.» (راجع Breasted, “Ancient Records”,

Vol. I P. 160). ونجد أن الكاتب وهو يتكلم عن بعض ما جاء في تلك الرسائل الملكية يستعمل أمثال الجمل الآتية:

«لقد قلت في جوابك هذا» و«لقد قلت لجلالتي» ... إلخ.

أما في عهد الدولة الوسطى فلدينا رسالة تبتدئ بهذه العبارة: «حقًّا فإنه بخصوص ما قد أرسلت لي عنه». (راجع Grifffith, K. P. Vol. I, P. 72)، وفي صلب الرسالة نجد: «لقد سمعت بالأشياء التي ترسل عنها.» (راجع Pap XII, I, ibid, P. 79).

أما في عهد الدولة الحديثة فنقرأ في أجوبة الرسائل التعبير الآتي: «لقد سمعت كل الأشياء التي أرسل لي عنها.» وحرفيًّا: «القول الذي عملته أو الرسالة التي عملتها قائلًا ...»

ثم يأتي بعد ذلك اقتباس من الرسالة الأصلية، وينتهي هذا الاقتباس بالجملة التالية: «هكذا قلت»، وهذه الصيغة كانت تُستعمَل عادةً في نهاية عصر الرعامسة. (راجع Cerny, L. R. L. 9, 10; 34, 11).

ونجد أحيانًا أن الكاتب يختصر صيغة الاعتراف بوصول الرسالة في جوابه بقوله: «لقد سمعت» Gardiner L. E. M. 123, 8.، وهذه الصيغة قد تُكتَب كذلك في صلب الجواب حينما يذكر المرسل إليه أشياء أخرى قد وصلته في رسالات سابقة.

تعليمات

نجد في الرسائل أن الكاتب كان يعبِّر عن الأوامر التي يريد إرسالها بطرق مختلفة تتناسب مع المرسل إليه، فنجد مثلًا في الدولة الوسطى أن الأوامر قد صيغت في رسالة واحدة كالآتي: «يجب أن ترسل إليَّ رسالة بخصوصها»، «إنه يجب عليك أن ترسل لي رسالة»، «يجب أن ترسل لي بخصوصها». (راجع Griffith, K. P, P. 74 Pap. IV, 4.).

وكذلك كان يكتب: «مُرْ بأن يحضر إليَّ». (راجع K. P, P. 78)، وفي أخرى «مُرْ بأن يؤتى إليَّ» و«مُرْ بأن يحضر إليَّ». (راجع ibid P. 82)، وهذا الأمر الأخير هو من رئيس لمرءوسه.

أما في عهد الدولة الحديثة؛ فقد كان الكاتب يتجنب الأوامر المباشرة، ويعطي تعليماته كما يأتي: «حينما تصل إليك رسالتي ينبغي أن تفعل كذا وكذا.» (راجع Amarna Letters II, 15, Cairo No, 58058).

الالتماسات

كانت الملتمسات في رسائل الدولة القديمة يُعبَّر عنها بطريقة طبيعية مباشرة كما يشاهد في جواب «حرخوف»، ولكن بظهور الدولة الوسطى ظهرت عبارات مختارة كالآتية: «إن الخادم هناك (العبد الفقير) يرسل رسالة بخصوص أن يأمر (سيدي) بأن يعطي …» (راجع Griffith, K. P., P. 75, Pap IV, 6).

وكذلك نجد التعبير التالي: «إن الخادم هناك يرغب أن يعرف …» (راجع Griffith K. P.P. 77). أو «إنها رسالة إلى سيدي، له الحياة والصحة والسعادة؛ قصد أن يجعل قلبه يهتم بي …» (راجع ibid, P. 72, 79).

أما في عهد الدولة الحديثة فكان يُعبَّر عن الالتماس كما يأتي: «واجعل التفاتك إلى …» وكان ذلك التعبير يُستعمَل عندما يريد الكاتب أن يطلب إلى المكتوب إليه تنفيذ شيء في أدب. (راجع Cerny L. R. L. 14, 4, 20, 17)، وكذلك وجدنا التعبير التالي: «لا تكن متوانيًا في …» (راجع ibid 14, 11).

اهتمام المرسل بالمرسل إليه

كان يُعبَّر عن هذه العاطفة في عهد الدولة الوسطى بالطريقة الآتية: «إنها رسالة إلى السيد له الحياة والسعادة والصحة؛ ليأمر بالكتابة للخادم هناك (العبد الفقير)، فيما يختص بحياة وسعادة وصحة سيدي (الذي أرجو له الحياة والسعادة والصحة).» راجع Griffith, K. P, P. 75, Pap. L, VI ومن الطريف أننا نجد في رسالة أخرى أنه قد ذكر بعد الصيغة السابقة: «لأن قلب الخادم هناك (العبد الفقير) يكون فرحًا عندما يسمع بحياة وسعادة وصحة سيده، الذي يرجو له الحياة والسعادة والصحة.» (راجع ibid, P. 81). والواقع أن مثل هذا الاهتمام والدعاء نجده في المكاتبات العربية، غير أنه يُوضَع في صورة مترادفات أخرى.

أما في عهد الدولة الحديثة فنقرأ: «لا تتوانَ في أن ترسل إليَّ عن حالتك.» (راجع Cerny L. R. L. 15, 12-13).

وقد يضاف إلى ذلك: «لأني مشغول البال من جهتكم.» (Gardiner, L. E. M, 68, 1-2).

وكان الرد على ذلك: «لا تشغل قلبك من جهتي.» (راجع ibid 7, 4)، أو «إني في صحة اليوم، أما الغد ففي يد الله.» راجع (ibid 16, 3)، وفي رواية أخرى لهذه الصيغة من الأسرة التاسعة عشرة نقرأ: «نحن بصحة اليوم، غير أننا لا نعرف ما ستئول إليه حالنا في الغد.» (راجع Leyden, No. 360).

(١١-١) رءوس فقرات جديدة في الرسالة

كان الكاتب المصري عندما يريد أن يبتدئ موضوعًا جديدًا في صلب رسالته يستعمل لذلك ألفاظًا وأساليب خاصة، ففي الدولة القديمة كان يستعمل لفظة «والآن» أو «وبعد» أو «وفضلًا عما ذُكِر». راجع Smithers, J. E. A. Vol. 28, P. 16, Gardiner J. E. A. Vol. B P. 75. أما في عهد الدولة الوسطى فإن التعبير الذي ذكرناه فيما سلف وهو: «إنها رسالة إلى سيدي له الحياة والسعادة والصحة» كان غالبًا يُستعمَل في بداية فقرة جديدة، كما كان يُفتتَح

به الرسالة. (راجع Griffith, K. P. PP. 67, ff) ونجد في بعض الرسائل من ذلك العهد أن الرسالة كانت تُفتتَح بكلمة: «تأمل». (راجع ibid P. 71–75).

أما في عهد الدولة الحديثة فكانت تُستعمَل العبارات التالية: (١) «كلام آخَر». (راجع Cerny L. R. L. 36, 11). (٢) «رسالة أخرى لسيدي». Anastasi IX; 1. (٣) «إنها رسالة لأحيط بها علم سيدي …» وهذه الصيغة الأخيرة نجدها في الرسائل النموذجية من عهد الأسرة التاسعة عشرة، وفي رسالة من عهد الأسرة العشرين. (راجع Gardiner, L. E. M. 115, 13). (٤) «لقد أحضرت إليك هذه الرسالة المكتوبة قائلة …»

وهذه الصيغة أصبحت لا تُستعمَل في عهد الأسرة العشرين. راجع Cairo No 58055, 2.

تعبير كاتب الرسالة عن نفسه

كان الكاتب يعبِّر عن نفسه في تواضُع بالعبارة الآتية «العبد هناك»، بدلًا من كلمة «أنا»، وهي ما تقابل في التعبير العربي (العبد الفقير)، وقد كان ذلك خاصًّا بالدولتين القديمة والوسطى كما سبق ذكره.

أما في الدولة الحديثة فقد كان نادر الاستعمال (راجع قصة المخاصمة بين حور وست).

على أنه لدينا رسالة من عهد الدولة الوسطى من رجل إلى امرأة لم يستعمل في مخاطبتها هذا التعبير، وقد يرجع سبب ذلك إلى أن الرجل كان لا يستعمله عند مخاطبة المرأة، أو إلى أنها كانت أقل منه درجةً في الهيئة الاجتماعية (راجع Griffith, K. P, pp. 72, 73). وقد استعمل الكاتب في رسالته العبارة التالية متكلِّمًا عن نفسه «الشريف هنا»، وفسَّرها بعد ذلك في صلب الخطاب بلفظة «أنا»، وهذا يدل بطبيعة الحال على أن الرسالة كانت من رئيس عظيم إلى مرءوس صغير. (راجع ibid P. 82, Pap. LXV, 1).

هذه نظرة عامة عن الرسائل المصرية من أول نشأتها حتى نهاية عصر الرعامسة، وقد توخَّيْنا في ذلك الاختصار حتى لا نخرج عن الغرض الذي نرمي إليه، وهو أن نضع أمام القارئ صورةً موجزةً عن تاريخ هذه الرسائل بقدر ما وصل إلينا من المعلومات، وسنورد فيما يلي بعض النماذج من هذه المراسلات، وسنوجِّه عنايتنا فيما سنورده هنا إلى الرسائل التعليمية والنماذج الإنشائية التي كان يهتم بها المصريون في عهد الدولة الحديثة، وسنضرب صفحًا عن رسائل المعاملات والرسائل الأخرى المملة التي لا يستفيد منها القارئ إلا شيئًا من الوجهة الاجتماعية، وسنتكلم عن ذلك في موضعه من تاريخ مصر القديمة وبخاصة في عهد الدولة الوسطى. هذا إلى أننا قد استعنا بما وصل إلينا من كل العصور في الشرح الذي وضعناه بين يدي القارئ، والذي يمكن تطبيقه على الأمثلة التي سنوردها هنا، والأمثلة التي سنضعها أمام القارئ تنقسم خمسة أقسام، وهي:

(١) تعاليم وتحذيرات للتلاميذ.

(٢) رسائل حقيقية استعملت نماذج إنشائية للتلاميذ.

(٣) رسائل نموذجية من إنشاء المعلمين.

(٤) تهنئات إلى المعلمين والرؤساء.

(٥) منافسة أدبية.

(١٢) أمثلة على الرسائل

الحياة في المدرسة[١٠]

ينصح الوالد في هذه الرسالة ابنه بعد أن أدخله المدرسة أن يثابر على تحصيل العلم ليكون كاتبًا، والكتابة أعظم الحِرَف في كل زمان ومكان في مصر القديمة؛ إذ بها يمكن الإنسان أن

يرتقع إلى أعظم المناصب الحكومية، ثم نراه يضع أمام ابنه القواعد التي يجب أن يسير على نهجها حتى يصل إلى غرضه، ثم هو يحذره التراخي في اتباع نصائحه، وإلا كان العقاب الجثماني جزاءه، فيقول:

إني أضعك في المدرسة مع أولاد العظماء لأربيك، ولأجعلك تتعلم هذه الحرفة التي تعظم صاحبها.

انظر إني أقصُّ عليك كيف يكون حال الكاتب حينما يكون ... استيقظ، في مكانك، إن الكتب قد وُضِعت أمام زملائك، ضع يدك على ملابسك وانظر إلى نعليك (؟).

وعندما تأخذ (فرضك) اليومي ... لا تكن كسلان ...[١١]

... واقرأ بجد في الكتاب، ولا تدع كلمة تُسمَع عندما تحسب في صمت (أي حساب عقلي) ...

اكتب بيدك، واقرأ بعينك، واستشر مَن هم أنبه منك (؟)، ولا تتراخ ولا تُمْضِ يومًا في الكسل، أو يلحق الويل أعضاءك! واعمل على فهم طريقة أستاذك، وأصغِ إلى تعاليمه ...

... انظر إني معك كل (يوم؟) احذر أن تقول ...؟

كن مجتهدًا

وهنا يحثه على الاجتهاد، ويغريه بما ينتظره من المستقبل إن اجتهد، ويخوِّفه العقاب إن أهمل، وكنَّى عن أثر الضرب المفيد في التعليم كناية ظريفة؛ فجعل أُذُن الولد مركبة في ظهره، وضرب له الأمثلة على أن التعليم أصبح يصل إلى الحيوان والطيور، والإنسان لا شك أجدر به منهما، قال:

(١) «كن مجتهدًا»:[١٢] يأيها الكاتب لا تكن كسلان، لا تكن كسلان، وإلا فإنك ستُعاقَب عقابًا صارمًا، ولا تجعلن قلبك ينغمس في الملاهي، وإلا فمصيرك الخراب، واكتب بيدك، واقرأ بفمك، واستَشِرْ مَن هم أعلم منك.

وحصِّلْ لنفسك وظيفةَ حاكمٍ حتى يمكنك أن تصل إليها عندما تصير مُسِنًّا، والكاتب الذي ينبغ في حرفته سعيدٌ، فهو أستاذ تربية. وثابِرْ كل يوم، وبذلك ستتفوق فيها (الكتابة أو معرفة الكتابة)، لا تُمْضِ يومًا في الكسل أو تضرب، وإنَّ أُذُنَ الولد على ظهره فهو يسمع حينما يضرب. واجعل قلبك يصغي إلى كلماتي؛ فإنها ستكون نافعة لك. وإن «الكايري»[١٣] يُعلَّم الرقص، والخيل يُكبَح جماحها، والحدأة (؟) تُوضَع في عش (؟) وجناحي الصقر يُشَدَّان[١٤] (أي لأجل أن يصير مدرَّبًا). ثابِرْ في طلب النصيحة ولا تهملها، لا تمَلَّنَّ الكتابة، دَعْ لبَّكَ يُصْغِ إلى كلماتي وستجدها مفيدة.

وفي هاتين الرسالتين يبيِّن أنه بذل المستطاع لتعليمه، وجلب له معلم صبيان بالليل، وآخَر بالنهار؛ حتى يقوى على الدرس والتحصيل، فبدا أنه أقل استعدادًا من الأسود في ترويضها، والطيور في تعليمها، والخيل في تدريبها، وأن النصيحة غير مجدية فيه، والضرب لا يردعه عن تهاونه، فمثله مثل الحمار العنيد أو العبد الغفل الذي لم يصقله الثقاف ولا التهذيب. قال:

(٢) «كن مجتهدًا»:[١٥] لا تكن رجلًا غبيًّا لا عِلْمَ عنده.

ففي الليل يدرِّس لك واحد، وبالنهار يعلِّمك آخَر، غير أنك لا تصغي إلى التعليم، بل تعمل حسب ميولك. إن «الكايري» يصغي إلى الكلمات حينما يُجلَب من «إثيوبيا»، والأسود تُدرَّب، والخيل يُكبَح جماحها، ولكنك لا يشابِهُكَ إنسان في كل الأرض، أرجو أن تفطن لذلك.

(٣) «كن مجتهدًا»:[١٦] إن قلبي قد سئم إعطاءك دروسًا (أكثر مما أعطيتك)، ويمكنني أن أضربك مائة ضربة، ومع ذلك فإنك تلقي بها جميعًا ظهريًّا، وإن مثلك عندي كحمار قد ضُرِب

ولكنه عنيد (؟) ... وكذلك مثلك عندي كمثل عبد أسود يزمجر، قد أُحضِرَ مع الجزية.[١٧] إن الحدأة تُوضَع في العش، وجناحاها يوثقان، وإني لجاعِلك تلعب دور الرجل يأيها الولد الرديء، أرجو أن تفطن لذلك.

ونرى الوالد في هذه الرسالة يزهِّد ابنه في معاقرة الخمر ومخادنة الحسان، ويصوِّر لابنه حاله عندما يكون ثملًا مترنحًا يخيف الناس، ويخرج عن جادة العقل فيقصف ويلهو ويتمرغ في التراب، ويتمسح بالقيان، ويصدح مع الصادحات، ويذهب بوقاره ما يصدر عنه من لغو ومن تأثيم، فتراه يقول له:

(٤) «الجعة والعذارى»:[١٨] لقد حُدِّثْتُ أنك هجرت الكتابة، وأنك أسلمت نفسك (؟) للملاذ، وأنك تتسكع من شارع إلى شارع حيث رائحة الجعة. إلى التلف؟ إن الجعة تفزع الناس (منك) وتودي بروحك إلى الدمار (؟)، ومثلك كمثل سُكان السفينة المكسور الذي ينقاد إلى كلا الجانبين، وكالمقصورة من غير إلهها، وكالبيت من غير خبز. وقد وُجِدتَ تتسلق جدارًا وتكسر الـ ... وقد فرَّ الناس من أمامك؛ لأنك تُنزِل بهم جروحًا، فليتك كنت تعلم أن الخمر إثم، وأن تُقسِم ألَّا تشرب «الشدة»،[١٩] وألا تسلم قلبك للزجاجة (؟)، وأن تنسى شراب «تِلِك».[٢٠]

لقد عُلِّمتَ كيف تغني على القيثارة، وتضرب على الأرغول، وتغني على كنتور (العود) مترنمًا، وتغني على النزخ،[٢١] وتجلس في البيت، وتحيط بك البنات، ثم تقف وتعمل ... أنت ... وتقعد أمام قَيْنَة، وترش بالعطور وتيجانك المصنوعة من زهر «أشت بنو» تتدلى حول نحرك، وتطبل على جوقك، وبعد ذلك تسقط على بطنك وتلطخ بالأوساخ ...

وهنا يُري الوالد ابنه أن مَن حام حول الحمى يُوشِك أن يواقعه، وأن التسكع في الطرقات يجر إلى الزلل، ويضرب له الأمثال على أن مَن عانَى التعليم في صغره، يدرك ما تصبو إليه نفسه في كبره، فقال:

(٥) «التلميذ في الأغلال»:[٢٢] لقد سمعت أنك تستسلم للملاذ، لا تولين ظهرك إلى كلماتي، هل تسلمن عقلك لكل أنواع الأشياء الصماء؟ …

سأجعل قدمك تزل (؟) حينما تنزلق إلى الشوارع (أي تتسكع في الشوارع)، وستُضرَب بسوط من جلد فرس البحر.

ومهما يكن من أمر فإني رأيت كثيرًا من أمثالك قد جلسوا في قاعة الكتابة، ولم يقولوا «بالله» (من غير أن يقسموا): «بأن الكتب (لا تساوي) شيئًا مطلقًا.» ومع ذلك فإنهم صاروا كُتَّابًا، وذكر الواحد (الملك) أسماءهم؛ ليرسلهم في مهمات.

وإذا نظرت إليَّ حينما كنتُ صغيرًا مثلك، وجدتني مضَّيت وقتي والأغلال في يدي، وقد شدت أعضائي بها، وقد مكثت بها مدة ثلاثة شهور، وسُجِنت في المعبد، في حين أن والدي ووالدتي وأخي كانوا في الأرياف، ولما فُكَّتْ عني (الأغلال)، وأصبحَتْ يدي طليقة، فُقْتُ ما كنت عليه فيما مضى، وكنت أول زملائي وتفوَّقْتُ عليهم في الكتب.

افعل ما أقول وسيكون جسمك سليمًا وستجد في الصباح[٢٣] أن لا أحد يعلو عليك.

(المتن هنا مضطرب غامض، ويظهر من خلاله أن الوالد يضرب لابنه الأمثال على تخبُّطه في حياته، وعلى أن نتيجةَ مثل ذلك الخيبةُ والفشل). قال الوالد:

(٦) «كن مجتهدًا»:[٢٤] حُدِّثت أنك تهجر الكتابة، وأنك تسافر وتهرب، وأنك تهجر الكتابة بقدر ما تستطيع قدماك من السرعة، وأنك في هذا كحصانين … (ومَن يقرأ هذا التعبير يثب إلى ذهنه «فرَسَا رهان» التعبير العربي، ولكن لم يكن في مصر في ذلك الوقت سباق للخيل؛ إذ كانت الخيل تجر العربات فقط)، وقلبك يرفرف، وإنك لكالطير المسمى (إخي)، أذنك … وإنك لكالحمار حينما يُضرَب، وإنك لكالغزال الشارد.

ولكنك لست بصائد الصحراء ولا «ماتوي» الغرب.

ولكنك لست بالأصم الذي لا يقدر أن يسمع فيكلمه الإنسان باليد (بالإشارة)، وإنك مثل رفيق ربَّان ماهر في السفينة،[٢٥] حينما ينوب عن زميله في قيادتها ويقف في المقدمة (؟) وهو لا يلتفت إلى الرياح العكسية، ولا يبحث عن الموجة (أي لا يلتفت إلى التيار)، فإذا ما انفلت الحبل الخارجي الـ ... الحبل يعلق حول رقبته وعندما يشد الحبل ...

كل الكلام الآتي مبهم، ونعلم أنه يقطف الأزهار على الشواطئ، ومن الجائز أن هناك وصفًا مضحكًا لملابسه: شعره المستعار بخصلته المجعدة التي تضرب إلى قدميه من صنع «إثيوبي» ... إلخ.

والخاتمة هي: «وله أذن صماء في يوم[٢٦] الحمار، وهو مجداف محرك في يوم السفينة، وسأفعل كل ذلك له[٢٧] إذا ولى ظهره إلى حرفته.»

وفي الرسالة الآتية يرغِّب الوالد ابنه عن الفلاحة بذكر الجوائح التي تجتمع على الفلاح فتحرمه ثمار كَدِّه من فادح الضرائب ومختلف الآفات، ومن ضروب الإهانات التي تقع عليه، ولا يسلم منها زوجه وبنوه. ثم يرغِّبه في الكتابة ويزيِّن له الاشتغال بها فيقول:

(٧) «لا تكن فلاحًا»:[٢٨] لقد أُخبِرْتُ أنك تهجر الكتابة وتسترسل في الملاذ، وأنك قد صمَّمت على العمل في الحقل، وحولت ظهرك عن كلمات «الله».[٢٩] ألم تفكِّر كيف تكون حال الفلاح حينما يسجل الحصاد،[٣٠] وقد أكل الدود نصف الغلة والتَهَمَ فرس البحر ما تبقَّى. وعندما يزخر الحقل بالفيران، والجراد يجتاحه، والماشية تلتهم، والعصافير تسرق، فالويل للفلاح وقتئذٍ (؟).

والبقية الباقية في الجرن يأتي اللصوص على آخِرها، الـ ... من النحاس محطمة، والحصانان يموتان في الدرس والحرث.

والآن يرسو الكاتب إلى الشاطئ، ويأخذ في تسجيل المحصول، والحرَّاس يحملون عصيًّا، والعبيد يحملون جريد نخل، ويقولون: «هات غلة.» «ليس هناك غلة.» وعندئذٍ يُطرَح أرضًا ويُضرَب، ثم يُوثَق ويُلقَى في الترعة ويُغمَس في الماء منكسًا، وزوجه تُوثَق أمامه وتُوضَع أطفاله في الأغلال (؟)، وجيرانه يولون الأدبار، وبعد ذلك تطير غلتهم. أما الكاتب فإنه يدير عمل كل الناس، وليس عليه ضريبة؛ لأنه يدفع جزيته بالكتابة، وليس عليه جزية، أرجو أن تفطن لذلك.

وفي هذه الرسالة الآتية يرفع من شأن الكاتب كعادته مبيِّنًا نفوذه ومنزلته، ويغض من شأن الجندي فيكشف عمَّا يُلاقِيه من عنتِ الرؤساء، وهم كثيرون يتدرجون في الرتبة ويتباينون فيها، وإن اتفقوا على تكليف الجندي بشاقِّ الأعمال، وهو لذلك ينأى بابنه عن أن يتخذ الجندية حرفةً له.

(٨) «لا تكن جنديًّا»:[٣١] «ضع الكتابة[٣٢] في صدرك حتى تقي نفسك أي عمل شاق، وتكون حاكمًا ذائع الصيت، أَلَا تذكر الفرد الخامل المغمور الاسم؟ إنه سيحمل كالحمار، حينما يقف أمام الكاتب الذي يعرف قيمته (؟).

تعالَ، ودعني أخبرك سوء حال الجندي بالنسبة لمرءوسيه العديدين: القائد، فقائد الرديف، «والسكت الذي على رأسهم»، وحامل العلم، وضابط الصف، والكاتب، وضابط الخمسين، وقائد عساكر «أداي» (الذين يُستخدَمون خاصة في الخارج)، وهم يروحون ويغدون في حاشيتهم في القصر الملكي ويقولون: «دعهم يعرفوا العمل.»

ويستيقظ بعد مضي ساعة (من نومه) ويُسَاق كالحمار، ويشتغل إلى أن تغيب الشمس تحت ظلام الليل، فيصير جوعان وجسمه … وكأنه ميت ولا يزال حيًّا.

وفي الرسالتين التاليتين مقابلة بين الكاتب والجندي، رفع فيهما منزلة الكاتب وهوى بمنزلة الجندي، وبيَّن ما يلحقه من عنت وإرهاق وأذى واحتقار؛ فقال:

(٩) «لا تكن جنديًّا»:[٣٣] آه، ماذا تعني بقولك: «إنه يظن أن الجندي أسعد حالًا من الكاتب؟» دعني أحدِّثك عن حال الجندي الذي يضرب غالبًا، حينما يؤتى به وحينما لا يزال ... طفل؛ ليُحبَس في المعسكر (؟)، ثم إنه يُضرَب ضربة موجعة على جسمه، وضربة محطمة على عينيه، وضربة تكبُّه على جبينه، ورأسه يشج بجرح، وهو يطرح أرضًا ويُضرَب كوثيقة (كما تُضرَب ورقة البردي عند صنعها!)، وهو يكسر ويجرح بالجلد. تعالَ، دعني أخبرك كيف يذهب إلى سوريا، وكيف يسير على الجبال، وخبزه وماؤه على كتفه كحمل الحمار، ويجعلون رقبته مثل ... مثل رقبة الحمار، وفقرات ظهره قد حنيت، وشربه ماء آسن، وإذا أعفي من السير كُلِّفَ بالحراسة، وعندما يصل إلى الأعداء يكون كالطائر في الأحبولة، وليس في جسمه قوة، وإذا عاد إلى مصر كان كالخشب الذي نَخِر بتأثير السوس؛ فهو مريض طريح الفراش، ويؤتى به ثانيةً على حمار، وملابسه تُسرَق، وخادمه يولي الأدبار. يأيها الكاتب إنناثا[٣٤] لا تعتقد أن الجندي أسعد حالًا من الكاتب.

(١٠) «لا تكن جنديًّا»:[٣٥] ولِّ وجهك شطر الكتابة نهارًا، واقرأ ليلًا؛ لأنك تعلم ماذا يفعله المليك فيما يمس كافة إجراءاته، فكل رعاياه تعرض ويؤخذ أحسنهم، فالرجل يصير جنديًّا، والشاب يصبح مقترعًا، والولد يُربَّى فقط ليُنتزَع من حضن أمه، وإذا بلغ أشده حُطِّمَتْ عظامه.

هل أنت حمار يُسَاق لأنه لا عقل له في جسمه؟!

اكتسب لنفسك هذه الحرفة العظيمة، مهنة الكاتب، فإن دواتك وقرطاسك يكونان مبتهجين ومفعمين بما يملكان، وتكون فرحًا كل يوم، أرجو أن تفطن لذلك.

وهنا حمَلَ الوالد على الفارس الذي يسوس جياد العربات، مبيِّنًا كدحه في سبيل أداء واجبه، وما ينفقه ثمنًا للعربة والعجلات، ثم سوء ما يلاقيه من الجزاء بعد إنفاق القوة والوقت والمال. ومن المدهش أن هذه كانت أشرف مهنة في خلال الدولة الحديثة، وبخاصة في عهد الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة؛ إذ كان لا يحترفها إلا أولاد علية القوم وأهل اليسار؛ وذلك لأن الخيل كانت قد جُلِبت للبلاد حديثًا، وكان لا يستعملها إلا الملوك وأولادهم وأصحاب النفوذ، ولا أدل على ذلك من أن «تحتمس الثالث» كانت له إصطبلات خاصة لتربية الخيل وتعليم ابنه «امنحوتب الرابع» سياستها وتدريبها، والغريب في كل ذلك أن القوم كانوا لا يمتطون ظهورها، بل كانوا يستعملونها في جر العربات وحسب.

(١١) «لا تكن فارسًا»:[٣٦] وطِّنْ نفسك على أن تكون كاتبًا؛ حتى يمكنك أن تُدِير جميع الأرض، تعالَ ودعني أحدثك عن حرفة تعسة، وهي مهنة فارس العربة (الخيَّال)، فإنه يُوضَع في الإصطبل (الملكي) بوساطة والد أمه (لأنه من أسرة طيبة) ومعه خمسة عبيد، رجلان منهم يساعدانه (؟).

وهو يهرول ليحضر جيادًا من الحظيرة في حضرة جلالته، وحينما يحصل على خيل جميلة يصير فرحًا مرحًا، ويأتي بها إلى بلده ويطؤها بالقدم (المدينة) بلذة، وما أسعده حين يطؤها بالقدم … غير أنه لا يعرف للآن ما قُدِّرَ له، وهو ينفق ماله الذي ورثه من والد أمه ليحصل على عربة، عجلتها تكلِّفه ٣ دبن، والعربة نفسها تتكلف ٥ دبن،[٣٧] ثم يسرع ليمشي بالقدم من عليها، ثم يعدُّ نفسه ليلبس حذاء … ثم يأخذ نفسه ويضع رجليه في نعلين (؟) ثم يرمي بها (العربة) في الغابة، وتُجرَح قدماه بالنعلين (؟) ويُمزِّق الشوك جلبابَه.

وعندما يأتي الملك ليستعرض الجنود فإنه يكون معذبًا عذابًا أليمًا (؟)، ويضرب وهو على الأرض مائة جلدة.

ولا يزال صاحبنا هنا يعيد ويبدي في الكتابة، فهي هدفه الذي يسعى ليصل ابنه إليه، فلا غرابة إن رفعها على أنقاض الحرف الأخرى، وخصَّ بهجومه في هذه المرة الجندي والكاهن والخبَّاز، وإن لم يسلم منه أضرابهم من أصحاب المهن الأخرى، قال:

(١٢) «لا تكن جنديًّا ولا كاهنًا ولا خبَّازًا»: كن كاتبًا تنجُ من السخرة، وتُصَنْ من كل عمل، فهو معفى من العزق بالفأس، وليس عليك أن تحمل المكتل، إنها تخلصك (مهنة الكاتب) من الجدف بالمجداف، وإنها خالية من الكدر، ليس فوقك عدة رؤساء ولا جم غفير ممَّنْ هم أرقى منك.

وسرعان ما يخرج الرجل (غير الكاتب) من فرج أمه حتى يُطرَح أرضًا أمام رئيسه، فالولد يصير تابعًا للجندي، والشاب يصبح مقترعًا، والرجل الكهل يصير فلَّاحًا، والمدني يصبح سائسًا، والأعرج (؟) يصير بوَّابًا، والقصير النظر؟ يطعم الماشية، والدجاج يذهب على الـ ... والسماك يقف في البلل، وملاحظ الإصطبل يقف عند العمل، على حين أن جياده تُترَك في الحقل،[٣٨] ويرمي بالغلة إلى زوجه وبنته على الشاطئ (؟)، وإذا تركته جياده وهربت فإنه (؟) يجند في فرقة «أواي» (الرجَّالة).[٣٩]

والجندي حينما يذهب إلى سوريا يذهب من غير عصا ولا نعلين، ولا يعلم إذا كان سيموت أو يبقى حيًّا بسبب الأسود المتوحشة (؟)، والعدو يرقد مختبئًا في عشب، أو يقف مستعدًّا للمعركة، والجندي يمشي ويتضرع لربه: «تعالَ إليَّ وخلِّصني!»

والكاهن يقف هناك كالفلاح، والكاهن المطهر يشتغل في الترعة ...[٤٠] ويبلل في النهر، ولا فرق عنده بين الشتاء والصيف، أو إذا كان الجو عاصفًا أو ممطرًا، والخبَّاز يقف ويعجن، وعندما يدس رأسه في الفرن ليضع الخبز على النار يكون ابنه ممسكًا بقوة على قدميه، وإذا اتفق أنه أفلت من يد ابنه سقط في اللهيب، أما الكاتب فإنه يدير كل عمل في هذه الأرض.

والوالد في هذه المرة يريد أن يضمن لابنه نوعًا من الترف لا يجده إلا عند الموظفين، فالموظف سيد يُقدَّم له الماء ويُصنَع له الخبز، وليس عليه إلا أن يأمر فيُطَاع، فهو قطب المجالس وعماد الدوائر؛ ولذلك يزيِّن لابنه أن يكون موظفًا حتى يقضي وقته بين الدفاتر والمحابر، وينجو من الأعمال الأخرى الشاقة المرهقة.

(١٣) «كن موظفًا»:[٤١] لا تدعن قلبك يهتز كورقة أمام الريح ... ولا تُسلمن قلبك للملاذ؛ فإنها بكل أسف لا تفيد، ولا تؤدي للإنسان أي خدمة ... وحينما يشتغل (بيده) وكان من نصيبه أن يخدم مجلس الثلاثين[٤٢] حرم القوة والاستجمام؛[٤٣] لأن العمل الشاق لا ينقطع عنه، ولا خادم يقدِّم له الماء، ولا امرأة تصنع له الخبز، على حين أن إخوانه[٤٤] يعيشون كما يرغبون، وخدمهم يشتغلون بدلًا منهم،[٤٥] ولكن الرجل الذي لا إحساس عنده يقف هناك ويشقى، وعيناه تنظران حسدًا إليهم.[٤٦] من أجل ذلك تَبَصَّر أيها الولد الشقي، أيها العنيد الذي لا يريد أن يصغي حينما يُتحدَّث إليه؛ أسرع إلى تلك الحرفة بسرور ...[٤٧] إنها هي الصناعة التي تدير كل مجالس الثلاثين[٤٨] ورجال حاشية الدائرة الملكية.

أرجو أن تفطن لذلك.

وهنا أيضًا يحاول الوالد أن يجذب ولده إلى الكتابة، وينحيه عن الملاذ، فيقول له:

(١٤) «قطعة»:[٤٩] لقد حُدِّثْتُ أنك هجرت الكتابة وأسلمت نفسك للملاذ، وأنك أدرت ظهرك إلى كلمات «الله» وفررت من صناعة «تحوت». إن قلبك لا يعرف أنك ... لتقود الآخَرين ...

(موضوع القطعة التالية لهذه يحتمل أن يعدِّد ويلات الجندي.)

وهنا يخلع صاحبنا على الكتابة كل ما يحبِّب ابنه فيها، ويخوفه الجندية وحياتها، قال:

(١٥) «كن كاتبًا»:[٥٠] واستعمل قلبك فإنها صناعة أنفع من أية صناعة، وكل إنسان يُحترَم بوظيفته، فاجتهد في الحصول عليها لنفسك، وضَعْ كلماتي في أذنك حتى تصبح رجلًا، وتمكَّنَ من أن تكون ذا حيثية؛ لأن المؤلم أن تعمل جنديًّا يساق كالحمار، وإذا أُرسِل للجيش في سوريا أو إلى السودان، وترك وراءه أولاده وملابسه في بيته، كان طعامه كلأ الحقل كالسائمة، وإني أرجو أن تفطن لذلك!

وفي الخطاب التالي نجد الكاتب أسعد حالًا من الفلاح والخادم والغسال والبحار، وفي هذا الخطاب يحاول الكاتب التهكم على الحِرَف، ولكن قلمه يقصر عن بلوغ ذلك، فإن تشبيهاته فقيرة، وفيه نقط غير مفهومة.

(١٦) «كن كاتبًا»:[٥١] وأسلم قلبك لها (أي صناعة الكاتب)؛ حتى تخلِّص نفسك من أن يكون عليك رؤساء كثيرون، وحتى يمكنك أن تصير كفئًا في الغد، فكل حرفة عليها ضريبة، وكذلك كل أجير، فالذين في الحقل يحرثون ويحصدون ويخزنون ويدرسون في الجرن، والخدم تسلق التين، والغسَّالون على شاطئ النهر، وينزلون الماء والبحار — كما يقولون — إن التماسيح تقف هناك، على حين أن القارب وهو مدينته يعوم (؟)؛ لأن البحَّار قد أُنهِكَ والمجداف في يده، والسوط على ظهره، وجوفه خالٍ من الطعام، ولكن الكاتب يجلس في حجرة السفينة، وأولاد العظماء يُجدِّفون له، وليس عليه حساب يدفعه، والكاتب ليس عليه ضرائب يؤديها، فافطن لذلك.

وهنا أيضًا يحذِّره أن يكون جنديًّا، ويعدِّد له متاعب الجندية ومخاوفها، ويُلبِس الكاتب ثوبًا برَّاقًا من السرور والثراء والهيمنة على شئون العباد.

(١٧) «كن كاتبًا ولا تكن جنديًّا»:[٥٢] تعالَ ودعني أصِفْ لك حالة الجندي، ذلك الفرد الذي يُعذَّب كثيرًا يوم أن تُدعَى طيبة لإقامة الأفراح في الهواء الرطب في الشهر الثاني من الشتاء، فالمرء (أي الجندي) يكون في موقف مؤلم عندما يتعثر في طريقه من غير حذاء، والحلفاء

تعوق طريقه، والحشائش تكون كثيفة مشتبكة، والأعشاب منيعة، والضباط من خلفهم بالعصي، ويضربون ثم يضربون، ويكون عطشان، على أن شرب الماء لا يتغلَّب على القيظ والعرق، وذلك في وقت ظهور الفرعون بفخامته في أول يوم الاحتفال بالتتويج، وهو اليوم الذي تؤذن فيه «عين شمس» بإقامة الأعياد. تعالَ ودعني أخبرك بنزوله (أي الجندي) إلى سوريا ومشيه على قمم التلال، وخبزه وماؤه على كتفيه مثل حمل الحمار، وهو يشرب الماء الآسن، ولا يقف عن السير إلا وقت الحراسة بالليل. فهل أنت حمار سيسوقه الإنسان؟ هل الجسم خلوٌّ من الفهم؟ اعتنِق الحرفةَ التي يحترفها الحكَّام، وإن أدوات كتابتك تغدق عليك السرور والثراء، ويكون قلبك فرحًا كل يوم، فافطن لذلك.»

ولدينا فقرة كُتِبت في شكل خطاب، ولكنها في الواقع تكاد تكون مقتطفات من نصائح «آني» حاكها الكاتب بمهارة، وهي:

(١٨) «اتخذ لنفسك زوجة»:[٥٣] وأنت لا تزال فتى، وعلِّمْها لتكون امرأة (أي رحيمة)؛ حتى تنتج لك أولادًا وأنت صغير السن، وحتى يكون لك خلف. والواقع أن الرجل المنتج يحترمه الناس لخلفه. تأمَّلْ فإني أعلمك طريقة الرجل الذي يجِدُّ في تأسيس بيت له، فاصنع لنفسك حديقة، وحوِّط لنفسك بقعة من الخيار فضلًا عن حقلك، واتخذ لنفسك الأزهار التي تراها عينك؛ لأن الإنسان قد يشعر بالحرمان منها كلها، وإنه لحسن إذا لم يُحرَمها الإنسان، فافطن لذلك.

(خطابات حقيقية نموذجية للتلاميذ.)

وتكشف ديباجتها عن مرسلها وعن دعوات طيبة للمرسل إليه، ثم ينتقل كاتبها إلى الغرض من الرسالة:

(١٩) «اقتفاء أثر عبد هارب»:[٥٤] إن قائد رديف «زكو»[٥٥] كاكمور يكتب إلى قائد الرديف «آني» وإلى قائد الرديف «بكنبتاح»، (داعيًا لهما) بالحياة والفلاح والصحة، وأن يكونا في

حظوة «آمون رع» ملك الآلهة، وفي حظوة حضرة الملك «سيتي الثاني» سيدنا الطيب.[٥٦] وإني أقول لـ «رع-حاراختي»: «احفظ فرعون سيدنا الطيب في صحة (؟)، ودعه يحتفل (بملايين) الأعياد الثلاثينية، ونحن كل يوم في حظوته.»

وبعد، فقد أرسلت من قاعات القصر الملكي وراء هذين العبدين في اليوم التاسع من الشهر الثالث في فصل الصيف وقت المساء، ولما وصلت إلى حصن «زكو» في اليوم العاشر من الشهر الثالث من فصل الشتاء علمت أن الأخبار من الجنوب تقول: إنهما قد مرَّا ذاهبين … اليوم من الشهر الثالث من فصل الصيف، ولما وصلت إلى القلعة أُخبِرت أن السائس قد حضر من الصحراء (وأعلن) أنهما تخطَّيَا الحدود شمال حصن (مجدول)[٥٧] «سيتي» الذي … مثل «ست» (الإله).

وعندما يصل خطابي إليكم اكتبوا إليَّ بكل ما حدث عندكم: أين وُجِد أثرهما؟ وأي حارس عثر عليه؟ ومَن هم الرجال الذين اقتفوه؟ اكتبوا إليَّ بكل ما عمل من أجلهما، وكم رجلًا اقتفى أثرهما، ولتعيشوا سعداء.

وفي الرسالة الآتية يظهر حزم الآمِر واستعلاؤه وتهديده المستور.

(٢٠) «أمر بإنجاز عمل»:[٥٨] يقول كاتب الملك وقائده «راموزا» إلى البنَّاء «أوري»: لقد أحضر لك هذا الخطاب.

وبعدُ، فعندما يصل إليك خطابي، عليك أن تذهب إلى بلد … «رع» في بوبسطة (تل بسطة)، وعليك أن تنفِّذَ كل أمر، ثم عليك أن تحضر وتقدِّم إليَّ تقريرًا، تُبصِر فيه، ثم اعتنِ واحترس لنفسك، ولا تتوانَ بأية حال، وسيصلك خطابي على يد الكاهن «رع موزه»، وقد (كان؟) حاضرًا حينما جئتَ إليَّ بجوار الترعة وضربتك وقتئذٍ قائلًا لك: «كيف تهمل عملي؟ سأجعلك تشتغل في الترعة.» أرجو أن تفطن لذلك.

وهذه رسالة إخبارية تبتدئ بالدعاء للسيد المرسلة إليه، ثم ينتقل كاتبها إلى ذكر بعض الأشياء التي تهم المرسل إليه؛ لأنها تتعلق بمصالحه ويسردها سردًا.

(٢١) «أشغال مختلفة الأنواع»:[٥٩] إن الكاتب «باوحم» يسرُّ سيده «أتحوررخ» داعيًا بالحياة والفلاح والصحة، قد كتب هذا لأحيط علم سيدي، ولأمر آخَر يسرُّ سيدي، لقد سمعت الأمر الذي أرسله لي سيدي لأعطي خيل الإصطبل الكبير الذي يملكه «رعمسيس» محبوب «آمون» علفًا، وكذلك خيل العظيم ... إصطبل «بنرع» محبوب «آمون»[٦٠] التابع للحاضرة.

أمر آخَر يسرُّ سيدي، وهو أنه قد هرب ثلاثة من فلاحي أملاك الفرعون التي في عهدة سيدي من ملاحظ إصطبل الخيل المسمى «نفر حتب»؛ وذلك بعد أن ضربهم، والآن انظر، إن حقول ضياع الملك التي في عهدة سيدي قد أُهمِلَتْ، وليس هناك مَن يفلحها، وقد حُرِّر هذا ليعلم به مولاي.

وفي الرسالة الآتية يقدِّم كاتبها بين يدي ملتمسه دعوات حارة بالحياة وطيب العيش، يرجو من ورائها أن يتوسَّطَ صاحبه في تخفيف الضريبة عنه؛ لأنها لا تتناسب مع ثروته وعمله، وحملها يثقل كاهله، ويرى أن إجابة طلبه من الأمور الميسورة لصديقه؛ لأنها ضئيلة بالنسبة إلى همته الكبيرة فيقول:

(٢٢) «التماس للمساعدة في موضوع ضرائب»:[٦١] إن «رامحب» كاهن معبد «سوتخ» يسأل عن مدير البيت «سيتي»، داعيًا له بالحياة والفلاح والصحة، وأن يكون في حظوة «آمون رع» ملك الآلهة. إني أقول «لرع-حاراختي» و«لست»، ولنفتيس ولكل الآلهة والإلهات «بونوزم»: ليتك تفلح، وليتك تعيش، وأتمنى أن أراك ثانيةً في أمان وأضمك إلى صدري. وبعدُ، فقد سمعت بالأشياء الحسنة العدة التي عملتها لسفينتي، وذلك أنك أرسلتها إليَّ، أرجو أن يكافئك «منتو»، وأرجو أن الشمس ربك الطيب[٦٢] يكافئك.

وعندما يصلك خطابي يجب عليك أن تذهب مع حامل العلم[٦٣] «بتاح ممنو»، ويجب أن تعلن الوزير بأمر الفضة الكثيرة التي يقول عنها الخادم «إثاي»: «سلِّمها.» وإن كانت ليست ضريبتي قط، وخُذْ نسخة من الفضة (الضريبة) ومن العوائد كتابة إلى الجنوب[٦٤] وضعها أمام الوزير، وأخبره ألَّا يفرض عليَّ ضريبة خاصة بالناس (العمَّال)؛ لأني «شخصيًّا» ليس لديَّ أناس، ولأني مسئول عن السفينة وعن بيت «نفتيس».[٦٥] وانظر إلى العدد العظيم من المعابد التي في المركز، فليس ذلك مريحًا لي، وإني تعس جدًّا، بل في منتهى التعس بسبب ما عمل لي.[٦٦]

والآن تأمَّلْ ... وتكلَّمْ مع شخص آخَر من جهة العمل الإداري المضني الذي قد وُضِع على عاتقي نحو معبد «سوتخ» وأملاك الفرعون التي في عهدتي ضريبة عليَّ. انظر! إن هذا بالنسبة لك أمر صغير، فلا تحذف منه شيئًا أنت وحامل العلم «بتاح ممنو»، ومع السلامة.

(٢٣) «استعلامات»:[٦٧] إن الكاتب «بوحم» يسرُّ مولاه «محو» كاتب مصنع الفرعون في حياة وفلاح وصحة، قد حَرَّرَ هذا ليعلم مولاي، وشيء آخَر ليُسَرَّ مولاي: لقد أرسل الوزير ثلاثة أولاد قائلًا: «نصبهم كهنة في معبد «مرنبتاح» في بيت «بتاح».» (ولكن) الملك قد وضع يده عليهم وأخذهم ... وقال: «إنهم سيكونون جنودًا.»

فأرجو أن تسرع وتمرِّنهم وتكتب لي عن حالهم.

وكذلك انظر إذا كان التاجر قد عاد من سوريا.

وكذلك لا بد أن تمرَّ عليَّ في «منف»، إن قلبي غير منشرح ولا يمكنني أن أكتب لك (في ذلك). أرجو أن ترسل إلى الخادم «تناتا» واكتب إليَّ عن حالك مع أي فرد يكون قادمًا من عندك. مع السلامة!

(٢٤) «خطاب أسري»:[٦٨] إن الكاتب «أمنموسي» يسأل عن والده قائد فرقة الرديف «بكتنبتاح» داعيًا له بالحياة والفلاح والصحة، وأن يكون في حظوة «آمون رع» ملك الآلهة. أقول و(أتضرع) إلى «رع حاراختي» وإلى «آتوم» وإلى «التاسوع»، متمنيًا أن تكون في صحة يوميًّا.

وبعدُ، أرجو أن تكتب لي عن صحتك مع أي إنسان يكون قادمًا إلى هنا من عندك؛ لأني أرغب في أن أسمع أخبارك كل يوم، وأنت لا تكتب إليَّ لا خيرًا ولا شرًّا، ولا أحد ممَّنْ ترسل يمر بي ليخبرني كيف حالك. أرجو أن تكتب لي عن حالك، وعن حال خدمك من جهة أشغالهم؛ لأني في غاية الشوق إليهم.

وبعدُ، لقد أحضرتُ لك خمسين رغيفًا كيلستس طيبة فقط؛ لأن الحمَّال رمى منها ثلاثين قائلًا: «إني مثقل أكثر مما يجب.» ولم ينتظرني لأحضر له خضرًا من المخزن (؟)، على أنه لم يخبرني في أي مساء سيحضر إليَّ، وإني مرسل لك طبقين من الدهن للدهان. مع السلامة!

وهنا تهنئة بمنصب رفيع، وإظهار لشعور الكاتب نحو صديقه، ودعوات للمرقَّى بالتوفيق الدائم، ويختم المهنئ رسالته برغبته في أن يقف على حال الصديق وحال أسرته، ويطمئنه على نفسه وعلى ضياع الملك:

(٢٥) «تهانٍ»:[٦٩] من قائد الرديف وملاحظ البلاد الأجنبية «بنامون»، إلى قائد الرديف «بحري بيد» في حياة وفلاح وصحة، وفي حظوة «آمون رع» ملك الآلهة، وحضرة الملك «سيتي الثاني».[٧٠] إني أقول (إني أدعو) «لرع-حاراختي»: احفظ الفرعون سيدنا الطيب في صحة، وأتمنى أن يحتفل بآلاف آلاف الأعياد، وأنت[٧١] في حظوته كل يوم.

وبعدُ، فقد سمعت بما كتبته وقلت فيه: إن الفرعون ربي الطيب قد أظهر ميوله الطيبة نحوي، فقد عينني ضابطًا أول لرديف البئر.[٧٢] هكذا قد كتبت لي.

إنه لتعطُّف طيب من «رع» أن تكون الآن محل والدك، «مرحًا»، أرجو لك مثل ذلك مرة ثانية.

ولما وصلني الخطاب فرحت جد الفرح، أتمنى أن «رع-حاراختي» يمنحك حياة طويلة وأنت تملأ مركز والدك! وأتمنى أن يعطف عليك فرعون مرة أخرى! وأتمنى أن تصبح أكثر قوةً وتكتب لي عن حالك وعن حال والدك مع أحد رجال البريد الذين يأتون إلى هنا من عندك. وبعدُ، فإن أحوالي تسير على ما يرام، وكذا أحوال ضياع الملك.[٧٣] لا تشغل نفسك من جهتي. مع السلامة.

وهنا توبيخ لموظف كبير تجاوَزَ حدود عمله، وتصرَّفَ على غير ما يهوى أميره، فقرعه وأوعده شرًّا مستطيرًا، وأضاف ذنبًا آخَر إلى ذنبه الأول هو إهماله في الاستعداد للزيارة الملكية لعين شمس، وينكر عليه تقصيره، ويأمره بإصلاح ما أفسد.

(٢٦) «تقريع موظف كبير»:[٧٤] إن هذا الأمر الملكي أحضر إليك.

ما علاقتك «بتكتن» التابع لإقليم الواحة حتى ترسل كاتبك هذا ليفصلهم من جنودهم (تياو)؟[٧٥] والآن إذا ... «رع» و«بتاح» لم يسمحا لنا أن نصغي لأي شيء من هذه الإشاعات التي يسمعها الإنسان. وبعد ذلك يكتب هذا الأمير قائلًا:

يجب عليك أن تُحضر إلى هنا «التكتن» الذي يمكنه أن «يتجسس»، فإلى أين تولِّي وجهك؟ وإلى بيت مَن ستذهب؟ فهو ينصب فوق رأسك مثل تل من الرمل، ثم تُسَاق وتُوضَع هناك ... ذلك إلى جانب غلطتك الأخرى الشنعاء التي ارتكبتها، بأن جعلت فرعون يأتي ليذهب إلى عين شمس دون أن تستحضر آلات للمصنع استعدادًا وراء سيدك ... ألم تعين في مكان ملاحظين آخَرين لبيت المال قد تنَحَّوا عن سحب (أخذ) جندي تكتن من «نياو» (أي من فرقته)، وأنت تفعل هذا فقط؟

وعندما يصلك قرار فرعون، عليك أن تكتب خطابًا إلى كاتبك الذي قد أرسلته إلى أرض الواحات، قائلًا: احذر! تخلَّ عن أخذ جندي من «التكتن»، وإلا عُدَّ ذلك جريمة منك تُعاقَب عليها «بالموت»، ويجب عليك أن تعطي خطابك تابعًا من أتباعك وترسله مع بريد[٧٦] بكل سرعة.

(٢٧) «السآمة في مكان منعزل»:[٧٧] هذا خطاب خاص لضابط أُجبِر على إقامة مبانٍ على الحدود بدلًا من الذهاب إلى فلسطين، غير أنه لم يكن في مقدوره أن يأتي بأي عمل، بل كان في مقدوره أن يعطي معلومات عن الكلاب والحمل فقط، وكل عبارة الخطاب بالطبع تهكمية:

> إني أقيم في كنكنتاوي،[٧٨] وليس لديَّ عدة، وليس هناك أناس لصنع اللَّبن، وليس في البقعة تبن.[٧٩]
>
> أين هم الذين يحضرون إليَّ؟ ... أليس هناك حمير؟ إنها سُرِقت. إني أمضي اليوم متأملًا ما في السماء كأني أصطاد طيورًا، وعيني تنظر خلسة إلى الطريق لأذهب إلى فلسطين.
>
> وإني أمضي الليل تحت أشجار لا تحمل فاكهة (؟) للأكل.
>
> أين بلحها؟ ليس فيها بلح (؟) لأنها لا تحمل.
>
> والخملة موجودة هناك وقت السحر، والخملة «زوت» عند الظهيرة ...
>
> وهي تمتص كل شريان.
>
> وإني أسير مثل العظام المتحركة، وأخترق الأراضي على قدمي.[٨٠]
>
> وإذا فتح إنسان زجاجة ملأى بجعة (كدي) وهجم الناس على ... القدح في الخارج.[٨١]
> ويوجد هنا مئتا كلب كبير، وثلاثمائة كلب من نسل الذئب، ومجموعها خمسمائة،[٨٢]
> وهي تقف كل يوم على باب البيت مستعدة في أي وقت أخرج فيه؛ لأنها شمَّتْ السبر[٨٣]

عندما فُتِح الإناء، ومع ذلك (؟) أليس عندي في البيت (الكلب الصغير) المستذئب ملك «تهرهو» كاتب الملك (؟)، فهو يخلصني منها، وفي أي وقت أخرج فيه فإنه يكون معي دليلًا في الطريق، فبمجرد ما ينبح أُسرع إلى إغلاق الباب.[٨٤]

و«أشب» اسم كلب مستذئب، أحمر، طويل الذنب.

فيذهب ليلًا إلى حظائر الماشية ويبتدئ بأكبرها[٨٥] أولًا؛ لأنه لا يُميِّز حينما يكون مفترسًا، والله[٨٦] ينجي مَن يشاء من هذه النار التي هنا والتي لا ترحم (؟).

وزيادة على ذلك ... فإن معي هنا كاتبًا، وكل شريان من شرايين وجهه ... الـ ... والمرض قد استفحل في عينيه، والدود يعيث في سنه، وإني لا يمكنني أن أتركه بائسًا وفرقتي سائرة إلى الأمام؛ لذلك دعه يُعطَ طعامه هنا حتى يمكنه أن يستريح في جهة «كنكنتاوي».

وفي الرسالة الآتية تصوير شعري لشوق الكاتب إلى «منف»:

(٢٨) «الشوق إلى منف»:[٨٧] تأمَّلْ! إن قلبي قد ذهب خلسة، وإنه ليسرع إلى مكان يعرفه، وإنه يسبح منحدرًا مع التيار ليرى (منف) ... ولكني أجلس هنا منتظرًا (رسولًا) ليخبرني عن حال (منف)، ولم تصلني أية رسالة؛ ولذلك يخفق قلبي في مكانه. تعالَ إليَّ يا «بتاح» لتأخذني إلى (منف)، ودعني أنظر إليك على عجل.

إني أمضي اليوم وقلبي في حلم (؟)، وإن قلبي ليس في جسمي، وكل أعضائي ... وعيني متعبة من النظر،[٨٨] وأذني لا ... وصوتي ... وحتى إنه يقول كل الأشياء معكوسة. كُنْ رحيمًا بي واسمح لي أن أصعد (؟) إليهم.

نماذج خطابات إنشائية

(٢٩) «مديح في المدينة الجديدة المسمَّاة بيت رعمسيس»:[٨٩] بيت رعمسيس هو اسم لحاضرة الفرعون «رعمسيس الثاني» التي أنشأها حديثًا، وتقع على أنقاض، وقد كانت تُعَدُّ مركزًا لإمبراطورية تشمل فلسطين ومصر، ومن المحتمل أن الخطاب قد أُلِّفَ على أساس قصيدة تشبه التي سنذكرها فيما بعدُ، احتفالًا بقدوم الملك إلى هذه المدينة:

إن الكاتب «بيبس» يرحِّب بسيده الكاتب «أمنموبي»[٩٠] في حياة وفلاح وصحة. قد حُرِّرَ هذا ليكون سيدي على علم به.

ترحيب ثانٍ بسيدي: لقد وصلت إلى مدينة بيت رعمسيس — «محبوب آمون» — ووجدتها غاية في الازدهار، وهي عرش (؟) جميل منقطع النظير، وهي على طراز طيبة، وإن «رع» هو الذي أسَّسَها بنفسه، فهي المقام الذي تلذ فيه الحياة.

حقلها مملوء بكل ما طاب، ولديها مؤن وذخيرة كل يوم، بركها تزخر بالسمك وبحيراتها بالطيور، حقولها يانعة بالبقل، وشواطئها محمَّلَة بالبلح ... ومخازنها مفعمة بالشعير والقمح، وهي تناطح السماء في ارتفاعها، وفيها الثوم والكراث للطعام وخس الـ ... جنينة، وفيها الرمان والتفاح والزيتون، والتين من البساتين، وخمر كنكمة[٩١] اللذيذة التي تفوق الشهد حلاوةً، وفيها سمك «وز» الأحمر من قناة ... وسمك «بتن» من بحيرة «نهر» ...[٩٢] وسيهور[٩٣] تنتج الملح ويستخرج من بحيرة «هر» النترون، وسفنها تروح وتغدو إلى الميناء، وفيها المؤن والذخيرة كل يوم، وينشرح الإنسان بالمقام فيها، ولا أحد يقول لها: «ليت كذا!» والصغير فيها مثل العظيم.[٩٤] تعالَ، ودعنا نحتفل بأعيادها السماوية[٩٥] وأوائل فصولها السنوية.

على أن مستنقعات «زوف» تنبت لها البردي، و«سيهور» تمدها باليراع، وغرائس العنب تأتي إليها من البساتين، وتيجان الأزهار من الكروم، وتجلب إليها الطيور من الماء البارد ... والبحر فيه سمك بج، وسمك أُد، والمستنقعات تهدي إليها ... وشباب «عظيمة الانتصارات»[٩٦] يلبسون

حلل العيد كل يوم، ورءوسهم (مضمخة) بزيت ذكي الرائحة في الشعر المرجل حديثًا، ويقفون بجوار أبوابهم وأيديهم مثقلة بالأزهار، والنبات الأخضر من بيت «حتحور»، وبالكتان من بحيرة «حر»، في اليوم الذي يدخل فيه رعمسيس، فهو «منتو»[٩٧] في كلتا الأرضين صبيحة عيد كيهك. وعندئذٍ يدلي كل إنسان وزميله كذلك بملتمسه، ونسيم «عظيمة الانتصارات» حلو، وشرابها «تبي»[٩٨] مثل (الفاكهة) «شاو»، وشرابها «خيو» طعمه كطعم الفاكهة «إنو»،[٩٩] فهو يفوق الشهد حلاوةً، وجعة «كدي» (سيلسيا) (ترد) من الميناء، والنبيذ من الكروم.

والروائح العطرة يُؤتَى بها من مياه «سجبين»، وتيجان الأزهار من الـ … جنينة.

أما مغنيات «عظيمة الانتصارات» ذوات الصوت العذب، فقد تعلمن الغناء في «منف».

اسكن (هناك) سعيدًا، وامش مرحًا، ولا تغادرها يا «وسرمارع» — المختار من «آمون» يا «منتو» — في الأرضين. يا رعمسيس — محبوب «آمون» — أنت أيها الإله!

وترى في هذه الرسالة حاكمًا يستنهض همة تابعه في أن يرسل إليه الجزية المفروضة، وأن يزيد فيها بما يبرهن على حذقه وكفايته وإخلاصه في عمله ولمليكه، ويحذره التقصير، وغضب الفرعون.

(٣٠) «رسالة حاكم إلى تابع»:[١٠٠] إن حامل المروحة اليمنى للملك، وضابط الرديف، وملاحظ الأراضي الأجنبية الإثيوبية «باسر»[١٠١] يخاطب حامي قومه.[١٠٢] هذا الخطاب قد أُرسِلَ إليك.

وبعدُ، فعندما يصل إليك خطابي، يجب عليك أن تدفع الضريبة[١٠٣] مع كل ما يتعلق بها من ماشية ومن عجول وثيران ذات قرون قصيرة، ومن غزلان وتيتل وأوعال ونعام، وإن قوارب حملها وسفن نقلها مستعدة في الحال (؟)، وبحارتها وملاحوها مجهَّزون للسفر. وتدفع ما عليك من ذهب كثير قد صيغ أطباقًا، وذهب صاف بالمكيال، وتبر حسن (؟) من الصحراء موضوع في حقيبة من الكتان الأحمر، وكذلك تدفع ما عليك من العاج والأبنوس وريش النعام وثمر النبق

مثل … وخبز النبق وشكر كايا ومينخيس وبهلك وشسا[١٠٤] التي تشبه جلد الفهد، ومن الصمغ وحجر الدم وحجر اليشب الأحمر والجمشت والبلور، ومن قطط من «ميو» وقردة ونسانيس … وعدد عظيم من قبيلة «أُرمي»[١٠٥] يمشون أمام الجزية وبعصيهم إبرز مطعمة بالذهب …[١٠٦] ورجال طوال القامة من «تيرك» في … ملابس، ومراوحهم ذهبية لابسين ريشًا طويلًا، وأساورهم مشغولة بالنسيج (؟)، وعبيد كثيرون من كل الأنواع.

زد جزيتك كل عام، وحاذر على رأسك، وتخلَّ عن الخمول … حافظ عليها والتفت، وكن على حذر! أذكر اليوم الذي تحضر فيه الجزية، حينما تمر أمام الفرعون تحت النافذة،[١٠٧] والمستشارون مصطفون على الجانبين أمام جلالته، ورؤساء كل البلاد وسفراؤها يقفون هناك مُظهِرين دهشتهم وهم يشاهدون الجزية وأنت خائف … ويدك تفيض، ولا تعرف ما ينتظرك من الموت أو الحياة، ولديك القوة فقط لتدعو آلهتك: «نجُّوني»، «هبوا إلى النجاح هذه المرة وحسب!»

(٣١) «استعداد لسياحة ملكية»:[١٠٨] إن الكاتب «أمنموبي» يقول إلى الكاتب «بيبس» هذه الرسالة أُرسِلت إليك. أما بعدُ، اتخذ العدة لتقوم بكل الاستعدادات أمام فرعون ربك الطيب بنظام جميل ممتاز، ولا تُجلِبن اللوم لنفسك، فانظر إليها والتفت، وكن على حذر، ولا تكن متراخيًا.

قائمة بكل ما يجب أن تعده: استحضر ما يلزم لصنَّاع السلات من قصب وقش، وكذلك أنجز صنع عشر سلات مفرطحة للأكوام، ومئة سلة مستديرة للعرض، وخمسمائة سلة لمواد الأكل (؟).

قائمة بالأشياء التي تعمل لأجلها (السلات): أنواع مختلفة مشتملة في النهاية على ألف ومائتي رغيف آسيوي متنوعة، ثم كعك في سلات وأقداح، وعلى مائة سلة من اللحم المقدد، وعلى مائتين وخمسين حفنة من (الكرشة)، وستين كيلًا من اللبن، وتسعين كيلًا من الزبد، هذا إلى

مائة كومة من الخضر، وخمسين إوزة، وسبعين كبشًا، وعناقيد من العنب، ورمان، وتين، وأزهار، وتيجان ... إلخ، وخشب للوقود، وفحم.

تأمل! إني أكتب إليك لأعلمك قواعد إعداد المواني،[١٠٩] وهي التي يجب أن تنفذها أمام الفرعون سيدك الطيب، وبهذا لا تنقصك نصائح تحتاج إليها، ولا تدعن نفسك في حاجة للفهم و... ولا تدعن نفسك في حاجة للنشاط في الاستعداد. (ثم تأتي بعد ذلك ملاحظة إضافية عن الشهد والكراث ... إلخ.)

وفي الرسالة الآتية قائمة بالمعدات التي يطيب لها قلب جلالة الفرعون، وتلزمه في رحلته، وقد نسب كل نوع إلى الجهة التي تشتهر به:

(٣٢) «الاستعداد للملك»:[١١٠] اتخذ العدة لعمل الاستعدادات أمام فرعون سيدك الطيب، بنظام حسن ممتاز بالخبز والجعة واللحم والفطير ... وكذلك بالبخور وبالزيت العطر (هنا يتلو سبعة أنواع مختلفة من الزيت تحمل أسماء أجنبية من ممالك «أرسا» و«خاتي» و«سنجار» و«عامور» و«تخيس» و«النهرين»)، وكثير من زيوت الميناء لتدليك رَجَّالته وخَيَّالته، وبالثيران، والثيران القصيرة القرون الجيدة الخصاء من الغرب، وبالعجول السمينة من الجنوب، وكثير من الطيور السمينة من مستنقعات القصب (يتلو ذلك اثنا عشر نوعًا من السمك، مع ذكر أسماء الجهات التي نشأت فيها)، ثم سمان سمين، وحمام من فصل الحصاد،[١١١] وزيادة على ذلك شهد وزيت للأكل، ودهن أوز وزبد ولبن وعدس ... إلخ إلخ. وأوانٍ ملأى بشراب «بور» للخدم،[١١٢] وجعة من «كدي»، ونبيذ من سوريا، وفول في كومات، وزجاجات (؟) وأقداح من فضة وذهب،[١١٣] تُوضَع مصفوفة تحت نافذة القصر، وعبيد من أرض «كِرْكي» وشبان، الجماعة منهم تلو الأخرى؛ ليكونوا ساقين لجلالته، على أن يستحموا ويدلكوا ويكسوا بـ ... حينما يمرون تحت النافذة، والرجل الذي يكون بينهم يخصص للمطبخ ويجهز جعة «كدي»

للقصر ... وعبيد كنعانيون من سوريا، وشبان حسان، وسود حسان من إثيوبيا يُخصَّصون لحمل المروحة، ويجب أن ينتعلوا بنعال بيضاء ويرتدوا (؟) بـ ... وأساورهم في معاصمهم.

ثم يتلو ذلك كل أنواع الأثاث الذي يحتاج إليه الملك.

أولًا: طيب من أرض «إمور» التي تصنع عصيها من خشب «مري» مطعَّمة بشغل أرض قليقيا (سليسيا).

وثانيًا: عربات جميلة من خشب «يري» التي تلمع أكثر من اللازورد (وقد عدَّدَ من أجزائها أحد عشر جزءًا، وفي كل حالة تذكر المادة التي صنع منها هذا الجزء، والقطر الذي يجلب منه.) وزيادة على ذلك: أقواس وجعب السهام ... وسيف وحربة ومدية وأسلحة حسنة لجلالته، وأسواط جميلة من خشب «ساجا» وسيورها من التيل الأحمر، وعصي طويلة لجلالته مزينة مقابضها بالذهب ... إلخ إلخ. (كلها تحتوي على كلمات أجنبية وأسماء عدة بقدر المستطاع.)

وأكوام عدة من الدقيق، وأكوام من دقيق القمح والفول وتين سوريا والرمان والتفاح وأخيرًا الفحم ... وأرغفة كبيرة حسنة الصنع مخصَّصة لطعام الأمراء، وأرغفة آسيوية منوَّعة مصنوعة من القمح لأجل طعام الجند، موضوعة أكوامًا تحت نافذة الجهة اليمنى، وسبائك عدة من نحاس غُفْل، وأباريق من ... والتي تحضرها أطفال «أرسا» (قبرص) على رقابهم هدايا لجلالته، والقرون التي يمسكونها في أيديهم ملأى بزيت ... وجياد جميلة رُبِّيَتْ في «سنجار»، وعجول من أحسن نوع من أرض «خاتي»، وأبقار من «أرسا» (قبرص) قد أحضرها أمراؤها الذين يقفون في انحناء تحت النافذة ...

وتصف لنا هذه الرسالة عربة الحرب، وما يجب أن يُعَدَّ لها ويلزمها من الأدوات، ويلزم راكبيها من الطعام والمرافق.

(٣٣) «إعداد عربة حرب»:[١١٤] وبعدُ، التفت تمامًا لتعد زوج الخيل للذهاب إلى سوريا ومعهما رجال إصطبلهما وسائسوهما، وكسوتهما تكون ... وأن يشبعا[١١٥] بالعلف والتبن، وأن يُمسَحَا مرتين تمامًا، وحقائبهم (أي الرجال) ملأى بخبز «كلستس»، وكل حمار مفرد يحمل المؤن بين رجلين،[١١٦] أما العربات فإنها من خشب «بري» ومفعمة بالأسلحة، وعلى أن يكون في جعبة السهام ثمانون سهمًا، ويوجد الـ ... الحربة والسيف والمدية ... والسوط المصنوع من خشب «ساجا» فيكون مجهَّزًا تمامًا بالسيور (؟)، وكذلك عصي العربة وهراوة الحارس، وحربة أرض «الخاتي» الـ ... أسنانها[١١٧] من برنز من سبيكة مركَّبة من ستة معادن منقوشة ... ودروعهم موضوعة بجانبهم، والأقواس ...

تهانٍ للمعلمين والرؤساء

(٣٤) «إلى المدرس»:[١١٨] لقد ربَّيتني صغيرًا حينما كنتُ معك، وقد ضربت ظهري؛ ولذلك دخل تعليمك أذني، وإني كالجواد الشارد، فلا يأتي النوم نهارًا إلى قلبي، ولا يأخذني ليلًا؛ لأني أريد أن أكون مفيدًا لسيدي، كالخادم النافع لصاحبه.

وإني أحب أن أقيم لك قصرًا جديدًا على أرض مدينتك، مغروسًا بالأشجار على كل جانب من جوانبه، والحظائر الداخلية تزخر بالماشية، ومخازنه مفعمة بالشعير والقمح، وتكون الغلة فيها و... الفول والعدس ... الكتان والخضر ... و«تفاح الحب»[١١٩] الذي يكال بالسلات.

وقطيعك تضاعَفَ ظهورها (عددها)، وأبقارك للولادة ملقحة، وسأزرع لك خمسة أفدنة حديقة خضراء في جنوبي مدينتك مملوءة بالخيار و... كثير في عدده كالرمال، وسأجعل السفن تأتي لتنزلها على ظهورها، وبذلك يمكنك أن تعرف ماذا تقدمه إلى «بتاح نفر حر» حتى ينجز لك رغبتك.

وفي هذه الرسالة اعتراف بمنزلة المدرس وتقدير له يظهران من هذه الآمال التي يرجوها الكاتب له، ويدعو الله أن يحقِّقها بما يكفل للمدرس حياة طيبة سعيدة، وظهور هذه العاطفة في مثل هذا العصر القديم يدل على ما لأصحابها من عقل سليم، واعتداد بالثقافة.

(٣٥) «إلى المدرس»:[١٢٠] ليت آمون يمنحك السرور في قلبك، وليته يهبك عمرًا طويلًا حسنًا حتى تعيش عيشة سعيدة، وحتى تبلغ العلا، وتكون شفتك في صحة، وأعضاؤك نامية، وعينك تبصر على بُعْدٍ.

وترتدي التيل الجميل، وتركب الجياد[١٢١] (التي في العربة)، وبيدك سوط ذهبي، ويكون لك … جديد، والسرج من صنع سوريا، والعبيد تجري أمامك، وتنفذ كل ما تريد أن تفعله، وتنزل في سفينتك المصنوعة من خشب الأرز، والمجهزة بالمجاديف من المقدمة إلى المؤخرة، وتصل إلى قصرك الجميل الذي قد بنيته لنفسك.

وفمك مفعم بالنبيذ والجعة والخبز واللحم والفطير، وتذبح الثيران، وتفتح أواني الخمر، وأمامك الغناء الحسن.

ورئيس المدلكين يدلكك بعطر (كمي)، ومدير بركك يحمل تيجان الأزهار، ورئيس فلَّاحِيكَ يحضر الطيور، وسمَّاكك يقدِّم السمك.

وسفينتك تأتي من سوريا محمَّلَة بكل ما طاب، وحظيرتك ملأى بالعجول، وقطيعك (؟) يتكاثر وتخلَّد، أما عدوك فيفنى، ويهلك كلُّ مَن يسيء إليك بكلام، وتدخل أمام تاسوع الآلهة، وتخرج ظافرًا[١٢٢] مُبَرَّأً.

ولقد حظي الموظف أيضًا بشيء من التقدير يقارب إلى حدٍّ ما ما ورد في الرسالة السابقة عن المدرس.

(٣٦) «إلى الموظف»:[١٢٣] إنك تعيش وتفلح وتصح، إنك لست تعسًا ولا تعاني أي بؤس ... أنت تخلد كالساعات،[١٢٤] وتبقى نصيحتك مدى عمرك، وكلامك ممتاز، وعينك ترى كل جميل، وأنت تسمع كل لذيذ ... أنت الراعي وهبه الإله، وتهتم بالكثيرين فتمد يدك للبائسين، وترفع مَن هوى.

وإنك تُخلَّد، أما عدوك فقد فني، ولقد هلك مَن أساء إليك.

إنك تدخل أمام تاسوع الآلهة وتخرج مظفرًا.

والرسالة الآتية أمانٍ يرجوها أصحابها للمدرس، ودعوات له بالصحة والنضارة:

(٣٧) «للمدرس»:[١٢٥] سيدي الطيب، إنك ستبقى، وسيكون لديك طعام كل يوم بجانبك، وستكون فرحًا سعيدًا كل يوم، وممدوحًا مرات يخطئها العدُّ.

والفرح والسرور يضمان نفسيهما إليك، وأعضاؤك تنمُّ عن الصحة.

وكل يوم تزداد شبابًا، ولا شيء مضر يتسلَّط عليك.

وسيأتي عام فيه يذكر الإنسان جمالك، ولن يوجد مثيلك، عيناك برَّاقتان كل يوم، وأذنك مرهفة (؟)، ولديك سنين عدة جميلة، وشهورك (تمضيها) في فلاح، وأيامك في حياة، وساعاتك في صحة، إلهتك مرتاحة إليك مسرورة بكلماتك، أنت تقصي عنك الغرب الجميل،[١٢٦] ولن تصبح مسنًّا، ولن تكون مريضًا، وستعمر مائة سنة بعد العاشرة على الأرض، وأعضاؤك قوية كحال مَن يثني عليه مثلك، عندما يكافئه إلهه.

وبعد ذلك يجعلك رب الآلهة وديعةً عند أرباب الجبل الغربي،[١٢٧] وتُقدَّم لك طاقات الزهر في أبي صير،[١٢٨] وماء بارد في الجبَّانة، وتخرج روحك (من القبر) لتجول حيث تشاء.[١٢٩]

مساجلة أدبية

مقدمة

تُعَدُّ هذه الوثيقة من أروع ما كُتِب في الأدب المصري القديم في عهد الدولة الحديثة، وتدل الشواهد على أنها كُتبِت في النصف الأول من الأسرة التاسعة عشرة؛ فقد وجدنا أن رعمسيس الثاني قد ذُكِر فيها عدة مرات، وقد عُثِر على عدة «استراكا» وقِطَع من البردي كُتِب عليها أجزاء من هذه المناقشة، وتاريخها كلها لا يتخطى منتصف الأسرة العشرين، على أن مجرد الاقتباس منها في هذا العصر لدليل ناطق على انتشارها في مدارس عهد الرعامسة.

ومَن يقرأ تاريخ الأدب في هذا العصر يسهل عليه أن يعرف السبب في شيوعها، فنلاحظ أولًا أن الموضوع الذي تدور حوله المناقشة هو حِرْفة الكاتب، وهو الهدف الذي كان يرمي إليه بخاصة كل تلميذ في عصر الرعامسة؛ إذ كانت تُعَدُّ أعظم المهن وأشرفها، فالمناقشة التي نحن بصددها الآن تُعَدُّ من جهة نوعًا من الكتابات التي كانت تفيض بها كتب هذا العصر؛ لحث التلميذ على الجد في الوصول إلى حرفة الكاتب، ومن جهة أخرى تُعَدُّ نموذجًا للأسلوب الحسن ولتعليم الإملاء، لما ظهر فيها من غزارة المادة وتنوُّع المفردات، يضاف إلى ذلك أن استعمال الألفاظ الأجنبية بكثرة، والتفاخر بالعلم، واستعراض أسماء البلاد الأجنبية غير المألوفة أحيانًا يتفق مع ما نعرفه عن ميول هذا العصر الأدبية، وأخيرًا نرى التهكُّم اللاذع منتشرًا في نواحي هذه الوثيقة، ويرجع منشؤه إلى حب الأجوبة المسكتة عند المصري، وميله إلى التهكُّم، ونرى ذلك واضحًا في المحاورات القصيرة التي نجدها مدوَّنة فوق المناظر المصورة على جدران المقابر، وفي الصور الملونة والنحت، وفي الصور الهزلية التي بقيت لنا من رسومهم، وكذلك الشأن في أدبهم.[١] غير أننا لم نجد في كل هذه المصادر ما يشفي الغلة في باب التهكُّم والنكت، مثلما بدا في وثيقتنا هذه.

ولكن مما يُؤسَف له أن الوثيقة في صورتها التي وصلت بها إلينا لا يمكن ترجمتها ترجمة مرضية إلى أية لغة حديثة، حتى ولو كنَّا أكثر تمكُّنًا من مفرداتها مما وصلنا إليه الآن، والوثيقة كما هي غامضة في كثير من جُمَلها؛ وذلك لجهلنا لكثير من مرامي الكلمات الحقيقية، وقد زاد الطين بلة تعدُّد الفجوات التي في الورقة، والأغلاط التي في المتن نفسه.

ولكن على الرغم من كل هذا سيجد القارئ الشرقي في هذه المناقشة لذةً لا يشعر بها القارئ الغربي الذي لا يمكنه أن يتذوَّق تمامًا ما فيها من النكات والمداعبات، فضلًا عن أنها تعرض أمامنا سلسلة صور هامة عن العالم المتمدين في هذا العصر، وبخاصة في موضوع الرحلة في فلسطين، وإنْ بُولِغَ في تصويرها ووصفها.

وقبل سرد ملخَّص هذه الوثيقة يجب أن نعرف هنا أن مؤلِّفَها يُدعَى «حوري»، وأن خصمه يُدعَى «أمنموبي»، وقد اتفقت جميع النسخ التي وقعت تحت أيدينا على هذه التسمية.

ملخص المناقشة

كان الكاتب «حوري» من حَمَلة الأقلام، وكان موظفًا في الإصطبلات الملكية، وقد كتب لصديقه «أمنموبي» كتابًا تمنَّى له فيه الفلاح والحياة السعيدة في الدنيا والآخرة.

وقد ردَّ عليه «أمنموبي» مُظهِرًا أسفه لهبوط مستوى كتابة صديقه، مع عجز «أمنموبي» عن الانفراد بالرد عليه، واستعانته بكثير من المساعدين.

وعندئذٍ قام «حوري» بدوره يُصلِي مساجِلَه «أمنموبي» قوارصَ الكَلِم، ولاذع التهكُّم، مصرِّحًا بعجزه مرة، ومكنيًا أخرى، متتبعًا ما عالَجَه «أمنموبي» من الأمور، ومُظهِرًا ما فيه من النقص. ولم يكن «أمنموبي» بالكاتب المتحفظ الذي يلتزم أدبَ التراسُلِ والمساجَلَة، فإنه حذف السلام العادي من صدر رسالته، وعبَّر عن احتقاره لمقدرة «حوري» وتمكُّنه من مادته، فما

كان من هذا الأخير إلا أن تهكَّمَ عليه ما وسعه التهكُّم، وسرد أمثلة عدة لأناس وصلوا إلى أعلى المراتب مع ما فيهم من نقص عقلي وجسمي، وفي ذلك تعريض «بأمنموبي» الذي وصل إلى مرتبة سامية على غير كفاية رزقها. واندفع «حوري» يرد هجمات «أمنموبي» بقسوة لاذعة، وطلب أن يحكم بينهما الإله «أنوريس»، وتابع تحديه لزميله بأن ينفرد بحل مسألة حسابية تتناول بناء مطلع، أو نقل مسلة، أو إقامة تمثال ضخم، أو غزوة لبلد أجنبي وما تتطلبه من المؤن والذخائر.

وعندئذٍ ادَّعَى «أمنموبي» أنه يحمل لقب «ماهر»، فاتخذ «حوري» من هذا الادعاء مادة لإثبات عجز منافسه وجهله، فسرد على «أمنموبي» عددًا عظيمًا من بلدان شمال سوريا التي يجهلها، وصوَّرَ له المتاعب التي سيتعرض لها في حياته بحمله هذا اللقب، ثم سأله ساخرًا من ضآلة معارفه عن بلاد فينيقية، والبلاد التي إلى الجنوب منها، وبلاد أخرى كان يختلف (الماهر) إليها، ثم تصوَّرَ «أمنموبي» في صورة خيالية يقاسي فيها تجاريب الحياة التي يسبِّبها له هذا اللقب، فيتعرَّض لاختراق أقاليم جبلية، ولمخاطر الحيوان المفترس، ولتحطيم عربته، ثم وصوله إلى يافا، وإصلاح العربة وابتداء رحلة جديدة.

ولم يكتفِ بذلك «حوري»، بل واصَلَ استجواب صديقه عن أسماء الأماكن التي تقع على الطريق العام الموصل إلى غزة، فيتضح جهله كذلك بها.

وإلى هنا قد وصل «حوري» إلى هدفه من إظهار فوقه على مُنَاظِره، ويأخذ في الإجهاز عليه بأن يقف منه موقف الناصح الخبير، فيسأله ألا يغضب، ويطلب إليه أن يستمع في هدوء حتى يتعلم، ويستطيع التحدث عن البلاد الأجنبية، ويقص حوادث السياحة.

هذا ما حدث بين الأديبين، ويؤسفنا أننا لم نصل أحيانًا إلى الكنه الحقيقي لبعض الأساليب؛ لأن لكل أمة في لغتها طريقتها الخاصة في التعريض والتلويح والتلميح والرمز والإشارة، وما إلى

ذلك مما يكسب الكلمات معنى مجازيًّا قد يكون بينه وبين المعنى الحقيقي مراحل واسعة.

(مناقشة أدبية)[٢] ورقة أنستاسي الأولى

(١) «ذو القريحة الممتازة»: الكاتب ذو التفكير المختار الرزين في المناقشة (؟)، والذي ينشرح الناس من ألفاظه عند سماعها، المُتَفَقِّه في كلمات الله،[٣] وليس هناك شيء لا علم له به، وهو بطل في شجاعته وفي عمل «سشات»،[٤] وخادم رب «هرموبوليس» (الأشمونين) في مدرسة كتابته، وأستاذ المدرسين المساعدين في دار الكتب، وأشهر زملائه والمتفوق على قرنائه، وأمير معاصريه، والمنقطع القرين، وهو الذي يظهر فضله في كل الصبية؛[٥] نشيط اليد، وأصابعه تجعل الطفل عظيمًا، وهو نبيل حاد الذكاء حاذق في العلم، وهو بذلك مجدود، وحامي نفسه بصفاته الحسنة، محبوب من قلوب الناس دون أن يقاوم (؟)، ويرغب الناس في مصاحبته دون سآمة، سريع في كتابة الصحف البيضاء، ممتلئ شبابًا، فائق الرِّقة، حلو الرشاقة، وهو الذي يشرح القطع الصعبة كأنه هو الذي ألَّفها،[٦] وكل ما يخرج من فمه مغموس في الشهد، وبه تشفى القلوب كأنه دواء، وهو سائس جلالته[٧] الذي يصحب المليك ويسوس أمهار الملك، ومربٍ غيور للإصطبل،[٨] والمسن الذي يعمل مثله يفشل، ومَن يحل النير ... «حوري» بن «وننفر» من العرابة المدفونة إقليم الصالحين،[٩] والذي ولدته أمه «توزرع» في مقاطعة «بارست»[١٠] مغنى «باست» في حقل الإله.[١١]

(٢) «يرسل تحياته لصاحبه الكاتب أمنموبي»: إنه يسأل عن صحة صاحبه، وأخيه الممتاز، والكاتب الملكي قائد الجيش المظفر، وصاحب الذوق السليم، والخُلُق العظيم، والحكيم الفهم، المنقطع النظير في الكتابة، والعزيز عند الناس أجمعين، وإن رشاقة جماله لمَن ينظر إليه كجمال نبات البردي في قلب الأجانب،[١٢] وهو كاتب في كل معنى، فهو لا يفوته عرفان شيء، والناس

تبحث عن أجوبته لسدادها، نبيه رحيم القلب، محب للناس، ويُسَرُّ للعمل الحق، ويُولِّي ظهره للعسف، كاتب الجياد (؟) ... «أمنموبي» بن مدير البيت «موسى» المرحوم.[١٣]

(٣) «مقدمة الخطاب»:[١٤] أتمنى أن تحيا وتفلح وتكون في صحة جيدة يا أخي العزيز، وأن تكون مثريًا متين الحال مدركًا كل ما تتمناه (؟)، وأن يكون عندك ما يُحتاج إليه طول الحياة من ذخيرة ومئونة؛ وأن يجتمع السرور والفرح في طريقك ... ليتك ترى أشعة الشمس وتغمس نفسك فيها، ليتك تُمضِّي مدة حياتك ... وآلهتك مرتاحة إليك وليست غضبى، ليتك تتسلم مكافآت بعد عُمْر طويل، وحبك في قلوب أهل العدل،[١٥] ليتك تدخل قبرك في الجبانة وتختلط بالأرواح الصالحة، ليتك تحاكم بينهم وتبرأ ساحتك في «بوصير» أمام «وننفر»،[١٦] وتسكن في العرابة بجوار «شو أوتوريس»[١٧] ليتك تعبر «بكر»[١٨] في ركاب الإله، ليتك تخترق إقليم الإله (؟) في ركاب «سوكاريس»،[١٩] ليتك تنضم إلى نواتي القارب «نشمت» من غير أن تمنع، ليتك ترى الشمس في السماء حينما تفصل العام.[٢٠]

ليت «أنوبيس» يصل رأسك بعظامك،[٢١] ليتك تخرج من المكان الخفي دون أن تتلف، ليتك ترى نور الشمس في العالم السفلي حينما تمر بك،[٢٢] ليت بحرًا عظيمًا يفيض في بيتك[٢٣] ليغمر طريقك، وليته يعلو بارتفاع سبعة أذرع بجوار قبرك، ليتك تقعد على شاطئ النهر في ساعة راحتك تغسل وجهك ويدك، ليتك تتسلم القربان، وليت أنفك يستنشق النسيم، ليتك تريح حنجرتك ... ليت إله الغلال يعطيك خبزًا «وحتحور» جعة، ليتك ترضع ثدي البقرة «سخايت»، وليت أحسن العطور (؟) تفتح لك (؟) ... ليت تمثالك المجاوب[٢٤] يساعدك ويحمل رملًا من التل الشرقي إلى التل الغربي، ليت جميزتك[٢٥] تبلل حنجرتك دون أن تتلف، وليتك تصد أعداءك، وليتك تكون قويًّا على الأرض، وليتك تكون مشرقًا، وليتك تحول نفسك إلى أي شيء تريد مثل «الفنكس»، وإلى كل شكل يماثل صورة الإله.

(٤) «كيف تتسلم الخطاب»: وبعدُ، تسلَّمْتُ خطابك في ساعة فراغ (؟)، وأخذت رسالتك، وأنا قاعد بجوار الجواد الذي في عهدتي، وكنت سعيدًا وممتلئًا فرحًا وعلى استعداد للإجابة، ولما دخلت حظيرتي لأفحص[٢٦] رسالتك وجدتها خالية من المدح والذم، وعباراتك مضطربة، وكل كلماتك مقلوبة، ولا روابط بينها، وكل تخيلاتك ... وتخلط الغث بالسمين، والحسن بـ ... وكلماتك ليست (؟) بالعذبة ولا بالمرة ... فهي نبيذ مخلوط بشراب عفن «بور».[٢٧]

(٥) «لم تكتب خطابك بمفردك»:[٢٨] أكتب إليك لأساعدك كما يساعد الصديق المتعلم الأكبر منه ليصبح كاتبًا نابهًا، وعندما تكتب سأجيب على كتابتك: تأمَّلْ، فإن كلماتك ليست إلا كلامًا باردًا ... وإنك تعمل مثل ... إني لم أقف مرتاعًا منك؛ لأني أعرف طبيعتك، وقد خُيِّلَ إليَّ أنك ستجيب عليه بنفسك، في حين أن حُمَاتَكَ (مساعديك) يقفون وراءك، إنك تحصل لنفسك على عدة ... بمثابة مساعدين كأنك تتطلب الحكام لعقد جلسة (؟)، وكأني بك ونظراتك مضطربة عندما تقف هناك متملقًا المساعدين (؟) قائلًا: تعالوا معي ومدوا إليَّ يد المساعدة. وتقدِّم إليهم الهدايا كل على حدة، ويقولون لك: «تشجَّعْ سنتغلب عليه.»[٢٩] وأنك تقف هناك مضطربًا و... ويقعد سبعة الكتَّاب يفكِّرون، وإنك تسرع معهم ... وتكلِّف[٣٠] كل واحد (من سبعة الكتَّاب) بفقرتين (من الإجابة) حتى تتمكَّن من إتمام رسالتك المؤلفة من أربع عشرة فقرة (فواحد؟) يؤلِّف مدائح، واثنان يهجوان، وآخَر يقف ويعلِّمهم القواعد، والخامس يقول: لا تسرعوا (؟) تأنَّوا (؟) واجعلوه نموذجًا، والسادس يسرع ليقيس الترعة بالذراع لأجل أن تحفر ... ليجعلها تسلم، والسابع يقف عن كثب يتسلم أرزاق الجند و... أرزاق ...[٣١] إن أوامرك مرتبكة، ولم يُعبَّر عنها بطريقة صحيحة (؟)، وإن (خريوف)[٣٢] يلعب دور الرجل الأصم فلا يسمع شيئًا، ثم يحلف «ببتاح» يمينًا قائلًا: إني لا أسمح للختم أن يوضع على مخزن الغلال[٣٣] ويخرج غضبان، فكم (جالونًا؟) تنقصك؟ وكم (هن) ناقصة من كل كيل (؟)؟ انظر! إنك كاتب تصدر الأوامر إلى

الجيش، والناس يصغون لما تقوله، ولست محتقرًا، وإنك كاتب ماهر وليس هناك شيء لا تعرفه، ومع ذلك فإن رسالتك موضوعة وضعًا رديئًا فوق ما يُتصوَّر لتجعل الإنسان يصغي إليها …

(خاتمة الفقرة غير مفهومة؛ فنجد «أمنموبي» يتكلم عن شيء ما: يوضع على أصابعي كورقة البردي على رقبة رجل مريض …[٣٤] فلا تصير متعبة وتربط بخيط خاتمي.)[٣٥]

(٦) «جوابي سيكون أحسن من رسالتك»: إني أجيبك كذلك برسالة جديدة من أولها (؟) إلخ (؟)، وهي ملأى بتعابير من شفتي قد صغتها بنفسي منفردًا، ولم يكن أحد آخَر معي، أقسم بروح (كا) (إلهي؟) تحوت، إني ألَّفتها بنفسي دون أن أطلب أي كاتب[٣٦] ليساعدني.

وإني سأعطيك أكثر (أكتب خطابًا أطول) في عشرين فقرة، وأكرِّر لك ما قلته (واضعًا) كل فقرة في مكانها من الأربع عشرة فقرة (المؤلف منها) خطابك.[٣٧] أقبض على القرطاس لأخبرك بأشياء عدة، ولأفيض عليك كلمات مختارة كأنها نيل[٣٨] وصل إلى أقصى فيضانه، مياهه مضطربة اللمعان في فصل الفيضان، حينما يغمر كل الحقول (؟).

إن كل كلماتي عذبة حلوة … وإني لن أفعل فعلك؛ لأنك تبتدئ بذمي في أول فقرة، وفي فاتحة رسالتك لم تسأل عن صحتي، وكل ما تقوله[٣٩] بعيد عني ولا يؤثِّر فيَّ؛ لأن إلهي «تحوت» و«رع» لي، وإني أقسم بقوة «بتاح» رب الصدق … انظر! إن ما قلته ربما لا يحدث، وإن كل ما خرج من فيك قد ينقلب على عدو آخَر! ومع ذلك سأدفن في العرابة المدفونة في مقر والدي، (لأني) ابن رجل مستقيم في مدينة رب الحق (؟)، وسأُدفَن بين عشيرتي في تل «تاجسر» (الجبانة).

في أي شيء كنتُ قد أسأت إليك في قلبي حتى تهاجمني كذلك؟ ولمَن ذكرتك بشرٍّ؟ لقد كتبتُ إليك كتابًا يشبه المداعبة اللذيذة التي تسلي كل إنسان.[٤٠]

(٧) «الإجابة على هجو «أمنموبي»»: لقد قلت عني إنني مكسور الجناح[٤١] خائر القوى، وقد حقَّرتني كاتبًا وقلت … «هو لا يعرف شيئًا!» هل أمضي وقتي بجانبك متملقًا وقائلًا: «كن حاميًا لي إذا اضطهدني شخص آخَر؟» فبحكم الرب المظفر صاحب الاسم العظيم، والذي ترتكز قوانينه على أساس متين مثل قوانين «تحوت»، إني أنا نفسي نصير كل أقاربي …[٤٢]

ولكني أعرف عدة أناس تعوزهم القوة،[٤٣] مكسوري الجناح ومقطَّعين إربًا إربًا، ومع ذلك فإنهم أغنياء، في بيوتهم الطعام والمؤن، ولا يقولون عن أي شيء: «آه، إذا كنت أملك …» تعالَ، دعني أحدثك عن حال الكاتب «روي» الذي يُدعَى «محورنار» صاحب مخزن الغلال، فهو لا يتحرك ولم يَجْر منذ ولادته، وهو يمقت عمل الرجل النشيط ولا يعرفه، وإنه قد ذهب فعلًا إلى الغرب،[٤٤] رغم أن أعضاءه كانت لا تزال في صحة، وهو لا يخاف الإله الطيب.[٤٥]

وإنك لأكثر تغفيلًا من «كسا» حاسب الماشية …[٤٦] أسرع فسأخبرك بشكله …

ولا شك في أنك قد سمعت عن اسم «آمون-واح-سو»، وهو أحد رجال الخزانة المسنين، فهو يمضي حياته مراقبًا في المصنع بجوار الحداد.[٤٧]

تعالَ كي أحدِّثك عن «ناخت» صاحب مخزن الخمر،[٤٨] فإنه أحسن لك عشر مرات من هؤلاء، وإني محدِّثك عن ضابط الرديف الذي كان في «عين شمس»، وقد أصبح الآن من كبار رجال القصر، فهو أصغر من قطٍّ تام النمو وأكبر من قرد![٤٩] إنه مثرٍ في بيته … على حين أنك ستكون هنا في الحظيرة إلى الأبد … ولقد سمعت باسم «كسب» … الذي يتحرك على الأرض دون أن يلتفت إليه، وهو غير مرتب الملابس وموثق القماط (؟)، وإذا نظرت إليه عند المساء في الظلمة فإنك تقول: «إنه طائر يمر.» ضعه في كفة الميزان لتعرف وزنه؛ فهو يزن نحو عشرين «دبنًا»،[٥٠] وإذا نفخت بجواره حينما يمر سقط من حالق كأنه ورقة غصن.

وإذا حدَّثتُكَ عن «واح» صاحب حظيرة الماشية، فإنك تعطيني مقدار وزني ثلاث مرات من خالص النضار،[٥١] إني أقسم بربي «هرموبوليس» و«بنحم أوايت»[٥٢] إنك قوي الذراع وستتغلب عليهم.[٥٣] دعهم يفحصوا أولئك وهؤلاء حتى أضربهم بذراعي، ولن يفلت من يدي أحد منهم.

يا سيدي الطيب، ويا صديقي الذي لا يعرف ما يقول. انظر! إني أحل لك مصاعبك الأليمة وأجعلها لذيذة لك.[٥٤]

(٨) «إنك تلعب دور الحكيم»: لقد أتيت مزوَّدًا بأسرار عظيمة، وتخبرني بمثل من أمثال «حرددف»[٥٥] على أنك لا تعلم إذا كان حسنًا أو رديئًا، فأخبرني ما هو الفصل الذي يسبقه (المثل) (وما الذي يأتي بعده) … إنك رجل عالم على رأس إخوانه،[٥٦] وعلم الكتب (؟) منقوش على قلبك، ولسانك سعيد (؟) وكلماتك واسعة، والمثل يخرج من فيك يزن أكثر من ثلاثة «دبن» أرطال … عيناي تنبهران لما تفعل، وأفغر فمي عندما تقول: «إني بوصفي كاتبًا منغمسًا في السماء وفي الأرض وفي العالم السفلي، أعرف الجبال بالرطل والهن،[٥٧] وإن بيت الكتب مخفي ولا يُرَى، وتاسوع آلهته مخبَّأة وبعيدة عن …[٥٨] وإني هكذا أجيبك: احذر ألا تقترب أصابعك من كلمات الله …[٥٩] وعن كل ما يأتي لا نفهم إلا: مثل … يجلس ليلعب النرد.

(٩) «ليس صوابًا أن تشك في علمي»: لقد قلتَ لي: «إنك لست بكاتب، وإنك لست بجندي (؟)، لقد كوَّنتَ نفسك لتكون رئيسًا … ولست في القائمة.» والآن إنك كاتب الملك الذي يجند الجنود، والذي أمامه … السماء[٦٠] مفتوحة أمامك. أسرِعْ حينئذٍ إلى مكان الكتب حتى يدعوك ترى الصندوق الذي فيه السجلات، وإذا أخذت معك طاقة أزهار إلى هرش[٦١] فإنه سيفتح لك بسرعة … وستجد اسمي في القائمة ضابطًا في الإصطبل العظيم «لرعمسيس» محبوب «آمون»، وعندك برهان آخَر على رياستي في الإصطبل،[٦٢] فإن لي مرتب طعام مقيَّدًا باسمي، وعلى ذلك فإني خدمت جنديًّا وكاتبًا.

وليس هناك شاب من جيلي يمكنه أن يقرن نفسه بي «دع الرجل يسأل عن أمه»![٦٣] فأسرع إذن وسَلْ رؤسائي الضبَّاط وهم يخبرونك عني.

(١٠) «أما ما تطلبه مني، فأرني أولًا كيف تعمله أنت»: وقد قلتَ لي مرة أخرى: إن سلسلة جبال عالية[٦٤] تقف أمامك. أدخل في هذه السلسلة المخيفة، وإن كنتَ لا تعرفها[٦٥] ادخل أمامي، وإني سآتي على إثرك، وعلى أية حال (؟) فإنك لم تدنُ من حماها، ولم تقترب منها، فإذا عُثِرَ عليك فيها حينئذٍ فإني سأذهب هناك أيضًا خلفك، واحذر أن تضع يدك لتجرني إلى الخارج (؟).

(١١) «أشك في مواهب «حوري» مرة أخرى»:[٦٦] لقد قلت لي: «إنك لست بأية حال كاتبًا، فهو اسم أجوف بارد (؟)،[٦٧] وإنك تحمل الدواة خطأ ...» ... وهكذا تأخذ العدة لنفسك ضدي ثانيةً، ولكنها أقوال تجحف بحقي ولن يُصغَى إليها، دَعْ رسائلك تحضر أمام «أونريس» ليرى أينا محِقٌّ حتى لا تغضب.[٦٨]

(١٢) «أمنموبي لا يمكنه أن يحسب كما ظهر ذلك في حفر بحيرة وبناء مطلع»: موضوع آخَر، انظر إنك تأتي وتدل بوظيفتك،[٦٩] وإني سأجعلك تعرف كيف تكون الأمور معك حينما تقول: «إني الكاتب الذي يصدر الأوامر للجيش.» هب أنك أعطيت بحيرة لتحفرها وقد أتيت إليَّ لتسألني عن أرزاق الجند وتقول: «احسبها.» فأنت تهجر وظيفتك، وعلى ذلك فواجب تعليمك إنجازها يقع على عاتقي: تعال لأخبرك بأكثر مما قلت.[٧٠]

إني أجعلك تخجل (؟) حينما أكاشفك بطلب من سيدك، الذي أنت كاتبه الملكي، وذلك حينما يُؤتَى بك تحت نافذة[٧١] لأي عمل عظيم، حينما تخرج من الجبال آثار عظيمة «لحور» رب الأرضين؛[٧٢] لأنك تأمل، أنت الكاتب الماهر الذي على رأس الجند.[٧٣] (مطلوب) بناء مطلع[٧٤] طوله ٧٣٠ ذراعًا،[٧٥] وعرضه ٥٥ ذراعًا،[٧٦] يحوي ١٢٠ حجرة[٧٧] مملوءة بالقصب وعروق الخشب، وارتفاعه من القمة ٦٠ ذراعًا، و٣٠ ذراعًا في الوسط، و... ١٥ ذراعًا، و... ٥ أذرع، وكمية

اللبن اللازمة له مطلوبة من القواد، وقد اجتمع الكتَّاب معًا دون أن يعرف واحد منهم أي شيء، وكلهم يضعون ثقتهم فيك، ويقولون إنك كاتب ماهر يا صديقي (؟). قرِّرْ لنا بسرعة، انظر، إن اسمك شهير، دَعْ واحدًا يوجد في هذا المكان ليعظم الثلاثين الآخَرين،[٧٨] ولا تجعل أحدًا يقول: إن هناك شيئًا لا تعرفه! أجِبْ كم عدد اللبنات اللازمة له؟

انظر، إن كل مقاساته (؟) أمامك، وكل حجرة من حجراته طولها ٣٠ ذراعًا، و٧ أذرع في العرض.[٧٩]

(١٣) «كذلك لا يفهم «أمنموبي» كيف يقدر وزن مسلة»: آه يا سيدي الطيب، أنت أيها الكاتب اليقظ، الذي يرأس الجيش ومَن يُميِّز نفسه حينما يقف عند البابين العظيمين،[٨٠] والذي ينحني بخضوع تحت النافذة!

وصلت رسالة من ولي العهد في «راكا» لتسر قلب «حور» المظفر، ولتهدئ الأسد الغاضب، وتخبره كيف صنعتَ مسلة جديدة منقوشًا عليها اسم جلالته، طولها ١١٠ أذرع، وقاعدتها ١٠ أذرع، والقطعة التي في نهايتها مقياسها ٧ أذرع من كل جهاتها، والجزء المدبَّب يبلغ ذراعًا وإصبعًا، والجزء الهرمي يبلغ طوله ذراعًا و… مقياسه إصبعين، فاحسب الآن (؟) حتى يمكنك أن تجلب كل رجل يُحتَاج إليه لجرها، وأرسلهم إلى الجبل الأحمر، وانظر، إنهم في انتظارهم.[٨١]

كُنْ مساعدًا لولي العهد ابن الشمس، قرِّرْ لنا كم رجلًا يلزم لجرها، ولا تجعلهم يرسلون إلينا مرة أخرى؛ لأن الأثر ملقى على استعداد في المحجر! أجب بسرعة ولا تتردد.

انظر، إنك تبحث عنها بنفسك![٨٢] استمر، تأمل، إذا نشطت نفسك جعلتك سعيدًا، لقد تعودت فيما مضى أن أجهد نفسي مثلك، وعلى ذلك دعنا نلتحم في المعركة[٨٣] سويًّا. (حل المسألة) فإن قلبي ذكي، وأصابعي سهلة القياد وماهرة حيث تضل أنت، تقدَّمْ ولا تبكِ؛ إن مساعدك يقف خلفك،

وسأجعلك تقول: «يوجد كاتب ملكي مع «حور» الثور القوي.»[٨٤] وعليك أن تأمر أناسًا ليصنعوا صندوقًا توضع فيه الرسائل. (الباقي غير مفهوم.)

(١٤) «كذلك عند إقامة تمثال ضخم يخطئ «أمنموبي» الحساب»: وقد قيل لك: أَخْلِ المخزن [٨٥] المملوء بالرمل الموجود تحت أثر سيدك[٨٦] الذي قد أُحضِرَ من الجبل الأحمر، ويبلغ طوله ثلاثين ذراعًا، وهو ممتد على الأرض، وعرضه عشرين ذراعًا. (من الجمل التالية نعلم فقط أن «المخزن» يشمل عدة أقسام مملوءة بالرمل المجلوب من شاطئ النهر، وكلها تبلغ خمسين ذراعًا في الطول.) وإنك مكلَّف الآن أن تجد، (والأمر الذي يشغل بال الملك (؟) هو):[٨٧] «كم رجلًا يلزم لهدمه في ست ساعات؟» وإن قلوبهم مستعدة،[٨٨] ولكن رغبتهم لهدمه ضئيلة؛ لأن الوقت الذي يعطاه الجند للراحة ليأخذوا فيه غذاءهم[٨٩] لم يُحسَب. دَعِ الأثر ينصب في مكانه؛ لأن رغبة الملك أن يراه جميلًا.

(١٥) «أمنموبي غير قادر على حساب المئونة اللازمة لحملة عسكرية»: إنه الكاتب النبيه ذو القلب الذكي — والذي لا يفوته معرفة أي شيء مهما كان، أيها المصباح في الظلام أمام الجم الغفير ليعطيهم نورًا! هَبْ أنك أُرسِلْتَ في مأمورية إلى فينيقيا (؟) على رأس جيش مظفر لتقهر هؤلاء الثائرين المسمين «نعرين»،[٩٠] وعدد مَن تقودهم من الرديف ١٩٠٠، و٥٢٠ شردانيين، [٩١] و١٦٠٠ كهك، و١٠٠ ماشوشا، و٨٨٠ من السودان، والكل ٥٠٠٠ عدا ضباطهم.

وقد أحضر أمامك هدية من الخبز والنبيذ،[٩٢] غير أن عدد الرجال كبير (جدًّا) عليك،[٩٣] والمئونة قليلة جدًّا بالنسبة إليهم: ٣٠٠ رغيف من القمح، ١٨٠٠ … رغيف، و١٢٠ من الماعز المختلفة الأنواع، و٣٠٠ كيل من النبيذ، والعساكر عددهم عظيم، والمئونة قُدِّرَتْ بأقل منهم (؟) …

وتسلمت المئونة، وهي موضوعة الآن في معسكرك، وجيشك مستعد ومسلَّح؛ فعليك إذن أن تقسِّمها بسرعة وتعطي كل رجل نصيبه، والبدو عندئذٍ ينظرون خلسة (يقولون؟) «أيها

السبهربود»[٩٤] (الكاتب الفَطِن)، وقد أتى وقت الظهر والمعسكر حار، (والجند) يقولون: «حان وقت المسير.» «لا تغضبن يا قائد «الرديف»، لا يزال عندنا كثير لنقطعه.» ونحن نقول: «لماذا لا يوجد إذن خبز؟ إن مراكز معسكرنا الليلة بعيدة جدًّا! فما معنى أنك تضربنا أيها السيد الطيب مع أنك كاتب ماهر؟[٩٥] اقترب لتعطى الطعام، على أنه قد تمر ساعة يكون الإنسان فيها من غير كاتب من قِبَل الحاكم، فعلى الرئيس أن يقوم مقام الكاتب، على أنك تأخذ على عاتقك أن تضربنا، فإن ذلك ليس بالحسن أيها الزميل؛ لأن (الفرعون) يسمع بذلك ويرسل بعزلك.[٩٦]

(١٦) «إنك لا تعرف إلا القليل عن سوريا»: في خمس الفقرات الأخيرة، وهي التي تبتدئ هنا، وجَّهَ «حوري» عنايةً إلى نهاية رسالة قرنه، والظاهر أنها بوجه خاص قد سلته «بكلماتها الضخمة»، وفيها لفت «أمنموبي» الأنظار إلى أعماله العظيمة وتجاربه في سوريا، وأعطى لنفسه بكبرياء نعتًا أجنبيًّا هو «ماهر»،[٩٧] أي بطل (وهي كلمة كنعانية). ونرى أن «حوري» يمتحن هذه القصة، ويتبع كل سياحة قرنه من شمال سوريا إلى «تخوم مصر»، ولكنه يصوِّر السياحة بأنها ملأى بمخاطرات قاسية صغيرة وكبيرة، وقد يجوز أن يكون هذا حقيقيًّا حسب رأيه، يضاف إلى ذلك أنه يلمح بواسطة أسئلة حاذقة أن معلومات قرنه قليلة جدًّا عن البلاد التي زارها، وأنه لم يشاهد فيها إلا شيئًا يسيرًا جدًّا. ولقد كان من الضروري علينا، لنتذوق هذه السخرية أن نعرف قصة «أمنموبي» نفسه التي قد حرَّفها هنا، غير أنه على الرغم من هذا التحريف يمكننا أن نتذوق الوصف الحي الذي وضعه أمامنا لفلسطين، وهي بلاد كان يعرفها «حوري» على ما يظهر جيدًا، وعلى أقل تقدير كان يعرفها أحسن من قرنه المتفاخر بعلمه: إن رسالتك مفعمة بالهجمات (؟) وتنوء تحت عبء الكلمات الضخمة. انظر، فإنهم سيكافئونك كالذين يبحثون وراء حمَّال، وسيثقلونك أكثر مما تود.[٩٨]

أنت تقول مرة أخرى: إني كاتب، وماهر. ونحن بدورنا نقول: إن كلماتك صادقة، فابرز حتى تُمتَحَن؛ فقد أُسرِج لك جواد سريع كابن آوى مع ... وكأنه عاصفة الريح حينما ينطلق، وإنك

ترخي العِنان وتقبض على القوس، سترى ماذا تفعل يدك، وسأشرح لك طبيعة «ماهر»، وأريك ماذا يفعل. ألم تذهب إلى أرض «خاتي»، ألم ترَ أرض «يوب»؟[٩٩] «وخدم»، هل تعرف طبيعتها، «وإجدى» كذلك أي شيء تشبه؟ و«سومر» التابعة «لسسي»[١٠٠] على أي جانب منها تقع بلد «خِرة» ...؟ وما شكل مجرى مائها؟ ألم تسر إلى «قادش»[١٠١] «وتوبيخي»؟ ألم تذهب إلى إقليم البدو مع جند الجيش الرديف؟

ألم تطأ طريق «مجر»؛[١٠٢] حيث السماء مظلمة نهارًا، ويغزر فيها نمو العليق (؟) والبلوط وأشجار الأرز التي تناهض السماء؟ وهناك أسود أكثر من الفهود والضباع، ويحيط بها البدو من كل جانب، ألم تتسلق جبل «شوى»؟ ألم تطأه ويداك موضوعتان على ... وعربتك قد كُسرت من الجبال عندما يجرون حصانك؟[١٠٣]

أرجوك. دعني أخبرك عن ... «برت»، إنك تنفر من تسلقها وتفضِّل عبور نهرها ... وسترى ما يكون عليه الإنسان لأجل أن يصير «ماهرًا»، وذلك حينما تحمل عربتك على كتفك ... وحينما تقف عن المسير في المساء ترَى جسمك كله مهدمًا ... وأعضاءك مكسرة ... وتستيقظ عند ساعة الرحيل في ... ليل، وأنت وحدك تسرج الحصان، والأخ لا يأتي لأخيه،[١٠٤] والهاربون (؟) قد أتوا إلى المعسكر، وحلَّ قيد الجواد الـ ... قد نُهِبت بالليل وسُرقت ملابسك، وسائسك قد استيقظ بالليل وعرف ما قد ارتكبوه؛ فأخذ ما بقي، وانضَمَّ إلى صف الخَوَنة، واختلط بقبائل البدو وغيَّر نفسه إلى آسيوي، وقد أتى العدو لينهب سرًّا، وقد وجدك لا حراك بك، ولما استيقظت لم تجد لهم أي أثر، وقد أخذوا كل متاعك، وقد صرت «ماهرا» كامل العدة وقبضت على أذنك.[١٠٥]

(١٧) «بخصوص فينيقيا»: سأحدثك عن مدينة أخرى سرية، اسمها «جبيل»، فما شكلها؟ وإلهتهم ما شكلها؟[١٠٦] ألم تطأها قدماك؟

تعال؟ وعلِّمْني شيئًا عن «بيروت»، وعن «صيدا» و«سربتا»، وأين نهر «نزن»؟[١٠٧] وما شكل «وس»؟ ويقولون إن مدينة أخرى واقعة على البحر اسمها «صور» الميناء، يؤخذ[١٠٨] إليها الماء في قوارب، وهي غنية بالسمك لدرجة أنه فيها أكثر من الرمال.

(١٨) «مدن منوعة»: سأحدِّثك عن بؤس آخَر عبر «سرام»، وإنك ستقول: «إنه يحرق أكثر من لدغة.»[١٠٩] وإن حال «الماهر» سيئ جدًّا.

تعال وضعني على الطريق المؤدية إلى الجهة الجنوبية لإقليم «عكا»، وأين الطريق إلى «اكساف»؟ بجانب أي مدينة هو؟

أرجو أن تعلِّمني شيئًا عن جبل «وسر»، وما شكل قمته؟ وأين جبل «سشم»؟ ومَن الذي سيأخذ ...؟ و«الماهر» أين يعمل السياحة إلى «هازور»؟ وما شكل نهرها؟

أرشدني الطريق إلى «حماة»، وإلى «دجر» وإلى «دجر إل» ميدان لعب كل «ماهر».

أرجو أن تعلمني شيئًا عن طريقه، وأَرِني «يان»، وإذا كان إنسان مسافرًا إلى «إدمم» فأين يُولِّي وجهه؟

فلا تولِّ ظهرك عن تعليمنا (؟)، وأرشدنا إلى معرفتها (أي كل ما ذكرت من الأماكن).

(١٩) «المدن الأخرى»: تعال ودعني أحدِّثك عن مدن أخرى واقعة فوقها (؟) (أي التي ذكرت)، ألم تذهب إلى أرض «تخسي»[١١٠] و«كفر مررن» و«تمنت» و«قادش» و«دبر» و«آزي» و«حارنمي»؟ ألم تَرَ «كراجات أناب» و«بيت صوفر»؟ ألم تعرف «إدرن» و«زربت» أيضًا؟ ألم تعرف اسم «خلز» التي في أرض «وبي»، كالثور على تخومها، وهي ميدان مواقع كل المحاربين؟[١١١]

أرجو أن تعلِّمني شيئًا عن هيئة (؟) «كين»، وتعرفنى ما «رهب». فَسِّرْ لي «بيت-شائيل»، «كراجات-ئيل» (؟)، نهر الأردن كيف يُعبر؟ وأرني كيف يمر الإنسان إلى «مجدو» الواقعة في أعلاه.[١١٢] إنك «ماهر» حاذق في ضروب الشجاعة العظيمة! و«ماهر» مثلك عنده من الصفات (؟) ما يجعله يسير (؟) على رأس الجموع! إلى الأمام يا «مرين»[١١٣] لتصطاد! انظر، يوجد (؟) الـ ... في وادٍ عمقه ألفا ذراع مملوء بالحصى والمرو، إنك تلف (؟) وإنك تقبض على القوس، وإنك ... على شمالك، وتدع الرؤساء[١١٤] يرون كل لذيذ لأعينهم حتى تكل يدك: أبات كمو آرى ماهر نام[١١٥] (إنك تقتل كالأسد، يأيها الماهر اللطيف.) إنك اكتسبت اسم ... «ماهر» (بين) ضبَّاط مصر، وكذلك أصبح اسمك مثل اسم «كازردي» رئيس «إيسر»[١١٦] حينما وجده الضبع في شجرة القار. انظر، إن هناك (؟) مضيقًا قد حفَّه بالمخاطر البدو الذين يكمنون تحت الأشجار، بعضهم يبلغ أربع أذرع أو خمسًا من الأنف إلى أخمص القدم، وجوههم متوحشة، وقلوبهم غليظة، ولا يصغون إلى الملاطفة.

والآن إنك وحيد ولا مساعِد لك ولا جيش خلفك، ولا تجد دليلًا (؟) يهديك إلى الطريق لتعبر، وإنك تصر (؟) على السير إلى الأمام، مع أنك لا تعرف الطريق، فالرعدة تستولي عليك، وشعر رأسك يقف، روحك توضع في يدك،[١١٧] وطريقك مملوءة بالحصى والمرو، وليس هناك مسلك معبَّد للسير؛ لأنه قد كُسِي بـ ... الشوك ونبات «نه» ونبات حافر الذئب.[١١٨] والوادي على أحد جانبيك، والجبل يشرف على الجانب الآخَر، وإنك تسير قدمًا وتقود (؟) عربتك بجانبك، وتخاف أن ... جوادك، وإذا كبا الجواد فإن يدك[١١٩] تسقط وتترك خالية (؟) و... جلد يسقط، وتنزع سرج الجواد لتصلح اليد التي في وسط (؟) الممر الضيق، وإنك لست بماهر في طريقة ربطها، ولا تعرف كيف تربطها سويًّا (؟) والـ ... تسقط من مكانها، وقد كان الجواد مثقلًا جدًّا لتضيفها إلى حمله، وإنك لسقيم القلب، وقد بدأت تجد السير على القدم والسماء صافية[١٢٠] (حارة)، ويُخَيَّل إليك أن العدو وراءك، وحينئذٍ تأخذك الردة. آه، ليت لك حجرًا ... حتى يمكنك أن تضعه على

الآخَر! والجواد قد أعياه النصب إلى أن تجد مأوى لليل، عندئذٍ تعرف طعم الألم، وعندما تدخل «يافا» تجد المراعي نامية خضراء في أوانها،[١٢١] وتشق لنفسك طريقًا في ...[١٢٢] وتجد العذراء الرشيقة التي تحرس الكروم، فتأخذك لنفسها صاحبًا تعطيك لون صدرها،[١٢٣] إلا أنك قد عرفت واعترفت![١٢٤] وقد وضع «الماهر» تحت التجربة، فتبيع جلبابك المصنوع من كتان مصر العليا الجيد ...[١٢٥] وتنام كل مساء، وليس لك لباس إلا خرقة (؟) من الصوف، ولا حراك بك و... قوسك ... مدية، وجعبة سهامك قد سُرِقت، وعِنانك قد قُطِع في الظلام.

وجوادك قد ذهب و... على الأرض التي تزلُّ القدم عليها، والطريق تمتد أمامك، وتحطم عربتك ... وأسلحتك تسقط على الأرض وتُدفَن في الرمل ...

إنك تتكفَّف: «أعطِ طعامًا (؟) وماءً لأني وصلت سالمًا.» إلا أنهم يعطونك أذنًا صمَّاء، ولا يسمعون ولا يعبئون بقصصك.

ثم إنك تقصد دكَّان الحدَّاد والمصنع يلتفُّ حولك، والحدَّادون والأساكفة[١٢٦] كلهم محيطون بك، ويفعلون كل ما تريد، ويعتنون بعربتك فتكف عن التراخي،[١٢٧] ك ... قطعت تمامًا (؟) ... وضعت في مكانها، ويضعون جلدًا ... على يدك (جزء من العربة) ويصلحون نير العربة، ويصلحون ... التي نقشت ... ويعطون ... سوطك ويضعون له سيورًا (؟)، ثم تنطلق مسرعًا لتحارب في ميدان الواقعة لتقوم بجليل الأعمال الدالة على الشجاعة.[١٢٨]

(٢٠) «محاط الحدود ونهاية الموضوع»: أيها السيد الطيب، والكاتب المختار، و«الماهر» الذي يعرف يده،[١٢٩] وقائد «النعريين»، ورئيس «الزابا»[١٣٠] (الجيش)، لقد وصفت لك الممالك الأجنبية إلى أقصى أرض كنعان، ولم تُجِبْني لا بالحسن ولا بالقبيح، ولم ترسل إليَّ أي تقرير. تعالَ إذن حتى أحدِّثك بأكثر مما سبق إلى غاية (؟) حصن «ممرات» «حور».[١٣١]

وسأبدؤك ببيت «سسي» (رعمسيس الثاني) ألم يطأها قدمك قطُّ؟ ألم تأكل سمك ماء ...؟ ألم تستحِمَّ فيها؟ تعالَ دعني أذكِّرك «بهزن»، أين قلعتها؟ تعال دعني أحدثك عن إقليم (بوتو) رعمسيس، وعن «بيت-انتصارات» أو سما رع (رعمسيس الثاني)، وعن «أسب إيل»، وعن «ابسكب». وسأحدثك عن حال «أنين»، ألا تعرف قانونها (؟)؟[١٣٢] ثم «نخسي» و«خبرت»، ألم ترهما منذ ولادتك؟ يا «ماهر» أين هما، و«رفح»[١٣٣] فما شكل جدارها؟ وكم ميلًا تبعد عنها «غزَّة»؟ أجِبْ بسرعة.

قدِّمْ لي تقريرًا حتى يمكنني أن أطلق عليك اسم «ماهر»، ويمكنني أن أفخر باسمك للآخرين، سأقول لهم عنك إنك «مارين».

وإنك غضبان الآن مما أقوله لك، إني ... قلبك في كل الحرف، وقد علَّمَني والدي ما عرفه، وعلَّمني مرات يخطئها العدُّ، وإني أعرف كيف أقبض على العِنان أحسن بكثير مما تعرف، ولا يوجد شجاع يمكنه أن يتفوَّق عليَّ، وإني حاذق في خدمة «مونتو».[١٣٤]

إن كل ما جاء على لسانك مضر جدًّا و... ألفاظك جدًّا، وإنك وأنت تأتي إليَّ منغمسًا في الارتباك ومحمَّلًا بأغلاطها، وإنك تقسم الكلمات كالإنسان الذي يندفع غير مبالٍ، ولا تمل من ...

كُنْ قويًّا! وإلى الأمام! أسرع! هلَّا تنزل من عليائك؟ وما معنى أن الإنسان لا يعرف ما قد وصل إليه؟ ... إني أتقهقر (؟) انظر، إني قد وصلت (؟) «أنحن»، وإذا كان قلبك مثقلًا فإنه هكذا قد ركب، لا تغضبن! ...[١٣٥]

... لقد قطعت من أجلك آخِر رسالتك وأجبتك عمَّا قلته، وكل أحاديثك كانت مجموعة على لساني، وبقيت على شفتي، وإنها لمرتبكة حينما تُسمَع ولا يقدر شخص غير متعلم أن يفهمها، وهي كحديث رجل من الدلتا مع آخَر من «الفنتين».[١٣٦] حقًّا إنك كاتب البابين العظيمين (القصر)، ذلكم الرجل الذي يكتب التقارير عن كل حاجات البلاد للملك، وإنها لجيدة حسنة لمَن

يراها.[١٣٧] لا تقولنَّ: «إنك جعلت اسمي نتنًا أمام الآخرين وأمام الكل.» انظر لقد أخبرتك كيف يكون الإنسان «ماهرًا»، وقد اخترقت من أجلك أرض «رتنو» (فلسطين)، ووضعت أمامك كل البلاد الأجنبية جمعاء، والمدن على حسب ترتيبها (؟).

أحن نفسك أمامنا (اخضع)، وانظر إليها (البلاد) بهدوء؛ حتى يمكن أن تصبح قادرًا على وصفها (في المستقبل)، وحتى يمكن أن نَعُدَّكَ … ناصحًا.[١٣٨]

---

[١] Pap. Bibl. Nat. 198, 2 Spiegilberg Correspondences du Temps des Rois pretres P. 68–74.

[٢] محفوظة بأكملها في ورقة «أنستاسي» في لندن، وقطعة في ورقة تورينو وقطع متفرقة على ثمان قطع من الخزف، وأول من بحث في موضوعها هو شاباس سنة ١٨٦٦، وقد عرف موضوعها إرمان سنة ١٨٨٥، ثم كتب عنها الأستاذ «جاردنر» كما سيأتي بعدُ.

[٣] الكتابة والكتب المقدسة.

[٤] إلهة الكتابة.

[٥] لتعلمه.

[٦] في الكتب جمل غامضة، وقد أبدى الكتاب في كل مكان رغبتهم في فهمها، كما التمسوا هذه الرغبة عند إلههم «تحوت».

اختصارات أسماء بعض الكتب

A. Z. = "Zeitschrift für Agyptische Sprache."

J. E. A. = "The journal of Egyptain Archeology."

K. P. = "Kahun Papyri." (Griffith).

L. E. M. = "Late Egyptain Miscellany." (Gardiner).

L. R. L. = "Late Rameside letters." (Cerny).